بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ سلسلة
تاريخ العقيدة
للشيخ سفر الحوالي

الجزء الأول:

الجزء الثاني:

الجزء الأول

تحدث الشيخ في الثلاث الحلقات الأولى بإجمال عن مسيرة التاريخ البشري، ونشأة الكون والحضارة من خلال المناهج الثلاثة:

- الوحي المحفوظ المعصوم
- الوحي المختلط المحرف
- المنهج اللاديني على اختلاف مدارسه واتجاهاته.

مقارنا بين تلك المناهج من حيث الآماد والأبعاد التاريخية لمراحل البشرية الطويلة مهتما بالعلاقة بين الدين والتاريخ، وأهم ما نتج عن ذلك.

ومبينا كيف يمكن للعاقل المتجرد أن يجمع الحق مما جاء في الوحي المحرف وفي الاكتشافات التاريخية -العلمية اللادينية- ؛ على أساس من الوحي المعصوم الذي يؤيده العقل الصريح والتجربة العلمية الصحيحة. ومن آتاه الله (الوحي) فإنه ينظر للتاريخ من خلاله ويسد الفجوات التاريخية بما هو حق، وموافق للفطرة ويتمشّى مع سنن الحياة والتاريخ، في عالم يكاد يؤمن بالأساطير ويقترب منها أكثر من غيرها ويسد الفراغ بها.

بعد ذلك –الثلاث الحلقات الأولى المجملة- يتحدث عن التاريخ مع عرض أوسع للإشكالات وبيان أوفى للحقائق.

بدأ بقضية التاريخ وما قبل التاريخ باعتبارها أحد أهم قضايا الفكر البشري المؤثرة فيه بشكل كبير، وتتعلق بها نظريات عدة، كما ناقش نظرية التطور -بشقيها العضوي والمعرفي-، مبينا ضآلة المعرفة البشرية وهشاشتها إذا هي تجردت عن الوحي ومعرفته.

ثم تناول موضوع نشأة الحضارة.. هل وجدت مع الإنسان!؟ أو كانت بعده؟ مقارنا بين المناهج الثلاثة: الوحي المعصوم، والوحي المحرف، والمنهج اللاديني. كما حقق قضية أصل الحضارة ومصدرها، هل هي جزيرة العرب أم وسط آسيا أو أوروبا!!؟.

مبينا "مصدر المعرفة" الحقيقي (الوحي المعصوم) من خلال معالم كثيرة وشواهد تاريخية وحضارية، وموضحا منهج المعرفة الصحيح من خلال القضايا التاريخية الإنسانية الكبرى كحادثة الطوفان والتقويم وحساب الزمن والعمالقة.

محاولا بذلك الوصول إلى الحقيقة.. حيث نجد أنه ليس في الكتاب ولا في السنة ما يخالف الحق على الإطلاق! بل ما جاء في الكتاب وثبت في السنة الصحيحة هو حق مطلق، مهما تطورت العلوم فإنها تخدمه وتؤكده.

الحلقة الأولى: البحث عن الحقيقة

العناصر:

1.مقدمات:

-تطلع البشرية الدائم للمعرفة.

-القضية الكبرى ومشكلة الإنسان والحضارة المعاصرة.

-بداية المشكلات "النقد التاريخي للكتب المقدسة" وأثر ذلك.

-القرآن الوحي الصادق.

2.إشكالية نشأة الكون والخليقة ثم الحضارة:

-منشأ الإشكالية

-أصول المشكلة:

-مركزية أوربا وعنصريتها.

-الجهل: الاكتشافات الحضارية. الأحقاب الجيولوجية.

- توضيح وتنبيه.

3.بين العرب والغرب.

4.خاتمة.

5.الفوائد.

الفطرة البشرية في البحث عن الحقيقة

الحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

أيها الإخوة والأخوات! فإن الله تبارك وتعالى لما خلق الإنسان كرّمه، وأعطاه من المواهب والعلم ومن إمكانية الوصول إلى الحقيقة ما فضله به على كثير ممن خلق تبارك وتعالى.

فأعطاه إمكانية أن يعرف الحقيقة، وأن يبحث عنها، وأن يهتدي إليها: ((أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى))[طه:50].

1. تميز الإنسان بالتطلع الدائم للمعرفة

لذلك نجد أن أعظم ما يميز الإنسان عن الحيوان هو حب المعرفة الدائم الذي يدعوه إلى أن يتعرف ويسأل ويبحث، فمهما نال من العلم فهو منهوم لا يشبع من أجل معرفة الحقيقة، ولا سيما في القضايا الخطيرة المهمة. على سبيل المثال: من الأشياء التي تشد ذهن الإنسان وتستدعي عقله وتفكيره في كل العصور وفي كل البلدان وأياً كان مستواه العلمي أو الثقافي قضية هذا الكون! كيف نشأ؟! وكيف وجد؟! ومن خلقه؟! وهذا الجنس البشري نفسه! متى وجد؟! وكيف نشأ؟! ثم الحضارة البشرية التي هي بالمفاهيم الحديثة كيف نشأت؟! وهذه القضايا الثلاث هي من أهم القضايا التي درج الفكر التاريخي طوال العصور على بحثها ومناقشتها.

1. إرسال الله رسله لتعليم الناس طريق المعرفة اليقيني

والله تبارك وتعالى أنزل الكتب، وأرسل الرسل، فعلموا الناس طريق المعرفة اليقيني القطعي الذي هو الوحي؛ ليعرفوا هذه الحقائق، وهذه النتائج.

لكن في عصور كثيرة إما أن تحرَّف الكتب, وإما أن يندرس العلم, وإما أن يكفر بها الناس فلا يؤمنون، فتأتي مصادر أخرى للمعرفة عن هذه القضايا وغيرها؛ فتأتي الخرافات والأساطير، ويأتي الوحي الذي يوحيه الشياطين, وأقوال الكهان, وما يتوارثه الناس عن الآباء والأجداد، وتمتزج جميعاً، فتعكر صفاء ونقاء مصدر المعرفة البشري، وبذلك اختلف الناس اختلافاً عظيماً جداً، ((وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ))[هود:118].

1. أخطر القضايا الفكرية التي تواجه الإنسان في البحث عن الحقيقة وسبب انتشارها

وقضايا الخلاف الفكري -أيها الإخوة- قضايا كثيرة وكبيرة جداً، لا يمكن أن تدخل تحت الحصر؛ لكن أخطر هذه القضايا هي القضايا التي تتعلق بالدين وبالثوابت، والتي تتعلق بالقيم التي هي من الفطرة البشرية, والتي تعلم بصريح العقل, والتي لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا وقد آمن بها، وإذا تعكرت أو تلوثت فإن الإنسان يضل ويتيه، كما هو واقع ومشاهد في الحضارة الغربية المعاصرة, كما عبر وزير

الثقافة الفرنسي، فقال: هي أول حضارة في التاريخ بلا معنى, أي: لا تعرف معنى وجودها. ولعل هذا الموضوع إن شاء الله نفيض فيه في لقاءات أخرى. المقصود:

1. بداية المشكلات التي غيرت النظرة إلى الدين وتسببت في ضياع الحقيقة لدى البعض

إن بداية المشكلات التي أقضت مضاجع رجال الدين, وغيَّرت النظرة إلى الدين ومصدره, وإلى الكتب الدينية كمرجعية هي: قضية النقد التاريخي للكتب المقدسة. وهذه القضية مع تطور الزمن تزداد وضوحاً، وتزداد إشكالاً، حتى إن القضية طالت زمناً، وأخذت أبعاداً كثيرة، إلى أن أصبح مجرد ذكر الدين فيها مما يثير السخرية، ويبعث على الاشمئزاز في كثير من الدوائر المعرفية والعلمية، ويبعث على القلق في داخل النفوس؛ لأنه ينافي الفطرة التي فطر الله تبارك وتعالى الخلق عليها. فهي مشكلة عويصة جداً، بمعنى: هل يؤمن المؤمن في الغرب -وفي غيره- بما في هذه الكتب من حقائق يرى الآن أنها ليست على الإطلاق مطابقة للواقع؟! هل يؤمن بهذا أو بهذا؟! فحصل هذا الاضطراب وهذا الإشكال الذي نرجو أن نحلّه على مدى حلقات أو لقاءات أو ما أمكن بإذن الله تبارك وتعالى، مستعينين باليقين والقطع, واليقين يأتي من الوحي الصادق المعصوم؛ الذي يؤيده العقل الصريح الصادق، والبحث والتجربة العلمية الصادقة.

1. مثال تقريبي للتفريق بين الكتب المحرفة والقرآن المحفوظ في تبيين الحقائق

أحب أن أوضح بمثال بين يدي هذا الموضوع:

الأديان والصراع بين أهلها قديم، فلو افترضنا أن طرفين تشاجرا في قضية من القضايا, ثم مات جميع أطراف هذه القضية، ثم بعد فترة قوي من يؤيد أحد الطرفين على الآخر قوة كبيرة جداً إلى حد أنه استأجر المحامين والباحثين والنقابين، ونقبوا فوجدوا من الوثائق والمعلومات شيئاً هائلاً جداً عن القضية؛ حتى أن طرفي القضية الذين كانوا أحياء ما كانوا يعلمون عن وجودها، ثم بعد ذلك نجد الغرابة والطرافة في هذا الموضوع: أن مجموعة الباحثين والمحامين شهدوا للطرف الآخر الذي مقابل هذا؛ أي: لم يشهدوا للذي دفع الثمن واستأجر المحامين وتكلف كل هذه الأعباء والمشقات؛ بل كل الوثائق في نهاية الأمر تثبت صحة الطرف الآخر!

هذا ببساطة هو موقف الكتب وموقف العلم, وبالذات إذا قارنَّا بين ما وقع في التوراة المحرفة، وبين كتاب الله تبارك وتعالى المحفوظ المعصوم، كما سوف نرى من حقائق جلية واضحة.

1. دلالة الكشوفات الغربية على صدق الحقائق القرآنية وتكفل الله بإظهارها للمكذبين

فنحن نجد أن الغرب هو الذي نقب, وهو الذي بحث، وهو الذي درس الحضارات, وهو الذي بحث في الكون وفي الآفاق، فكل هذا -وهو دلائل وبراهين قطعية- يثبت الآن أن هذا القرآن حق، وأنه من عند الله تبارك وتعالى.

ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري و مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: (ما من نبي من الأنبياء بعثه الله تبارك وتعالى قبلي إلا أوتي بما يؤمن الناس على مثله, وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة).

ولما استعرض الحافظ ابن حجر رحمه الله الأقوال في هذا، ذكر أن أكثرها ملاءمة وترجيحاً لموضوعنا؛ هو: إخبار القرآن بالمغيبات، فلا يمر عصر من العصور إلا وظهر فيه شيء مما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، مما يدل على صحته, وأنه حق من عند الله تبارك وتعالى.

بمعنى آخر: أن لدينا نوعاً فذاً فريداً من الدلائل والبراهين القرآنية -التي يسميها علماء الكلام: معجزات- فيوجد نوع من الإعجاز، ونوع من الطرْح, ونوع من التوثيق والحقائق الساطعة النيرة؛ وهو أن الزمن كلما تقدم، وكلما كشفت العلوم شيئاً جديداً لم يكن يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه من حقائق واقعية مشاهدة ملموسة؛ فإنها بذلك تدل على أن الذي أنزل هذا القرآن هو الله تبارك وتعالى، وهو العليم بكل شيء, وهو القادر على كل شيء, وهو الذي يدبر الكون؛ فجعل تدبيره كما قدر، ((لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ))[الرعد:41], ولا راد لقضائه؛ فهذه حقائق يقينية تؤكد عظمة هذا الخالق سبحانه وتعالى, وصدْق النبي صلى الله عليه وسلم، وأن على البشرية جميعاً أن تهتدي بهذا الهدى, وبهذا النور الذي أنزله الله عز وجل عليها.

ونحن لا نستطيع أن نفصِّل في هذا الأمر كثيراً؛ لكن لو ضربنا بعض الأمثلة على ذلك: فمثلاً: عندما يُوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وفي أول الوحي يعلم أنه ((نَذِيرًا لِلْبَشَرِ))[المدثر:36], وهذا في أوائل ما أنزل عليه.

وعندما يعده الله تبارك وتعالى ((لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ))[التوبة:33].

وعندما يعده بأنه ((وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ))[النور:55], إلى آخر الآية.

وعندما نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول لقريش: ((وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ))[ص:88].

وعندما نجد أنه يقول: ((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ))[فصلت:53].

ومثل ذلك: ((فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ))[الدخان:59], ((وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ))[السجدة:30], فأشياء كثيرة جداً تدل على أنه يا محمد! أنت مهمتك أن تؤدي الرسالة, ونحن سوف نتولى إيضاح وكشف هذه الحقائق، وهذا اليقين.

والعجيب -كما قلنا- أن هذا اليقين يكشفه أولئك، ويبذلون الجهود من أجل كشفه، وصدق الله: ((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ))[فصلت:53] وهذا الخطاب لهم هم, فالحديث عنهم ((حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ))[فصلت:53].

1. نشأة الكون والخليقة البشرية واكتشاف الحضارات

2.

1. حل القرآن إشكالية الأخطاء التاريخية في الكتاب المقدس ومشاركة علماء المسلمين في ذلك

2. نرجع بعد هذه المقدمات البسيطة إلى صميم الموضوع, وهو موضوع متى نشأت هذه الخليقة البشرية, وكيف أدى ذلك إلى إشكالية فكرية خطيرة جداً أدت إلى انفصام هائل بين العلم وبين الدين في أوروبا ، وكيف أن هذا القرآن الحكيم في بضع آيات قد لا يأبه لها كثير من الناس حلَّ هذا الإشكال بأبسط صورة, وأزال الإشكال ولله الحمد.

على سبيل المثال: في التاريخ الأوروبي الحديث في مطلع عصر التنوير -كما يسمونه في أوروبا القرن الثامن عشر- نشأت معارك فكرية حول قضية القيمة التاريخية للتوراة , وحقيقة أن أول من دعا إلى هذا وبشكل واضح وتبناه هو مجموعة من العلماء المتأثرين بالمسلمين في الأندلس ؛ الذين هاجروا بعد الاضطهاد الكاثوليكي للعلماء اليهود الأندلس وغيرهم إلى أوروبا الغربية.

منهم على سبيل المثال المفكر المشهور سبينوزا الذي هاجر إلى هولندا وغيره من هؤلاء, قرءوا كلام ابن حزم رحمه الله؛ بل بعضهم يقول بصريح العبارة: إن ابن حزم هو أول من نبه إلى قضية الأخطاء التاريخية في الكتاب المقدس.

المقصود: أن هناك تأثيراً من المسلمين في تصحيح هذه النظرة, وإقلاق الكنيسة ورجال الدين حول

مدى حجية ومصداقية الكتاب المقدس، أعقب ذلك مشكلة فكرية هائلة جداً كما سوف نرى.

1. منشأ إشكالية أخطاء الكتاب المقدس في تحديد نشأة الخلق

3. لنأتي إلى صميم الموضوع مباشرة.. ما هي المشكلة؟

المشكلة أنه وفقاً لما تحدده التوراة فإننا نجد أن هناك تحديداً قاطعاً لتاريخ خلق الله تبارك وتعالى آدم, ومتى حدث الطوفان, ومتى ولد نوح ومتى توفي, ومتى ولد إبراهيم.. إلى آخره, تحديداً قاطعاً في هذه القضايا.

وذلك أنهم حسب ما رأت الكنيسة -وهو المشهور في ذلك- وما كتبه الأسقف آشر ، وكان يُكتب على هوامش نسخ من الكتاب المقدس: هو أن الكون خلق عام 4004 قبل الميلاد! الكون كله، وبالذات آدم عليه السلام؛ لأنها كلها في أيام متلاحقة, وهذا يعني: أنه قبل ميلاد المسيح عليه السلام بحوالي 4000 سنة خُلق كل شيء.

فالذي أدى إلى الشك في هذا هو أنه إذا كان هذا حدث فعلاً؛ فلماذا عندما نقرأ التاريخ اللاديني -التاريخ الآخر الذي كتبه العلماء والمؤرخون- نجد فرقاً هائلاً كبيراً جداً بينهما؟

الحل كان في أول الأمر سهل، وهو أن يقال: إن التاريخ الديني هو الحق، ولا يتصور الإشكال, ولا يتصور خلاف! لأن ما قاله الله هو الحق, وما في التوراة هو الحق, وما سواه كله باطل، وقد دافعت الكنسية فترة عن هذه القضية بهذا الدفاع.

لكن بعد فترة تبين أن الأمر مقلق؛ فهناك اكتشافات, وحقائق ظهرت أكثر فأكثر تدل على أن هناك آماداً وأحقاباً وقروناً كثيرة بين هذا وهذا! وأن هذا التاريخ وهذا التحديد لا يمكن أبداً أن يكون حقيقة على الإطلاق.

لعل هنا طرفة -وهي حقيقة ولكنها طريفة جداً- حدثت في القرن العشرين!

عندما كان الرئيس كلينتون حاكماً لولاية أركنسو -وهي من ولايات حزام الإنجيل في أمريكا- كان هناك معركة بينه وبين المنافس له، والمعركة هذه حول: هل نقرر في هذه الولاية نظرية التطور أي: نظرية الخلق, أو نقرر ما في التوراة من أن الخلق خُلق في هذا التاريخ المحدد؟ وهذا يدل على أنها قضية لم تمت, وأنها قضية حية فاعلة، وفي الكتاب الذي كُتب عن حياة كلينتون فيه تفصيل لهذه القضية، وكيف أن زوجته وقفت معه، ووقف اتحاد الحقوقيين الأمريكيين معه، ووقف بعض القضاة

معه، حتى تأيد الحكم بألا تدرس هذه النظرية وفق التوراة وإنما تدرس وفق العلم؛ فهي قضية مشهورة جداً في الفكر الغربي، ولا تزال موجودة في أمريكا بالذات؛ لكن ربما في أوروبا اندثرت.

على سبيل المثال: عندما تحدد التوراة فتقول:

في العام الأول أي: عام 4004 قبل الميلاد خلق آدم.

وفي عام 129 كثر الناس وظهر فيهم الفساد.

وفي عام 1656 حدث الطوفان.

وفي عام 1757 بدأ تشييد برج بابل.

وفي عام 2083 بدأت دعوة إبراهيم.

هل هو من تاريخ إبراهيم عليه السلام؟!

ثم بعد ذلك بـ 430 سنة أنزلت التوراة على موسى عليه السلام, يعني: كان إرسال موسى عليه السلام.

هذه محددة بدقة، ومن ضمنها جداول التوراة التي بين أيدينا.

وهنا للإنصاف لا بد أن يقال: إن هناك اختلافاً كبيراً بين نسخ التوراة ؛ فالحقيقة أن التوراة مختلفة النسخ في هذا، وهذا يفتح باباً للحل ولكن يفتح باباً للإشكالية!

فلدينا جدول مثلاً يوضح لنا أن هناك ثلاث نسخ من التوراة ؛ فلدينا النسخة العبرية، ولدينا النسخة السامرية، ولدينا النسخة اليونانية، وبهذا نجد أن في النسخة العبرية بين خلق آدم عليه السلام وبين نوح ألفاً وستمائة وستة وخمسين سنة؛ لكن في النسخة السامرية نجد أن الفرق هو ألف وثلاثمائة وسبع سنين، وفي النسخة اليونانية نجد أن الفرق ألفان ومائتان واثنتان وستون سنة.

1. حلول المؤرخين ورجال الدين الغربيين لامتداد سنين النشأة في الكتاب المقدس

4. عندما اطلع الغربيون المؤرخون والعلماء من رجال الدين وغيرهم على التاريخ الحديث للعالم -التاريخ المصري القديم, وتواريخ الصين , وتواريخ الهند وبعض التواريخ العربية أيضاً- وجدوا أن هناك مشكلة؛ وهي أن هذا التاريخ يمتد آلافاً من السنين وبعضها يمتد -كما سوف نعرض إن شاء الله في لقاء قادم- إلى ملايين السنين! فكيف يكون الحل؟!

البعض جاء ببعض الحلول؛ وهي أن نقول: إن ترتيب الأسر الملكية في مصر -أيضاً معمول لها جدول خاص بها- كالثلاثين الأسرة المصرية لم تكن متتابعة, وإنما كانت متجاورة، بحيث إن مجموع سنواتها لا يخرج أبداً عن نطاق (4004) مثلاً.

البعض رأى حلاً آخر؛ قال: نحن نلغي النسخة السامرية والعبرية, ونأخذ باليونانية؛ لأنها تعطينا مدى حوالي ألف وخمسمائة سنة؛ فبذلك نجعلها هي الأرجح ونعتمدها؛ لكن هذا لا يطول؛ بل بعد فترة تكون فروقاً هائلة جداً!

ومن أجمل الطرائف في هذا الباب أن بعضهم قال: إن التوراة ليست خطاباً علمياً دقيقاً، فهم إذا قالوا: عام كذا يحذفون الكسور، ثم يتجمع لنا من الكسور ما يمكن أن يسد الفجوة..

هذه حلول أرادوا أن يؤولوا بها هذا الاختلاف؛ لكن الخرق اتسع على الراقع، وابتعدت القضية جداً, وصارت بالفعل مشكلة عويصة ومشكلة كبيرة في تاريخ الفكر؛ فكان لا بد من أن تحل هذه المشكلة الخطيرة.

1. الإشكاليات التي أدت إلى كثرة الأخطاء التاريخية في الكتاب المقدس

5. إذا أردنا أن نُرجع الأمر إلى أصوله في هذه القضية عندنا إشكاليات كثيرة.

الإشكالية الأولى: بدأت من مركزية أوروبا وعنصريتها, يعني: لا يريد علماء الدين ولا علماء التاريخ وغيرهم أن ينظروا إلى التاريخ الآخر إلا باحتقار، لا يريدون أن يؤمنوا به أو يتطلعوا إليه، مع أن هناك لمحات حقيقة ممن قال لهم: لماذا لا نأخذ من القرآن؟ لماذا لا نأخذ من الإسلام؟ ولكنه رفض رفضاً شديداً.

فهذه الإشكالية جعلتهم يتخيلون أن تاريخ العالم هو تاريخهم، ولا تزال آثار هذه العنصرية إلى اليوم، فمثلاً: إذا قيل: العالم فغالباً في الغرب أن المراد بالعالم هو العالم الغربي، العالم المتحضر، وربما مع الانفتاح والإنترنت والمعلومات الحديثة اتسع مفهوم هذا قليلاً؛ لكن إلى أمد قريب كان العالم عند الغرب هو العالم الغربي، وقولهم: ما يراه العالم, يعني: ما يراه العالم الغربي.. إلى آخره.

الإشكالية الأخرى: الجهل, يعني: جهلهم في الاطلاع على العالم الآخر, ومحاولة النظر في هذا العلم بموضوعية أو النظر بما لديهم بموضوعية، هذا الأمر جعل الصراع داخل أوروبا يحتدم دون أن يحاولوا أن يستعينوا بمصدر خارجي، أو يتفهموا حول هذا الموضوع؛ ولكن الزمن -كما قلنا- أدى في

النهاية إلى ما يشبه انتصاراً كاسحاً جداً للاتجاه اللاديني على الاتجاه الديني الذي كان يجب أن يكون هو الحق.

1. مساعدة تنقيب المستعمرين في العالم الإسلامي على تعديل نظرتهم في التاريخ الإسلامي والغربي

6. لكي نوضح أهمية وقيمة ما عدل هذه النظرة عند الغربيين، يمكن أن نطلع على أهمية اكتشاف الحضارات الأخرى التي اكتشفها الغرب.

فمثلاً: حضارة سومر و بابل وحضارة مصر؛ فالغرب عندما اكتشفها اكتشف شيئاً مذهلاً جداً.

هذه قصة طريفة جداً كما يقول ويل ديورانت : من أروع القصص في التاريخ, وكذلك يقول: إن اكتشاف حجر الرشيد هو من أعظم الاكتشافات في تاريخ التاريخ.

الغربيون عندما جاءوا إلى العالم الإسلامي في العصر الاستعماري بدءوا ينقبون عن الآثار والحضارات؛ منهم من ينقب ليؤكد ما قالته التوراة وهذا مصرح به في كتبهم, ومنهم من ينقب لأغراض جاسوسية واستخبارية، الجميع كان له لا شك أهداف سياسية, وقد يوجد من له أهداف علمية بالإضافة إلى هذا؛ لكنه جاء ممولاً من حكومته ليخدم هذه الأهداف.

وهنا حدثت المعجزة الكبرى بالنسبة لهم وهي: أنهم اكتشفوا حضارة سومر -كما أسموها- يعني: الحضارة العراقية القديمة في نظرهم, واكتشفوا كذلك الحضارة المصرية القديمة؛ لما اكتشفت هاتان الحضارتان تغيّرت النظرة تغيراً كبيراً جداً هائلا أدى إلى انتصار وجهة النظر الأخرى وإلغائها تماماً؛ لأنه اعتبر هذا من أعظم المنجزات العلمية, ولا يزال حتى يومنا هذا يعتبر من أروع الانتصارات والانجازات العلمية.

فلنقرأ من كلام ويل ديورانت وهو من أشهر المؤرخين لتاريخ الحضارة يقول: لقد كان كشف هذه الحضارة -يعني: حضارة العراق- من أروع القصص الروائية وأكثرها غرابة في علم الآثار، لقد كان الرومان واليونان و اليهود وهم الذين نسميهم القدماء جهلاً منا بالمدى الواسع لأحقاب التاريخ لا يعرفون شيئاً عن سومر, ولعل هيرودوت -المؤرخ اليوناني المشهور- لم يصل إلى علمه شيء عن هؤلاء الأقوام, وإن كان قد وصله شيء منهم فقد أغفله؛ لأن عهدهم كان أبعد إليه من عهده هو إلينا -المسافة هائلة جداً وذكر أنه لم يكن يعرف إلا التاريخ الأسطوري القديم الذي كان لديهم- يقول:

وهكذا بعد تعاون شديد من العلماء- ذكرها أيضاً كتاب: حضارة ما بين النهرين- وبعد محاولات من عدة جهات, ومعظمهم قناصل -القنصل الفرنسي القنصل البريطاني أيضاً- استطاعوا بعد جهود طويلة مضنية أن يكتشفوا الحروف, وكيف يترجمون هذه الحروف التي كانت مكتوبة بالخط المسند القديم.

فعندما اكتشفت هذه الحروف بدءوا يفكون الرموز والألواح، فوجدوا مكتبة طينية فيها ثلاثون ألف لوح، وهذه الألواح كثيرة, وهي منقوشات ومصكوكات، وفي هذه الثلاثين ألف لوح هناك حقائق عن ملوك عجيبة جداً, وآماد بعيدة جداً, وهذه الآماد مدهشة! حيث إن بعض الملوك يقال: إنه حكم إلى عشرين ألف سنة أو إلى ثلاثين ألف سنة، كالملوك العشرة -كما يسمونهم- وربما تترجم بالأجيال أو القرون العشرة؛ أن هناك عشرة قرون وعشرة أجيال حكمت البشرية هذه المدة الطويلة التي يمكن أن العقل لا يكاد يصدق أن تُحكم هذه المدة الطويلة, ويسمونها بـ (عصر ما قبل الطوفان)؛ فكأن قبل الطوفان وجدت هذه القرون العشرة -كما يقولون- فبدءوا ينقبون بلهف شديد، ونهم شديد -ولا يزالون إلى اليوم- للحصول على أي شيء يدل على حقيقة هذا التاريخ، وكيف أنه متوغل في القدم؟!

وما هي الحقيقة في هذا الموضوع بالضبط؟ أين الحقيقة؟! هل التاريخ الأسطوري حق أو غير حق؟!

هنا تاهت الأفكار وتاهت النظريات في هذا الباب؛ لكن كما يقول ديورانت: لقد تعاون العلماء من مختلف الأمم على كشف السر الغامض من تلك القصة العجيبة التي لا آخر لها, وأخذوا يتعقبون الحقائب التاريخية بلا ملل؛ تعقب الشرطة السرية للصوص المجرمين.

وبعد ذلك طبعاً القضية بأكملها لم تخرج في النهاية بعد اكتشاف حضارة العراق وبعد اكتشاف أيضاً حجر الرشيد في مصر على يد شامبليون ، والحجر هو عبارة عن أثر كبير القيمة, وجد منقوشاً بعدة لغات، أمكن من خلال الحروف اليونانية اكتشاف الكتابة المصرية القديمة، وبذلك فُكَّت الحروف أيضاً في مصر، وقرئت حضارة مصر وتاريخها القديم، وإذا به موغل بآلاف السنين في القدم!

فهنا أصبحت هذه القضية عند الغربيين حقائق مدهشة ومفاجئة, وأصبح العالم الغربي يفتخر دائماً بهذا، ولا يزال حتى اليوم ينقب ويبحث ويجتهد لكي يعرف حقيقة هذا العالم القديم، ولم يعد أحد -تقريباً- يصدق رواية التوراة عن خلق الإنسان, رغم الدفاع الكبير الذي تبديه بعض الكتب مثل: دائرة المعارف الكتابية التي تدافع دفاعاً حاراً، ومجموعة علماء كبار في الغرب والشرق يدافعون عن رواية

التوراة بدفاعات كبيرة جداً؛ إلا أن هذا الدفاع باهت لا قيمة له أمام انتشار هذه الحقائق الكبيرة والمدهشة جداً التي كُشفت, والتي لم يعد هناك أحد يستطيع أن يماري فيها، إضافة إلى الأحقاب الجيولوجية.

نحن -مثلاً- نشاهد مقرر علم الجيولوجيا أو علم الأرض -في مدارسنا الثانوية في المملكة وغيرها- نجد هذا العلم بدون أي شك يتكلم أن عمر الكون وعمر الأرض يُعدُّ بالمليارات، وبالتالي فإن ظهور الإنسان قديم جداً! وأن هناك أحقاباً جيولوجية متوالية، وأن بعض هذه الأحقاب يمتد عشرات وملايين السنين حتى نصل إلى العصر الذي نحن نعيش فيه الآن.

1. التحديد التقريبي في علم الجيولوجيا لبداية وجود الإنسان والحضارة الإنسانية

7. هناك معلم مهم جداً في علم الجيولوجيا يحدد لنا تحديداً تقريبياً متى وجدت الحضارة الإنسانية, ومتى وجد الإنسان بشكله الحالي -الإنسان العاقل كامل العقل- الذي نستطيع أن نقول: إنه بداية عهد آدم عليه السلام، أقرب مثال لهذا هو: العصر الجليدي؛ أن يكون الإنسان وجد وظهر على هذه الأرض في نهاية العصر الجليدي.

بمعنى: أن العلم الحديث هو ظني, كل بحوثه ظنية؛ لكن نستطيع من هذه الفقرة فقط -وسيأتي للموضوع شرح أفضل إن شاء الله وأكثر- نقول: المثال هذا نأخذه الآن هنا نوظفه في هذا السياق وهو: أن انتهاء العصر الجليدي شهد بداية ظهور الحضارة البشرية, وظهور الإنسان العاقل -كما يقولون- كما في وضعه الحالي. ومعنى ذلك: أنه إذا أمكنا تحديد العصر الجليدي بدقة فإنه بإمكاننا أن نعرف الحقيقة.

طبعاً ليس بالدقة التي نطلبها نحن؛ حتى التواريخ الموجودة الآن في مصر و العراق الفروق قد تصل إلى مئات السنين، ونقبل نحن هذا التاريخ وله كلام طويل؛ لكن المقصود تقريباً أن نصل إلى حقيقة في هذا الأمر.

أحدث النظريات الموجودة الآن أن العصر الجليدي -تقريباً- ما بين عشرة آلاف إلى ثمانية آلاف سنة.

نحن سنعتمد هذه النظرية كنظرية تقريبية, وبناء عليها نأتي؛ لأن في القرآن والسنة لم يأت تحديد قطعي، فلا حاجة إلى القطع الكلي، نحن نحتاج فقط أن نعرف هل هناك آماد وأحقاب أطول؟! أم أنها أربعة آلاف سنة قبل الميلاد؟!

ثم بعد ذلك نحتاج أن نعرف كيف يمكن أن تكون آماداً طويلة جداً في الفهم أو في الوعي أو في الشعور الإسلامي، مع أنها في الفكر الغربي كانت مدة وجيزة وقصيرة جداً لا تكاد تذكر.

1. تشخيص القرون الأربعة قبل الميلاد من تاريخ البشرية

8. أيها الإخوة والأخوات! الحقيقة حتى الآن عرضنا عرضاً موجزاً للمشكلة، ولكن لم نأت بالحلول؛ بل بالواقع أننا فتحنا المجال لإشكالات كثيرة جداً، وهذا مقصود, والحقائق سوف نكتشفها رويداً رويداً، ونمهد لذلك ببعض الممهدات.

لا يوجد يقين قاطع في هذه الأمور عند أهل الاكتشافات في الفكر التاريخي اللاديني، وما في التوراة رأينا أنه لا قطع فيها, ويمكن أن نفصل شيئاً من هذا فيما يتعلق بـ التوراة ؛ فمثلاً: كون نوح عليه السلام لم يمت إلا بعد ولادة إبراهيم عليه السلام مشكلة كبيرة جداً.. كيف يكون هذا؟! وغير ذلك من المشكلات التي جاءت؛ لكن نقول: لا يقين هنا ولا يقين هنا.

نأتي بعبارة لأحد العلماء المتمكنين في هذا الباب يقول: بالنسبة للألف الأول قبل الميلاد من الممكن أن يكون هناك معرفة قطعية أو معرفة جيدة فيه, تقريباً من فترة داود وسليمان عليهما السلام إلى المسيح عليه السلام هذا شيء معلوم. الألف الثاني فيه نقاط ثابتة يمكن أن ترتبط بها حقائق, يعني: نستنتج منها حقائق أكثر.

أما الألف الثالث فكل شيء قابل للاحتمال أصبح أقل. أما إذا انتقلنا للقرن الرابع قبل الميلاد فهو لا يكاد يكون لديهم أي شيء في هذا، لا قطعيات ولا معالم ثابتة يقينية لتحديد هذا التاريخ.

فهنا إشكالية أنه ظني, بمعنى: أن نخرج القضية عن قضية القطع, لكن نجد أن طلابنا الآن وأبناءنا ومعلمينا في الكليات والمعاهد في أنحاء العالم الإسلامي؛ يدرسون هذه القضايا على القطع وعلى الجزم، مع أنها لا من ناحية الدين الغربي -ما جاء في التوراة- قطعية، ولا هي قطعية أيضاً حتى من ناحية علم الآثار الذي يعتمدون فيه على المصادر المادية, كالمصكوكات والنقوش والآثار التي وجدوها؛ إذاً: لا قطع في الحقيقة.

1. الموقف من الفكر الأسطوري الناتج عن الأخطاء التاريخية في تحديد نشأة الخلق

9. ثم هناك أمر آخر ننبه إليه؛ وهو أنه إذا كان هذا كذلك فهل البديل هو الفكر الأسطوري؟! يعني: هل نرجع إلى الفكر الأسطوري؟!

عندما نعرض بعض الحقائق عن الفكر الأسطوري من كتاب: بلاد ما بين النهرين الذي ألفه دولابورت ؛ نجد أنه لا يمكن أبداً أن نعوِّل على هذا التاريخ، لا لأنه أسطوري فقط؛ بل أيضاً لما يقدم من معلومات لا تكاد تُصدق، مع أن العالم الآن بدأ يصدق بالأساطير أو بدأ يقترب من الأساطير أكثر من غيرها، أو يسد الفراغ بهذه الأساطير إلا من آتاه الله تعالى الوحي المحفوظ المعصوم، فإنه يسدُّ هذه الفجوات التاريخية الكبيرة بما هو حق, وبما هو قطعي, وبما هو موافق -والحمد لله- للفطرة، ويتمشَّى مع قوانين وسنن التاريخ والحياة.

مثلاً: في صفحة خمس وعشرين يذكر أن العصر الأسطوري الذي اكتشف من خلال المكتبات الطينية الهائلة التي اكتشفت في جنوب العراق ؛ يشتمل هذا على اثنتين وستين مرحلة من مراحل التاريخ؛ تضم مائتين وتسعة وخمسين ألفاً ومائتي سنة، لم يكن فيها ملك واحد -يعني: تبعاً لبعض الروايات- يقول: ثم يأتي عشرة ملوك -الملوك العشرة أو القرون العشرة- فيستغرق ملكهم أربعمائة واثنتين وثلاثين ألف سنة.

من الطريف طبعاً ومن المهم جداً أن نعرف أنك إذا أردت أن تعرف مفاتيح أي حضارة في هذه البلاد فإن عليك أن تتعلم أولاً: اللغة العربية؛ فاللغة العربية تحل لديك مشكلات كثيرة، الأسماء كلها عربية؛ ولكنها تحرف عندما تترجم فينطقون (عا) كأنها (آ) مثلاً، والخاء وما أشبه ذلك من الحروف التي لا توجد في بعض اللغات الأوربية خاصة الفرنسية والانجليزية، المقصود أن المفاتيح هي اللغة العربية القديمة التي يسمونها السامية -وهذه لها حلقات إن شاء الله نخصصها -بإذن الله تبارك وتعالى- لنبين هذا.

إنما المقصود هنا أن أحد الملوك على سبيل المثال حكم أربعة وستين ألفاً وثمانمائة سنة على ضوء ما يقوله التاريخ الأسطوري! يعني: كيف نُصدق هذا؟! ولا يهمنا أن نأخذ بهذا أو ما نأخذ بهذا! لكن المقصود هو أن العلم -الحديث وعلم الآثار - ظن؛ لكنه قريب من الحقيقة، ويتعامل مع حقائق من الموجودات والمشاهدات، ولدينا تاريخ أساطير مع مادة أيضاً غير قابلة بأن تُصدق، وتثير لدينا مشكلة.

1. النظرة لتاريخ النشأة بين العرب والغرب

10. قبل أن نأتي بالقول الفصل من الكتاب والسنة, الشيء الذي يلفت نظر أي باحث تاريخي أن العرب أقرب إلى تصور الحقائق, يعني: حتى الأساطير العربية التي يمكن أن نسميها أساطير, أو حتى

المخالفات العقدية العربية, أو حتى الأخطاء في الاعتقادات أو الأخطاء في المعقولات عند العرب؛ نجد أنها أقل، وأنها أقرب من الشطح الذي كان يشطح به الغربيون.

وهنا ننبه إلى قضية أن أكثر الغربيين -كما ذكر ديورانت وغيره- لا يعرفون من التاريخ إلا عصر اليونان وعصر الرومان، وعلى هذا درجت أكثر الكتب التاريخية الغربية، فعندما يقولون: الحضارة البشرية أو الحضارة الإنسانية فإنهم يتكلمون عن الرومان واليونان فقط، ومعروف لدينا بما يشبه الإجماع أن اليونان الإسكندر الكبير هو الذي شهر أمرهم، فـ الإسكندر الكبير -قبل المسيح عليه السلام بثلاثة قرون وشيء, يعني: ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين تقريباً- كان الفتح الأكبر له, وتوفي في هذه الفترة؛ فهو عهد بسيط جداً، وأقدم من بحث من علماء اليونان القدامى الذين وُجد لدينا شيء من آثارهم لا يتعدون أيضاً القرن السابع قبل الميلاد، هذا عمقهم التاريخي.

ثم أول حاكم روماني حكم وأقام دولة الرومان هو أغسطس كان معاصراً للمسيح عليه السلام, يعني: ولد المسيح عليه السلام في عصره بعد انتحار كليوبترا في مصر .

إذاً: هو تاريخ حديث, ونظرتهم إليه حديثة جداً، وعندما يمتد هذا التاريخ من ستمائة قبل الميلاد أو ثلاثمائة قبل الميلاد ليصبح ثلاثة آلاف أو حوالي أربعة آلاف فهو يعتبر كبيراً جداً، يعتبر إنجازاً هائلاً جداً حققه العلم؛ لكن لا تزال المشكلة لديهم؛ وهي: أن تناقض النسخ التوراتية، وتداخل الأسماء التي ذكرت فيها, وعدم دقتها في تحديد المدة، بالإضافة إلى أن العصور الجيولوجية المتعاقبة والسجلات الجيولوجية والأحافير وما أشبه ذلك؛ زادت مسافات هائلة جداً أنه لا يمكن أن يكون الكون خُلق عام أربعة آلاف قبل الميلاد أو حول ذلك، وإنما ملايين؛ بل مليارات من السنين كما ذكرنا.

نرجع للعرب, نقول: شيء جيد حقيقة أن يعلم أن التفكير لدى العرب أقرب، سواء سبب ذلك هو الوحي -لديهم مصدر من الوحي لم يشوه كثيراً- أو سبب ذلك أن العربي بفطرته بعيد عن التعقيدات المنطقية والحضارية الأخرى، أو أن التفكير العربي تفكير يميل إلى التصديق بالحقائق، ولا يتعمق كثيراً فيما لا يعرف -كلها ميزات على أية حال-.

العرب عندهم شيء بدهي جداً في تاريخهم القديم؛ وهو: أن هناك عرباً قديمة عاربة -العرب البائدة - وهناك العرب المستعربة.

إذا كان الأوربيون يبدأ تاريخهم من الإسكندر , يعني: قبل المسيح عليه السلام بثلاثة قرون؛ فإن العرب يبدءون التاريخ الحديث لهم بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام! فكل العرب التي يقال لها:

المستعربة, أو التي منها كنانة التي اصطفاها الله سبحانه وتعالى من بني إسماعيل، ثم اصطفى من كنانة قريشاً، ثم اصطفى من قريش محمداً صلى الله عليه وسلم، كل هؤلاء ذرية إسماعيل عليه السلام.

وهنا يتطابق ما ذكره الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في شرح كتاب الأنبياء من صحيح البخاري -أحاديث الأنبياء- أن بين المسيح وإبراهيم عليه السلام ألفين سنة, يعني: بين إبراهيم الخليل والمسيح مدة، هذه المدة طولها ألفان سنة، وكذلك تقريباً علم الآثار يؤكد هذا؛ أي: أن المدة بينهما ما بين ألف وثمانمائة إلى ألفين سنة.

المقصود فرق هائل جداً، فلاحظ أن التاريخ الحديث للعرب الحديثة يبدأ من ألفين، بينما التاريخ كله عند الأوربيين يبدأ من ثلاثمائة قبل الميلاد -التاريخان كلاهما-.

وهذا فرق كبير جداً في طريقة التفكير، وفي تناول الموضوعات, وبالتالي نحن المسلمين عندما نتكلم عنها نجد بديهية؛ فإذا تكلم أحد عن عاد وعن ثمود وهي من العرب البائدة فإن ذلك عادي جداً! ولو قال أحد: يمكن أن يكون تاريخها سبعة آلاف سنة أو ثمانية آلاف سنة أو خمسة آلاف سنة؛ فإذن ذلك ممكن, فليس في الأمر غرابة، ولا يثير أي إشكال.

بمعنى آخر: أن الطفل المسلم الذي لم يبلغ حتى المرحلة الابتدائية -وهذا من أيام نزول القرآن إلى الآن- هذا الطفل يقرأ سورة الفجر مثلاً: ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ))[الفجر:6-10].

هنا ترتيب تاريخي وحقائق وعجائب في جزء عم, وقصة أصحاب الفيل، فعندما يعرفها هذا الطفل المسلم أو العامي البدوي من المسلمين، ونحن نعلم أن أكابر العلماء الأفذاذ -كما قرأنا كلام بعضهم- اعتبروا معرفة أن هناك حضارة تمتد إلى ألفين سنة أو أكثر، وعندما اكتشفوا ما في جنوب العراق واكتشفوا حجر الرشيد؛ اعتبروا هذا فتحاً هائلاً جداً، وفخروا به، ولا يزال المتعمقون في هذا العلم في أمريكا و أوروبا يعتبرون من المتخصصين النادرين والعباقرة الكبار، وهناك مؤسسات مثل مؤسسة روكفلر مثلاً تنفق ملايين من الدولارات من أجل الكشف عن هذه الآثار, وإمداد هؤلاء العلماء والباحثين بهذه المبالغ والإمكانيات؛ لأنهم يرون أهمية كشف هذا الأمر.

أقول: نحن حتى الآن لم نأت على النظرة الإسلامية لهذه الأمور, بل نحن فقط نقارن بين النظرة العربية العادية التي يراها البدوي العادي, والتي يراها العربي العادي حتى قبل الإسلام؛ فنجد أن هناك

فرقاً كبيراً في المدى التاريخي.

وعندما نقول ذلك فمعناه:

1. نبذة عن نظريتي تطور الإنسان

الذي يجب أن نتعلمه ونعيه وهو -إن شاء الله تبارك وتعالى- موضع الحلقات واللقاءات القادمة أن نعرف كثيراً من هذه الحقائق، ونبرهن عليها من الكتاب والسنة؛ لتتضح الحقائق شيئاً فشيئاً؛ حتى يتبين لنا الحق في هذا الأمر.

حسبنا في هذه الحلقة أن نكون حاولنا أن نثير المشكلة, وشيئاً من أعماقها ومن أبعادها، ثم في اللقاءات القادمة -بإذن الله تبارك وتعالى- نعرض الحلول, ونعرض إشكالات كثيرة تترتب على هذا؛ فيما يتعلق بنظرية التطور العضوي؛ التي هي نظرية دارون, وفيما يتعلق بنظرية التطور المعرفي؛ التي هي نظرية أوجست كونت في المراحل الثلاثة.

ونعرض أيضاً جوانب أخرى، مثل: ما يتعلق بنشأت الحضارة؛ هل الحضارة نشأت أم أنها ولدت ووجدت مع الإنسان؟ وأيضاً فيما يتعلق بمصدر الحضارة: هل هو جزيرة العرب أو مصر أو وسط آسيا أو أوروبا أو أي مكان؟! وأيضاً فيما يتعلق بظهور الدين كما يقولون: هل حمورابي هو الذي أنشأه! أو أن أخناتون هو من علم الناس التوحيد!

وكثير من القضايا الخطيرة والمهمة جداً تجليتها، نرجو من الله سبحانه تعالى أن نأتي عليها في لقاءات قادمة, ونسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياكم للهدى, ويثبتنا على الصراط المستقيم, إنه سميع مجيب.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة الثانية: الكون والإنسان في القرآن الكريم

العناصر :

1.مقدمة.

2.القرآن العجب ومعالجته نشأة الكون ووجود الخليقة الإنسانية.

3.في القرآن الكريم معلم فاصل بين عهدين.

4.بداية الكون ونشأة الخليقة.

-آدم عليه السلام.

-عشرة قرون على التوحيد

-قرون الانحراف

-إرسال نوح عليه السلام

-قوم عاد وثمود

-فجوة وكيف نسدها؟! (التاريخ اليماني، قوم تبع، ذو القرنين)

-أصحاب الرس

-إبراهيم عليه السلام وقوم لوط

-مدْين

-فرعون

-المعلم الجيولوجي

5.الخاتمة.

تاريخ الأمم في القرآن الكريم

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوب إليه, ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا, من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له, وصلى الله وسلم وبارك على عبده

ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها الإخوة والأخوات! فقد تحدثنا في اللقاء السابق عن التطلع الدائم للبشرية لمعرفة الغيب، والبحث الدائم عن الحقيقة، والشوق الدائم إلى معرفة هذا المجهول, وإلى معالجة القضايا الخفية، وأن هذا نهم لا يشبع، وأخذنا مثالاً ونموذجاً على ذلك؛ وهي القضية الكبرى التي دائماً تفكير البشر فيها: وهي قضية نشأة هذا الكون, ونشأة هذه الخليقة الإنسانية, ثم نشأة هذه الحضارة.

واستعرضنا مشكلة عويصة جداً في هذه القضية, وفي هذا الموضوع, وهي مشكلة النقد التاريخي للكتب المقدسة, الذي ظهر في أوروبا , والذي أثر في الفكر الغربي تأثيراً كبيراً وخطيراً جداً، ولا تزال آثاره الآن على المناهج الدراسية والمقررات العلمية, وفي كل مجالات البحث والعلم في العالم كله, وليس فقط في أوروبا أو في الغرب.

وكان آخر ما وقفنا عليه في هذه القضية هي قضية سعة الأبعاد التاريخية التي لدى الغربيين، وكيف أنها ضئيلة وصغيرة في ذلك الوقت عندهم في أيام عصر النهضة ثم التنوير -يعني: في القرن الثامن عشر الأوروبي الميلادي- وكيف أنها بالمقارنة مع التصور العربي للتاريخ نجد أن الفرق كبير، وأن العرب أقرب إلى الدقة من حيث عمق البعد التاريخي في نظرتهم إلى الأجيال أو القرون الماضية.

ونحن إن شاء الله الآن نستكمل الحديث من خلال القرآن الكريم.. وكيف عالج القرآن الكريم هذه القضية؟!

شمول القرآن لقصص أخبار الأمم السابقة

هذا القرآن الكريم هو حق كما قالت عنه الجن: ((إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا))[الجن:1], فهو كلام عجب، ولا يمكن لأحد أن يصف القرآن بأعظم مما جاء في وصف القرآن في القرآن: ((كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ))[هود:1]؛ فهذا الإحكام وهذا التفصيل في الأحكام, وفي أخبار الأولين والآخرين, وفي تقرير العقائد, وفي كل مشكلة يحتاج إليها البشر، وفي كل إشكال؛ شفاء لما في الصدور من الشكوك والوساوس، فهو بيان وهو شفاء وهو حكمة وهو رحمة وهو هدى وهو

موعظة وهو ذكرى.. إلى غير ذلك مما هو حديث شيق عظيم؛ ولكنه ليس هو موضوع مقامي هذا؛ وهو هذه المنزلة العظيمة للقرآن في هذا الشأن.

فالله تبارك وتعالى قال في هذا الخصوص: ((إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ))[النمل:76], (أكثر) يعني: أكثر القضايا العامة المهمة وأكثر المشاكل الحقيقية التي إذا حُلَّت انكشفت المشكلات, وذهبت الشبهات وانجلت، فإما أن يؤمنوا بالحق وإما ألا يؤمنوا عن جحود وليس عن ضعف في الحجة، وهذا يَصدق على كل من يسمع القرآن؛ إن كان مؤمناً به وإن كان غير مؤمن لا يملك إلا أن يوقن بأنه عجب, وأن فيه التفصيل، وأن فيه البيان، وأن فيه الحكمة؛ لكن قصرت أفهام الناس عن الاستنباط مع أنه ميسَّر! ((وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ))[القمر:17], فهو ميسر في الحقيقة؛ لكن ضعف اللغة وعدم الالتفات أحياناً إليه! -مع الأسف الشديد- حتى في الدراسات التاريخية والحضارية, والدراسات التي تتعلق بهذا الموضوع -موضوع نشأة الكون, ونشأة الحضارة, ونشأة الإنسان, وأحوال الأمم الماضية- والتي تشمل كليات وتخصصات الجامعات؛ حتى في الجامعات الإسلامية، ومع ذلك نجد الرجوع إلى القرآن إما قليل أو نادر, وأحياناً لا يكاد يُلتفت إليه! وهذا من العجب, ومن الإغفال, فالمشكلة هي أن الناس لم تأت إلى هذا المنهل العذب الصافي الذي فيه الشفاء وفيه البيان, وليست من أي شيء آخر.

مَن وفقه الله تبارك وتعالى وفقهه في الدين كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين), إذا تفقه من تفقه في الدين ومن تدبر القرآن ولم يكن على قلبه قفل فإنه يجد من العجائب ما يتلذذ به، وما يرتاح إليه, وما يشفي كل هذه التساؤلات التي ترد على الذهن، وعلى الإنسان في أي مرحلة من المراحل, وفي أي مشكلة وأي قضية؛ كما قال حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله تعالى عنه: [ما من شبهة إلا وجوابها في كتاب الله علمها من علمها وجهلها من جهلها].

فلنأت إذاً على قضية الوجود الإنساني, أو وجود الكون, ثم الوجود البشري، ثم كيف جاء في القرآن ما يسد هذه الفجوات والثغرات ويُغني عن هذا التضارب وهذا الفصام النكد، والمعركة بين الدين -كما يقولون- وبين العلم وبين الأسطورة أيضاً من ناحية أخرى.

إخبار القرآن بوقت نزول التوراة الذي كان فاصلاً بين عهدين

العرب -كما قلنا في الحلقة الماضية- لديهم حد فاصل معروف؛ وهو أن هناك عرباً بائدة أو عرب

عاربة، وهي بمعنى تاريخ قديم, وتاريخ حديث؛ والحديث يبدأ من العرب المستعربة أي: من ذرية إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، فهنا حدٌ وضع.

لما جاء القرآن جاءنا بمعلم وبفاصل جديد أوسع وأجلى وأعم من قضية ما كان متعارف عليه عند اليونان والرومان، وكذلك ما كان عند العرب في الجاهلية.

هناك آيات -كما قلت- نحتاج أن نتدبرها قليلاً قليلاً، ولا نهمل أي معنى أو أي جزئية تتعلق بهذا الموضوع، وسوف نكتشف من مجموع آيات في كتاب الله تبارك وتعالى عجائب وحقائق كثيرة جداً.

مثلاً: في سورة القصص بعد أن بيَّن الله تبارك وتعالى التفصيل المحكم والبيان في قصة موسى وفرعون ذكر الله سبحانه وتعالى معلماً تاريخياً قلَّ من ينتبه له؛ ولكن تنبه له الصحابة رضي الله تعالى عنهم؛ وهو قول الله تبارك وتعالى: ((وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى))[القصص:43], فنلاحظ ملحظاً هنا؛ وهو أن هناك كتاباً -الذي هو التوراة- نزل، وأن ما قبله سماهم الله تبارك وتعالى القرون الأولى.

ونجد في سورة طه أن فرعون يقول لموسى عليه السلام: ((قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى))[طه:51-52], ونجد أنه في عدة مواضع يأتي مثل ذلك, كما في قوله: ((كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ))[آل عمران:11], ((وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ))[الحاقة:9], وهكذا.

ففي مواضع كثيرة نجد أن إنزال التوراة على موسى عليه السلام -بعد أن أغرق الله تبارك وتعالى فرعون ونجاه, وذهب إلى الأرض المباركة وإلى جبل الطور- كان معلماً وفاصلاً بين عهدين:

العهد الذي يمكن أن نسميه القرون الأولى.

والعهد الذي يمكن أن نسميه القرون الأخرى أو المتأخرة.

وفي هذا حكم ومعان وقضايا تاريخية عجيبة، فمثلاً: أن الله عز وجل لم يهلك أمة من الأمم المكذبة والكافرة بعامة؛ من بعد أن أنزل التوراة على موسى عليه السلام.

يعني: أصبحت السنن التاريخية، والسنن التي جعلها الله في هذا الكون تعمل تلقائياً، فأصبح الجهاد فرضاً على المؤمنين, والإبلاغ والبيان فرضاً على المؤمنين مقابل الكافرين, وينصر الله تبارك وتعالى ويعز دينه في النهاية، وإن كانت الحرب بينهم دولاً: ((وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ))[آل

عمران:140]؛ لكن المهم أن السنن البشرية الكونية العامة تعمل.

ما قبل ذلك -يعني: من فرعون فما سبق- هناك إهلاك وتدمير عام للكافرين وإنجاء فقط للمؤمنين، وهذا واضح جداً في كتاب الله تبارك وتعالى, وفي التاريخ المعروف عن تاريخ الأنبياء في التوراة وفي التاريخ العام.

إذاً: نجد أن هذا النوع من التضاد أو التنافر، يعني: عندما اكتشف الغربيون الآثار الفرعونية واكتشفوا اللغة الهيروغليفية وغيرها، أحسوا وشعروا بأنهم اكتشفوا التاريخ القديم، بينما نحن نقول: إن هذا هو آخر ما في التاريخ القديم، ومِن بعده يبدأ التاريخ الحديث والمعروف؛ والذي هو نزول التوراة!

متى أُنزلت؟ طبعاً هناك تقديرات أنها حوالي عام ألف وثلاثمائة إلى ألف وأربعمائة, يعني: في القرن الثالث عشر وربما القرن الرابع عشر قبل الميلاد, من الألف الذي هو تاريخ داود وسليمان عليهما السلام قبل المسيح بألف سنة تقريباً؛ من هنا التاريخ الحاضر معروف معرفة شبه كلية جيدة تماما ًكما أشرنا في اللقاء الماضي.

بمعنى آخر: نحن الآن عندما نريد أن نحل المشكلة التاريخية التي وقعت في كل نسخ التوراة ؛ العبرية أو اليونانية أو السامرية, والتي جعلت أوروبا تقع في هذه المعركة الكبيرة ولم تجد مخرجاً ولا متخلصاً إلا أن تكفر بـ التوراة وبتواريخها؛ إلا من ظل منهم متعصباً مثلما أشرنا إلى حاكم ولاية أركنسو المنافس للرئيس كلينتون مثلاً وغيره من هؤلاء.

بداية الخليقة في المنظور الإسلامي

إذا أردنا أن نمضي إلى عمق هذه المشكلة, وأردنا أن نبحث عن الحل في كيف نستطيع أن نجد المخرج من هذا ونسد الفجوات؛ فإننا عند ذلك يمكننا أن نجد ذلك في القرآن, وفي هذه المعالم الواضحة. والسؤال هو: هل نبدأ بهذه ما دام لدينا معالم واضحة في الأخير؟ أم نبدأ من الأول؛ لأن لدينا معالم واضحة في بداية الكون وبداية آدم عليه السلام؟ الواقع أن عندنا علم في البداية نثق ونطمئن به, وعندنا علم في النهاية نثق ونطمئن به، والمشكلة هي الفجوة بين هؤلاء؛ فإن شئنا بدأنا

من الأول وإن شئنا بدأنا من الآخر, لا إشكال. فلمَ لا نبدأ من الأول؟!

المراد بالأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض

البداية من الأول نقول: إن الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكل علماء التاريخ بل علماء التفسير المسلمين واضح لديهم أن هذه الأيام الستة هي: أحقاب وآماد ودهور لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى, وليست الأيام المعروفة لدينا؛ التي إنما جاءت بعد خلق الشمس وبعد أن خلق الكون؛ المقصود هذه الأحقاب الطويلة لعله يأتي لها لقاء خاص إن شاء الله؛ لكن نحن نتكلم الآن منذ أن خلق الله تبارك وتعالى آدم عليه السلام وهو ذروة أو هو تاج الخليقة, الذي به ختمت هذه العملية العجيبة العظمية من خلق هذا الكون العظيم الهائل.

عمر آدم عليه السلام وفترة استمرار الخليقة على التوحيد بعد موته

فآدم عليه السلام -ونحن لن نتكلم عن حياته في الجنة- كما نعلم بالحديث الصحيح الذي أخبرنا به النبي صلى الله عليه وسلم؛ (أنه عاش على هذه الأرض أو كتب عمره ليعيش فيه هذه الأرض ألف سنة)، وألف سنة بالسنوات المعروفة لدينا طبعاً على الأرض، فإذاً الأيام هي بالأيام المعروفة لدينا, في الحديث أنه (أعطى نبي الله تبارك وتعالى داود أربعين سنة من عمره)، فعلى ظاهر الحديث أنه لم يعش الألف سنة كاملة، وإنما تسعمائة وستين عاماً عاشها آدم عليه السلام، إذاً هذه فترة معروفة.

هناك فترة معروفة بعد هذا, وأمد بعد هذا، وهو في الأثر الصحيح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه (أنه كان من بعد آدم عشرة قرون على التوحيد, ثم وقع الشرك فيهم, فأرسل الله تبارك وتعالى نوحاً عليه السلام).

إذاً: لدينا عشرة قرون على التوحيد من بعد آدم عليه السلام من ذريته، هذه القرون العشرة الله أعلم كم كانوا يعيشون؟! لكن نعرف من خلال عموم الأدلة أن أعمارهم أيضاً كانت طويلة.

وفي الأثر الذي ذكرناه عن ابن عباسلم يقل: عشرة ملوك؛ لكن في التاريخ الأسطوري -كما رأينا في الحلقة الماضية- أن هناك عشرة ملوك أو عشرة قرون، وأنهم عُمّروا أربعمائة واثنين وثلاثين ألف سنة, ونحن لا نجزم بهذا؛ لأنه ليس لدينا شيء ثابت من الكتاب والسنة عن هذا؛ لكن هل العشرة هم العشرة أو غير ذلك؟ الله أعلم.

إنما المهم أن هناك حقبة طويلة لا يعلم مداها إلا الله تبارك وتعالى؛ ظلت فيها البشرية على التوحيد ((كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا))[يونس:19], ما في سورة يونس (فاختلفوا) يوضح ما في سورة البقرة ((فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ))[البقرة:213], يعني: اختلفوا وقعوا في الشرك فبعث الله النبيين وأولهم نوح عليه الصلاة والسلام.

فإذاً من هنا نعرف أنه بالإضافة إلى عمر آدم عليه السلام ليس كما في التوراة ؛ بل هناك هذه القرون وهي الأجيال الطويلة الأمد التي لا يعلم مداها إلى الله تبارك وتعالى عشرة.

قرون الانحراف ما بين آدم ونوح عليهما السلام

ثم بعد ذلك لما وقع الشرك في قوم نوح نستطيع أن نقول: جاءت إذاً قرون الانحراف, ونحن لا ندري كم هذه القرون، لكن من حقنا أن نفترض -كما حدث في كل الأمم وكل الأنبياء- أن الشرك عندما ينتشر ويعم ويطغى فإن الله سبحانه وتعالى يبعث رسولاً يردهم إلى التوحيد، ومن هنا ننفي كل الخرافات التي تقول: إن الذي علم البشرية التوحيد هو أخناتون أو غيره، هذا كله لا حقيقة له على الإطلاق, وسوف نبين ذلك حتى من الديانة الفرعونية نفسها -إن شاء الله تبارك وتعالى في حلقة قادمة.

المقصود: أن الانحراف والوقوع في الشرك كان بفترة معينة وكان بشكل معين، هذا الشكل وضحه بكل جلاء أيضاً الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه وهو: (أن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً -المذكورة في سورة نوح عليه السلام- أسماء رجال صالحين، ولكن الناس الذين جاءوا من بعدهم أرادوا تعظيماً وإجلالاً لهم واقتداء بهم في عبادة الله تبارك وتعالى وفي توحيده؛
صوروهم لتكون لديهم قدوة أمامهم ماثلة، -وهذا دليل على أن التصوير والنحت قديم ومعرف في تلك العصور القديمة المتعمقة- ثم بعد ذلك وقعوا في الشرك، وجاء الشيطان إليهم حتى عبدوا هذه الصور).

ما لدينا الآن من الآثار المنقبة أو من صور قديمة عن بقايا هذه الأمم -في حضارة ما بين النهرين بالذات- يكشف لنا حقيقة أن المصوَّرين الموجودين هم أشبه ما يكون بالمصلي الخاشع في حالة وضع يده على صدره في الصلاة، وهي الحالة الإسلامية التوحيدية التي لا يشارك المسلمين فيها أية أمة من الأمم في حالة الصلاة، مما يدل على أن هذه الصور إما قديمة أو منقولة عن تلك الصور الأولى ولا يهمنا هذا.

المقصود: أن هذه الصور تؤكد الحقيقة العظيمة وهي: أن البشرية كانت على التوحيد, وأن هؤلاء فعلاً صوَّروهم في حالة الصلاة, وبعضهم بلحية وافرة؛ بل إنهم في بعض الأحيان في حالة تشبه حالة الإحرام أيضاً للعبادة. ومعلوم أن الأنبياء جميعاً من آدم إلى نوح إلى غيرهم كلهم حجوا البيت الحرام في مكة المشرفة، وكانت الكعبة مبنية ومعروفة إلى أن تقادم العهد وهُدمت، ثم جاء إبراهيم عليه السلام فأراه الله تبارك وتعالى مكان البيت كما قال تعالى: ((وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ))[الحج:26], فبوأ له مكانه فعرفه، فأعاد بناءه على القواعد, كما قال تعالى: ((وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ))[البقرة:127]؛ فالقواعد والأساسات كانت موجودة, ثم رفعها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة السلام.

إذاً نحن نقول: إن فترة الانحراف هذه فترة لا يعلمها إلا الله.

إرسال نوح عليه السلام ومدة حياته

بعد ذلك يأتي لدينا معلم واضح فاصل؛ وهو: إرسال نوح عليه السلام. ونحن لا نعلم كم عمِّر عليه السلام؛ لأنه ليس لدينا في القرآن ولا في السنة شيء، إلا أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فهذا لبثه في قومه. أما عمره من قبل فلا ندري! وكذلك أيضاً بعد أن أهلك الله تعالى هؤلاء الكافرين، ومنَّ على نوح عليه السلام ومن معه بالنجاة في الفلك المشحون, وجعل ذريته هم الباقين، لا ندري كم عاش بعد ذلك، فالله أعلم. إذاً: مدة الدعوة هي هذه المدة المعروفة، وهي مدة ليست بسهلة ولا يسيرة ولا هينة.

قوم عاد وثمود

ثم بعد ذلك نجد الفرق الهائل والكبير بين القرآن وبين التوراة في هذا الشأن!

فإذا كانت التوراة تقول: إن إبراهيم عليه السلام ولد في حياة نوح! فهذه مفارقة عجيبة بالنسبة للعرب في الجاهلية فضلاً عن صريح القرآن في الإسلام؛ فنحن نجد في القرآن غير ذلك تماماً.

نجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر أمماً بعد ذلك, وبتفصيل وبتأكيد؛ فمثلاً: قوم عاد جاءوا بعد قوم نوح, يقول الله تبارك وتعالى: ((وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ))[الأعراف:69]؛ فبين أنه من بعد قوم نوح جاء قوم عاد, ثم بعد ذلك جاءت ثمود، قال: ((وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ))[الأعراف:74], فهذا ترتيب قطعي صريح؛ أن الأمتين العظيمتين هاتين كانتا في المرحلة ما

بين نوح وما بين إبراهيم عليه السلام، وأيضاً بعدهم أمم وقرون أخرى إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

لكن كم بقيت عاد؟ هذا أيضاً لا ندري. فعاد فيما يظهر من الدراسات الحديثة والأخبار والآثار القديمة -من مجموعها- نحن نجملها الآن, وعندما نأتي على بعض المواضع كبناء الأهرامات أو غيره قد نفصل أكثر إن شاء الله- نقول: هناك أمد بعيد, وهناك حضارة عظيمة، ودولة هائلة, وهناك منشآت ضخمة، وهناك جزء كبير من تاريخ البشرية المهم جداً؛ تحت اسم (عاد) أو (عاد الأولى) التي هي ((إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ))[الفجر:7], وما يدل على ذلك ما سنعرضه إن شاء الله في بابه من عظم خِلْقة قوم عاد, وأنهم لا يزالون من القرون الأولى العظيمة الخِلقة؛ لأن الله سبحانه وتعالى لما أنزل آدم عليه السلام إلى الأرض كان طوله ستين ذراعاً، كان (مثل النخلة السحوق) كما جاء في بعض الأحاديث الصحيحة.

وعاد لا تزال على الخلقة العظيمة حتى أن شامبليون الذي فك رموز حروف: حجر رشيد يقول: إن هذه المعابد والمعالم العظيمة الهائلة في مصر إنما بناها قوم طول أحدهم مائة قدم, وطبعاً مائة قدم أكثر من ثلاثين متراً.

فهنا نجد حضارة هائلة جداً, ونشير إلى قضية مهمة -إن شاء الله سيأتي لها تفصيل أيضاً- عندما يقال هذا عن عاد فنحن نجزم أن عاداً تسكن جزيرة العرب، كما قال تعالى: ((وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ))[الأحقاف:21], والأحقاف كانت في جزيرة العرب قطعاً, إذاً: المكمن الحقيقي في آثار عاد ليس ما بين النهرين ولا مصر؛ مع أنه من الممكن امتدادها إلى هذه البلاد, وأن تكون أنشأت وشادت وعمرت ما لا يعلمه إلا الله, وبقيت بعض آثارهم؛ لكن المكان الحقيقي لآثار عاد ولأخبارها هو جزيرة العرب التي سوف نرى فيما بعد أنها مهد الحضارات، ولا سيما القسم الجنوبي منها.

وقد اكتشف في السنوات الأخيرة عدة حجارة مكتوب عليها: لا إله إلا الله هود نبي الله؛ بل العجيب أن نجد أن هذا مذكور في كتب علماءنا، كما في تفسير ابن كثير، وفي تاريخ ابن عساكر، وفي الدر المنثور للإمام السيوطي؛ مذكور فيها: أنه وُجد حجارة مكتوب عليها: فلانة حُبّى وسلمى تشهدان أن لا إله إلا الله وأن هوداً رسول الله.

فالحضارة تلك حضارة قديمة موغلة في القدم، أقدم مما يتحدثون عنه في كثير مما اكتشفوا في بلاد الرافدين أو في مصر .

نحن لا زلنا في السياق العام ولم ندخل في التفاصيل؛ لكن نشير إشارات فقط.

فعلى هذا إذاً هناك حقبة طويلة شملت عاداً, ثم بعد ذلك أهلك الله تبارك وتعالى الكافرين منهم وبقي المؤمنون ما شاء الله أن يبقوا، ثم جاءت السنة الثابتة والدائمة في حياة البشرية أن يقعوا في الشرك وأن ينحرفوا، فكانت الأمة التي جاءت من بعد هي أمة ثمود وهم قوم صالح عليه السلام, وهم أصحاب الناقة, وهم أيضاً في جزيرة العرب، ولا يعلم إلا الله تبارك وتعالى كم عاشت هذه الأمة قبل أن يبعث فيهم, وكم بقي فيهم, ثم جاءهم العذاب؛ فأهلكوا وانتهت بذلك أيضاً هذه الأمة من بعد قوم عاد.

إخبار القرآن عن قرون تاريخية بين أصحاب الرس وثمود

ثم من بعد ذلك تأتي أيضاً أمم أخرى، نحن إذا أردنا أن نعرف كيف نسد هذه الثغرة وهذه الفجوة في الأمم الأخرى؛ فينبغي لنا أن نجمع بين آيتين من كتاب الله تبارك وتعالى أو ثلاث, ويمكن أن نستنبطها من مجموع آيات؛ فإذا جمعنا كل قصص القرآن وما يدل عليه ووضعناها أمامنا؛ فمن مجموع هذه الآيات نستنبط فعلاً حقائق عجيبة.

هنا في هذه المسألة نشير إلى نوع جليل عظيم من أنواع التفسير؛ وهو تفسير القرآن بالقرآن -ونشيد بالذات بما فعله شيخنا العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمة الله تبارك وتعالى عليه في كتابه الجليل: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ؛ فقد أبدع في ذلك وجمع شتات ما كان من قبل, وأعطانا منهجاً في هذا الشأن.

إذا جمعنا الآيات المتعلقة بهذا نجد خلاصة عجيبة ومتميزة في هذا الشأن، فمثلاً: ذكر الله تبارك وتعالى في سورة إبراهيم: ((قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ))[إبراهيم:9] فذكر قروناً لا يعلمها إلا الله.

ونجد أنه في سورة الفرقان قال: ((وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا)) [الفرقان:38], فهنا فجوة موجودة في التاريخ؛ لكن بماذا نحلها؟!

نحلها بأن نعلم أن هناك قروناً كثيرة، وهذا الكثير لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، وأن هذه الفجوة موجودة بعد ثمود, وكما حقق شيخنا رحمة الله تبارك وتعالى عليه في أضواء البيان ؛ أن هذه القرون الكثيرة هي ما بين أصحاب الرس من جهة وقوم نوح وعاد وثمود من جهة.

إذاً: في هذه الفترة قرون كثيرة لا يعلمها إلا الله، يقول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه كما روى ابن جرير وغيره: [كذب النسّابون؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ((وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ))[إبراهيم:9]].

إذاً: كل سلسلة النسب التي نجدها في بعض الكتب -مع الأسف الشديد- تتحدث عن نسب النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله إلى آدم عليه السلام كاذبة، ولم تكن مبنية على حق أبداً, وسوف نعرض إن شاء الله نماذج من ذلك, ونبين كيف أنه كذب وقول بغير علم بالفعل كما قال رضي الله تعالى عنه.

حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله تعالى عنه يزيد في هذا عند موضع في سورة إبراهيم عليه السلام ويقول: [ما بعد معد بن عدنان فلا حقيقة له].

يعني: أن اليقين في ما يعرفه العرب: هو نسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى معد بن عدنان ، أما ما بعده فلا يقين؛ بل قال: [ثلاثون قرناً بين عدنان وإسماعيل], ومعنى ذلك: أننا إذا حسبنا القرن يعادل تقريباً خمسة وعشرين سنة أو ما بين عشرين سنة إلى ثلاثين سنة, والقرون الأولى كانت أعمارها أطول وأكثر، فيمكن أن نقول: إن ألف سنة وأكثر من ذلك منطقة مجهولة لا يعلمها هؤلاء.

إذا وضعنا هذا في اعتبارنا ووضعنا أن هناك ما بين ثمود وما بين أصحاب الرس هذه الفجوة، ثم نجد بعد ذلك أن أصحاب الرس لا نعلم حقيقتهم -فعلاً كما ذكر الشيخ الشنقيطي رحمة الله تبارك وتعالى عليه- ولم يأت في الكتاب ولا في السنة ما يبين حقيقتهم ولا تاريخهم؛ فيظل هناك مرحلة معينة كان فيها هؤلاء القوم.

قوم تبع وذي القرنين

في هذه المرحلة وعند هذه الفجوة التي لا نعلمها تماماً نأتي على ذكر نوع من التاريخ لا ينبغي إغفاله على الإطلاق، لماذا يؤخذ التاريخ الروماني أو التاريخ المصري -كالأسر الثلاثين أو غيرها- أو تاريخ سومر و بابل وآشور, ونترك هذا التاريخ؛ لأنه كما يقول بعض المؤرخين: عبارة عن منقولات وأشعار وأخبار العرب، لماذا نهمل جانب العرب؟!

ونعني بذلك التاريخ: التاريخ اليماني الذي تحدث عنه بالذات العلامة النسابة المشهور عبيد بن شرية وكتاب التيجان وغيره التي قد نعرض لبعضها إن شاء الله.

المقصود: أن في التاريخ اليماني سوف نجد أن هناك أُمماً يمكن أن نضعها في هذه الفجوة والله تبارك وتعالى أعلم، فالذي في القرآن -نحن نتكلم فقط عن القرآن والتفصيل فيما بعد- ذكر الله تعالى قوم تبّع، فيمكننا أن نفترض أن قوم تبع في مرحلة ما من هذه المراحل, والله تعالى أعلم.

كذلك يمكننا أن نفترض أن ذا القرنين وما فعله وما أعطاه الله من الأسباب أن يبلغ مشرق الشمس ومغربها وما بين ذلك؛ أنه في هذه المرحلة، حتى يكون لدينا بعض ما يمكن أن يسد هذه الفجوة وهذه الثغرة التي قلنا: إنها ثغرة تاريخية موجودة ما بين القرون المعروفة أو التاريخ الحديث؛ -الذي يبتدئ من إنزال التوراة ونعرف آخر أمة من التاريخ القديم وهي قوم فرعون- وما بين آخر الأمم تلك التي نفترض أنها ثمود وأن بعدها أصحاب الرس مثلاً.

قوم إبراهيم وقوم لوط عليهما السلام

بعد ذلك تأتي أمم متتابعة, كما رأينا تتابع قوم نوح وعاد وثمود، نجد أمماً متتابعة ومتقاربة أيضاً وهم قوم إبراهيم وقوم لوط, بنص القرآن -وهذا معروف- وأنه بعد القرون التي سبقت هذه الثلاثة بكثير من الزمن كما يظهر.

فهنا جاء تعاصر قوم إبراهيم وقوم لوط؛ لأن الضيوف الملائكة المكرمين لما مروا على إبراهيم عليه السلام ((قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ))[هود:70], وعذبهم الله تبارك وتعالى بعد ذلك, وكان إبراهيم عليه السلام حي.

قوم شعيب

وبعدهم أو قريباً منهم تأتي الأمة العظيمة الأخرى، وهم أصحاب مدين، كما يظهر أيضاً -وهذه من الأخبار الأقرب للتصديق- أن قوم مدين قريبون من إبراهيم عليه السلام، وبالطبع وبالجزم نجزم يقيناً أنهم بعد إبراهيم عليه السلام وبعد قوم لوط.

قوم موسى

ثم بعد ذلك أحقاب أو آماد لا يعلمها إلا الله، ثم تأتي قصة تجبر فرعون وطغيانه, وماذا عمل فرعون، وكيف أن الله تبارك وتعالى أعطاه وأمده وكانت فتنة له, حتى بعث الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام، ونحن لا نسلم لما في التوراة أنه قطعي يعني: أن بينهما أربعة قرون وشيء؛ لكن يمكن أن يكون أكثر وأطول منه قليلاً.

العصر الجليدي والفرق بينه وبين الطوفان

وبعد ذلك نكتشف أن لدينا في الحقيقة آماداً وأحقاباً طويلة وبعيدة تقترب تقريباً من المعلم الجيولوجي الواضح وهو: عصر الجليد. إذا قلنا: إن عصر الجليد يمتد ما بين ثمانية آلاف إلى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد, ويمكن أن نضم هاتين السلسلتين إلى بعضها؛ فنجد أن هناك تقارباً.

وطبعاً نحن نؤكد هنا ونقول: لا يفسر الجليد بأنه الطوفان كما يزعم ويدعي البعض، فالجليد شيء والطوفان شيء آخر في حقيقته وفي ذاته؛ لأن الله تبارك وتعالى صرح في القرآن بأن الطوفان هو ماء؛ فتح أبواب السماء بماء منهمر, وأمر الأرض أن تتفجر عيوناً وتُخرج منها الماء، فهو ليس جليداً بصريح القرآن, وإنما هو حدثٌ حدث في تلك الدهور القديمة لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى, وقصة الطوفان هي قصة منتشرة وجدها علماء الأنتربولوجيا الثقافية؛ أن كل الشعوب في العالم من شعوب المحيط الهادي إلى أمريكا الجنوبية إلى شعوب الشرق الأوسط كل الشعوب وكل الحضارات تؤمن بالطوفان.

وطبعاً هناك حقائق تاريخية يؤمن بها الجميع؛ منها: أن أب البشرية واحد عند جميع القبائل وعند جميع الأمم، ومنها: أن حدث طوفان عم الأرض جميعاً، حتى أن الملحدين منهم يقولون: هذه ضلالة مشتركه بين الأمم. ونحن نقول: بل هذه حقيقة مشتركة أنزلها الله تبارك وتعالى، وثابتة في أذهان الناس ويتوارثونها جيلاً بعد جيل, مهما انحرفوا عن الحق وعن اليقين وعن الكتاب والسنة.

الموقف الإسلامي من تحديد عمر الدنيا بسبعة آلاف سنة

هذا يدلنا على خطأ منهجي كبير جداً -به نختم هذه الحلقة الطيبة المباركة إن شاء الله- وهو: لماذا يُنقل عن أهل الكتاب في أمور مثل هذه؛ فيأتي الملحدون أو المنافقون أو الذين يريدون أن يدسوا الشبهات علينا ويقولون: إن لديكم في كتب التفسير عمر الكون كله وعمر الدنيا سبعة آلاف سنة!

هذا لا أصل له في الإسلام، لا في الكتاب ولا في السنة, وإنما هو منقول عن علماء أهل الكتاب من كتبهم، وهذا من جملة ما ينقل؛ ولكن نحن نقول: ما ينقل عن أهل الكتاب فهو مكان التمحيص, إذا كان ما ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة هو محل تمحيص -نتأكد من سنده ونتأكد

من متنه- فكيف بما ينقل عن أهل الكتاب! المقصود أن تحديد عمر الدنيا بهذه المدة أو بأشباهها خطأ, وهو معروف عند الأمة اليهودية وعند أهل الكتاب، أما عندنا في الإسلام فلم تحدد بهذا؛ بل باليقين أن هناك آماداً بعيدة طويلة جداً.

نشير هنا إلى لفتة عجيبة قلّ ما يتنبه إليها, والعجيب أنها جاءت من عالم إسلامي نشأ في عصر مقارب جداً لعصر النهضة الأوروبي! حيث احتدمت المعارك في قضية قدم العالم وفي تاريخ الأرض، وهو أن الإمام البقاعي رحمه الله تبارك وتعالى قال: إن المدة من آدم إلى عهده تعادل مائة ألف سنة، هكذا نص، وطبعاً هو استند في ذلك بحساب حسبه من حديث للنبي صلى الله عليه وسلم, يعني: بطريقة استنباط: تحويل الزمن إلى كسور, ولعلنا نوضحها إن شاء الله في اللقاء القادم بإذن الله تبارك وتعالى، ونبين أنه لو أنا عملنا بهذا الحساب فمعنى ذلك: أن بيننا وبين آدم عليه السلام مائتي ألف سنة، يعني: على كلام البقاعي رحمه الله؛ لأنه وقع في النصف؛ ما بين الهجرة وما بين عصرنا الحاضر تقريباً، فإذاً يمكن أن تكون مائتي ألف سنة, والله تعالى أعلم.

نحن لا نجزم لكن نقول: إن علماء المسلمين كانوا يقررون هذه الحقائق ببداهة وببساطة ويستنبطونها، ولم يدل ذلك والحمد لله على أي إشكال أو تناقض مع القرآن أو مع السنة؛ إلا ما أخذوا من أهل الكتاب فتقع فيه الأخطاء ويثبت الزمن أنه خطأ وأنه باطل، لكن ما ثبت في الكتاب والسنة لا يمكن على الإطلاق أن يكون إلا الحق والصواب، وإن شاء الله في الحلقة القادمة بإذن الله تبارك وتعالى نأتي بما ذكره علماء المسلمين في هذه القضية مما يدل على ما ذكرنا.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك لنا ولكم في أوقاتنا, وأن يوفقنا جميعاً لما يحب ويرضى؛ إنه سميع مجيب.

والحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد.

الحلقة الثالثة: تطبيقات حول نشأة الحضارة

العناصر:

1.مقدمة ومنهج علماء الإسلام

2.القضية قضية إيمان وعقيدة وعناية ربانية.

3.نماذج تطبيقية:

-ابن كثير

-البقاعي

-المسعودي مع المقارنة بعلماء الغرب.

-المقريزي ومقارنة أشمل.

4.الخاتمة.

المنهج الصحيح في تحقيق تاريخ نشأة الخليقة

الحمد الله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة والأخوات! في هذا اللقاء الجديد نعرض القضية من بعض زواياها التطبيقية, بعد أن كنا عرضنا جانباً منها، أعني: قضية حقيقة التاريخ, بمعنى: حقيقة نشأة الحضارة أو نشأة الإنسانية، وهل الرواية الحقة هي ما جاء في كتب أهل الكتاب؟ أو أنها ما ذكره العلم واكتشفه التاريخ اللاديني من خلال النقوش والآثار وما أشبه ذلك؟! أو أنه يمكن للعاقل والمتجرد أن يجمع الحق من هاهنا ومن هاهنا مما في هذه الكتب ومما في تلك؛ وهذا المنهج الذي سار عليه علماء الإسلام؟ وسوف نجد من النقول التي سوف نعرضها -إن شاء الله تبارك وتعالى- أنه حتى علماء الإسلام تعتريهم هذه القضايا وهذه الإشكالات؛ فيخطئون إذا وافقوا أهل الكتاب من غير تدقيق ونظر، ويصيبون إذا استنبطوا من الوحي المحفوظ والمعصوم, ويكون أفقهم واسعاً، ويكون الاجتهاد إذا كانوا ينقلون ما ليس لديهم به علم لا من نقل ولا من عقل، وهذا في ذاته منهج معلوم مرسوم ويوضح لنا جميعاً أهمية المنهج الإسلامي؛ لأنه منهج وسطي، ولأنه منهج عدل.

ويكفينا في هذا المقال ما ذكره كثير من علماء الغرب أن المسلمين حتى في القضايا التي يختلفون فيها أو ينقلون عن الأمم الأخرى فيها، كانت لا تحتمل إشكالات, يعني: لا تستدعي العنف ولا التكفير ولا الإحراق ولا الإعدام ولا الثورة العارمة العنيفة التي كانت تحدث في أوروبا عند أي قضية! فمثلاً: الحضارة التي اكتشفت والتي سميت حضارة سومر -أو لنقل: حضارة العراق القديمة- لما اكتشفت وأدهشت الغربيين ألَّف أحد الأمريكان كتاباً سماه: الحضارة تبدأ من سومر وهو الكاتب: كرامرل , ثم ألف بروستد عن الحضارة في مصر كتاب: انتصار الحضارة , وعدة كتب له في هذا الشأن.

يعني: كان هنالك نوع من الدهشة والإعجاب الشديد الذي لم يأت من فراغ، وإنما جاء نتيجة خواء سابق له، وباعتراف بعضهم بأن هذه الدهشة جاءتهم؛ لأن حضارتهم كانت لا ترى العالم إلا من خلال الزاوية الضيقة التي حشرهم فيها اليونان والرومان ومن بعدهم؛ بسبب العنصرية والمركزية كما أشرنا.

الغرض من تحقيق تاريخ نشأة الخليقة

تصحيح العقيدة

الموضوع ليس مجرد تصحيح تواريخ, إنما القضية هي تصحيح عقائد وإيمان قبل أي شيء؛ لأنه كما نعلم وكما سنرى أن هناك قضايا عقدية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذه القضايا. فإذا كان الأصل في بني آدم التوحيد وعبادة الله تبارك وتعالى، وأن الله تعالى بعث فيهم أنبياء فعلموهم الكتاب والحكمة وحكموا بين الناس بهذا الكتاب؛ فمعنى ذلك: أن الأمر مضاد مناقض تماماً لما يقوله البعض من أن هناك عصوراً همجية وبدائية ووثنية, مثل: العصر الحجري أو ما بعده، وأن الناس ترقت شيئاً فشيئاً حتى عرفت التوحيد على أيدي بشر لا تنسب إليهم النبوة عند كثير من هؤلاء؛ بل بعضهم لا يؤمن بالنبوة أصلاً, والبعض يلمّح إليها تلميحاً. فالقضية من هذه الناحية مهمة.

بيان العناية الربانية بالخلق

القضية الأخرى تتعلق بالعناية الربانية, وبرحمة الله تبارك وتعالى للعالمين، هذا الخالق العظيم الذي دبر هذا الكون وأحكمه وليس فيه أي هباء ولا ذرة إلا وفق قانون محكم، هل يمكن أن يخلق الإنسان ويكرمه على الخلق ويدعه هكذا سدى لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يُعلَّم أبداً؟ أم أنه -كما جاء في

القرآن- تبارك وتعالى أمتنَّ على الإنسان بأن علمه، ((الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ))[العلق:4], وعلمه أيضاً قبل ذلك، كما في ذكْر آدم عليه السلام ((وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا))[البقرة:31]؛ فالمنطلق الإسلامي في هذه القضية ينطلق من أن الأصل في البشر هو العلم والمعرفة التي بها تفوقوا على الملائكة.

في المنطلقات الأخرى -كما نشاهد في التاريخ القديم العلماني- أن الإنسان كان بدائياً، وكان همجياً، وكان وحشياً، وبعد قرون وأحقاب وآماد تصل إلى مئات الألوف من السنين أو إلى عشرات الألوف حسب اختلافهم بدأ يتعلم الأبجدية ثم الكتابة ثم ترقى في الفكر شيئاً فشيئاً!

النظرة مختلفة تماماً، فكل من يؤمن بالله في هذا الوجود عليه أن يؤمن بأن حكمة الله تبارك وتعالى ونعمة الله ورحمته أعظم من ذلك؛ بل إنه علم الإنسان؛ فليس هناك -على سبيل المثال- من داع أن نفترض أن الإنسان جرَّب لكي يزرع! لمَ نقول: جرب لكي يزرع، ولا نقول: إن الله تبارك تعالى قد علم الإنسان أن يزرع! وهذا من الأشياء التي اكتشفت حديثاً الآن؛ أن أصل الزراعة ليس في بلاد الرافدين ولا في مصر ، ويقولون: إن القمح والذرة كانت نباتات برية نشأت في جزيرة العرب, ومنها انتقلت إلى هذه البلاد, وهذا يؤيد -بدون أن يعلم أصحابه- ما نقوله: إن جزيرة العرب هي مهد الإنسان -وكما سنوضح إن شاء الله في لقاء قادم- أن مكة أول بلد، والبيت الحرام أول مسجد، وآدم عليه السلام أول ما استوطن هذه المنطقة، والله تبارك وتعالى أنبت هذه الأشياء لهم ثم بعد ذلك علمه، وترك الأمر إليه ليزرع.

فالعلم واستخدام التقنية كل هذه الأشياء الذي يليق برحمة الله تبارك وتعالى؛ أنه علم الإنسان منها القدر الذي يحتاج إليه، ثم بعد ذلك يستمر.

وجود عصور من الانحطاط الحضاري فيما بعد أو وجود أمم همجية أو حجرية -وإن شاء الله لنا لقاء خاص عن العصر الحجري هل هو ثابت أو لا وما حقيقته- لا يدل على أنها أصل البشرية! لأنه من الممكن جداً أن شعوباً كانت راقية ثم تنحط؛ ولذلك جعل الله تعالى هذه الأرض مكاناً للابتلاء، فتنحط من التوحيد إلى الشرك, وتنحط من الهدى إلى الضلال, وتنحط من التقدم واللباس إلى العري وإلى الإسفاف وإلى الرذائل، هذا شيء معروف. أما أن يكون أصل البشرية الانحطاط! فمن قال هذا؟! هذه نظرية وافتراضات باطلة, ويجب أن تقام الحجة على قائليها من جهتين:

من جهة العلم -وهذا ما سوف نخوض ونتحدث فيه إن شاء الله- ومن جهة مهمة جداً في نظرنا نحن المسلمين وأيضاً عند من يؤمن بالله، وهي: ما الذي يليق برحمة الله وبعدل الله وبحكمة الله

وبصفات الله تبارك وتعالى؟!

إذا أثبتنا الله سبحانه وتعالى -من يؤمن بوجود الله يعني- ومن يؤمن بوجود الوحي والكتب فعليه أن يتجرد من هذا.

فالذي حدث في كتب أهل الكتاب أنهم انحطوا إلى كلام الوثنيين، ومع الأسف أنهم لم يرفعوا هم مستوى الوثنيين من اليونان والرومان وغيرهم إلى مستوى الإيمان كما فعل القرآن العظيم والأمة الإسلامية؛ حينما رَفعت من مستوى هذه الأمم العظيمة في الشرق إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى والتوحيد والوحي والمعرفة، فأبطلت بذلك كثيراً من هذا النظريات الباطلة التي لا أصل لها.

نماذج تطبيق علماء الإسلام المنهج الصحيح في تحقيق تاريخ نشأة الخليقة

ابن كثير رحمه الله

لنأخذ نموذجاً تطبيقياً فيما نقول من كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله، ونقارنه ببعض كلام الغربيين؛ حيث ذكر الحافظ ابن كثير رحمة الله عليه في البداية والنهاية -وهذا الكتاب من أنفع الكتب وأفضلها في كتب التاريخ- عندما ذكر ترجمة نوح عليه السلام ابتدأ بأن أتى بنسب نوح عليه السلام على طريقة أهل الكتاب -أي: النسب الموجود في التوراة- لأنه ليس عند المسلمين غيره, وقد يكون في رأيه وفي رأي غيره أنه من الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم: (أن يُحدث عن بني إسرائيل فيه ولا حرج). المهم هذا شاهد لنظرية وطريقة معينة, ثم قال: وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة -هذه النقطة المهمة- فهو نَسب إلى أهل الكتاب الخطأ الشديد الذي وقعوا فيه -والذي سبق أن نبهنا إليه- عندما حرفوا كتابهم وذكروا هذا..

ثم انتقل -بدون أن يُشعرك بالنقلة- بشكل مباشر ومفاجئ فيقول: وكان بينهما عشرة قرون.

إذاً: العشرة القرون تناقض قطعاً الآن ما ذكر من هذه المدة، وأخذ يفصل ذلك فاستند إلى الوحي المعصوم الثابت، وهذا الذي نريد أن نثبت؛ أنه بالاستناد إلى الوحي يظهر دائماً الصواب، المهم أن يكون صحيحاً وثابتاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال كما أخرج الحافظ أبو حاتم ابن حبان في صحيحه عن أبي أمامة رضي الله عنه (أن رجلاً قال: يا رسول الله! أنبي كان آدم؟)، وهذا من الأسئلة

العجيبة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يجيب عليها, وكان الصحابة يسألون عنها؛ ومثل ذلك: حديث عمران بن حصين (أنهم سألوه عن أول هذا الأمر؟) يعني: عن هذا الكون كيف كان؟ وكيف نشأ؟

وهنا يقول: (أنبي كان آدم؟)، فالسؤال يدل على علم السائل وحرصه على العلم النافع، فضلاً عما هو أعظم من ذلك؛ ما أوتيه صلى الله عليه وسلم من العلم من عند الله تبارك وتعالى. فقال: (نعم نبي مُكلم -يعني: نبي يكلم- فقال له الرجل: كم بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون).

يقول الحافظ ابن كثير: هذا على شرط مسلم ولم يخرجه، ثم ذكر في صحيح البخاري الأثر -الذي سبقت الإشارة إليه- الموقوف على ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنه قال: [كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام].

هذه إضافة مهمة جداً من ابن عباس رضي الله عنه، وهذا الكلام مما لا يقال رجماً بالغيب، فلو لم يكن هذا الحديث إلا من كلام ابن عباس -يعني: لو فرضنا أنه موقوف فقط ولا يحتمل الرفع مع أنه يحتمله- لكان ذلك حقاً؛ لأن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ترجمان القرآن، وقد نبّه الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه أن ثلاثة لا أصل لها -يعني: لا يعتمد عليها- السند القطعي, وإنما إذا صحت وثبتت وتقررت أو تُداولت فإن الناس لا تبحث لها عن أصول؛ لأنها تقرر بغير السند وهي: التفسير، والمغازي، والسير, مثلاً: هذا التفسير إذا جاء عن صحابي فنحن نقبله، إن كان من كلامه أو إن كان يحتمل الرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، إلا إذا كان يخالف الكتاب والسنة فالاجتهاد يُرد بالنص.

على كل حال يبدأ ابن كثير رحمة الله تبارك وتعالى عليه ويبين شيئاً مهماً جداً يقول: ما المراد بالقرن إذاً؟!

هنا ننتقل إلى المنهج الثالث أو القضية الثالثة: وهي إعمال العقل والاجتهاد والنظر والتفكير الصحيح في الوحي أو حتى في الآثار والنقوش، فهذا يؤدي إلى العلم.

هذه طريقة من طرق العلم النافع التي يجب على البشرية أن تفعلها، فهنا نجد أن العقل المسلم هكذا, فقد نقل ابن كثير عن الكتاب, ونقل عن النبي صلى الله عليه وسلم, ثم بدأ يُعمل عقله, ويقول: ولكن كم القرن؟

فقال: إن كان مائة عام -كما يظنه كثير من الناس- فإذاً بين آدم ونوح عليهما السلام تكون المدة

ألف عام, وإن كان المراد بالقرون: الجيل من الناس, كما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى: ((وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ))[الإسراء:17], وكثير من الآيات فيها كلمة (القرون) تعني: الجيل أو الأمة العظيمة، فقوم نوح قرن، وعاد قرن، وثمود قرن؛ بمعنى: إن كان المراد بالقرن أمة فإذاً هناك أمم كثيرة كانت ما بينهما.

بل يقول: كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة؛ فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوفاً من السنين؛ لأن هذه القرون كما ذكرنا عشرة قرون على التوحيد، ثم قرون الانحراف إلى بعثة نوح عليه السلام هذا معناه: دهور تقدَّر بألوف السنين!

وبذلك نكون استطعنا أن نشكل قدراً معيناً من الحقيقة في هذا، منها: ما يعتمد على الوحي، ومنها ما يعتمد على النقل والاستنباط من الوحي، وحذفنا ما لا داعي له؛ وهو النقل عن أهل الكتاب؛ بل حقيقة هو عين الخطأ؛ لأنه هو الذي يوقعنا في الخطأ، فهذا نتبرأ منه.

الحديث كما ذكر ابن حبان والحافظ ابن حجر ذكره في فتح الباري في بدء الخلق, وذكر أنه صحيح فعلاً.

إذاً: لدينا هنا مصدر أو مرجع من الوحي المعصوم صحيح في هذه المسألة، فهو مَعْلم ثابت, وممكن نضع نقاط ارتباط ثابتة ثم بعد ذلك نسد الفجوات والفراغات في هذه المسيرة الطويلة بإذن الله تبارك وتعالى.

البقاعي رحمه الله

إذا انتقلنا إلى نموذج آخر، فهناك نموذج في التفسير فريد وهو الحافظ برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي رحمه الله, وهو رجل قدم نموذجاً فريداً في فهم القرآن وفي تفسيره، ويتميز تفسيره -نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- بالتناسب -هذا موضوعه- وبشيء آخر وهو النقل عن أهل الكتاب, والمقارنة بينها وبين ما في القرآن والسنة، وهذا أخذه عليه كثير من العلماء, فقالوا: إنه أخطأ في النقل الطويل عن أهل الكتاب؛ لكن حقيقة نحن الآن نُعجب بهذا؛ لأسباب:

أولاً: -وهذا أمر بعيد عن موضوعنا لكنه مهم جداً- نقله عنهم لكي تطابق أنت، وتستطيع أن تطابق الفصول التي نقلها -وهو متوفى سنة 885هـ- بما هو موجود الآن في الأناجيل؛ لأن تراجم الأناجيل متأخرة؛ ففي إمكانك أن تطابق من مصدر موثوق إن شاء الله، وهذه تهم الدارسين في

موضوع الأديان والتحريف الذي وقع في الأناجيل وفي التوراة وغيرها, فأحياناً أفرح حين ينقل نقلاً أطول حتى أقارنه بما في طبعات الكتاب أو العهد الجديد والعهد القديم الطبعة الكاثوليكية أو البروتستانتية أو السامرية أو غير ذلك, هذا جانب.

الجانب الآخر: أنه حين يقارن يأتيك بمنهج استدلالي عقلي في غاية البراعة وفي غاية اللطف.

فهو عند آية الفرقان -التي تعرضنا لشيء من تفسيرها في اللقاء الماضي- قول الله تبارك وتعالى: ((وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا))[الفرقان:38], يقول الحافظ البقاعي رحمه الله: هذا أمر عظيم مذكور وهو بين كل أمتين, وناهيك بما يقول فيه العلي الكبير إنه كثير! أي: ليس قليلاً, فهو عدد هائل كبير جداً.

ثم ذكر حديثاً هنا عجيباً جداً واستنبط منه استنباطاً عجيباً، قال: عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بعد العصر فما ترك شيئاً إلى يوم القيامة إلا ذكره في مقامه ذلك, حتى إذا كانت الشمس على رءوس النخل وأطراف الحيطان قال: -هنا موضع الشاهد- أما إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا, ألا وإن هذه الأمة توفي سبعين أمة هي آخرها وأكرمها على الله عز وجل).

أول ما استنبط أن قوله: ((وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا))[الفرقان:38], أن الأمم المعروفة في القرآن معدودة ومحصورة, بينما هناك سبعون أمة! فلو قلنا: قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وشعيب وكذا يبقى الأكثر! يمكن ثلاثة أرباع تبقى غير مذكورة؛ لكنها موجودة في التاريخ.

فمعنى (كثيراً) أي: من هذه الأمم، هذا الاستنباط الأول.

ثم قال: وفي بعض ألفاظهم -يعني: بعض ألفاظ الروايات؛ لأن الحديث رواه الإمام أحمد و الترمذي و ابن ماجه - (وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي منها شيء), كان الصحابة رضي الله عنهم يلتفتون إلى الشمس هل بقي شيء منها؟! معنى ذلك أن شيئاً ضئيلاً جداً هذا الذي بقي ليذهب ذلك اليوم وتغيب شمسه.

يقول: وهذا يدل على أن الذي كان قد بقي من النهار نحو العشر من العشر -عشر العشر فقط كان باقياً من نهار تلك اللحظة على تقدير الحافظ البقاعي- ثم يقول: وهذا يقتضي إذا اعتبرنا ما مضى لهذه الأمة من الأزمان أن يكون الماضي من الدنيا -يعني: بالنسبة بالتقدير- من خلق آدم عليه السلام

في يوم الجمعة الذي يلي الستة الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض أكثر من مائة ألف سنة. والله أعلم.

لاحظوا هذا الاستنباط البديع! يقول: إذا لم يبق إلا هذا القدر من الشمس والذي قدّره بعشر العشر فمعنى ذلك أن مائة ألف سنة مضت منذ خلق آدم عليه السلام.

لا يهمنا الرقم ولا نقول: إن هذا قطع؛ لكن المقصود هو كيف أن المسلمين يمكنهم أن يستنبطوا, وأن يصلوا إلى الحقائق عن طريق التقدير بدون أي إشكالية؛ فلم يؤثر هذا في إيمانهم ولا يؤثر على أن أحداً رد عليه أو ناقشه؛ بل بالعكس سنرى -إن شاء الله- أشد من ذلك فيما ننقل عن مؤلفين آخرين.

المهم أن هذه الحقائق قابلة للاستنباط والنظر؛ فمنها ما هو قريب إلى القطع، ومنها ما هو مجرد ظن، ومنها ما لا إشكال في رده أو قوله فهو مجرد اجتهاد بشري؛ لكن من غير أن نقع فيما وقعت فيه أوروبا حينما حل فيها ذلك الصدام العنيف والمعركة العنيفة، والتكفير الشنيع الشديد في تحديد هذه المدد للأنبياء ولغير الأنبياء، وامتد ذلك حوالي أربعة قرون ولا يزال -كما ذكرنا- في المعركة بين كلينتون ومنافسه في ولاية أركنسو في أمريكا .

المسعودي مع المقارنة بعلماء الغرب

هنا ننتقل إلى مصدرين إسلاميين آخرين:

المصدر الأول: يعتبر متقدماً وهو المسعودي المؤرخ المشهور في أوائل القرن الرابع الهجري.

الطرافة هنا: أننا عندما ذكرنا أن حضارة بلاد ما بين النهرين لها تاريخ أسطوري هائل جداً، وأن الملوك العشرة أو القرون العشرة حكموا أربعمائة واثنين وثلاثين ألف سنة! وأن بعض ملوكهم حكم أكثر من ستين ألف سنة! يعني: تستطيع أن تعطي معدل أكثر ملوكهم عشرين إلى ثلاثين ألف سنة!

الأرقام هذه التي حيرت علماء الغرب وأذهلتهم! هربوا من الضيق الشديد الذي ألجأتهم إليه تقاويم التوراة إلى هذه السعة المفرطة جداً التي لا تكاد العقول أن تصدقها! فاحتاروا ماذا يصنعون؟ فبقوا مترددين وحائرين, على سبيل المثال: مؤلف أمريكي ألّف كتاباً اسمه: الماضي الحي, ترجمه الدكتور: شاكر إبراهيم، وهو كتاب من أفضل الكتب في هذا الباب لولا الطابع العلماني عليه؛ لكن هذا الكتاب يجمع بين نظريتين: بين الحقيقة وهي قصر الحضارة، التي هي عند علماء التاريخ اللاديني

أو التاريخ الغربي الحديث عموماً، فما يرونه حقيقة هو أنه إلى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد بدأت الحضارة وبدأت الكتابة، ويجمع -دون أن يشعر- في بعض المواضع بينها وبين الجانب الأسطوري الكبير.

مثلاً: عندما تكلم عن حضارة سومر -بلاد ما بين النهرين عموماً- يقول: إن ما بين سبعة آلاف سنة أو نحو ذلك. تقريباً أعطاها أبعد مدى سبعة آلاف سنة، في الفصل الذي تكلم فيه عن حضارة الصين ذكر أنها خمسمائة ألف سنة! كيف يمكن هذا؟!

الحل الذي أرادوا أن يحلّوا به أن يقولوا: إن أربعة آلاف سنة إلى سبعة آلاف هي الحضارة: الكتابة، التدوين، العلم، أما ما قبل ذلك بمئات الألوف فهي همجية وبدائية لا قيمة لها, فلم يمكنهم أن يجمعوا بين هذا, ولو أنهم اختصروا المدة وعرفوا ما جاء في الوحي أنهم كانوا على التوحيد لانحلت الإشكالية.

نقرأ قليلاً من كلامه في إعجابه هو المؤلف الدكتور: إيفار ليسنر يقول: لولا الشرق القديم لما أصبحنا على ما نحن عليه, وبدون فهمه لم يتسنَ لنا قط معرفة أنفسنا لقد انتقلت إلينا من السومريين مظاهر حضارية كثيرة عن طريق الآشوريين والبابليين والمصريين واليونان والرومان, وكشفت الحفريات في بلاد ما بين النهرين عن جذور تطورنا الفكري والروحي, إن الأبجدية -يعني: الحروف الأبجدية- التي نعرفها وعقيدتنا الدينية ونظامنا القانوني وفنوننا إنما رسمتها جميعاً من قبل عملية تطور طويلة؛ فمن بلاد ما بين النهرين ومن السومريين جاء ما يمكن أن يعتبر نقطة انطلاق حاسمة في تاريخ الحضارات جميعاً؛ ألا وهو فن الكتابة.

ثم يبدأ يقول كيف الذي ألف كتاب تاريخ العالم وأصدر مجلدات منه قبل الحرب العالمية الأولى يقول عن تاريخ السومريين: إننا لا نعرف عنهم شيئاً.

يعني: أدهشتهم هذه الاكتشافات ولم يستطيعوا التوفيق بين خمسمائة ألف سنة من آثار حضارة وجدت كما يدّعون؛ وبين أربعة آلاف سنة ونحوها التي فيها الكتابة، فسدوا الفراغ بأن افترضوا أن ما قبل أربعة آلاف سنة إلى خمسمائة ألف سنة كله عصر بدائي لا كتابة فيه وإنما هو همجية ورعاع.

هنا نرجع إلى المسعودي فنجد المقارنة, شيء عجيب جداً حقيقة, وهو قد نقل عن كتبهم, يقول تحت عنوان: ملوك بابل المعروفين بالكلدانيين؛ وملوك بابل هؤلاء القدامى جعل أولهم هو نمرود

الجبار , وكان ملكه نحواً من ستين سنة -والذي سبق أن قرأناه: أنه كان ستين ألف سنة- وبعده بولو أو بولوز سبعون سنة، وبعده فلان مائة سنة وبعده فلان عشرون إلى خمسة عشر إلى عشر إلى سنة واحدة.. إلى آخره.

فذكر أكثر من أربعين ملكاً، وكل التواريخ معقولة, ويمكن أن تكون وقعت, ولم يشر إلى شيء من ذلك؛ ويرجع ويقول: قرأ ذلك من كتبهم!

هل هذا اطلع على كتب لم يطلعوا عليها أولئك؟ لماذا لم يطلع عليها الغربيون من قبل؟ ما هي المفارقة العجيبة في هذا؟!

النظرة الإسلامية دائماً نجدها معقولة وقريبة، مثلاً أفريدون على سبيل المثال -هو الذي وَجدت مبالغة في كلام المسعودي عنه- يقال: إنه حكم خمسمائة سنة! يعني: الرقم غريب جداً, ونحن نفترض أنه خطأ بدون نقاش تقريباً؛ لكن القضية: الفرق بين الذي قال: خمسمائة وبين الذي جعلها ستين ألف سنة! الخطأ قد يكون مشتركاً، لكن هناك خطأ فاحش بعيد عن التصور، وهناك خطأ معقول قد يكون قريباً من الحقيقة أو شيئاً من هذا.

المقصود: أن المنهجية التي سار عليها علماء المسلمين في هذا تلقي الضوء على المصادر، وأنها كانت قريبة ومعقولة، أن لديهم مصادر نقلية, وحتى ما يسمى المصادر الحديثة من قراءة النقوش، وقراءة المكتوب على الحجارة وما أشبه ذلك كان موجوداً ومعروفاً في مواضع كثيرة من تاريخ دمشق لـابن عساكر نجد أنه وُجد حجر فقرأه فلان أو قرأه كعب أو قرأه غيره، وأيضاً في أول سيرة ابن هشام :

في الحجر المنقوش تحت المنبر

بيت من الشعر يعني: أنه حجر منقوش تحت المنبر.

فكانت النقوش معروفة، وكانت قراءة الكتابة والخطوط القديمة معروفة، فمصادرهم قد تكون من هذا ومن هذا، وإن كانوا طبعاً لم يستطيعوا حلّ رموز بعض اللغات القديمة، لا المسعودي ولا المقريزي ولا غيرهم؛ فعندما يرون الأهرام يقولون: هذه صور حيوانات، ولا يدرون أنها خطوط قديمة؛ لكن جهلهم بهذا لا يجعلنا نحط من قدرهم بقدر ما نجل ونقدر فيهم أنهم من وسائل قليلة -لا نملك نحن كثير منها- قد استنبطوا وكتبوا كلاماً قريباً من الحقيقة التي يمكن أن تصدق بالعقل

المجرد بغض النظر عن الواقع التاريخي.

المقريزي ومقارنة أشمل

قبل أن ننقل كلام الإمام المقريزي في الخطط , ونبين مزيته التاريخية والعلمية في المعرفة, نحاول أن نجعل القضية قضية مقارنة بشكل أشمل، سوف نأتي بدائرة معارف غربية حديثة دقيقة في النقل -تقريباً معتمدة- وننقل من كتاب مدرسي معروف ومنتشر بين أبنائنا, وأيضاً ننظر كلام الحافظ المقريزي في هذه القضية.

نبدأ بالحافظ المقريزي رحمه الله، وهو تعرض عرضاً في الحقيقة -لأن كتاب الخطط هو عن مصر بالذات- للتواريخ التي كانت الأمم تؤرخ بها استطراداً من تاريخ القبط وغيره، فتحدث حديثاً عجيباً طويلاً نقل عمن قبله -يشمل من قبله- ونقل على اختلاف المناهج، من يرى الآماد البعيدة بدون تحفظ، ونقل من أدق الفقهاء وأشدهم جزماً في هذه المسألة وهو ابن حزم رحمة الله تبارك وتعالى عليه، وأصل تأصيلاً عظيماً وقال:

أولاً: ما ليس لدينا فيه علم من الكتاب والسنة فهو احتمال ونحن نورده.

الأمر الثاني: عندما أورد التواريخ والآماد الطويلة التي نعرض جانباً منها، قال: لا ينبغي للعاقل أن يبادر بانتقاد أهلها -أو بشيء من ذلك- أنا بينت مأخذهم حتى لا يبادر العاقل إلى ذلك! احتراماً للرأي الآخر وإن كان آماداً بعيدة، لأنه ليس لدينا في ديننا ما ينفيه أو أما يجعله باطلاً بشكل قطعي، فينبغي أن يؤخذ في هذا الإطار؛ ليعلم من أين أخذه الذين أخذوه, ثم عندما انتقل إلى كلام ابن حزم رحمه الله وختم به؛ فكأنما هو الخاتمة, وفعلاً هو كلام قيم وثمين, سنأتي عليه إن شاء الله تبارك وتعالى.

ابتدأ الحافظ المقريزي يتحدث عن البراهمة, والبراهمة لما قرأ الغربيون كلامهم دهشوا وذهلوا جداً جداً! كما في تاريخ القرن السادس عشر إلى العشرين؛ لكن نحن في التاريخ الإسلامي عادي جداً، هو نقل من كلام الكتب التي تَقَدّمته، ليس هناك أي مشكلة في أن يكون عندهم هذه الأعداد.

مثلاً: نقل عن البيروني و المسعودي أيضاً بعض كلامه مطابقاً له، ونقل عن كثير؛ منهم من أشار إليه ومنهم من لم يشر إليه.

على سبيل المثال: بعد أن ذكر كلامه في أزمنة وأحقاب كونية متوالية, وكل حقبة عشرة آلاف

سنة مثلاً يقول: المدة العظمى على هذا ثلاثة آلاف ألف ألف ألف سنة وستمائة ألف ألف ألف سنة؛ تقدر بستمائة مليار سنة وثلاثة مليارات سنة!

كلام غريب جداً! لا يمكن؛ فلذلك عقب عليه بقوله: ((وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ))[هود:123], ثم قال: وإنما ذكرت هذا الشيء ليعلم المنصف أنهم لم يضعوه عبثاً, يعني: هم وضعوه افتراضاً أي: مبني على فرضية وليس هكذا ارتجالاً، نحن لا نقرّ هذه الفرضيات؛ لكن يقول: حتى نعلم ذلك ونعلم أن هذه الأمم وضعت هذا التاريخ والآماد البعيدة، البراهمة وكذلك قريباً منهم الصين .

يرجع إلى أبي معشر الذي كان في الإسلام, ثم يقول: وزعم قوم من الفرس -على كلام أبي معشر- أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة -لاحظ من هذا الرقم إلى الرقم الآخر- وقال قوم: تسعة آلاف, وقال قوم: واحد وعشرون ألفاً, وقال قوم: ثمانية وسبعون ألفاً.

وكلها أقوال بغير علم ولا دليل عليها ولا صحة لها، إلا أن مأخذهم فيها هو الأبراج والكواكب والطوالع، وسوف نشرح إن شاء الله في لقاء قادم.

عندما بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تبارك وتعالى عليه في تفسير سورة الإخلاص، كيف وقع الشرك في بني آدم؟! وقع الشرك كما سبق في قوم نوح لما صورهم؛ لكن كيف وقع الشرك في قوم إبراهيم عليه السلام! ولماذا قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام جاء فيها ذكر الكواكب وليس الأصنام؟! مع أننا نجد أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه: ((وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ))[إبراهيم:35]؛ فهنا اختلط على كثير من الناس هل إبراهيم عليه السلام دعا قومه إلى أن يتركوا عبادة الكواكب أو عبادة الأصنام؟!

شيخ الإسلام يقرر أن هذه الأصنام أو الهياكل مبنية على تلك، يعني: على شكلها كنماذج لها أو كوسائط لها؛ أي: للكواكب العليا التي في السماء؛ فعُبدت الأصنام وعبدت الحجارة؛ لتكون رموزاً للمعبودات الأكبر عندهم، وهي الكواكب التي تتحكم في الكون.

ومن الكواكب ومن أعدادها ومن منازلها وطوالعها ودرجاتها حاولوا أن يكتشفوا التنجيم, حقائق الكون, الأحداث، ومن ذلك عمر الدنيا بناء على عدد هذه الكواكب أو مطالعها أو ما أشبه ذلك.

إلى أن يقول: وقال قوم: كانت المدة من آدم إلى الطوفان ألفين وثمانمائة سنة .. إلخ.

والآن رجع إلى كلام أهل الكتاب اليهود و النصارى ، ثم بعد أن أفاض في هذا الكلام نقولات طويلة لا تهمنا، يهمنا في الأخير أنه ختم بالنقل عن الإمام الجليل ابن حزم رحمه الله, وهو الذي من كلامه في الفصل تسرب إلى أوروبا كما في رسالة سبينوزا رسالة في اللاهوت والسياسة وغيره، النقد التاريخي أول ما عرفت أوروبا النقد التاريخي للعهد القديم.

فيقول: قال الفقيه الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم : وأما اختلاف الناس في التاريخ فإن اليهود يقولون: أربعة آلاف سنة، و النصارى يقولون: الدنيا خمسة آلاف سنة، وأما نحن فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا - يعني: نحن المسلمين لا نقطع في هذا- بل نقطع أن للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله تعالى، قال الله تعالى: ((مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ)) [الكهف:51], وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أنتم في الأمم قبلكم إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض), وهذه نسبة من تدبرها وعرف مقدارها ومقدار عدد أهل الإسلام ونسبة ما في أيديهم من معمور الأرض وأنه الأكثر، علم أن للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله تعالى.

يقول: -الكلام لا يزال للإمام ابن حزم- وكذلك قوله عليه السلام: (بُعثت أنا والساعة كهاتين وضم أصبعيه المقدستين السبابة والوسطى), وقد جاء النص بأن الساعة لا يعلم متى تكون إلا الله تعالى لا أحد سواه، فصحّ أنه صلى الله عليه وسلم إنما عنى شدة القرب لا فضل السبابة على السباحة، إذ لو أراد ذلك لأخذت النسبة ... إلى آخره, يعني: لو كان يريد ذلك فإن الحديث الذي قبله لا ينطبق, وهو حديث كالشعرة البيضاء في الثور الأسود.

قال ابن حزم رحمه الله: وله صلى الله عليه وسلم منذ بعث أربعمائة عام ونيّف -في أيام ابن حزم رحمه الله- والله تعالى أعلم بما بقي من الدنيا؛ فإذا كان هذا العدد العظيم لا نسبة له عندما سلف لقلته وتفاهته - التي هي أربعمائة سنة أو ثمانمائة عند البقاعي أو نحن الآن نقول: ألف وأربعمائة وستة وعشرون وهكذا من بعدنا, يقول: إذا كان هذا لقلته وتفاهته إلى ما مضى فنحن فعلاً كالشعرة في الثور أو الرقمة في ذراع الحمار.

قال: وقد رأيت بخط الأمير أبي محمد عبد الله بن الناصر قال: حدثني محمد بن معاوية القرشي أنه رأى بـ الهند بلداً له اثنتان وسبعون ألف سنة، وقد وجد محمود بن سبكتكين -الذي فتح الهند الفاتح العظيم- مدينة في الهند يؤرخون بأربعمائة ألف سنة, قال أبو محمد : إلا أن لكل ذلك أولاً

ولا بد ونهاية، لم يكن شيء من العالم موجوداً قبله - يعني: مهما قلنا بتقادم الأزمان فإن الله تعالى خلق هذا الكون وابتدأ خلقه ولم يكن موجوداً قبل أن يخلقه تبارك وتعالى, يعني: يكذب رحمه الله الملاحدة ويكذب المفترين.

قال: ولله الأمر من قبل ومن بعد والله تعالى أعلم.

إذاً: نجد أحقاباً وآماداً بعيدة، ونجد موقفاً واضحاً للعلماء من هذه الأحقاب والآماد، ويجعلون نقاط ارتباط ثابتة بالأحاديث الصحيحة ليصلوا إلى نظر تقريبي في هذا الموضوع، فهذا الشأن العام في التاريخ الإسلامي قبل ظهور العلم الحديث.

ما الذي نجده في العلم الحديث؟ هذا الذي نريد أن نمثل به, كما قلنا دائرة معارف باللغة الانجليزية معروفة، وضّحَت ليس فقط تاريخ الإنسان, وتاريخ الخليقة بشكل مختصر -كما يزعمون-، أول ما يبتدئ من اليسار إلى اليمين 3,05 بليون سنة, -يعني: مليار- سابقة وهي أول الحياة البدائية في نظرهم كما تقول نظرية التطور, ثم يتطور ويتدرج كما تلاحظون إلى أن يصبح آخر رقم عشرة آلاف سنة!

لاحظ النسبة الهائلة مليارات هنا وهنا فقط عشرة آلاف سنة! وهنا نجد صورة البشر بشكلهم الحقيقي الحالي ولكنهم عراة، -رجل وامرأة عراة ويشوون على النار- كما يظنون أن هذا هو بداية الإنسانية؛ عارية وهمجية واكتشاف النار وبداية الحضارة -يعني: نوعاً ما عندهم اكتشاف النار- فقط عشرة آلاف سنة!

هذا الأمد العلم الغربي يراه كأنه حقيقة أو أشبه ما يكون بالحقيقة، ونحن لا يمكن أن ننكر أن هناك آليات لهذا؛ لكن هل بهذا الرقم؟ هل بهذه الدقة؟ طبعاً الله أعلم تختلف فيه الآراء، وهي عبارة عن الساعات التي يحسبون بها ومن أهمها الكربون, لعله في حلقة قادمة إن شاء الله يأتي الحديث عن كيف يحسب عمر الصخور أو عمر العظام أو ما أشبه ذلك من خلال الكربون بالذات.

نرجع إلى المثال الثالث وهو كتاب مدرسي بسيط، كتاب علم الأرض للصف الثالث الثانوي قسم العلوم الطبيعية الذي تقرره وزارة التربية والتعليم في المملكة العربية السعودية ، فماذا نجد؟!

نجده يتكلم -ومن خلال الاستدلال بالكربون المشع وغيره من الساعات النووية- أن عمر الأرض يزيد عن أربعة آلاف وستمائة مليون سنة، يعني: أربعة مليارات وستمائة، -وهو ليس كما في دائرة

المعارف هنا- طبعاً هو ليس عمر الأرض؛ لكن يفترضون أن الأرض قبل بداية الحياة.

هذه النسب كما نراها التفاوت بينها كبير، وليست القضية في التفاوت, بل القضية هي قضية أين المصدر الحق؟

كيف نتخذ الوسيلة الصحيحة للمعرفة؟

إذا كانت لدينا الآلية الحقيقية للمعرفة, ولدينا الوسيلة الصحيحة للمعرفة، فلا يضرنا أن نخطأ في التقادير، حتى علماء الإسلام يجتهدون في استنباط الأحكام من الآيات ويخطئون ويصيب البعض، ويتقاربون أحياناً ويختلفون أحياناً ويتفقون أحياناً وهكذا؛ لكن المشكلة كما نرى هناك تراثاً هائلاً وأكواماً هائلة وأرقاماً متباينة تبايناً شديداً جداً، ومع ذلك فإننا نستطيع من خلال هذا الظلام وهذا الركام أن نجمع بصيصاً من النور مع شيء من النور مع شيء من الاستدلال بالعقل الصحيح حتى نصل إن شاء الله تبارك وتعالى إلى الحقيقة، ونجد أنه على كل حال وعلى كل الافتراضات ليس في الكتاب ولا في السنة ما يخالف الحق على الإطلاق؛ بل ما ثبت في الكتاب والسنة الصحيحة فهو حق مطلق؛ مهما تطورت العلوم فإنها تخدمه وتؤكده.

وهنا نعيد المثال الذي ذكرناه في اللقاء الأول؛ وهو أن الذي استأجر المحامي والذي دفع النفقة والذي نقب عن الملفات والذي فعل كل شيء من هذه يثبت أن هذا الدين حق، كما قال الله تبارك وتعالى: ((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ))[فصلت:53].

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب، وهذا النور المبين، إنه على كل شيء قدير.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد.

الحلقة الرابعة: التاريخ وما قبل التاريخ

العناصر:

1.مقدمة.

2.تقسيم التاريخ إلى مرحلتين. (ما قبل التاريخ وما بعده)

3.إشكالية الدين في العصور الحجرية:

-ما هو ما قبل التاريخ.

-ما معنى الدين عندهم؟!

4.نظرية التطور بشقيها المعرفي والعضوي وأثرها.

5.نظريات (لا دينية) تثبت خطأ نظرية التطور:

-البنيوية

-الانتربولوجيا وروابط بين الحضارات!.

-فطرة الإنسان إذا تحرر من النظريات. (ول ديورانت)

6.الخاتمة والخلاصة.

تصنيف علم التاريخ وبحوثه

الحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه أجمعين, وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين. أما بعد: في اللقاءات الماضية كان الحديث عن التاريخ بنظرة شمولية من حيث الآماد والأبعاد، والمناهج المختلفة في النظر إليه, وما يمكن أن ينتج عن ذلك -وهو الذي يهمنا دائماً- وهو العلاقة بين الدين وبين التاريخ، أو بين العقائد جملة وظهورها وبين واقعها أو ظرفها التاريخي الذي وقعت فيه. وفي هذه الحلقة إن شاء الله تعالى ندخل إلى تفصيل في التاريخ بالحديث عن مرحلة التاريخ, وما قبل التاريخ؛ لنستنتج بعد ذلك العلاقة الأقوى والارتباط الأوثق بينها وبين العقائد، والنظرة إلى العقائد الدينية من حيث ظهور تلك العقائد. وهذه قضية مهمة جداً في تاريخ الفكر البشري منذ القدم، وتتعلق بها نظريات كثيرة في الأحياء وفي الجيولوجيا وفي الدين وفي المنطق

وفي الفلسفة؛ بل إن الفكر البشري بجملته في العصر الحاضر يكاد يقوم على هذه العقائد أو على هذه النظريات، التي منها اشتقت أكثر العلوم, وقامت عليها كثير من العلوم التي قد تبتعد أو تقترب قليلاً من هذه الموضوعات؛ ولكنها في النهاية متأثرة بها تأثراً واضحاً شديداً. من المعروف لدينا تقسيم العلوم إلى عملية وأدبية، والمعروف أن كل بحث أدبي فهو تاريخي كما يقولون, بمعنى: أن البحوث النظرية بخلاف البحوث التطبيقية؛ فالبحث فيها تاريخي؛ لأنك إن كتبت عن دين أو كتبت عن فرقة أو كتبت عن رجل أو عن شيء تريد جوانب معينة من حياته؛ فإن البحث في النهاية هو تاريخي, ومن هنا ترتبط وتقوى العلاقة ما بين التاريخ وبين الحكم على الناس أو العقائد أو الأشياء من خلال فلسفة أو منهج معين. فبذلك نجد أن هذا الارتباط الوثيق يجعل تحديد حقيقة ما قبل التاريخ، أو التاريخ نفسه، أو أهمية التاريخ خطيرة جداً في هذا الشأن؛ لأنه ينبني عليه ويرتبط به هذا الشأن في كل البحوث النظرية والتطبيقية.

تقسيم التاريخ لدى المتحدثين عن نشأة الخليقة إلى مرحلتين

فعندما نحن نتحدث عن نشأة الحضارة، أو كما يتحدثون هم عن نشأة الأديان، ونريد أن نؤصل لهذا، ونبطل النظريات الباطلة، ونؤكد الحقائق اليقينية القطعية في هذا، -وهي التي ينبغي أن يسعى ويبحث عنها كل عالم في هذه العلوم-، فالكل سوف يجد نفسه أمام هذا التقسيم الذي وضعه أولئك وهو تقسيم التاريخ إلى:

مرحلة ما قبل التاريخ.

ومرحلة التاريخ.

ومرحلة ما قبل التاريخ كما يقول أحد الكتاب المهمين فيها وهو الدكتور: محمد غلاب في كتاب: الجغرافيا التاريخية عصر ما قبل التاريخ : اتفق العلماء على إطلاق تعبير ما قبل التاريخ على العصر السابق لمعرفة الإنسان الكتابة, يعني: الكتابة هي الحد الفاصل ما بين عصر ما قبل التاريخ والتاريخ، فأياً كان نوع الكتابة وأياً كان شكلها وأياً كان قدمها فهي الحد والمعلم ما بين هذا التاريخ وما بعده.

إشكاليات متعلقة بالعصر الحجري

وبتعبير آخر يطلق على هذه العصور: العصر الحجري، ونحن نلاحظ في اللغات الدارجة عند العامة

أننا نستخدم العصر الحجري، بمعنى الماضي القديم البدائي أو الهمجي، أو ما يتسم بالعفوية أو أحياناً بالغباوة وما أشبه ذلك، فيقال: هذه أفكار حجرية أو من العصور الحجرية وما أشبه ذلك. فهل لهذا المدلول حقيقة؟! وهل هو صحيح؟ نحن نحتاج إلى أن ننظر نظرة عقلية علمية ونتأكد من هذا! فمثلاً عندما نقول: دين ما قبل التاريخ. نجد أن عندنا مصطلحين: الدين، وما قبل التاريخ، أو الدين في العصور الحجرية. ونجد أن كلاً من المصطلحين فيه إشكالية! إشكالية ما هو ما قبل التاريخ؟! ثم إشكالية ما هو الدين الذي حكمنا من خلاله على أنه بهذا الشكل أو بذاك، وهما مشكلتان عميقتان عويصتان جداً، لا يمكن للعلماء في التاريخ أو الأنتربولوجيا أو في مقارنة الأديان أو في العلوم الإنسانية عامة أن يتفقوا عليها؛ لأنها إشكالية واسعة وعميقة وهائلة جداً كما سوف نوضح إن شاء الله تبارك وتعالى.

إشكالية كون المراد بالعصر الحجري ما قبل الكتابة

فمثلاً: إذا قلنا: إن القضية هي قضية ما قبل الكتابة، أو إن عصر ما قبل التاريخ أو العصر الحجري هو ما قبل الكتابة، فمعنى ذلك أنه لا يمكن أن يكون في حياة البشرية معالم واضحة فاصلة مُحَدِّدة لهذا العصر عما قبله وما بعده! كيف يكون هذا؟!

إلى الآن يوجد مجتمعات لا تعرف الكتابة! إلى هذه المرحلة! وهي مجتمعات في أستراليا وفي المناطق الاستوائية في أفريقيا وفي الأمازون وغير ذلك، لا ترتقي إلى ما جعلوه حداً فاصلاً بين العصر الحجري وبين العصر الحديث الحضاري.

فهل نعتبر أن العصر الحجري يمتد في كل أعماق التاريخ؟!

هذه تدل على أن هذا التعريف غير واضح, وغير منضبط في عموم البشرية، وإنما وضع في أوروبا كما قلنا لمركزية معينة كان ينظر إليها الناقدون الأوربيون وهو التاريخ الأوربي في ذاته.

ومع ذلك نشاهد أنه حتى داخل العالم -أوروبا وما حولها- نجد أن هناك اختلافاً وتبايناً في الانتقال من العصر الحجري إلى العصر الذي بعده, فمثلاً: عندما نتحدث عن العصر الحجري في بلاد الرافدين و مصر نجدهم يقولون: إنه انتهى تقريباً قبل خمسة آلاف سنة من الآن, يعني: أنه كان قبل ثلاثة آلاف قبل الميلاد, معنى ذلك: أنه قديم، وربما يكون في الصين أو في الهند أقدم من ذلك؛ لكن في أوروبا لم يصل إلى أي من هذه المراحل القديمة بهذا الشكل على الإطلاق.

فنحن نجد في الكتاب الذي أصدره مجموعة من العلماء العراقيين -وهو في الحقيقة بحوث علمية مركزة عن تاريخ العراق- يقولون: إن هناك إشكالية في قصر المسافة التاريخية الخمسة آلاف سنة, والإشكالية أن هذه الخمسة آلاف أيضاً لا تشمل العالم كما وضحنا، وإنما تشمل الجزء المتحضر منه وهو العراق و مصر ثم جزيرة العرب التي سوف نثبت من كلامهم هم أنها أصل هذه الحضارات.

لكن المقصود أنه حتى على هذه الإشكالية يقولون: العراق و مصر كانا يعيشان عصور ما قبل التاريخ إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، أما شمال أفريقيا فكان يعيش العصر الحجري -أو ما قبل التاريخ- إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد, واليونان ظلوا في هذه العهود إلى القرن الثامن قبل الميلاد, شمال أوروبا ظل فيها إلى القرن الأول قبل الميلاد, ثم معظم العالم الجديد ظل في هذه الحقبة الحجرية أو ما قبل التاريخ حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

إذاً: هناك إشكالية كبيرة جداً في هذه المصطلحات وبالذات مصطلح: العصر الحجري أو ما قبل التاريخ، فهو لا يدل بدقة على معنى محدد ومعلم واضح.

إشكال معنى الدين في العصر الحجري

الإشكالية الأخرى هي: إشكالية الدين. ما معنى الدين عندهم؟ إذا قلنا: أديان ما قبل التاريخ أو الدين في العصر الحجري فما معنى الدين هنا في هذه المرحلة؟! معنى الدين هنا يرتبط بالدلائل التي يمكن أن نعرف بها ماهيته وحقيقته ونوعه، إذا كنا نقول: إنه بعد الكتابة فالأديان حرفت كتابياً، الكتب السماوية نفسها حرفت وهي مقدسة عند أهلها، النقوش أو التدوين الآثاري المكتوب على الورق وعلى الحجارة وما أشبه ذلك قابل للتحريف والتبديل، مع أنه ينطق ويتحدث, يعني: نستطيع أن نقرأ منه معلومات ثابتة، فكيف في عصر ما قبل التاريخ الذي لا يعتمد على الكتابة؛ لأنه إذا وجدنا كتابة اعتبرناها داخلة في عصر التاريخ، إذا لم يكن كتابة فهو عصر ما قبل التاريخ. إذاً: كيف يمكننا أن نعرف ونحدد ما هو الدين في عصر ما قبل التاريخ؟!

إشكال صعوبة تحديد سبب تسمية العصر الحجري بهذا الاسم

والعصر الحجري لماذا سمي عصراً حجرياً؟! طبعاً المصطلح هذا له سبب, نقوله إجمالاً: لأن الاعتماد أو الآلة المستخدمة فيه هي الحجر, وهذا يدخلنا في متاهة أخرى! هل بالفعل الناس في هذه الأحقاب والآماد الطويلة التي يجعلها بعضهم مئات الألوف من السنين لم يعرفوا إلا الحجر فقط! ولم يعرفوا شيئاً آخر؟!

ثم بعد ذلك الانتقال من عصر الحجر إلى عصر النحاس أو البرونز -وهو النحاس مع القصدير- يفسرون تاريخ الإنسان من خلال الأداة التي يستخدمها.

بمعنى آخر: أننا في عصور ما قبل التاريخ لا نجد آثاراً مكتوبة لكننا نجد بقايا أدوات مستخدمة، هذه الأدوات المستخدمة عبارة عن بقايا حجارة كان الإنسان يستخدمها؛ حجارة مدببة مسننة إلى حد ما تدل على أن الإنسان عمل فيها شيئاً ما أو حاول أن يطور فيها بعض الأمور؛ لكي يستخدمها في أغراضه المعيشية.

هناك اتجاه آخر في تحديد هذا -وهو اتجاه شائع في أوروبا و أمريكا أيضاً- ألا نعتمد على الأداة التي يستخدمها الإنسان في تقسيم العصور، إنما نعتمد على طريقة العيش أو الإنتاج الغذائي نفسه، فإذا عرفنا كيف كان الإنسان يأكل وكيف كان يشرب؟ فإن كان يعتمد على الصيد المجرد فمعنى ذلك: أنه يمكن أن يضرب الفريسة أو الطريدة بأي حجر أو بأي عصا يمسكها بيده أو بأي شيء, ولا يوجد دليل على أداة معينة لهذا الاستخدام.

إذا وجد مثلاً أنه يستخدم النار معنى ذلك أنه عرف شيئاً من هذه الاستخدامات، وإذا وجدناه يزرع معنى ذلك: أنه عن طريق الحجر أو غيره استطاع أن يحفر الأرض وأن يضع فيها البذور ثم يزرع؛ فلذلك العصر الحجري عندهم أو عصر ما قبل التاريخ يُنظر إليه من الناحية الاقتصادية أو أسلوب المعيشة لا من حيث أداة المعيشة.

والواقع أن كلا النظريتين تتجه بالإنسان اتجاهاً مادياً هابطاً جداً، بمعنى: أنك لا تستطيع أن تأخذ فكر الإنسان وعقيدة الإنسان وشعوره ونموه الحضاري إلا من خلال الأداة التي يستخدمها, وهذه أبعد شيء عن روح الإنسان وعقله وفكره, أو من خلال طريقته في الأكل أيضاً وهذا بعيد جداً عن المشاعر وعن الروح وعن القيم!

بمعنى آخر: أن هؤلاء يستبعدون الإيمان بالروح، والإيمان بالفطرة، والإيمان بالحاجة إلى التدين، وبالحاجة إلى معرفة الله تبارك وتعالى، وما أعطاه الله تعالى وأودعه فيه من علم يستطيع به أن يرقى بفهمه إلى أن يكون أسمى وأعلى من أن يكون حيواناً يستخدم أداة أو ما أشبه ذلك، ومع هذا -مع الأسف الشديد- هذه النظرية الرائجة التي بناء على ما بعدها استطاع الإنسان -كما يقولون- أن يتقدم.

فمثلاً: عندما نجد هنري برستد الكاتب المشهور، -مشهور جداً طبعاً عندنا في الشرق نتيجة

ترجمات البعض لكتبه, منهم الدكتور أحمد فخري العالم المؤرخ المشهور ترجم كتابه انتصار الحضارة ، و انتصار الحضارة لـ بروستد أو قصة الحضارة لـ ديورانت وما أشبهها تركز كثيراً أو تبين مثل هذه القضايا.

مثلاً: يقول بروستد في صفحة إحدى عشر عن الإنسان في هذه المرحلة: كان همجياً ولكنه أرقى قليلاً من الحيوانات التي حوله مهما كانت متقدمة, وإنه لم يكن يمتلك شيئاً غير يديه الفارغتين يستعملهما لحماية نفسه وإشباع جوعه وتأدية كل أغراضه.

ولا شك -كما يقول- أنه كانت تعوزه القدرة على الحديث المنتظم، ولم يكن في مقدوره أن يشعل النار, ولم يكن هناك من يعلمه شيئاً من ذلك, وهكذا كان أقدم البشر مضطرين لأن يتعلموا كل شيء بأنفسهم عندما بدءوا في هذه الحالة, وكان سبيلهم إلى ذلك التجربة البطيئة والمجهود الطويل.

نختم بفقره من كلامه حيث يقول: لقد مرت أجيال طويلة على هذا الإنسان, وكان في ذهنه الهمجي شيء من شعاع الذكاء, ولكنه لم يحقق شيئاً من هذه الاختراعات؛ بل لم يفكر أن في استطاعته أن يتمكن من إنتاجها.

وبناء عليه فإنه في نظرهم اقتصر الإنسان على الأدوات الحادة، وأول ما استخدم الحجارة -لأنها في نظرهم سهلة متوفرة وقريبة منه فبدأ يستخدمها- وبدأ يفكر كيف يعيش ويتطور من خلال أدوات أخرى غير يديه الفارغتين, وكانت هذه الحجارة أقرب ما لديه في هذا الوجود.

الحقيقة أن هناك مشكلة فكرية أشار إليها الدكتور محمد غلاب - وهو باحث وعالم كبير جداً في الجغرافيا, وفي التطور؛ لكنه مع الأسف فكره فكر منحرف؛ لكن يهمنا الآن أن نأخذ منه- إشكالية الدور الناشئ عن هذه النظرية، وهو الدور بمعناه المنطقي, يعني: أن يتوقف الشيء على الشيء, ويتوقف الآخر عليه بحيث لا ننتهي إلى نتيجة حاسمة في هذا الموضوع.

يقول: مشكلتنا في عصر ما قبل التاريخ هو أن المقياس فيه هو الإنسان نفسه.

بمعنى آخر: إذا كان لدينا إنسان فإن لدينا حضارة, أو إذا كان لدينا حضارة فإن لدينا إنساناً! إذا: من أين نبدأ؟ وكيف نعرف من الذي بدأ؟ وكيف بدأت الحضارة؟!

فمثلاً: إذا أثبتنا أن حضارة ما موجودة في مكان معين فهذا يعني أن هناك بشراً، وهذا يبطل

القول بأن قبل البشر أنواعاً كما يسمونها الإنسان غير العاقل أو القردة العليا أو ما أشبه ذلك أنشأت هذه الحضارة, وإذا قلنا هناك إنسان موجود فهل يمكن أن يكون الإنسان إلا ومعه الحضارة!

فهنا نشأت إشكالية: هل هؤلاء البشر أسوياء؟! أو أننا نقول -كما على كلام بروستد الماضي-: همج لا يدركون شيئاً، ولم تبدأ المرحلة الإنسانية بعد، فمن تصفهم بأنهم لا يملكون إلا أيديهم الفارغة وهمج، ليسوا بشراً وإنما هم كما يقال: القردة العليا أو ما أشبه ذلك!

دخلوا في هذه المتاهة فلم يستطيعوا أن يخرجوا منها, ولم يستطيعوا أن يحددوا اليقين, أو يجزموا بشيء في هذه القضايا التاريخية الخطيرة والمهمة.

التدين في عصر ما قبل التاريخ

وبذلك نصل إلى نقد قضية التدين في هذه العصور؛ فلننظر إلى ما كتبه أحد العلماء الغربيين عن أديان ما قبل التاريخ.

هناك علماء أقرب إلى النظرة العقلية السليمة في هذا الموضوع، وهو أنهم قالوا: لنفترض أننا ذهبنا وأتينا بإنسان من خارج الأرض من الفضاء, ووضعناه في مكان ووضعنا أمامه كوباً وسكيناً وخبزاً أو ما أشبه ذلك، ما الذي يمكن أن يفهمه هذا الإنسان مهما كان ذكياً أو عاقلاً من وجود هذه الأشياء؟! لماذا أتوا بهذا المثال؟ لأن العشاء المقدس؛ العشاء الرباني في الكنيسة يعتمد على الخمر والسكين والخبز مثلاً، فالأدوات هذه موجودة؛ لكن ما دلالة الأداة على أن هذا قربان مقدس تفعله الكنيسة وتعتقد فيه، كما هي عقيدتها الباطلة أن المسيح عليه السلام أمرهم به, وأنه قال: الخمر دمي فاشربوه, والخبز لحمي فكلوه حتى تمتلئوا مني.

الأمر العقلي بعيد جداً، ودلالة الآلات أو الأشياء الحجرية الموجودة في عصور ما قبل التاريخ -إذا كانت حجارة أو عظاماً أو ما أشبه ذلك- بعيدة جداً عن أن تدلنا على ما كان يعتقد هؤلاء, وما الذي كانوا يؤمنون به؛ فلا تدلنا الآلات أبداً على العقائد؛ لكن هناك افتراضات وهناك تأويلات، وهناك بعض الأمور التي تدل على شيء.

ذكر هو مثالاً ظريفاً ومفيداً جداً يقول: لم يوجد في كل رسوم ما قبل التاريخ الحيوانية -على كثرة ما رسم من الحيوانات وخاصة الثور البري البيسون وما أشبهه- على الإطلاق تصوير للأعضاء

التناسلية للحيوان أو طريقة التناسل! إما أنها كانت تطمس عمداً أو أنها لا تكتب؛ فلا نستطيع أن ندرس الحيوانات أو الكائنات القديمة أو الإنسان القديم ونظرته الجنسية أو الحيوانات من ناحية جنسية؛ لأنها كانت إما تمحى عمداً أو أنها لا تكتب.

معنى ذلك: نستطيع أن نفهم من ذلك أن الطهارة والفضيلة والعفة والبعد عن الفحش فطرة موجودة، ولم يستطيعوا -ولله الحمد- أن يثبتوا شيئاً خلاف ذلك.

المقصود هنا: هو بُعد المسافة بين دلالة مصادر المعرفة التي هي الأدوات البسيطة على حقيقة الدين؛ ما الذي كان يدينون به؟

ونحن نستطيع أن نؤكد أمراً آخر؛ وهو أن هذه الأدوات تدل على أنه يوجد دين, وهذه حقيقة لا يكاد ينكرها أحد؛ ولكن لتأكيدها نقول: إن هذه الأمور التي هي من تراث العصر الحجري يدل على التدين.

على سبيل المثال: القبور! هناك قبور معروفة قديمة جداً موجودة في العالم كله، وهناك طريقة الدفن, وهناك توجه القبور؛ كما يؤكد مرسيا إيلاد أن القبور القديمة كثير منها كانت توجه إلى جهة الشمس! فهل هذه عبادة الشمس؟!

وكذلك ما يوضع مع الميت من أدوات، هذه أيضاً يمكن أن تدلنا على أن هناك ديناً، وهو مرتبط بأديان موجودة الآن في العصر المصري القديم -هذا شيء معروف جداً لعلنا نأتي لموضوعه بالتفصيل- هناك علاقة عندهم بين الحياة الأخرى وبين ما كان يستخدمه الإنسان من أدوات فتدفن معه، وكذلك في اليابان كما فعلوا مع الإمبراطور وغير ذلك.

إذاً: هناك ارتباط مفهوم حياة أخرى, مفهوم دين, تدلنا عليه هذه الآثار أو البواقي الموجودة في القبور، وأدوات الميت أو طريقة الدفن، فيمكن أن نقول باختصار بأن الشعائر الجنائزية تدلنا على أن هناك ديناً.

لكن هل تدل على دين معين دون دين آخر؟!

وهل يمكن أن تدلنا على أن الأصل في الناس هو الشرك والكفر والإلحاد وعدم معرفة الله إلى أن تطوروا فعرفوا الله تبارك وتعالى؟!

لا يمكن ذلك أبداً بأي شكل من الأشكال.

نظرية التطور الإنساني

وبذلك نصل إلى النقطة الحاسمة جداً في هذا؛ وهي الإيمان بنظرية التطور بشقيها: التطور العضوي, والتطور المعرفي أو العملي.

نظرية التطور العضوي

التطور العضوي: المقصود به نظرية تشارلز داروين وهي النظرية المشهورة والمعروفة في الكائنات العضوية؛ أنها بحسب قانون الانتخاب الطبيعي تطورت، وأن البقاء للأقوى أو للأصلح، وأن الإنسان من أصل حيواني واحد أو متعدد اختلفوا في هذا اختلافاً شديداً, وهي نظرية كلما تقدم الزمن يبطلها أكثر فأكثر, ولا يهمنا الآن إبطالها من ناحية علمية فقط؛ بل فيما يتعلق بهذا الموضوع نقول: إن العلماء في خارج علم الأحياء ومنه أيضاً -الجميع الآن- جعلوها محل شك، وهي لم ترق يوماً من الأيام إلى أن تكون حقيقة, وإنما هي افتراضية أو نظرية لم تثبت بعد.

لكن الدلائل الموجودة الآن والتي اكتشفت في السنوات الأخيرة في علم الوراثة والرموز أو الشفرات الوراثية والجينات وأمور كثيرة جداً؛ تؤكد أن البشر جميعاً من أصل واحد، وأنهم من آدم عليه السلام.

بمعنى آخر -وإن شاء الله نأتي بهذه النقول في موضوعها- كثير منهم يقول: لم يبق هناك أي شك بأن ما جاءت به الأديان عن الإنسان الأول, وعن حقيقة الجنس البشري ووحدته هي حقيقة! فقط الإشكال في المدة، والمدة لا مشكلة, نحن بينّا في الحلقات الماضية أن الخطأ جاء في التوراة وغيرها في المدة؛ لكن أن الناس خلقوا من آدم و حواء وأن أصلهم واحد أي وحدة الجنس البشري، وأنه خلق مكرم فضله الله تعالى وكرمه؛ فهذه أصبحت -والحمد لله- حقيقة واضحة.

نظرية التطور المعرفي

نرجع للنظرية الأخرى وهي مرتبطة بهذه؛ وهي نظرية التطور العلمي أو المعرفي التي وضعها أوجست كونت -وهو باحث فرنسي- في القرن التاسع عشر.

التطور هذا يقوم على أن البشرية مرت بثلاث مراحل:

مرحلة السحر أو الخرافة والهمجية.

والمرحلة الثانية: مرحلة الدين.

والمرحلة الثالثة: مرحلة العقلية أو الوضعية.

وهذه أيضاً نظرية تصادف رواجاً كبيراً جداً عند كثير من الناس؛ فيتصورن أن الإنسان القديم الذي كان يسكن الغابة أو يسكن في الأكواخ هو إنسان يؤمن بالسحر والخرافة، وفي العصور الوسطى لما تطورت الحضارة قليلاً وصار يركب الجمل ويستخدم بعض الأمور فهذا عصر الدين، والآن مع التقدم العلمي والتقني فالعصر عصر الإلحاد وعصر الوضعية.

التسذيج والتبسيط في العلاقة ما بين الإيمان وما بين الشكل أو الوجود والشكل المعيشي أو الحضاري للإنسان إذا وصل لهذه الدرجة؛ فكثير من الناس يصدقهم؛ خاصة أن أديان الهند وأديان الصين والدين الكتابي نفسه اليهودية و النصرانية تَبَيَّن بطلانها، ومع ضعف المسلمين وتقهقرهم وتأخرهم راجت هذه العقيدة في أكثر العالم الإسلامي مع الأسف؛ حتى أن كثيراً من الكليات في العالم الإسلامي نفسه تَدْرس هذا الكلام، وكأنها مراحل حقيقية مرت بها البشرية! وكأن الناس تطوروا من الشرك إلى التوحيد، وكأن التوحيد -الذي نحن ندين به والحمد لله تعالى- إنما جاء عن طريق بشر غير أنبياء -عن طريق بشر عاديين- وعن طريق ملوك وعلماء وباحثين ومفكرين.

ولذلك دخلت الفلسفات والوثنيات الكثيرة؛ حتى في الفكر الإسلامي -سنوضح هذا إن شاء الله في حلقة مستقلة أو أكثر عن اليونانيين وجاهليتهم وهمجيتهم, ومع ذلك فإن الفكر اليوناني رائج مع الأسف الشديد, وغيره من الماديات, والأفكار الإلحادية الحديثة دخلت إلى المسلمين من خلال هذا الإيمان الساذج البسيط؛ بأن البشرية كما تطورت في الناحية المعيشية والناحية المادية، فهي أيضاً تطورت في الناحية العقلية وفي الناحية الإيمانية التي هي أعظم من ذلك وأعمق، والتي هي الميزة التي ميز الله تبارك وتعالى بها الإنسان وهو أنه مؤمن بالله تعالى، وبهذا الإيمان يمكن أن يتغير الشكل المعيشي أو البيئة التي يعيش فيها حضارياً، لكن لا يتغير أبداً شعوره وإيمانه بالله سبحانه وتعالى، وبحاجة إلى معبود يعبده فيضِل يعبد غير الله وينحرف في ذلك؛ لكن الأصل هو التوحيد في البشرية, في كل الجنس البشري الأصل أنهم كانوا قروناً جميعاً على التوحيد، والأصل أيضاً في كل إنسان الفطرة الصحيحة؛ فهو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة)؛ فكل مولود أياً كان يولد على الفطرة: ((فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ))[الروم:30]؛ لكن بعد ذلك التربية تُغيره؛ (فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه), ولم يقل: (يسلمانه)؛ لأنه أصلاً

ولد على الإسلام الذي يولد عليه كل إنسان، وهو معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده ففي أي وضع بيئي ولد وفي أي وضع حضاري نشأ، فهذه هي العقيدة التي يعتقدها ويجب أن يؤمن بها كل مسلم.

المقصود من هذا هو أن كلا النظريتين نظرية التطور العضوي لداروين، ونظرية التطور الفكري لأوجست كونت أثرتا وتؤثران في النظرة إلى التاريخ بهذا الشكل، كما أن النظريات التاريخية تؤثر تأثيراً كبيراً فيها؛ فكأن كلاً منهما يقوي الآخر مع أن كل منهما ينتقد الآخر أيضاً، وبذلك أصبحت النظرية أو العقيدة السائدة والغالبة في معظم المناهج الدراسية والمنهجية وفي معظم الأفكار البشرية في العالم اليوم؛ تقوم على أن الإنسان مرَّ بعصر همجي، ومرحلة لا تديُّن أو مرحلة الدين البسيط الساذج البدائي، ثم انتقل منها إلى مرحلة الأديان المعروفة؛ منها طبعاً البراهمية البوذية، ثم الأديان الكتابية: الزرادشتية و اليهودية و النصرانية والإسلام، ثم إلى المرحلة الحديثة -كما يزعمون- مرحلة الفكر الوضعي أو الفكر المادي أو الفكر العلمي، الذي يقتضي في نظرهم وفي نظر كثير منهم أن الإنسان لا يحتاج إلى الإيمان بالغيب أو ما أشبه ذلك.

نظريات مناقضة لنظريتي التطور

هنا ينبغي لنا أن نأتي على جانب مهم جداً في هذا، وهو أنه ليست المسألة بهذا الإجماع في الغرب؛ لكن هناك مدارس -هي ضالة أيضاً ومنحرفة في نظرتها للدين لكنها- عكست ذلك، يعني: نحن الآن يمكن أن نستفيد منها أنها قلبت لهم ظهر المجن, وأنها أرادت أن تثبت أن هذه النظريات خاطئة, وهذا يكفينا؛ لأن إثبات خطأ هذه النظريات بنفس الطريقة وبنفس الوسيلة هو كاف لمن يعقل أو يفطن. ونشير هنا إلى نوعين فقط -على عجل أيضاً كما أخذنا النظريتين الأخريين بعجل-.

النظرية البنيوية

النظرية الأولى: هي النظرية البنيوية, أو الفلسفة البنيوية, وهي فلسفة حديثة ظهرت في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية؛ لكنها استطاعت أن تجتاح كثيراً من المفكرين ولا سيما في فرنسا وفي غيرها؛ فهي تنظر للأمور على أنها بُنية ولا تنظر إليها على أنها أحادية مسطحة مبسطة، فعندهم أن البنية التفكيرية أو البنية العقلية؛ البنية المعرفية للإنسان منذ أن عُرف واحدة, وأنها لم تكن مبسطة ثم تعقدت؛ بل يقولون: إن الأديان الأكثر تعقيداً هي الأديان البدائية أو الأديان ما يسمى الهمجية. ويقولون: إن المشاعر والتفكير عند الإنسان الذي يعيش في الغابة أعمق والحاسة السادسة أو السابعة

عنده موجودة أقوى وربما مفقودة عند الإنسان الحديث!

وبهذه الطريقة نوع من الانقلاب الفكري أحدثته النظرية البنيوية في النظرة إلى الجنس البشري وإلى الأفكار البشرية، وإلى اللغة بالذات وإلى دلالة اللغة، وإلى دلالة الأشياء التي يمكن أن نعتبرها مواداً للتاريخ أو نأخذ منها نظرية في المعرفة التاريخية؛ البنيوية قلبت هذه الأشياء وجعلتنا أمام بُنية من التفكير, ونسق متكامل, ولسنا أمام أفكار أحادية بسيطة.

فمثلاً: عندما يدرسون (الفُلكلور) فهم لا يدرسونه على أنه مجرد نوع من الأدب الشعبي الخرافي؛ بل يدرسونه على أنه دال من حيث دلالته القوية والواضحة على أن هناك فكراً منظماً، وعلى أن هناك عمقاً في النظرة, وعلى أن هناك عقائد دقيقة ومفصلة من الصعب فهمها إلا إذا درستها دراسة طويلة جداً. وهكذا.

وغيرت البنيوية النظرة إلى الأسطورة تغيراً كبيراً، فبعد أن كانت خرافة صنعها الوهم، أصبحت الاتجاهات والدراسات الحديثة الآن تقول: الأسطورة لها دلالات, لها أبعاد, لها أعماق، تعبر عن شعور الإنسان, تعبر عن دين الإنسان، تعبر عن حقائق كثيرة جداً، فلا يمكن أن ننظر إليها النظرة القديمة! لماذا هذه الأسطورة وجدت؟! لماذا في هذه البيئة؟ ولماذا تركبت الأسطورة من هذه العناصر؟!

هناك مجالات واسعة وعميقة للبحث العلمي؛ فربما تكون بعض الأساطير أعقد بكثير وأعمق في التفكير من أي نظرية لأرسطو أو لأفلاطون ؛ بل من أي نظرية لفيلسوف معاصر مثل: برانتد راسل أو وليام جيمس , أو أي واحد من هؤلاء.

حقيقة التفكير البنيوي في جملته وهو لا يزال يحتاج إلى تمحيص وإلى نقد وإلى دراسة؛ لكنه أدى إلى نوع من الانقلاب الفكري في النظرة.

الاتجاهات الأنتربولوجية

هناك أيضاً المدارس أو الاتجاهات الأنتربولوجية.

الأنتربولوجيا بأنواعها: الثقافية أو الدينية عندما تدرس أحوال الشعوب -وفعلاً خُصص باحثون لدراسة الشعوب وأحوالها- وُجد أن المسألة أعمق بكثير مما كان فريزر يقوله, مثلاً: في الغصن الذهبي، وجد أن القضية ليست بالبساطة الشديدة عندما ننظر إلى الإنسان كحقيقة إنسانية نفسية، نجد أن هناك أعماقاً بعيدة جداً, وأغواراً في النفس الإنسانية, ومطامع ورغبات وأهواء وشهوات، كما

نجد أن اختلاف المعبودات، هل هي قوى خفية؟! هل هي كما يسمونها الأرواح الخفية؟! نجد علاقات مشتركة تفسر لماذا نجد نفس النوع من العبادة؟!

الأهرام موجودة في مصر -مشهورة يعرفها العالم كله- لكن موجودة أيضاً في الكونغو! وموجودة في اليابان! وموجودة في أمريكا الجنوبية! فهناك روابط خفية تربط هذه الحضارات.

قضية المنقذ أو مخلص للعالم تجدها مثلاً في عدة أديان، أو من هو هذا المخلص ومن يكون؟! هل هو نبي آخر الزمان -كما سوف نوضح إن شاء الله تعالى- أو المهدي المنتظر كما عند العقيدة الزرادشتية وفي العقيدة البراهمية ثم انتقل إلى الشيعة الإمامية مثلاً- أشياء كثيرة جداً يدرسها علم الأنتربولوجيا لينقلنا إلى أعماق ويفتح لنا أبواباً مجهولة، هو لا يعطي أجوبة, وليس شرطاً أن نأخذ منه أجوبة؛ لكنه يفتح النظرة لنا على نوافذ وعوالم مجهولة جداً لا نستطيع أن نعالجها بالنظرة البسيطة الساذجة في التاريخ وغيره، التي تقول: هناك عصر حجري وهو ما قبل التاريخ وما قبل الكتابة، وهناك العصور التاريخية وهي ما بعد ذلك وببساطة انتهي الأمر!

الحقيقة أن الأمر أعمق, وأنه أعقد من ذلك, وأن كل قضية من هذه القضايا -ولا سيما ارتباطها بالدين- تحتاج إلى عمق وإلى بحث وإلى إعادة نظر.

يعجبني حقيقة في ويل ديورانت في قصة الحضارة أن له لفتات إنسانية, فنجده أحياناً يتحرر من النظريات, ويعبر تعبيراً ذاتياً شخصياً، وقد توافقه وقد تخالفه؛ لكن إذا تحرر الإنسان من التقليد فإنه قد يصل أحياناً إلى شيء من المعقولية في كلامه.

هنا موضع طريف ننقله من كلام ديورانت تحدث فيه عن شيء في الفطرة الإنسانية عند المرأة, مثلاً: حب التزين والحلي؛ فهل المرأة البدائية أو الهمجية في العصور القديمة قبل الوسائل الحديثة كان ينقصها الشعور العاطفي, والإحساس بالجمال, والتمتع بهذا الجمال؟! الحرص على الجاذبية على أن تكون منظوراً إليها بأنها ذات جمال وذات فتنة! هل يمكن فعلاً أن هذا الشيء يتأثر بالحضارة؟! بحيث نقول مثلاً: شعر الغزل أو شعر النسيب في القرن العشرين أفضل منه في القرون الأولى أو ما أشبه ذلك مثلاً؟

يتكلم عن المرأة في أيام سومر وفي فجر الحضارة فيقول: إن نساء الطبقات العليا كن يحيين حياة مترفة وكان لهن من النعم ما يكاد يعدل بؤس أخواتهن الفقيرات, شأنهن في هذا -هذا المهم- شأن النساء في جميع الحضارات؛ فالأدهان والأصباغ والجواهر من أظهر العادات في المقابر

السومرية, وقد كشف الأستاذ ويلي في قبر الملكة -فلانة- عن مدهنة صغيرة من دهن أزرق مشرب بخضرة, وعلى دبابيس من الذهب رءوسها من اللازورد, كما عثر أيضاً على مثبتة عليها قشرة من الذهب المخرم, وقد وجدت في هذه المثبتة التي لا يزيد حجمها عن حجم الخنصر ملعقة صغيرة, لعلها كانت تستخدم في أخذ الصبغة الحمراء من المدهنة, وكان فيها أيضاً عصا معدنية يستعان بها على ملوسة -يعني: نعومة- الجلد, وملقط لعله كان يستعمل لتزجيج الحاجبين أو لنزع ما ليس مرغوباً فيه من الشعر، وكانت خواتم الملكة مصنوعة من أسلاك الذهب, وكان أحدهما مطعماً بفصوص من اللازورد, وكان عقدها من الذهب المنقوش واللازورد.

المهم يختم كلامه فيقول: وما أصدق المثل القائل: إنه لا جديد تحت الشمس، وأن الفرق بين المرأة الأولى والمرأة الأخيرة لا يتسع له سم الخياط.

يعني: المشاعر الإنسانية واحدة قد تتاح الظروف، والله تعالى قسم بين العباد معيشتهم في الحياة الدنيا، قد يكون لأنها ملكة, فتأتي بهذه الأدوات, ولو كانت في عصور سحيقة من التاريخ، وقد تكون فقيرة فلا تستطيع التعبير عن هذه المشاعر, وإن كانت في العصر أو في القرن الحادي والعشرين؛ لكن أياً كانت هي امرأة لها مشاعرها ورغباتها وتطلعاتها وكذلك الأمر في كل القضايا.

خلاصة القول في العصر الحجري

أيها الإخوة! نخلص من هذا إلى أن العصر الحجري أو عصر ما قبل التاريخ مصطلح مُضلل غامض ليس له حقيقة علمية، والنظريات التي تتحدث عن دين الإنسان في هذا العصر -وأنه كان الوثنية أو الطوطمية أو عبادة الأحياء أو الأرواح الأحيائية الأرواحية- لا تقوم على أي برهان علمي، العلم نفسه والبحوث الاجتماعية نفسها في الغرب لا تؤمن بهذا؛ بل بدأت تنتقد وتوضح مخالفته للفطرة السليمة, وأن الجهل والشرك يعتري الإنسانية في كل مراحلها.

بمعنى آخر: ثبات الفطرة الإنسانية والنزعة والرغبة البشرية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه، عندما يأتي ذكر الإنسان فإنه يوصف بكل الأوصاف التي هي في الحقيقة النفسية للإنسان أينما وجد في كل زمان ومكان، مثل: أنه ((خُلِقَ هَلُوعًا))[المعارج:19], ومثل ((وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ))[العاديات:8], وأنه إذا مسه الضر آمن وإذا مسه الخير كفر، وهكذا، فحقائق نفسية ثابتة في الإنسان من حيث هو إنسان، وفي أي مكان وجد وفي أي زمان ظهر.

الخلاصة هذه لعلنا إن شاء الله نكتفي بها في هذا اللقاء, وتكفينا لكي نعرف هشاشة وضآلة وضحالة المعرفة البشرية في هذا الأمر؛ إذا هي تجردت عن الله تبارك وتعالى، وعن دين الله، وعن معرفة الله، وعن تعليم الله تعالى للإنسان، وعن الاعتقاد بتكريم الله تبارك وتعالى للإنسان, وإن شاء الله تبارك وتعالى في حلقات قادمة نأتي على شيء من التفصيل لهذه القضايا الكبرى.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياكم إلى كل خير, وأن يهدينا سواء سبيل.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة الخامسة: نشأة الحضارة

العناصر:

1.مقدمة.

2.المنهج التطوري

-ملخص نظرية دارون

-لمحات تبين بطلانها

-أمران أديان إلى انهيارها

-عوامل أخرى

3.منهج الوحي المحرف

-تعمد تجهيل الإنسان.

4.الخاتمة.

نشأة الحضارة وتطور الإنسان في المنهج التطوري

الحمد الله رب العالمين، الرحمن الرحيم, مالك يوم الدين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد تحدثنا أيها الإخوة والأخوات! في اللقاء الماضي عما يسمى: العصر الحجري، كما يطلق عليه الذين يؤمنون بالتطور الفكري والعضوي، والآن نتحدث في هذا اللقاء عن نشأة الحضارة على طريقتنا ومنهجنا في هذه اللقاءات, وهو المقارنة بين مصادر المعرفة أو مصادر التلقي الثلاثة:

الوحي المحفوظ المعصوم.

والوحي المحرف المبدل.

والعلم البشري المجرد عن الوحي.

لنرى بعد ذلك أين الحقيقة, وكيف نصل إلى عين الحقيقة بإذن الله تبارك وتعالى.

من المعلوم أن نشأة الحضارة ترتبط ارتباطاً مهماً جداً بالعقيدة وبالدين الذي نشأ عليه الإنسان, أو علمه الله تبارك وتعالى إياه، فهي قضية لا يمكن أن تكون قضية تاريخية مجردة؛ بل هي قضية إيمانية عقدية أيضاً.

ونحن الآن سوف نبدأ بالمنهج التطوري، ثم ننتقل إلى منهج الوحي المحرف والمبدل، ثم نختم ذلك بالوحي المحفوظ من القرآن والسنة الصحيحة بإذن الله تبارك وتعالى.

المنهج التطوري كما ألمحنا في لقاء ماض هو: الذي يقوم على نظريتي التطور، إذا قلنا: إن عمدة الفكر التطوري الحديث يقوم على نظريتين:

نظرية التطور العضوي لـ داروين .

ونظرية التطور الفكري لـ كونت .

فعليهما تدور نظريات أخرى, ومنهما تتفرع علوم كثيرة, أو هي مبنية عليهما.

مفهوم نظرية التطور

نحن نشاهد في هذا المنهج أنه لا يفترض مطلقاً أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق الإنسان، -قد لا ينفونه لكن لا يفترضونه- ولا يفترضون مطلقاً أن الإنسان له دين أرقى وأسمى من الحياة المجردة، وأن هذا الإنسان له مشاعره وله إنسانيته وله روح في هذا البدن؛ وأنه مكوّن من الروح ومن البدن العضوي المشاهد، وغير ذلك من الأمور التي هي في الحقيقة لا أصل لها علمي وإنما هي افتراضات أو ظنيّات، أو هكذا أقيمت اعتباطاً بناء على المعركة الطويلة والعنيفة التي دارت في أوروبا بين العلم والدين، أو النظريات اليونانية القديمة التي كانت تصور الإله فيها -الخالق تبارك وتعالى- محدوداً أو ضيقاً، أو يجعلونه بعيداً عن حقيقة الكون وتدبير أمور هذا الكون -وهذا ما سنعرض له إن شاء الله في حلقات قادمة.

ملخص هذه النظرية -كما رأينا في الحلقة الماضية- أن الإنسان بدأ بدائياً همجياً في التفكير وفي التعامل مع البيئة وفي طريقة المعيشة وفي طريقة الحياة، وأنه كان ساذجاً تماماً, فهو لا يملك إلا اليدين اللتين ليس فيهما أية أداة، ويتأمل في هذا الكون ويمشي, فاعتمد في مراحل طويلة من حياته -بناء على كلامهم- على مجرد التقاط الثمر المتساقط في الأرض, أو الصيد أو الرعي.

مراحل طويلة جداً كما يعتقدون، وقد قسمت العصور الحجرية في الحقيقة إلى أقسام كثيرة لا داعي لذكرها, وهي كلها محصورة ضمن أحقاب زمنية -الحقبة القديمة والوسطى والحديثة- لكن كلها أقسام لا حاجة للإطالة فيها؛ لأنها كما سوف نرى افتراضات لا تقوم على حقيقة.

المقصود أن مراحل طويلة جداً قبل أن ينتقل الإنسان إلى مرحلة الزراعة, ومن ثم تبدأ عنده مسألة الكتابة، وهم يعتبرون الكتابة هي أهم فاصل ومعلم بين عصر ما قبل التاريخ وعصر التاريخ، وبين ما قبل الحضارة وعصر الحضارة.

لا شك أن الكتابة تطور حضاري مهم جداً؛ لكن نحن دائماً نرجع للأصل هل بالفعل كان الإنسان كذلك؟! أو بناء على أي أمر, وبناء على أي دليل بنيتم أنه كان كذلك ثم تعلم الكتابة؟!

المفترض الواضح الذي جاءت به الأديان جميعاً أن الإنسان في مرحلة الرعي، أو المجتمعات البشرية التي لم تكتب أو لا تكتب؛ أنها انحطاط عن مرحلة قبلها كانت فيها متعلمة, أو كان الأصل فيها التعلم.

كما أن الأصل كان التوحيد ثم وقعت في الشرك والخرافة والأساطير؛ فكذلك الأصل هو أنها متعلمة ومتحضرة وتزرع ثم تنحط، وكم شَهِدنا وكم رأينا من مجتمعات في القديم وفي التاريخ المكتوب كانت حضارية ثم انتقلت إلى الرعي، انحطاط وتقهقر حضاري من مدنية راقية أو إمبراطورية واسعة إلى مجتمعات رعي، وهذا شيء مشاهد.

القول بالتطور العضوي نتيجة لتطور الآلة التي يكتشفها

على كل ليس المراد المناقشة بالتفصيل، المراد هو إثبات أنها لا تقوم على أية حقيقة علمية في الواقع؛ بل هناك كلام نأسف أن يصدر عن مسلمين مثل السيد: محمد غلاب الذي أشرنا إليه في الحلقة الماضية عندما تكلم عن هذه القضية، لا يقول فقط: إن الإنسان تطور؛ بل يجعل التطور عملية تبادلية ما بين الآلة التي يكتشفها الإنسان، وما بين التطور العضوي للإنسان نفسه! بدون افتراض خالق ولا مدبر على الإطلاق.

مثلاً يقول: الإنسان انتقل من مرحلة اليد المجردة إلى مرحلة الآلة، ثم يقول: إن الآلات نفسها أدت إلى تطور عضوي في الإنسان، فاستخدام اليد لأي غرض أدَّى أو أثر على شكل الجمجمة وحجم المخ وشكل الهيكل العظمي العام، وهكذا كل تطور عضوي يكون نتيجة لتطور حضاري يدوي والعكس أيضاً.

ثم يقول: وهكذا سارت عجلة التطور البشري تطور عضوي -يعني: في اليد- يؤدي إلى تطور بشري وهو صناعة الآلات, وهذه الصناعة والتطور البشري المستحدث يؤدي بدوره إلى تطور عضوي

جديد, وهو استواء الجمجمة على الهيكل العظمي واستدارة الجمجمة، كما أن اكتشاف النار وطهي الطعام وهو تطور بشري أدَّى -كما يقول- إلى صغر حجم الفك, وكذلك ظهور اللغة وضرورة التعبير بأصوات متنوعة على شكل معين على لغة معينة أدى إلى تطور الحبال الصوتية وتطور المخ أيضاً.

إلى أن يقول: فالإنسان الصانع قد ساعد على تطور نفسه حتى انتهى إلى ما نطلق عليه الإنسان العاقل.

وهكذا نجد أن مثل هذا الكلام -مع الأسف- كثير ورائج ومنتشر، الكلام بهذا الشكل لا يقول به إلا أشدُّ الدّاروينيين تعصباً في القرن التاسع عشر, أول ما اكتشفت النظرية, أو عندما بدأت الهواجس تدور حولها، أما الآن فهو أقرب إلى الخرافة والهراء عند علماء الأحياء والطبيعة والتاريخ عموماً.

الرد على نظرية التطور

بغض النظر عن الرد التفصيلي لنظرية داروين نأتي فقط على لمحات تبين بطلانها، وإلا فقد كفانا العلم مئونة ذلك, والرد عليها بالمنهج العلمي يحتاج إلى لقاءات طويلة جداً، أما بمنهج الوحي ومنهج القرآن, وما قررته معظم الأديان في الجملة على خلاف التفاصيل؛ فهو خلاف ذلك تماماً، وهي أيضاً خلاف الفطرة البشرية التي فطر الله تبارك وتعالى الناس عليها.

أولاً: الداروينية بكل أحوالها لم ترقَ إلى أن تتحول إلى نظرية متكاملة سليمة؛ فهي نظرية مجازاً أو بالأصح هي فرضية، والذين جاءوا بعدها من المتعصبين لها بشدة أحدثوا ما سُمي الداروينية الجديدة، وعدَّلوا فيها كثيراً ولم ترتقِ بعد التعديلات إلى أن تكون نظرية.

الأمر الآخر: أن هناك بيئة وأفكاراً محلية أو مشاكل محلية في البيئة التي ظهرت فيها الداروينية أدت إلى أن تكون هذه المعركة الضخمة الهائلة التي يقال ربما عنها حقيقة: أنها أكبر معركة فكرية في تاريخ البشرية؛ وهي المعركة بين المؤيدين للخلق وبين القائلين بالتطور، هذه المشكلات الخاصة تختص بالدين النصراني أو الكنسي المحرف بالدرجة الأولى؛ لأن الأديان الأخرى التي لا تؤمن بعقيدة الخطيئة الأصلية تؤمن بآدم عليه السلام على أنه أول البشر، ولا يكاد يترتب على ذلك أمر عقدي، أما الدين الكنسي بعد أن حرف وبدل على يد بولس في القرن الأول الميلادي، فإنه يعتمد اعتماداً أساسياً على الخطيئة الأصلية، والخطيئة الأصلية هذه الموروثة الذي فعلها آدم، وإذا كان آدم قد ارتكب وفعل الخطيئة -كما يعتقدون- فإن أي شيء يمس وجود آدم أو يشكك في وجوده كما ذكر في التوراة ؛ فإن ذلك يعني بطلان أو انهيار العقيدة النصرانية جملة وتفصيلاً؛ وهذا الذي حصل فعلاً في

التاريخ.

فكثير من الناس حتى أن بعض المسلمين مثل الشيخ: نديم الجسر رحمه الله, ومن كان في عصره، لم يأخذوا الأمر أكثر من كونه نظرية قابلة لأن تتعايش ولو جانباً بشيء ما مع الوحي، إذا افترضنا أن الخالق سبحانه وتعالى هو الذي جعل الإنسان يرتقي أو يتطور في مراحل من التطور! لا إشكال في ذلك؛ لكن بالنسبة للعقيدة النصرانية الأمر -كما قلنا- يرتبط بأصل الاعتقاد الذي لا يمكن أن يكون النصراني نصرانياً إلا بالإيمان به، وهو الخطيئة الأصلية الموروثة التي ارتكبها في نظرهم آدم.

ولذلك كثير من العلماء بعد أن تحرروا من قبضة الكنيسة, وبعد أن وجدوا أنفسهم يتجرءون عليها في عقائد كثيرة جداً، وكأن داروين ألهمهم السلاح الذي به يقضون عليها قضاء مبرماً؛ نجد أن التعصب وصل بهم إلى القول: أننا لا يمكن أن نفرط في نظرية التطور بل نؤمن بها. فقال بعضهم: لأنه لا بديل عنها إلا الخلق المباشر وهذا غير معقول.

فقد استبعدوا استبعاداً مباشراً في فكرهم أن يؤمنوا بنظرية الخلق المباشر, وأن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان؛ ولذلك يتشبثون بها حتى لو ضعفت, وحتى وإن هزلت, وحتى وإن ظهر زيفها لسبب نفسي ذاتي، وليس لقضية علمية أو دليل عقلي. ومن هنا ليكونت دي نوي -وهو مفكر عالمي تلميذ ألكسيس كاريل صاحب الإنسان ذلك المجهول- يقول: إن الاضطهاد والطغيان والاستبداد لم ينتهِ ولكنه انتقل إلى الطرف الآخر, يعني: انتقل من اضطهاد الكنيسة للعلماء إلى اضطهاد العلماء لرجال الدين أو الفكر الديني، فهو اضطهاد وتعصب فقط انتقل من طرف إلى طرف، وكما قال بعضهم: إن العلم أصبح بقرة مقدسة، كما أن الإنسان الهندي قد يكون عالم ذرة, أو قد يكون عالم فلك, أو قد يكون مهندس كمبيوتر, أو قد يكون ذا عقل في أي مجال، ولكنه مع ذلك يقدس البقرة ولا يفرط فيها -الهندي الملتزم بدينه طبعاً.

فنجده يقول: هكذا الأمر الآن تقديس هذه النظريات أشبه بتقديس البقرة, ليس لصحتها ولا لضرورتها، ولكن لأن هذا أمر ألفوه وتعودوه, ولا يريدون الانتقال إلى البديل الآخر.

الحلقة المفقودة في النظرية الداروينية بين القرد والإنسان

هنا نشير إلى ظواهر -ما يمكن أن نسميه- التجاذب الشديد, والعنف المضاد، المشكلة كيف تطورت إلى حد عنيف جداً بين الطرفين، فنأتي على حادثة مهمة جداً.

يعترف داروين والداروينيون بأن حلقة مفقودة في سلسلة التطور البشري ما بين القرد والإنسان، هذه الحلقة المفقودة يقرّون بها، وهي التي جعلت الآخرين يقولون: ليس القضية قضية حلقة؛ بل القضية قضية أنه لا يوجد أصلاً سلسلة؛ لكن لما بقيت هذه الحلقة مفقودة كانت ثغرة أو مطعناً أو مدخلاً على الداروينيين أمام خصومهم، فماذا فعلوا؟!

أراد اثنان من علماء الداروينية أن يحلَّا المعضلة فظهرا فجأة وقالا: إنه بالقرب من بلتداون -وهي مدينة في بريطانيا- عثرنا فيها على جمجمة تثبت أو تسد الحلقة والفجوة المفقودة، وهلل الداروينيون في جميع أنحاء العالم بهذا الاكتشاف العظيم، وجاءوا به, ووجدوا أنها تسد الثغرة؛ فلا هي بجمجمة قرد ولا هي جمجمة بشر, وبعد هذا التهليل الطويل والهالة الضخمة التي اتخذتها، راودت الشكوك بعض العلماء أنفسهم وأخذتهم الشكوك في ذلك، فبعد فترة من الزمن وتقدم التحليلات والمعامل والمختبرات، أرادوا أن يتأكدوا من هذه الجمجمة أو هذا الفك، فتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه الجمجمة مزورة وملفقة -يعني: مفبركة كما يقولون- وأنها لا حقيقة لها على الإطلاق.

وظهر بذلك أنها بالفعل مجرد عقائد وأهواء وأغراض وخصومات، وليست مبنية على العلم الدقيق المجرد، ثم أصبحت معروفة في تاريخ الجيولوجيا الطبيعية أو الداروينية أو ما أشبه ذلك بأكذوبة أو خدعة بلتداون -نسبوها إلى المدينة- وأنه لا يوجد أبداً بأي شكل من الأشكال ما يسدُّ هذه الثغرة.

طبعاً هذا كان في أول القرن العشرين -قبل حوالي مائة سنة تقريباً أو أقل- لكن الحقيقة أن هناك ما هو أكثر من ذلك، وهذا من حكمة الله -التي سوف نشاهدها نحن في هذه اللقاءات إن شاء الله تبارك وتعالى- أن الزمن يزيد الحق ظهوراً ونصاعة, والزمن يزيد الباطل انكشافاً وزيفاً، سبحان الله! وهذه من حكمة الله تبارك وتعالى ومن رحمته في هذا الكون.

أمور أدت إلى انهيار نظرية التطور

هناك أمران -لأننا حقيقة مضطرون أن نضغط الموضوع وليس هذا مجالنا- أديا إلى انهيار النظرية الداروينية:

الأول: يتعلق بالشكل. والثاني: يتعلق بالأعماق ثم بعد ذلك عوامل أخرى.

المتعلق بالشكل أنهم اكتشفوا أو تأكد لديهم أن هناك أجيالاً بشرية تمثل شكلاً لا يمكن أبداً أن يكون ناشئاً أو متطوراً عن القردة ولا عن غيرها، وهم: العمالقة!

مع الزمن بين حين وآخر، إما من خلال القبور العملاقة -هي قبور عظيمة جداً- وإما من خلال الثلوج يُكتشف بشر عمالقة كما جاء في الكتب القديمة أو ربما أكبر من ذلك، وهذه الحقيقة سنقرّرها إن شاء الله من خلال الأدلة النقلية، ونتحدث عنها إن شاء الله من خلال قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله خلق آدم على صورته طوله ستون ذراعاً واستمر الخلق ينقص..) كما جاء في الحديث.

فالقضية ليست في الشكل الذي ربما يقال ما بين الإنسان في بعض المناطق وشكل القردة، هناك عمالقة من البشر لا يشبههم على الإطلاق أي حيوان, ولم يوجد أي عملاق من الحيوان يشبه هؤلاء العمالقة على الإطلاق.

هذا في الشكل والمظهر فقط؛ لكن ما هو أعمق وأهمّ من ذلك ما يتعلق بالمورّثات أو الجينات الناقلات للوراثة، لم يكن داروين ولا الجيل الذي بعده قد اكتشفوا أو عرفوا هذه الناقلات وهذه الجينات، ولا هذا العلم، هو علم حديث جديد آخر ما اكتشف فيه -ولا يزال تحت البحث حتى الآن- هو الرمز أو ما يسمى الشفرة أو الكود الوراثي، الذي من خلاله يريدون الآن أن يعالجوا بعض الأمراض الوراثية, وأن يتقدموا بالعلم البشري، كما أعلن ذلك الرئيس الأمريكي قبل بضع سنوات, وأن هذا -كما كتب له العلماء- يعتبر أكبر اكتشاف علمي تحقق في القرن العشرين، وربما يستمر كذلك في القرن الحادي والعشرين.

المقصود أن هذا علم عظيم جداً متعلق بالوراثة وعلم الهندسة الوراثية لم يعرف من قبل، ولم يكن لدى داروين وأتباعه أي تصور عنه.

هناك أيضاً قضايا أخرى تطورت بعد داروين وهي علوم اللغة وعلوم الدلالة، من المتفق عليه أن الحضارة واللغة مترابطتان، وهذا أمر مهم جداً سنرى أثره عندما -إن شاء الله- نتكلم عن الوحي المحفوظ، وكيف ربط بين هاتين القضيتين: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا))[البقرة:31].

المقصود أن اللغة مرتبطة بالحضارة، والحضارة مرتبطة باللغة، فإذا وجدنا إنساناً ينطق -فضلاً عن أنه يكتب- فمعنى ذلك: أنه بالفعل هناك حضارة.

الواقع البشري أن اللغة والكتابة تكاد تكون ميزة بشرية فريدة بالإجماع -نقول: تكاد لأنه لا يزال من يخالف في هذا- المدرسة القوية الصوت في العالم التي من أقطابها نعوم تشومسكي تقول بهذا؛ أن اللغة سمة بشرية فريدة لا نظير لها على الإطلاق في عالم الحيوان بأي شكل من الأشكال؛ لأن اللغة تقوم على ركنين: -باختصار أيضاً لا نطيل في هذا- الركن الأول: المخالطة؛ فلو طفلاً وضع في غرفة وأغلق عليه سنين طويلة فإنه لا ينطق، بالمخالطة يكتسب الإنسان اللغة، لكن هناك ما هو أهم من المخالطة وهو قابلية النطق, الإمكانية، التفكير الكامل في الإنسان الذي يجعله ينطق ويتكلم ويفهم.

نوضح هذا بمثال: أحد علماء اللغة قيل له: إن اللغة اليابانية صعبة فأراد أن يتعلم اللغة اليابانية ويقارنها ببعض اللغات، فذهب إلى اليابان واصطحب معه أسرته، واستمر يبحث عدة سنوات في اللغة اليابانية، يقول: عجزت عن استيعاب قواعدها أو عن فهمها كما يفهما أي ياباني! لكن المفاجأة كانت من طفله؛ كان عمره أربع سنوات؛ فإذا بذلك الطفل ينطلق ويتكلم مع الأطفال اليابانيين وكأنه ياباني! وإذا في ذاكرة الطفل التي لا يدري عنها شيئاً ولا حتى يدري عنها أبوه نظام وقواعد للغة اليابانية المعقدة الصعبة.

وبذلك كان هذا العالم ممن انضموا إلى نعوم تشومسكي وقالوا له: إن هذا بالفعل يؤكد أن اللغة سمة بشرية متفردة, والبحوث اللغوية تؤيد ذلك، فلا وجود لمشابهة أو مشاركة بين الإنسان وبين أي حيوان آخر في هذا الشأن.

ولذلك نجد أن تشومسكي كم مرة يتحداهم ويقول: خذوا أي قرد أو خذوا أي ببغاء وعلموه عقوداً أو قروناً كما تشاءون، ثم ائتوني بها وقد تكون لديها شيء من التفكير أو شيء من المقدرة اللغوية, أما أن تردد بعض الحروف أو بعض الكلمات ترديداً فهذا لا يدل على اللغة على الإطلاق.

طبعاً الطرف الآخر اشتط في العداوة وقالوا: لأن نعوم تشومسكي يهودي -طبعاً هو كذلك- ولأنه يؤمن بـ التوراة ويؤمن بكلام أرسطو وما أشبه ذلك من التهم؛ فأصبح كأنها داروينية ومعركة داروينية جديدة؛ لكنها حول النطق وعدم النطق، مع أنه ليس بالضرورة أن الذين يرون أن اللغة ليست سمة بشرية أنهم يؤمنون بنظرية داروين على أية حال؛ لكن نحن نأتي بها في سياق أن علوم اللغة أثبتت هذه الميزة العظيمة؛ التي ميز الله تبارك وتعالى بها الإنسان منذ أول ما خلقه ((وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا))[البقرة:31].

تأتي قضية أيضاً الكتابة؛ أهمية الكتابة وكون الكتابة مبنية على اللغة وكون الإنسان يكتب،

يمكن أيضاً أن نعيد نفس الكلام فنقول: ائتونا بأي حيوان في التاريخ كتب شيئاً أو رسم لوحة فنية ولو كانت بدائية, أو عمل أي عمل يدل على أن بإمكانه أن يكتب! فأيضاً هذا يؤكد من جديد أن الإنسان إن كان أمياً ينطق، وإذا كان يكتب فهو أعقد بكثير وأبعد بكثير جداً من أن يكون ذلك شيئاً مشتركاً بينه وبين أي حيوان من الحيوانات التي خلقها الله تبارك وتعالى.

فيتميز الإنسان مع ذلك أيضاً بالكتابة, سبحان الله تعالى: ((الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ))[العلق:4-5], ولولا ذلك لما نُقلت الحضارات, ولما نقل العلم، ولما كانت هذه الطريقة العظيمة من التواصل البشري التي هيأ الله تبارك وتعالى بها للناس نعماً لا يحصيها إلا الله، ولا يثني عليه تبارك وتعالى بها إلا الأخيار الصالحون الذين يقدرون نِعم الله عز وجل، ويؤمنون بأنه فعلاً رحيم بهذا الإنسان, وأنه خلقه بهذا الشكل وبهذه الصفات والخصائص المميزة؛ لأمر عظيم وحكمة جليلة؛ وهي أن يعبد الله وحده لا شريك له.

هناك أيضاً أمور كثيرة -لا نطيل فيها- لكن تدل على أن الإنسان متميز تماماً، منها: الأسرة والحالة الأسرية، وفرق هائل جداً ما بين الإنسان وما بين غيره في هذا الأمر.

هناك أيضاً وضع الدين وهو أعظم وأسمى، نجد الشعور بالمعبود والتقرب إليه، والتأله، والتضرع، هذه من الخصائص البشرية المميزة جداً التي لا نكاد نجدها عند العالم الحيواني.

هناك أيضاً تكوين المجتمع وتكوين الدولة، فنحن نجد أن الحيوانات التي تعيش في قطعان هي في قطعان كما كانت وكما عرفت منذ أقدم العصور، بينما الإنسان يطور بشكل دائم البيئة التي يعيش فيها، يطور علاقته الاجتماعية وعلاقاته الأسرية، ويغير في معتقداته ومعبوداته إما بالاهتداء والاقتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وإما بالانحراف إذا أضلته الشياطين.

الفن كما أشرنا هو أحد معالم ما يميز الإنسان عن الحيوان في هذا الجانب، وكذلك التطلع الدائم للأمام, والتطلع للتقدم وللتفوق، ومحاولة تطوير ذاته، بمعنى: أنه مهما قيل عن القردة بأنها ذكية، أو مهما كانت الثعالب؛ فإننا نجد أن طريقتها في الحياة وتسلقها للأشجار أو حفرها للجحور لم تتغير! أو سباحتها في المياه لم تتغير!

أما الإنسان فهو أينما وجد حريص على التطوير وعلى التغير؛ يشتاق إليه ويتطلع إليه، فلا نتصور أن مجموعة من القردة تجتمع وتبني قارباً يقوده أحدهم وهو يجدف به على النهر! منذ قديم العصور وهي تقفز فوق الأشجار ولم تبن مدينة أو ترصف طريقاً وتعبده لمجيئها وهكذا.

أما الإنسان فإنه لديه هذه القابلية، ولديه هذه الإمكانية؛ سواء فعلها بالفعل أو أنها موجودة لديه بالقوة، فهو على أية حال هي كامنة فيه، وهي موجودة فيه منذ أقدم العصور، ولا يستطيع أحد أن يقول: أنه نشأ على غير ذلك, ثم -كما قرأنا في كلام غلّاب وغيره- أن البيئة أثرت فيه، وهو أثر في البيئة، بمعنى: أن الطعام جعل المخ يكبر أو جعل الفك يغلظ أو ما أشبه ذلك، كله كلام ليس عليه أي دليل على الإطلاق, وإنما الواضح هو التميز والتفرد الذي ميز الله تبارك وتعالى به الإنسان.

من هنا نستطيع القول: إن الحضارة البشرية نشأت مع نشأة الإنسان، ولكنها تختلف في أدواتها وفي مراحلها، وتختلف في مقدرة الإنسان على تطويع بعض الأمور أو عدمه بما وهبه الله تبارك وتعالى، وتختلف أنها قدر ترتفع في الرقي المادي وقد تنزل، فقد ترتفع فيما هو أهم من ذلك وهو الدين والتوحيد وترتقي فعلاً، وقد تهبط إلى مستوى الضلال والشرك والخرافة والأسطورة، كل ذلك موجود إلا أن الحضارة واللغة وخصائص البشر الأخرى -الأسرة والمجتمع والمشاعر الإنسانية- كل ذلك موجود مع خلق الإنسان عندما خلقه الله تبارك وتعالى.

هذا ما يتعلق بالفقرة الأولى, وبعد ذلك ننتقل إلى الفقرة الثانية؛ وهي الإيمان أو النظرة والتصور كما جاء في الوحي المبدل والمحرف.

نشأة الحضارة وتطور الإنسان في منهج الوحي المحرف

إذا انتقلنا إلى المنهج الثاني فإننا نجد أن المشكلة قائمة ولكن بشكل آخر، فإذا كان التطوّريون يرون أن الإنسان ولد غبياً أو همجياً ساذجاً بحكم الطبيعة -كما يقولون- والمدة الطويلة التي بقي خلالها يتطور شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى وضعه الحضاري الحالي.

إخبار الكتب المحرفة بتجهيل الله للإنسان

فإننا نجد مع الأسف الشديد التوراة المحرفة, والدين النصراني المحرف؛ يأتي بالقضية وكأن الله تبارك وتعالى تعمد تجهيل الإنسان, وهذا أدى إلى نفرة شديدة بين العلم وبين الدين في معظم -بل وفي كل تقريباً- عصور التاريخ الأوروبي.

نقرأ الآن مباشرة من سفر التكوين في الكتاب المقدس؛ فنجد أن في الإصحاح المتعلق بجنة عدن -هو حسب الطبعات وهي تختلف تقريباً؛ لكنها لا تكاد تختلف شيئاً ذو بال- يقول: أخذ الرب

الإله آدم وأسكنه في جنة عدن ليَفْلَحها ويحرسها -بغض النظر عن أن الجنة تحرث- وأوصى الرب الإله آدم قال: من جميع شجرة الجنة تأكل، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها؛ فيوم تأكل منها موتاً تموت.

ذكر كيف وقعت الخطيئة، يقول في الذي بعده: إن الحية -ويقصدون بها الشيطان ولا يقولون: الشيطان- كانت أحيا الحيوانات البرية؛ فقالت للمرأة: - حواء-: أحقاً قال الله: لا تأكلا من جميع شجر الجنة. فقالت المرأة للحية: من ثمر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا.

فقالت الحية للمرأة: لن تموتا -كذبت قول الله وردت الكلام- ولكن الله يعرف أنكما يوم تأكلان من ثمر تلك الشجرة تنفتح أعينكما وتصيران مثل الله تعرفان الخير والشر -تعالى الله عن ذلك- يقول مؤلف التكوين: فرأت المرأة أن الشجرة طيبة للمأكل وشهية للعين, وأنها باعثة للفهم -يعني: أكلت منها لأنها مغرية من حيث المأكل ومن حيث المنظر ومن حيث أنها تبعث على الفهم والذكاء! وهذا موجود في هذه الطبعة كما هو موجود أيضاً في الطبعة الإنجليزية طبعة الملك جورج والطبعات المتوالية التي نقلت منها.

المقصود أنه عندما أكلا منها: انفتحت أعينهما فعرفا أنهما عريانان, فخاطا من ورق التين, وصنعا لهما مآزر. وبعد ذلك تأتي القصة الغريبة ويقول: أن الله تعالى قال: لمَ تختبئ مني يا آدم؟ فيقول: لأني عريان. يقول: من عرفك أنك عريان؟! أكلت من شجرة الخير والشر فعرفت أنك عريان؟ وتبدأ قصة السقوط في الخطيئة.

إذاً هناك تعمد لأن يكون الإنسان جاهلاً لا يعرف الخير من الشر, إذا أخذنا بحرفية ما في التوراة ؛ وبذلك تكون العقلية اليهودية و النصرانية استنبطت في أعماقها أن الله تبارك وتعالى يريد تجهيل الإنسان, ولا يريد تعليمه الأسماء كلها -كما جاء في القرآن- ولا يريد أن يعرّفه؛ بل يريد أن يجعله لا يعرف الخير من الشر, وحذره أن يأكل من الشجرة, والإنسان بطاعته للشيطان وبأكله من الشجرة أصبح يعرف الخير من الشر.

هم لم يقولوا هذا في أول الأمر، هم قالوا: الإنسان لما أكل من الشجرة المحرمة وقع في الخطيئة؛ فلذلك -كما يزعمون- احتاج أن يأتي المسيح عليه السلام فيُصلب ليكفر عن الخطيئة! -العقيدة الباطلة التي سوف نبين بطلانها إن شاء الله تبارك وتعالى بالتفصيل- بعد قرون طويلة

نظروا إلى منطوق اللفظ، وهو: أن الإنسان عندما عرف الخير وعرف الشر إنما عرفه عن طريق التمرد على الله وطاعة الشيطان!

تطابق الوحي المحرف مع نظرية سرقة النار من الآلهة

يتطابق هذا مع نظرية يونانية معروفة أثرت في الفكر الغربي تأثيراً كبيراً، والتي مع ما ورد في التوراة جعلت العلم والدين ينفصلان انفصالاً كثيراً ترتب على ذلك آثار سيئة، وهي نظرية بروميثوس الذي سرق النار من الآلهة، وأن الرب -كما تصوره الأساطير اليونانية- تعمّد تجهيل الإنسان، ولم يرد أن الإنسان يأخذ النار؛ لأنه لو عرف النار فسوف يرتقي ويتحضر ويتغلب عليه، لكن استطاع بروميثوس أن يسرق النار وبعد ذلك عوقب بعقوبة شديدة؛ عاقبته بها الآلهة أو الأرباب كما يزعمون.

من التكوين النفسي الديني, وكذلك التكوين النفسي الأسطوري نشأ لدى الإنسان الغربي, ولدى الحضارة الغربية الشعور بأن أي تقدم وأي اختراع فهو قهر للطبيعية, قهر للرب، وكأنه يغتصب اغتصاباً, وليس منة من الله تبارك وتعالى وعطاء ورحمة وتعليماً كما جاء في القرآن.

أيها الإخوة والأخوات! نتوقف هنا بعد أن رأينا كيف يلتقي المنهج العلماني اللاديني مع المنهج المحرف أو الدين المحرف؛ في هذه النظرة القاتمة والمعتمة لنشأة الحضارة, ولتطوّر الإنسان، على أمل أننا بإذن الله تبارك وتعالى نبين النظرة الإسلامية وفق التصور الإسلامي الصحيح؛ الذي لا يمكن للعقل أن يرده بأي شكل من الأشكال.

نسأل الله أن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح والهدى القويم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة السادسة: نشأة الحضارة في المنظور الإسلامي

العناصر:

1.مقدمة

2.المنهج الإسلامي و النظرة الإسلامية:

-الامتنان على الإنسان (التسخير، التكريم، إرادة تقوده للخير)

-التكريم (خلقه بيده، نفخ فيه من روحه، أسجد له ملائكته، اللغة وتعليمه الأسماء)

3.الخطيئة!

-موجزها ومن أين أخذها بولس؟

-النظرة الإسلامية في ذلك (تكريم آدم بالتوبة، من أجل الابتلاء نزل إلى الأرض)

4.الإرادة الإنسانية والملكين هاروت وماروت.

5.الخاتمة.

ملخص نشأة الحضارة وتطور الإنسان في المنهجين العلماني والكتابي المحرف

الحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

أما بعد:

أيها الإخوة والأخوات! فقد تحدثنا إجمالاً في اللقاء الماضي عن النظرتين: النظرة اللادينية العلمانية والنظرة الكتابية المحرفة عن الإنسان, وعن نشأة الحضارة الإنسانية، وكيف وجد وظهر هذا الإنسان؟ وكيف كانت بداية عمله وكدحه وسعيه في الأرض؟ وكيف كان شعوره أو تصوره أو ملكاته أو مواهبه؟!

النظرة العلمانية لنشأة الإنسان والحضارة

وباختصار نعلم أن النظرة اللادينية العلمانية تفترض أن الإنسان جاء إلى الكون سدى وعبثاً، نشأ كما ينشأ أي حيوان إلا أنه متطور شيئاً ما، هائماً على وجهه يبحث عن صيد، يأكل أي شيء، لا يتقيد بحلال ولا يتقيد بحرام، ومع الزمن -كما يزعمون- ومع التطور تشكلت الأسرة أو المجتمعات البدائية على الصيد فترة طويلة، ثم على الرعي، إلى آخر ذلك الظن الذي لا يقوم على أي أساس ولا تحقيق من العلم؛ إنما يفترض أن الإنسان القديم -أو أول ما وجد وخلقه الله وأول ما ظهر الإنسان- على الصورة البدائية الموجودة مثلاً في أستراليا وفي الكنغو وفي المنطقة الاستوائية من أفريقيا وفي حوض الأمازون وما أشبه ذلك من المناطق والأقاليم البدائية.

هذه النظرة الغالبة على التفكير اللاديني العلماني الأوروبي، وهؤلاء يمثلون الإنسان القديم، ثم تطور بعد ذلك حتى وصل إلى المرحلة المتحضرة التي يمثل نموذجها لديهم الإنسان الغربي الحديث في أوروبا الغربية وفي أمريكا ؛ هذا هو الإنسان عندهم.

وعلاقة هذا الإنسان بالطبيعة هي علاقة العنف، وعلاقة القهر، وعلاقة الحرمان؛ ولذلك -كما ذكرنا- اخترعت في الفكر الغربي الإغريقي القديم أسطورة بروميثوس الذي سرق النار من الإله -والنار هي رمز الحضارة؛ لأنه أول ما انتقلت البشرية من العصر الحجري عن طريق الحديد واكتشاف الحديد، والحديد عن طريق النار، كذلك أول ما تغيرت طريقة الطهي والطبخ من مجرد أكل الشيء النيئ كما يزعمون، الإنسان باكتشاف النار أصبح يطبخ وهكذا- فالنار تمثل عندهم رمزية حضارية عميقة الدلالة، كون الإنسان كما يزعمون سرق النار ومع ذلك يعاقب عقوبة شديدة، ويحبس في غار، ويأتي جارح من الجوارح يأكل كبده كل يوم, وما أشبه ذلك كما تقول الأسطورة، هذا نوع من العقوبة؛ لأنه استطاع أن يحصل على شيء من النور أو العلم؛ هذا باختصار.

النظرة الكتابية المحرفة لنشأة الإنسان والحضارة

والنظرة الأخرى النظرة الكتابية -كما لاحظنا- وهي أن آدم عليه السلام لما خلقه الله تبارك وتعالى أراد أن يكون جاهلاً، وحرمه من شجرة معرفة الخير والشر التي إذا أكل منها أصبح حكيماً, وأصبح لديه فهم، والذي دله الشيطان -أو الحية كما يزعمون- على أن يأكل من هذه الشجرة، فلما أكل انفتحت عينه وأصبح عارفاً بالحقيقة، وهنا عاقبه الرب على ذلك -كما في النصوص المحرفة- فلما عوقب على ذلك أخرج إلى الأرض، واكتشف أنه عريان، فأخرج وطرد من الجنة عرياناً؛ لكنه أخذ من

ورق التين ووضعه على عورته.

ما تلتقي فيه النظرتان الخاطئتان لنشأة الإنسان والحضارة

فالتقت النظرتان في أن الإنسان عاش مرحلة بدائية أو مرحلة همجية, أو مرحلة شديدة البعد عن الرقي والحضارة والفهم، وبتعمّد من الرب, وبتجهيل من الرب في حالة النظرة الكتابية المحرفة، وفي الحالة الأخرى أن الخالق -إن كان هناك من خالق فبعضهم لا ينفي وجود الله- تركه وأهمله سدى؛ فبالتالي التقت كلتا النظرتين في تجهيل الإنسان، وفي اختلاق العداوة بينه وبين هذا الكون وهذه الأرض وهذه السموات وهذا الخلق. وفي النهاية يمكن أن تتفق النظرتان؛ لأن الإنسان بذاته تطور، وقدم نفسه بنفسه، وكلما أخذ حظاً من هذه الدنيا فكأنما اغتصبه اغتصاباً من المالك الحقيقي الذي يملكه.

نشأة الحضارة وتطور الإنسان في المنهج الإسلامي

عندما ننظر إلى هاتين النظرتين, وننظر إلى الإسلام نجد البون الهائل والفرق الشاسع الكبير بين هذا وذاك.

خلق السموات والأرض وتسخيرها لآدم قبل وجوده

مثلاً: نجد أن الله سبحانه وتعالى مهد لخلق آدم -ممتناً بذلك عليه- بأنه خلق الأرض قبل أن يخلق آدم عليه السلام وهيأها له، وأخبر أنه سخر هذه الأرض لآدم -يعني: الإنسان عموماً- التسخير الرباني! سخّر هذا الكون وهذه الأرض بكل ما فيها من خيرات ونعم للإنسان! وورد ذلك في آيات كثيرة جداً, تسخير الليل والنهار, والشمس والقمر, والبحار والأنهار والنجوم كلها مسخرة وكلها لكم ((وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا))[الجاثية:13], يعني: بحكمته وبرحمته وبفضله سبحانه وتعالى هيأها حتى اكتمل الخلق.

خلق آدم عليه السلام تاج الخليقة وتكريمه

وجاء تاج الخليقة وهو الإنسان؛ فخلقه الله تبارك وتعالى خلقاً مكرماً, وذكر ذلك سبحانه وتعالى.

أولاً: أخبر الملائكة ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً))[البقرة:30], ومن هنا

ثار التساؤل لدى الملائكة: ((أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ))[البقرة:30], لا يظنون إلا أن ذلك سيكون كذلك، فالله سبحانه وتعالى بين لهم الحكمة فيما بعد -كما سوف نرى- وفعلاً أثبت الإنسان أنه شيء آخر غير ذلك، نعم ممكن يكون منه نوع كذلك؛ لكن ممكن منه النوع الآخر فهو محل الابتلاء.

فهو إذا مهّد بأن أعطى الإنسان الإرادة، وأعطاه حرية الاختيار قد يكون عادلاً مقسطاً منيباً خاشعاً تقياً ورعاً، وقد يكون باطشاً سفاكاً للدماء مفسداً في الأرض، ويتراوح بنو آدم بين هذين الحالين من قديم العصور إلى الآن، لكن الجيل الأول والخلق الأول كان على الفطرة القويمة والنهج الأول، وإنما وقع القتل وسفك الدماء لما اختلف ابنا آدم عليه السلام؛ عند ذلك قتل أحدهما الآخر، وليس هذا الأصل والعام في كل الجنس البشري.

فهذه المجموعة البشرية إذاً مهيأة لأن تكون ذات إرادة تقودها إلى الخير, وبالتالي تنال عليها الثواب العظيم من الله تبارك وتعالى، أو العقاب الأليم إن هي خالفت ذلك, وهذا في ذاته تكريم للإنسان أن يرتفع عن مستوى الحيوان أو الجماد أو ما أشبه ذلك مما هو في عقيدتنا الإسلامية وفي القرآن واضح, هذه كلها قانتة ((وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ))[الإسراء:44], ((كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ))[الروم:26]، كل له ساجدون.

لكنه تسخير إلهي غير إرادي، أما الإنسان فيضيف إلى ذلك أنه ينسجم بفطرته وإرادته باختياره؛ بحيث ينسجم بدنه وأعضاؤه ولسانه وقلبه مع هذا الكون, فيصبح أيضاً قانتاً عابداً ذاكراً لله تبارك وتعالى، فيحقق بذلك هذه الميزة العظيمة, وهذا في ذاته تكريم عظيم من الله تبارك وتعالى.

ثم إن الله سبحانه وتعالى امتن عليه وذكر من تكريمه أنه خلقه بيده الكريمة عز وجل، فالله سبحانه وتعالى لما أمتن على الإنسان بهذا من بين المخلوقات -هو خالق كل شيء سبحانه وتعالى فهو خالق جميع المخلوقات- لما امتن على آدم عليه السلام بأنه خلقه بيده فهذا أيضاً دليل تكريم وفضل، وخصوصية في خلقه واختياره.

ثم ذكر أنه نفخ فيه من روحه, وهذا أيضاً خصوصية، وإضافة الروح إلى الله هنا إضافة تشريف وتكريم, مثلما نقول: بيت الله أو ناقة الله أو ما أشبه ذلك, فلها خصوصية، فمع أن كل البيوت بيوت الله؛ لكن بيت الله المخصوص الكعبة المشرفة لها خصوصية، وعندما نقول: ناقة الله فكل النوق لله؛ لكن ناقة الله التي كانت آية قوم صالح عليه السلام قوم ثمود لها خصوصية، فهذه أيضاً من مثل هذا

النوع، فروح الله تبارك وتعالى التي نفخها في الإنسان هي من هذا النوع؛ لكن لها خصوصية الإضافة إليه؛ لأنه اصطفاه وكرمه وفضله.

ثم إنه بعد ذلك أسجد له ملائكته, وهذا ذروة التكريم؛ أن هذا الملأ الأعلى الملأ الطاهر الذين ((لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ))[التحريم:6], لا يعصون الله تبارك وتعالى طرفة عين ولا يردون له أمر تبارك وتعالى، ولا يتخيل منهم أن يرتبكوا معصية أو ذنباً، أو يهملوا أو يفرطوا في أمر من أمر الله عز وجل يسجدون لهذا الإنسان.

تعليم آدم عليه السلام الأسماء كلها

بعد ذلك رأوا أنه بالفعل جدير بذلك ومستحق لذلك؛ حيث علمه الله تبارك وتعالى ما لم يعلمهم, ((وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا))[البقرة:31]؛ فالله تبارك وتعالى جعل الملائكة الكرام في موقف الذي يستنتج بنفسه, ويرى الحكمة الربانية أمام عينيه، حين كان التساؤل الأول عن خلقه كيف يكون خليفة؟! وكيف سيكون؟!

ثم عندما عرض الأسماء على الملائكة.. -الله سبحانه وتعالى بيّن لنا فضلهم وهذا من فضلهم أنهم لا يتكلمون فيما لا يعلمون وهم لا يعصون الله, وليسوا مثل بني آدم يفتعلون العلم الذي لا يعلمون- عندما عرضهم على آدم عليه السلام علّم آدم أسماء كل شيء فأجابهم! والمقصود من هذا عظيم الدلالة -من تعليم آدم الأسماء كلها- فلو تفكر أي إنسان منا كيف لو أن الناس لم تُسم الأشياء؟! معنى ذلك أن المرحلة الهائلة جداً -وقد تقدمت الإشارة إليها- الفرق الهائل جداً بين الإنسان والحيوان في استخدام اللغة.

لو أراد حيوان أن يعبر لك عن شعوره! كيف يعبر لك؟! لو أراد إنسان لكنه لا يستطيع النطق أن يسمي شيئاً أو أن يعبر لك كيف؟! لا بد أن يحضر لك الشيء أو يريك إياه ويتعب حتى يقنعك، يريد أن يريك البحر كيف يسمي البحر؟ يريد أن يسمي الجبل كيف؟ فكيف لو كان من عالم الغيب يريد أن يسمي لك ملكاً؟! فكيف لو يسمي لك أموراً معنوية؟! يريد أن يعبر عما في قلبه أنه فرح أو حب أو حزن أو ما أشبه ذلك!

كل هذه من حكمة الله سبحانه وتعالى أنه اختصر للإنسان هذه الأبعاد النفسية الهائلة بأن علمه أسماء كل شيء، وورث ذلك بنو آدم من آدم عليه السلام فأصبحوا يتلاقون ويتخاطبون ويتعارفون, وهذه نعمة عظمى وجليلة من الله سبحانه وتعالى.

فاللغة تشكل فارقاً بعيد المدى بين الإنسان وبين بقية المخلوقات، ثم في الإنسان نفسه يتفاوت الناس بمقدار ما يعطيهم الله تبارك وتعالى من تمكن في الفهم وفي البيان وفي الفصاحة، حتى أن البعض منهم ليبلغ درجة عالية جداً والآخرون دون ذلك، وهكذا جعل الله سبحانه وتعالى الأمر طبقات، وفضل بعضهم على بعض في هذا البيان العجيب.

فالتكريم الذي حصل باللغة من أعظم ما حصل.

نبوة آدم عليه السلام

ثم حصل مع ذلك أن آدم عليه السلام كان كما سبق في الحديث الثابت في صحيح ابن حبان : (كان نبيا مكلماً)؛ فخاطبه الله تبارك وتعالى وعلمه وكلمه، ثم جعل القلم في ذريته و((عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ))[العلق:5]، ليس لدينا ما يؤكد أن آدم عليه السلام كان يكتب؛ لكن مِن بعده كتب بنوه وذريته، وأيضاً بتعليم القلم دل ذلك على أن للإنسان في الإسلام مكانة عظيمة وقدراً هائلاً لا يبلغه شيء من المخلوقات.

اصطفاء الأنبياء بعد آدم عليهم السلام

ثم منّ الله تبارك وتعالى على الإنسان كما ذكر عن آدم عليه السلام: ((إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ))[آل عمران:33], نلاحظ هذه السلالة التي كما قال: ((ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ))[آل عمران:34]، نلاحظ اصطفاء نبوة، هؤلاء هم أفضل كل الأمم، أفضل الجيل القديم جداً آدم عليه السلام، ثم بعد ذلك كان أفضلهم الرسل هؤلاء أولوا العزم وذرياتهم -نوح عليه السلام وإبراهيم وآل عمران- اصطفاهم واصطفى معهم من اتبعهم على العالمين أجمعين، فهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ومن بعده ذريته خلقاً مصطفى مباركاً رفيع المنزلة والقيمة.

حتى من الناحية الحضارية هناك إشارة لطيفة في قول الله تبارك وتعالى: ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ))[الإسراء:70]؛ فلما بين الله سبحانه وتعالى أنه كرم بني آدم جاءت في نفس الآية إشارة لطيفة إلى معنى من المعاني: ((وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ))[الإسراء:70], هنا النقلة الحضارية الهائلة الكبيرة بين أن الإنسان يركب البر والبحر ثم بعد ذلك الجو وهو مسخر له كل شيء من فضل الله تعالى ومتاح له, وبين الحيوان الذي لا يستطيع أن يعتمد إلا على عضلاته أو على أجنحته.

فبين الله سبحانه وتعالى هذه الإشارة الحضارية المهمة وهي: حمْلهم في البر والبحر، ورزْقهم من الطيبات فهم لا يأكلون إلا الطيب النظيف بما أودع في فطرتهم من حب الطيب، وأيضاً بما أنزل الله تبارك وتعالى من الشرائع بحيث يتبعوها, وبين لهم فيها ما يجتنبون -الذي هو الخبائث- ((وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ))[الأعراف:157], كل نبي نهى أمته عن الخبائث حتى جاءت الشريعة الكاملة المفصلة العظيمة وهي شريعة الإسلام, والحمد لله تبارك وتعالى على ذلك.

إذاً هناك جوانب عظيمة جداً لا نستطيع أن نأتي عليها جميعاً من تكريم آدم عليه السلام على ضوء ما جاء في القرآن؛ بل حتى على ضوء ما جاء في السنة، يكفينا أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر خلق آدم وأنه (خلقه وكان طوله ستين ذراعاً)، فأنطقه الله سبحانه وتعالى وعلمه أيضاً الأدب العظيم فقال له: (مر على أولئك النفر من الملائكة فسلم عليهم, فقل لهم: السلام عليكم؛ فإن هذه تحيتك وتحية ذريتك من بعدك).

لاحظ التكريم ولاحظ السلام وهو أعظم شيء تبحث عنه الإنسانية, أعظم شيء يبحث عنه البشر في كل العصور، الله سبحانه وتعالى يجعله تحية لآدم وذريته؛ (فذهب إلى الملائكة الكرام وقال: السلام عليكم. فردوا عليه وقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله -يقول النبي صلى الله عليه وسلم-: فزادوا ورحمة الله).

ففي هذا أيضاً دليل على التكريم وعلى الاختيار وعلى الاصطفاء وعلى هذه المشاعر في الأدب وفي التعامل، وأن الله سبحانه وتعالى جعل هذا الإنسان مكرماً، وجعله تبارك وتعالى بهذه المنزلة العالية الرفيعة.

قصة الخطيئة التي تهدف إلى إنزال آدم إلى الأرض

يبقى قضية الخطيئة -يعني: هنا نخرج من دائرة الفكر اللاديني؛ لأنه لا يرى الخطيئة؛ لكنه يتفق مع الفكر الكتابي في آثارها- إذاً على فكر وعلى عقيدة أهل الكتاب عند اليهود بشكل غير واضح؛ لكن اتضحت بشكل أكثر في النصرانية المحرفة -نصرانية بولس- أن الإنسان ارتكب الخطيئة فاستحق العقوبة الدائمة!

طبعاً في التوراة نفسها أن الله تعالى عاقب آدم وعاقب الحية وعاقب المرأة بآلام الحيض والنفاس، كل ذلك عقوبة على الخطيئة وأنهما نزلا وشقيا.. إلى آخره, حتى هذه أيضاً فيها دلالة عقوبة؛ لكن لم تكن بالشكل الذي جاء به بولس؛ وهو أن الإنسان وجميع البشرية وحتى الأنبياء ظلوا

يرسفون في أغلال الخطيئة في النكد في لعنة الخطيئة، -كما يقول بولس- حتى رأى الله تعالى أن يفديهم بابنه الوحيد -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- فجعلوا لله تعالى ولداً وابناً ليفتدي هؤلاء القوم من الخطيئة.

قبل أن نرد على هذا في الإسلام نحب أن نوضح بعض الأمور عرضاً، وهي من أين أخذ بولس هذه العقيدة؟

نحن نجد أن هناك عقيدة قديمة عند الجاهلين وعند المشركين في كل الأمم؛ وهي أنهم يتقربون إلى أصنامهم وإلى آلهتهم بقتل أبنائهم، فتكررت هذه العقيدة منذ القدم؛ أن قتل الابن هو أفضل قربان يتقرب به، وأصبحت مذمة وعاراً وفضيحة على بني إسرائيل أنهم فعلوا ذلك، وأكثر من نبي -كما في أسفار الأنبياء- عاتب بني إسرائيل وأنَّبهم كيف تذبحون أبناءكم لبعل أو مردوخ, أو ما أشبه ذلك؛ لمنحوتات الكنعانيين وغير الكنعانيين، لمعبودات الوثنيين وأنتم لديكم الكتاب ولديكم التوراة ولديكم العلم؟! هذا أمر أخذه عليهم أنبياؤهم، وأنكروه بأمر الله تبارك وتعالى أنكم تفعلونه يا بني إسرائيل.

لكن هو في العقائد الشرقية -كما يسميها الغربيون- فأكثر الفكر الغربي شرقي، وأكثر الحضارة اليونانية والرومانية من أصول شرقية حتى في الأديان, وقد يأتي لهذا إيضاح إن شاء الله فيما بعد.

المهم أنه ترسخ في العقائد الإيرانية القديمة هذا بشكل واضح جداً، ومن هنا نشأ في الميثرائية -وهي ديانة محرفة عن المجوسية أو عن الزرادشتية - ألا بد من ضحية ولا بد من قربان ولا بد من سفك دم لكي يرضى الرب.

إلى هنا نقول: هذا شرك عظيم, والله تعالى يقول في كتابه: ((وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ))[الأنعام:137], يعني: أمر ما شرعه الله ونفاه، وجعله من تزيين المشركين والشياطين، هو خطير جداً؛ لكن الأعظم من ذلك أن هذه الأديان شبهت الله تعالى بخلقه! وقاست الله تعالى على الخلق، وجعلت أن الله سبحانه وتعالى لكي يكفر عن الخلق فإنه يذبح ابنه فدية لهم -تعالى الله عن ذلك- أو يصلب ابنه من أجلهم، بناء على ماذا؟ هنا اختلقوا فكرة الخطيئة الأصلية! ما هي الخطيئة؟!

أنه لما أكل آدم من الشجرة بقيت الخطيئة في ذريته، والله تعالى -تعالى الله عن ذلك, هذا ما يقولون ولا يليق بالله تعالى- كأنه يبحث عن حل ليخلص الإنسان فلم يرحمه إلا بعد هذه الألوف من

السنين بأن يصلب ابنه ليفدي به الخليقة!

هذا كله كلام ليس عليه أي دليل من الكتب المحرفة فضلاً عن غير ذلك, فالكتب المحرفة نفسها ليس فيها دليل على هذا، لا في التوراة ولا حتى في الإنجيل وإنما هذا الكلام من عقيدة بولس الذي كان اسمه شاؤول اليهودي الروماني الذي غير دين المسيح عليه الصلاة والسلام -ولعل هذا يأتي إيضاحه في حلقة قادمة إن شاء الله- بناء على عقيدة بولس هذه انحرفت النصرانية جميعاً, وأصبحت هذه هي عقيدتها.

إذاً: فلننظر هل في الإسلام شيء من هذا؟ لا يوجد على الإطلاق.

من تكريم الله سبحانه وتعالى لآدم أيضاً -هذا من التكريم لكننا أخرناه حتى تأتي مناسبته- أنه بعد أن أخطأ تاب عليه وألهمه كلمات؛ ((قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ))[الأعراف:23], ((فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ))[البقرة:37]؛ فالله سبحانه وتعالى هو الذي أعطاه هذه الكلمات وعلمه إياها فقالها فتاب عليه، وبعد أن عصى اجتباه وتاب عليه وهدى، وانتهى الموضوع.

لكن بقي هناك شيء؛ وهو أنه من أجل الامتحان والابتلاء؛ أن يبتلي الله عز وجل الإنسان والإرادة الإنسانية التي أودعها فيه بأن يعيش على هذه الأرض أخرج من الجنة؛ لكن على أساس أنه تاب وعلى أساس الابتلاء و ((قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا))[البقرة:38]؛ فالجميع آدم عليه السلام و حواء والعدو الذي وسوس إليهما, وليس الحية؛ بل هو العدو الشيطان، هو الذي وسوس إليهما ولا يزال يوسوس إلي وإليك وإلى كل مسلم وإلى كل إنسان بالمعصية؛ فالامتحان واحد والابتلاء واحد, هؤلاء يهبطون جمعياً, وعليهم أن يتبعوا هدى الله سبحانه وتعالى الذي سوف ينزل عليهم, ومن فعل غير ذلك فإنه يعاقب ((فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى))[طه:123].

إذاً من أجل الابتلاء فقط أُنزل الإنسان إلى الأرض، وليس من أجل أنه أخطأ ووقع في الخطيئة ولم يتب عليه ولم يغفرها له, والدليل على ذلك الحديث الصحيح -وهو مما يختص به الإسلام وليس له ذكر في الكتب المتقدمة- (أن الله سبحانه وتعالى هناك في الملأ الأعلى في السماء قابل موسى عليه السلام آدم -قابل بينهما؛ فآدم كان في موضع المسئول وموسى هو السائل، ومعروف عن موسى عليهم جميعاً الصلاة السلام أنه شديد في أمر الله وقوي في الحق حتى مع أبيه آدم- يقول له: أنت خيبتنا وأخرجتنا من الجنة إلى الأرض! -فهو يعاتبه على هذا العمل؛ فأجابه آدم عليه السلام إجابة

شافية كافية- أنت موسى الذي اصطفاك الله تعالى بكلامه وأعطاك التوراة ؟ قال: نعم. قال: ألا تجد فيها -يعني في التوراة- أن لله كتب ذلك علي قبل أن أخلق؟ قال: بلى. -يقول النبي صلى الله عليه وسلم-: فحج آدم موسى فحج آدم موسى). عدة روايات رواها البخاري وغيره.

يعني: الإنكار من موسى عليه السلام لآدم أنه مع أن الله اصطفاك وخلقك بيده وأسجد لك ملائكته أخرجتنا وخيبتنا وأنزلتنا إلى الأرض. فكان الجواب من آدم عليه السلام: أنت يا موسى اصطفاك وأعطاك التوراة , وتجد فيها أنني سأنزل الأرض, قال: ((إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)) [البقرة:30], لا شك أنه كان في التوراة شيء قريب من هذا قبل أن تحرف؛ فالمقصود أن جواب آدم عليه السلام كان كافياً، ومن هنا يقول العلماء: إن القدر يحتج به على المصائب، القدر حجة على أي مصيبة تقع عليك تقول: هذا قدر الله والحمد الله وإنا لله وإنا إليه راجعون، حجة؛ لكن لا على الذنب؛ لا تقتل أحداً أو تضربه وتسلب ماله وتقول: هذا قدر! نعم هو قدر كتبه الله؛ لكن أنت مسئول عنه، أما الذي لا يد لك فيه فهذا نعم يحتج به في المصائب التي تقع على الإنسان.

فهذه مصيبة عظمى أن يُخرج من الجنة! ما كان يريدها آدم عليه السلام؛ لكن الله خلقه للأرض ولم يخلقه للجنة؛ فجعل سبب الإنزال والخروج والإهباط هو أن يطيع عدوه وهو إبليس وأمانيه ووساوسه وزخارفه بأن هذه ((شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى))[طه:120], يداعب هذه العواطف التي دائماً البشر يتطلع إليها، والبشر بطبيعته -وهذا مما يدل فعلاً على اختيار الله في الإرادة البشرية- يبحث عن الشيء المحروم منه.

خذ مثالاً على ذلك: لو كانت عندك مكتبة كبيرة وقلت لأولادك: اقرءوا في المكتبة هذه ما شئتم، إلا هذا الكتاب أو مجموعة كتب في هذا الركن لا تقرءوها.. وخرجت! أول ما يلتفت أذهان الأولاد إلى هذا الركن ماذا به؟ ولماذا؟

لو أتيت واحداً وقلت له مثلاً: هذا سوق كبير جداً مليء بالخضار والفواكه وجميع أنواع العصير، اشرب كل شيء إلا قارورة خمر مثلاً أو تالفة تخمرت، إذا انصرفت كأنه أول ما يندفع شعوره إلى لماذا هذه؟ مع أنك أبحت له كل شيء غير ذلك.

هذه الأمثلة تقرب كيف أن الفطرة البشرية ممتحنة، وبما أن الإرادة البشرية مبتلاة فإنها تقع في مثل هذا، ومن هنا وقع آدم عليه السلام؛ لكن سرعان ما تاب فتاب الله تبارك وتعالى عليه.

ابتلاء الله للملائكة بما حدث لهاروت وماروت عند تعجبهم من فعل آدم للمعصية

وهنا ينبغي علينا أن نختم ونكمل هذا ببيان قضية الملكين هاروت وماروت لعلاقتها بهذا الأمر؛ لأن النظرة الكتابية لا تدرك الحقيقة في هذا الموضوع -ومع الأسف حتى ما ورثه المسلمون من علماء الكتاب- الأحاديث جاءت في هذا الموضوع بعضها ثابت وأصلها في القرآن واضح أو موافق لما في القرآن، والبعض الآخر كان زيادات عليها نردها جميعاً. لب الموضوع وجوهر القضية: أن الملائكة الكرام لما رأت خطايا بني آدم وذنوبهم في الأرض, وماذا يفعلون -طبعاً ليس الجميع بل البعض- تعجبت من ذلك! وكأنها تتذكر ماضيها القديم وما كانت تتوقع وتقول؛ لكن لا تعترض على حكمة الله تبارك وتعالى؛ لكن بالفعل يا إخواني! والله عجيب أن نعصي الله سبحانه وتعالى! كيف نعصي الله عز وجل!

هو الذي أعطانا العين والسمع, أعطانا الطعام، أعطانا الأرض, أعطانا كل شيء منه سبحانه وتعالى, وبين لنا الجنة والنار.. كيف نعصيه؟! فكلما ازددت معرفة لله تعجبت أكثر أن يعصى الله سبحانه وتعالى!

لكن في جانب آخر المشكلة أنه مركب فينا قابلية المعصية وقابلية الخطيئة، والحمد لله معها أيضاً قابلية التوبة والرجوع. وهذا الذي لم يفقهه بولس ولا المترانيون ولا غيرهم من الديانات المحرفة؛ فإذاً القابلية هنا وهنا موجودة.

الملائكة لما انصب الاعتراض أو توجه أنه كيف ذلك! الله سبحانه وتعالى قال: اختارا ملكين منكم, وأركب فيهما ما ركبت في بني آدم من الشهوات، فاختاروا ملكين: هاروت وماروت -بنص القرآن ملكين- فركّب فيهما ما ركب في وفيك وفي الإخوة والأخوات في بني آدم جميعاً من الطباع؛ في حب الدنيا.. في حب الشهوة.. في الميل إلى ذلك، فحصل الابتلاء.

صورة الابتلاء -بعيداً عما يضاف إلى ذلك- بالفعل عندما يعرض القتل، يعرض الزنا، يعرض شرب الخمر, ثلاثة موبقات تعرض! لها شهوة, والإنسان -وهذه حكمة عظيمة- عادة يظن أنه اختار الأخف، وهو ربما وقع في الأشق والأشد؛ ففضلا أن يشربا الخمر، فلما شرباها قتلا وزنيا! فبذلك أحبطت القضية, وثبت فعلاً أنه لا حرج ولا لوم ولا تعنيف على من كانت مركبة في نفسه هذه الشهوات كلها، إلا إذا أعرض أو أصر؛ لكن أن يقع لا غرابة! الشاهد أنه لا غرابة أن يقع من رُكّبت فيه هذه الشهوات في المخالفة، وأن يتجنب الطريق القويم ويقع في المهلكة وفي الموبقة.

ولذلك يقول العلماء الأجلاء المفسرون وغيرهم: إن الله سبحانه وتعالى كانت ملائكته الكرام،

-وهم أفضل أنواع الملائكة- الذين يسبحون بحمد ربهم, ودائماً يطوفون حول عرش الله سبحانه وتعالى، والذين هم أقرب الناس إلى جلال وجهه الكريم عز وجل، كانوا يسبحون ((يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا))[غافر:7], كانوا يستغفرون للمؤمنين فقط! ويدعون الله تبارك تعالى أن يغفر لهم، لمن تاب واستقام واتبع سبيله.

يقول العلماء: -هذه الآية طبعاً في أول سورة غافر- فعندما نزل الملكان ووقعا فيما وقعا فيه أصبحت الملائكة تفعل نفس التسبيح والدعاء ولكن ((وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ))[الشورى:5], لاحظ فرق بين (يستغفرون للذين آمنوا) فقط وبين (يستغفرون لمن في الأرض)؛ لأنهم يريدون أن تكون الرحمة عامة، وحقاً إن رحمة الله تبارك وتعالى عامة، فهي عامة للبشرية جميعاً, ومن عموم هذه الرحمة ألا يعاجلهم بالعقوبة، ومن عموم رحمته عز وجل أن يرسل إليهم الرسل ليقيم عليهم الحجة، ومن عموم رحمته تبارك وتعالى أن يطعمهم ويسقيهم ما داموا أحياء في هذه الدنيا, ويعطيهم ويمتعهم فيها متاعاً قليلاً وإن كفروا وجحدوا، ومن عموم رحمته تبارك تعالى أنه لا يحرم من عمل الخير حتى ولو كان كافراً به ولا يؤمن بالآخرة ولا يرجو ما عند الله، فإنه يعطيه في الدنيا ويجازيه ما دام سعى في الحياة الدنيا سعيها؛ إن أراد الثناء أعطي الثناء, وإن أراد مالاً أعطي مالاً، بمعنى أنه أقام الحياة الدنيا على العدل وعلى الرحمة، أما في الآخرة فهناك الدرجات تختلف، وهناك الأمر يختلف, وهناك الموضوع تماماً مباين بأنه لا ينفع إلا العمل الخالص لوجه الله سبحانه وتعالى, والصواب الموافق لشرع الله تبارك وتعالى.

مختصر النظرة الإسلامية للإنسان ونشأة الحضارة

أيها الإخوة والأخوات! نلحظ بإذن الله سبحانه وتعالى هذه المعاني الواضحة الجلية في النظرة الإسلامية القرآنية الإيمانية للإنسان؛ من حيث التكريم والاختيار والاصطفاء وتمكينه في الأرض، من حيث التسخير الذي جعله الله تبارك وتعالى له في هذه الحياة الدنيا، لا يعتبر قهراً للطبيعة؛ بل تسخير له، فعندما يركب البحر فكأن البحر يشعر أنه كان يسبح الله، والآن ركب عليه من يسبح الله، إذا طار في الفضاء فأيضاً هذا من فضل الله وتسخير الله له سخر الطائرة وسخر له الجو، وكل شيء مسخر له! إذا مشى في الجبال فهي مسخرة له، إذا رأى الأودية فهي مسخرة له، إذا رأى الليل والنهار والشمس والقمر فهي مسخرة له؛ ليعرف عدد السنين وليعرف الحساب، وليزرع وليحرث وليقيم أموره على هذا، وهكذا يستفيد من ضوء هذه، ويستفيد من نور هذا، والأرض يحرث ويزرع, وجعلها

الله تبارك وتعالى مباركة، وهذا أيضاً عكس ما في التوراة أن الأرض جعلها ملعونة!

بل الله تعالى جعلها أرضاً مباركة ((وَبَارَكَ فِيهَا))[فصلت:10]، وجعل الماء الذي ينزل فيها ((مَاءً مُبَارَكًا))[ق:9], بنص القرآن؛ فالماء مبارك، والأرض مباركة، والإنسان مبارك إذا اتقى الله سبحانه وتعالى، وفي رزقه هذا بركة، فإن اتقى الله وأطاعه فإن الله عز وجل يجازيه على ذلك بالخير والبركة الأكثر, والنعيم الدائم وهو الجنة عند الله تبارك وتعالى، وإن أبى فإن الله تبارك وتعالى يمتعه متاعاً قليلاً في الدنيا -وكل الدنيا قليل مهما كانت ومهما طالت- وفي النهاية فإننا نجد أن الدار الآخرة هناك يُحاسب على كل ما قدم, وعلى كل ما عمل.

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفقني وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح, وأن يرد البشرية إليه رداً حميداً جميلاً, وأن يعرفنا جميعاً بنعمه عز وجل، ويجعلنا شاكرين له من أجلها مثنين بها عليه مقدرين لها، وأن يجمع هذا النوع وهذا الجنس البشري ويفقههم جميعاً، وينصر عباده المؤمنين الطيبين الطاهرين المخلصين على أولئك المخالفين المعاندين، وأن يرحم ويتوب على هذا العالم فلا يعذبهم ولا يهلكهم حتى تقوم الحجة عليهم كما وعد بذلك.

ونقف هنا وأستغفر الله العظيم, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

الحلقة السابعة: أصل الحضارة

العناصر:

1.مقدمة

2.لا حرج في الدين الإسلامي

3.أصل الحضارة شبه جزيرة العرب

-دلالة اللغة

-لماذا السامية؟! (كشف إدعائهم، هناك لغة عربية قديمة وحديثة)

4.شواهد أخرى:

-الدراسات الحضارية والآثارية

-من القرآن الكريم

-اللغة

-الخصائص والموقع الجغرافي

-الصورة الفضائية

الموقف الإسلامي من تحديد البيئة الجغرافية لنشأة الحضارة

الحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

أما بعد:

أيها الإخوة والأخوات! فكما نعلم كان الحديث في اللقاءات الماضية متعلقاً في جملته بعموم التاريخ البشري ونشأة الحضارة، وما يرتبط بذلك من قضايا هي مثار النقاش والنزاع والجدل حول المناهج الثلاثة التي تقدم الحديث عنها.

قضيتنا اليوم من القضايا المرتبطة بذلك, وموضوعها هو: مهد التاريخ، ونشأة الحضارة أو نشأة التاريخ؛ بمعنى البيئة الجغرافية والمحيط الثقافي الذي وجدت فيه هذه الحضارة البشرية، أو ما ترجع الأصول الحضارية البشرية المعروفة إليه.

والحقيقة أن هذه القضية بالنسبة للفكر الإسلامي ليست ذات إشكال؛ لأن -كما نعلم- الإسلام دين عالمي؛ فهو للعالمين أجمعين، ولا يؤثر كثيراً عندنا في الإسلام أن تكون أية أرض اختارها الله عز وجل هي التي سبقت في شيء ما من الحضارة؛ من العلوم أو الفنون أو ما أشبه ذلك، فلا إشكال في ذلك، الأرض كلها أرض الله، والخلق كلهم عباد الله، فإن كان السبق من جماعة مؤمنة فلا إشكال على الإطلاق, وإن كان ممن لا يؤمن بالله تبارك وتعالى فذلك أدعى لقيام الحجة عليه.

فالحضارة الغربية الحديثة سبقت في أمور كثيرة جداً, ولا إشكال ولا حرج؛ بل عندما نقرأ في القرآن نجد أن هناك ما يدل دلالات واضحة على أن الأمم التي تطغى وتتجبر، وتنسى ذكر الله

سبحانه وتعالى تُمكّن استدراجاً من الله تبارك وتعالى: ((فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى))[الأنعام:44], وغير ذلك, ليس هذا موضوعنا.

المقصود أن القضية ليست بالأهمية التي يوليها الفكر التاريخي المجرد؛ فالفكر التاريخي المجرد أو المعرفي المجرد يرى ضرورة معرفة وتحديد أين نشأت الحضارة؟ وكيف بدأت الكتابة؟ ومن أول من أوجد ذلك؟ وكيف انتقلت؟!

وقد تمضي أحقاب وأجيال ويختلف الباحثون وتنفق أموال طائلة في الإجابة على مثل هذه الأسئلة وما أشبهها وما تفرع عنها، مع أنها قليلة الأهمية من حيث الجوهر في نظرنا نحن؛ فليست هناك أي نظرة قومية على الإطلاق ولا نجدها عندما نتحدث -في هذا الموضوع اليوم مثلاً- عن الموطن الحقيقي الذي نرى أنه بالفعل هو موطن الحضارة وهو مهد التاريخ، وهو الذي انطلقت وتنطلق منه أنوار المعرفة والعلم واليقين ثم تضيء على البشرية جمعاء؛ ألا وهو: شبه الجزيرة العربية أو جزيرة العرب كما ترد في النصوص الشرعية.

الأمور التي ساعدت في تحديد الجزيرة العربية منشأ للحضارة الإنسانية

الكشوفات الغربية في البلاد العربية الخاضعة لسيطرة الغرب

الواقع أن المكتشفات التي اكتشفت منذ أن بدأ القناصل الغربيون ينبشون الأرض في بلاد الشام وبلاد العراق , باعتبار تلك البلاد كانت خاضعة للدول الغربية, كلها كما لاحظنا فيما مضى فتحت أذهانهم إلى شيء عجيب جداً.

مثلاً: إذا كان هيرودوت اليوناني هو أب التاريخ عندهم وهو عاش في القرن السادس قبل الميلاد! كانوا يظنون أنه أول المؤرخين أو أن تيودور الصقلي كذلك من أوائلهم أو ما أشبه ذلك، ثم اكتشفوا أن المسافة ما بينهم وما بين هيرودوت أقل بكثير -المسافة الزمنية- مما بين هيرودوت والحضارات والأمم القديمة التي لم يكن يعلم عنها هو ولا من جاء بعده شيئاً على الإطلاق أبداً, يعني: ليس هو أبا التاريخ, ولا يمكن أن يكون كذلك؛ التاريخ أعمق بكثير من ذلك.

عندما فوجئوا بهذا شعروا بالنشوة, وشعروا أن هذا اكتشاف مذهل، فاستمروا على ذلك فترة

طويلة -تقارب قرناً من الزمان, يعني: ما يقابل في تاريخنا الهجري القرن الرابع عشر تقريباً بأكمله ونصفاً من القرن الثالث عشر- الشاهد أنهم لما وجدوا ذلك أخذوا يزدادون شوقاً وتلهفاً وتطلعاً إلى من أين نبعت هذه الحضارة؟ ومن أين جاءت؟

وكان هناك كثير منهم -لا نستطيع الآن أن نحصرهم لكن العرب والمسلمين تنبهوا إلى كلامهم- من تعمد أصلاً أن يبحث وأن ينقب لكي يؤيد ما جاء في التوراة من أخبار الأمم الماضية، والبعض ينقب لأسباب علمية بحتة، على أية حال الجميع لما نقبوا وجدوا أن هناك تضارباً شديداً في الأقوال، وأنه لا يمكن أن تجتمع هذه الآراء على مسألة محددة؛ في مسألة أصل الحضارة وأصل الكتابة، ومَن بنى ومن شيّد هذه المباني العظيمة الهائلة المتبقية آثارها، كالأهرام في مصر أو المعابد أو القصور الموجودة في العراق وفي بلاد الشام وما أشبه ذلك.

اللغة السامية في الكتابات التي عثر عليها

هنا جاء التحليل الآخر الذي دائماً يمدنا -وهو من أفضل ما يمدنا- بالمعلومة الدقيقة والصحيحة في هذا الشأن، وهو ما يتعلق باللغة؛ عندما كان المفتاح لفهم الحضارات ولفهم التاريخ كله هو الكتابات التي وجدت وحين حلت رموزها وفكت، أصبح هناك مجال واسع واتسعت آفاق المعرفة التاريخية البشرية اتساعاً هائلاً جداً عن طريق الكتابة.

إذاً تحليل الكتابة وتتبع أصول الكتابة يعطينا دلالة عميقة على أصل هؤلاء الأقوام, وعلى نشأتهم, وعلى الموطن الذي جاءوا منه.

من هنا بدءوا يتتبعون، وكانت المفاجآت تشبه أيضاً المفاجآت فيما يتعلق بالأدوات، وفيما يتعلق بالحضارة الشكلية أو الحضارة المادية للإنسان، سواء كان في الهلال الخصيب بلاد الشام و العراق أو في مصر أو في غيرها.

مع أن هناك أيضاً من يقول: إن أصل الحضارة قد يكون أواسط آسيا أو قد يكون الحبشة, أو قد يكون أوروبا ، لو كان كذلك لا إشكال عندنا في الإسلام؛ لكن هم بأنفسهم تبين لهم بعد جهد جهيد جداً أن الدلالات اللغوية والحضارية تثبت وتشير دائماً إلى أن جزيرة العرب هي المنبع وهي الأصل.

نعم لم تحظ جزيرة العرب بالتنقيب الذي يكفي في نظرهم؛ لأنه لم يستطع أن يخترقها منهم إلا عدد قليل في تلك الأيام، ولا تزال حتى الآن تشبه الأرض البكر في كثير من جوانبها لم تكتشف على

منهجهم في اكتشاف الماديات؛ لكن في الحقيقة أن هناك بحوثاً تقدمت جداً حتى أمكن أن يصلوا إلى ما يشبه اليقين، وأصبح كثير منهم الآن يصرح به؛ وهي: أن جزيرة العرب هي الموطن الأصلي لما يسمى المجموعات السامية التي كانت عن طريقها الهجرات إلى بلاد الرافدين وإلى مصر وغيرها، وكل الحضارات هذه تقريباً تتكلم بلهجة أو بلغة يمكن أن نرجعها في النهاية إلى أنها اللغة السامية كما يقولون. لماذا قالوا: السامية؟!

لاحظ أنه في نسب القبائل العربية ممكن أنت أن تنتسب فتقول: أنا مثلاً عربي، تنسب للعرب باعتبار العرب جميعاً نسب واحد، وممكن تنتسب إلى قبيلتك التي تنتمي إليها؛ لكن عندما يأتي أحد فلا يذكر القبائل الدنيا مطلقاً وينسب إلى الأصل أو المرجع القديم, فمعنى ذلك أن له هدفاً؛ وهو: دمج المجموعات جميعاً في بعضها؛ لأن التاريخ التوراتي يفصل الجماعة اليهودية فصلاً كاملاً عن بقية البشر، فـ التوراة وكل الأسفار التي فيها كلها تتكلم بشكل محوري مركزي شديد على بني إسرائيل ولا تتعرض لغيرهم.

والطرف الآخر هم بنو إسماعيل، هؤلاء بنو إسحاق وهؤلاء بنو إسماعيل فهم العرب، فحتى لا يكون هناك يهود أو تاريخ توراتي، وتاريخ عربي وتاريخ إسماعيلي، دمجوا الجميع تحت أصل سامي, يعني: هذا أحد الأسباب, ولا يريدون أن يقولوا: إنه أصل عربي أو أن هذه هي أمم عربية.

نوضح نحن الموقف أولاً أو نستغل هذا ونقول: هل نحن فعلاً نقول الآن أو حتى نفتخر أن هؤلاء كانوا عرباً؟ حتى لو كان السومريون عرباً فضلاً عن أن الآكاديين ومن بعدهم من آشور والكنعانيين والآراميين وغيرهم الآن تقريباً مجمع على أنهم عرب؛ لكن سومر مثلاً -ليس لأن هذا يهمنا كثيراً لكن لأن الحقائق بدأت تتجمع حول هذا الموضوع- فنقول مثلاً تذكيراً بما قلنا في الماضي: إن العرب كانت تقسم التاريخ قسمة بعيدة عن القسمة الأوروبية، فهي تنظر للتاريخ إلى أنه من إسماعيل فصاعداً فهذا تاريخ يعتبر حديثاً وقريباً جداً، ومن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام فما قبل فهو التاريخ القديم؛ عاد وثمود والقرون الأولى هذه في التاريخ القديم للعرب.

نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم حدد في حديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله: (أول من فتق لسانه بالعربية المُبِينة إسماعيل), إذاً: من إسماعيل عليه السلام إلى الآن هؤلاء العرب الذين يتكلمون باللسان العربي المبين.

إذاً: لدينا نوعان من العربية: العربية القديمة، والعربية الحديثة المتأخرة المبينة التي نزل بها

القرآن ((بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ))[الشعراء:195].

الأمم العربية القديمة كعاد وثمود لا تزال اللغة التي تكلّمتها أو بقايا تلك اللغة -كما هي محفوظة في أخبار العرب وفي أشعارها- عربية اللسان! وهذه الأمم هي التي هاجرت، ومن الطبيعي أنها مع الهجرة إلى بلاد الشام أو العراق أو مصر تختلط اللغات وتتأثر, واللهجات تزداد وتتوسع؛ فظهرت لهجات كثيرة جداً: السومرية، الآرامية، اللغة المصرية القديمة, ظهرت أيضاً في العراق: الآكادية، والآشورية, وهكذا, لغات كثيرة ولكنها جميعاً -كما حللها اللغويون- يسمونها اللغات السامية.

وسوف نقرأ هذا الكلام من كتب أهل الكتاب لنعرف أن القضية هي قضية تكبير للعائلة وتعميم؛ حتى يفروا من تحديد هوية اليهود واللغة العبرية, وأنها لا تشكل إلا جزءاً يسيراً من التاريخ العربي القديم.

بمعنى أن هذه القبيلة التي تحتكر إبراهيم عليه السلام وتحتكر تاريخه وتهمل الابن الأكثر عدداً، -كما في نصوص التوراة وهو إسماعيل وأبناؤه الكثيرون جداً- إن هذه اللغة نفسها ما هي إلا لهجة عربية، يعني: اللغة العبرية هي نوع من اللهجات العربية المتفرعة عما يسمونه اللهجة السامية.

في إمكاننا نحن أن نقول بدلاً من السامية: اللهجة العربية القديمة. وسام هو عندهم ابن نوح؛ فإذاً القضية هي قضية عربية قديمة وعربية حديثة.

نأتي الآن بما يدعم ذلك من الكتب.

نقرأ في دائرة المعارف الكتابية التي كتبوها بعنوان: اللغة العبرية.

عندما يتكلمون عن اللغة العبرية يقولون: إن اللغة العبرية هي لغة الشعب الإسرائيلي, كما أنها اللغة الأصلية لأسفار العهد القديم؛ فاللغة العبرية هي إحدى اللغات السامية الشمالية الغربية. لماذا؟

قال: لأن هذه تشمل كافة اللغات الكنعانية بمختلف لهجاتها -وهذه تهمنا جداً- والآرامية بما فيها السريانية التي اشتقت منها, والسينائية والأوغارتية والفينيقية والموآبية, كلها قد يأتي لها تفصيل فيما بعد إن شاء الله. ثم تكلم عن اللغات السامية الشمالية الشرقية فتشمل: الآكادية وما تفرع عنها من بابلية وآشورية.

لغة آكاد قد تكون (عقد) باللغة العربية؛ لأننا نقرأ هذه الأسماء بعد أن حرفها الغربيون عن قراءتها في لغتها الأصلية، فآكاد هي والله أعلم (عقد) أو (عقّاد) أو ما أشبه ذلك؛ فهذه تفرعت عنها

البابلية والآشورية في العراق ، وأسماء الملوك تدل على ذلك؛ جمدة نصر أقدم ما يتكلمون عنه، وكذلك أسماء الملوك الآخرين -لعلنا نستعرض ذلك فيما بعد- المقصود أن هذه هي كما يعبر عنها اللغات الشمالية.

أما اللغات السامية الجنوبية فتشمل العربية الشمالية والجنوبية والحبشية، ولكل لغة من هذه اللغات أهميتها في فهم اللغة العبرية لصلتها الوثيقة بها.

قال: أصلها -يعني: أصل اللغة العبرية- إحدى اللغات الكنعانية؛ ولذلك تُسمى لغة كنعان بن أشعياء كما تسمى باللسان اليهودي، وذكر تاريخ تسميتها بالعبرية, وأن الشعب العبراني من أصل آرامي بناء على إحالة لديهم في التكوين؛ أن إبراهيم عليه السلام كان آرامياً، وآرام هم بقية عاد التي ذكرها الله تبارك وتعالى في قوله: ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ))[الفجر:6-7], بقية إرم أو آرام كما تختلف في نطقها اللغات. فيقولون: إن إبراهيم عليه السلام كان عبداً آرامياً، والشعب العبري يجعلونهم من اليهود، وليس أنبياء الله تعالى بيهود على الإطلاق، فالشعب العبري هذا يقولون: إنه شعب آرامي، ولغته اللغة الكنعانية.

نوضح ذلك أكثر -ونعتذر على الإطالة- يقول مثلاً: مميزاتها: اللغة العبرية لغة أبجدية تتكون من اثنين وعشرين حرفاً، تجمعها: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت.. إلى آخره؛ التي هي طبعاً بالضبط موجودة في اللغة العربية!

فكونها لغة عبرية تقوم على هذه التهجئة: أبجد هوز.. إلخ؛ فهي إذاً نفس الحروف العربية القديمة جاءتهم عن طريق الكنعانيين، فهي إحدى فروع اللغة العربية, ولا تزال حتى الآن وثيقة الصلة باللغة العربية الحالية, فضلاً عن اللغة العربية القديمة.

فإذا ثبت هذا في اللغة العبرية فما يعترفون هم به أنه لغات عربية -وإن سموها أحياناً سامية- فهو أجدر وأحرى أن يكون لغة عربية قديمة.

نحن مع مؤلفي كتاب: العراق في التاريخ عندما قالوا في ذكر الآكاديين: وبمناسبة ذكر مصطلح الساميين لا بد لنا من الإشارة هنا إلى أن هناك اتفاقاً في الرأي بين معظم الآثاريين, وفي مقدمتهم العراقيون على ضرورة إعادة النظر في هذا المصطلح الذي لا يستند في الواقع إلى أساس تاريخي مقبول.

ويقول: وكان الكاتب -يعني: الذي كتب هذا- من بين القائلين بضرورة إيجاد مصطلح بديل له، مثل: قبائل الجزيرة -يعني: بدلاً من أن يقولوا: ساميين يقولون: قبائل الجزيرة- أو الجزريين؛ للإشارة إلى تلك القبائل التي كان موطنها الأصلي جزيرة العرب, والتي كانت تتكلم لغات أو لهجات تعود في أصلها إلى لغة واحدة هي لغة الجزيرة, والتي كانت أيضاً تتشابه إلى جانب ذلك بجملة من السمات التاريخية والحياة المعاشية والأعراف والتقاليد والقوانين والمعتقدات الدينية.

طبيعة بيئة الجزيرة العربية الملائمة للحياة الإنسانية

ثم تحدث عن قضية -هي تستحق الإشارة البسيطة فقط- كيف يقال: إن جزيرة العرب هي مهد الحضارة وهذه الأمة متحضرة مع أنها صحراء جرداء! الجميع يتكلمون عن هذا.

وهذا ينقلنا إلى تعاقب العصور الجيولوجية على العالم كله، فنعرف بشبه اليقين أن جزيرة العرب بالفعل هي مهد الحضارة البشرية، وأنها كانت في تلك الفترة القديمة مروجاً وأنهاراً، وكان الجليد يغطي معظم العالم الغربي؛ أوروبا وشمال آسيا , وكانت أفضل بقاع العالم في ذلك الوقت الملائمة للحياة والبيئة الإنسانية هي جزيرة العرب وبلاد الشام و العراق , على التعريف المعروف في جزيرة العرب أن البعض يجعل حدها نهر الفرات, المقصود هي وما حولها كانت البيئة المناخية الملائمة منذ العصر الجليدي الأخير الذي يمتد ما بين عشرة آلاف إلى ثمانية آلاف سنة حسب التقديرات التي يقدرها به العلماء في الجيولوجيا.

الحقيقة أن تطور الدراسات الحديثة في هذا الشأن يجعلنا نأتي بشواهد هي أحدث وأدق في هذا الباب؛ على سبيل المثال: هناك باحث عربي مصري مقيم في لندن؛ وهو الأستاذ: أحمد عثمان, متخصص في هذه الجوانب ويكتب فيها حلقات كثيرة في جريدة الحياة، نقرأ بعض ما كتب، وهي كتابة متأخرة كتبها في أكتوبر 98؛ لأن الدراسات البشرية كلما تقدمت وتطورت تؤكد هذا المعنى, وهذه الخصوصية للجزيرة العربية وللغة العربية.

يقول عن نشأة الكتابة بعد أن ذكر أهمية الكتابة: أول ما عرف الإنسان فن الكتابة كان في مصر وفي سومر خلال الألف الرابعة قبل الميلاد -هذا على كلامهم طبعاً- ولا شك أن الإنسان عرف لغة الكلام قبل أن يخترع العلامات والحروف المكتوبة التي تدل عليها، ولا شك كذلك أن اللغة المكتوبة كانت في أول مراحلها تتفق إلى حد كبير مع لغة الكلام. هذه مقدمات.

ثم يقول: ونحن نجد هذه اللغات المكتوبة تتضمن الكثير من عناصر اللغة العربية التي عرفناها

بعد ذلك، مما يؤكد ما أصبحت تشير إليه الدراسات الأثرية الحديثة, من أن غالبية الأقوام التي سكنت منطقة الحضارات القديمة هاجرت من جزيرة العرب, وخلال العصر الجليدي عندما كان شمال أوروبا والقارة الأمريكية يقع تحت غطاء سميك من الجليد, كانت الجزيرة العربية وشمال أفريقيا أراضٍ خضراء تكثر فيها منابع المياه والنباتات.

ثم ذكر بعد ذلك أنه: منذ ما يقرب من عشرة آلاف قبل الميلاد بدأ ذوبان الجليد في المناطق الشمالية, وصاحب هذا عملية تصحر تدريجي في الجزيرة العربية؛ فلذلك كانت غالبية الهجرات البشرية التي جاءت إلى أرض الهلال الخصيب ووادي النيل في الأزمنة القديمة مصدرها الجزيرة العربية وشمال أفريقيا، وما الكنعانيون والآكاديون والآراميون والمدينيون الذي سكنوا هذه المناطق إلا مهاجرون ساميون عرب, خرجوا من الجزيرة العربية منذ الألف السادسة قبل الميلاد.

هذا آخر ما تدل عليه دراسات حضارية وآثارية كثيرة جداً، وهناك حضارات لا شك في عروبتها.

ما ورد في القرآن من ذكر تاريخ الأقوام السابقين وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام

نبدأ من الأول: ليس في القرآن ما يدل على مكان قوم نوح عليه السلام, مع أن هناك ما يدل على الجبل الذي استقرت عليه السفينة وهو الجودي -سنأتي عليه إن شاء الله في حلقة قادمة- لكن عاداً بين الله تبارك وتعالى مكانهم: ((وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ))[الأحقاف:21], أنهم في الأحقاف, والأحقاف قطعاً من جزيرة العرب وإن اختلف التحديد بدقة.

وبعد ذلك ثمود, نجد أننا أمام حقيقة أوضح وأجلى وهي أن ثمود في جزيرة العرب، مدين بلا شك أنها في جزيرة العرب, نقترب أكثر بوضوح نجد أن إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عندما بنيا الكعبة فلا شك أنها كانت هذه الكعبة وهذه مكة المعروفة أنها في جزيرة العرب؛ فأصبحت الآن قضية معلومة بالتواتر لدى البشر جميعاً.

ثم جاءت القضية التي أجلى من هذا كله مثل الشمس, وهي بعثة محمد صلى الله عليه وسلم من مكة ، من البلد الذي بنى فيه إبراهيم الخليل هذا البيت الحرام، فالقضية إذاً أصحبت ظاهرة وجلية أن تاريخ البشرية من الأول إلى الآخر مرتبط بهذه الجزيرة وبما حولها، وأنها مهد الحضارات وأنها منشأ التاريخ العالمي، والأنبياء جميعاً عاشوا عليها أو قريباً منها، وسواء اعتبرنا بلاد الشام كلها أو فلسطين جزءاً شمالياً لجزيرة العرب أو ليس كذلك, المقصود أن هذه المنطقة هي مهد الحضارات.

في النهاية نجد أن أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام جميعاً من ذرية إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم عليه السلام عروبته ثابتة من كونه آرامياً كما قالوا، ومما نعتقده نحن وما هو في تاريخنا وفي كتبنا من قدومه إلى مكة ومخاطبته لجرهم؛ وهم أصحاب إسماعيل عليه السلام.

الأستاذ عباس محمود العقاد -وهو ممن لا يتهم بـ القومية- أفاض في بيان ذلك إفاضة واضحة, والأستاذ محمد عزت دروزة له كتاب: تاريخ الجنس العربي , ذكر هذه الهجرات جميعاً، واعتبر أنها هجرات عربية, وأن هذا هو الجنس العربي, وطابق ذلك لغوياً.

موضوع اللغة الحقيقة يحتاج إلى تفصيل واسع؛ لكن دلالته واضحة جداً، فلا يستطيع الآن أي مستشرق أو أي باحث يبحث في الأديان القديمة أو اللغات القديمة إلا من خلال تعلم اللغة العربية, أما إن لم يتعلمها فلا يستطيع أبداً أن يصل إلى ما وصل إليه، وإن تعلمها ففي أقصر طريق يمكن أن يصل إلى النتائج التي أصبحت بحمد الله واضحة.

حتى أن بعض الباحثين المصريين أكدوا أن الكلمات الكثيرة المستخدمة في اللغة المصرية من أصل عربي؛ للتمثيل فقط الآن نضرب مثالاً واحداً: وهو أننا نجد أن المعبودات والآلهة المصرية هي عبارة عن صورة إنسان ورأسه رأس الصقر، وهذا يسمى (حور) أو (حورس) -السين زيادة يونانية- المهم (حور) وهي (الحرّ), والحر إلى اليوم اسم الصقر في اللغة العربية الحديثة وليس فقط في القديمة.

كذلك وجه القطة الذي يعبدونه -من الآلهة القديمة عندهم- يُسمى (بِس)، وهذه أيضاً في اللغة العربية المستخدمة الآن فضلاً عن وجودها في القديمة, وغير ذلك كثير جداً.

موقع الجزيرة العربية من العالم

يبقى هناك دلالة لا نجعلها حجة في هذا؛ لكن يستأنس بها في أهمية هذه الجزيرة العربية، وكيف أن الله سبحانه وتعالى اختاراها موطناً ومهداً للحضارات وللأديان لهداية الإنسان، الجزيرة العربية -أيها الإخوة- منظرها يشدك إذا نظرت إلى خارطة العالم! وكأنها القلب للبشرية, منظر عجيب فريد لا نظير له, يقال: إنها من آسيا ؛ لكن في الحقيقة ليست من آسيا ولا من أفريقيا ولا من أوروبا فكأنها قلب، وكأنها عاصمة للكل بشكلها المتميز.

ليس هذا فقط؛ بل إن الخصائص الجغرافية والخصائص البشرية لها محمية ومحروسة، وقد أكد

ذلك التاريخ الطويل، والرحم البشري -الذي غالباً ما يكون في منطقة اليمن- - يدفع دائماً بدفعات هائلة على مدار التاريخ من البشر، وتنتشر في أقصى الأرض إلى حد أن المسعودي يقول: إن منطقة التبت من حمير, ولا يبعد ذلك في الزمان القديم، أما مع الفتح الإسلامي فلا شك أنه انطلقت هذه القبائل وامتدت شرقاً وغرباً.

علم الفضاء الحديث

نقول: مما جاء يؤكد ذلك بشكل غير مباشر -ولا يعتقد أصحابه أن ذلك يدل على هذا فهم لم يقصدوه طبعاً- هو ما جاء في علم الفضاء الحديث.

هناك عالم فضاء مشهور هو وكارل ساقان الذي يكتب مؤلفات مشهورة عن الكون، وهو من ضمن وكالة ناسا الفضائية, وترجم له أكثر من كتاب منها: كتاب الكون، تقريباً أكثر كتاب في العالم انتشر عن الكون ومعرفة الكون هو كتابه، وله كتاب آخر سماه: كوكب الأرض نقطة زرقاء باهتة .

يقول كارل في هذا الكتاب عندما تحدث عن الأرض: بعد أن حصلنا على الصورة الشهيرة لمجمل كوكب الأرض التي جلبتها سفينة الفضاء أبولُّو سبعة عشر في أول رحلة بشرية إلى القمر, لقد أصبحت الصورة بمنزلة أيقونة عصرنا, تبدو فيها أنتركاتيا في موقع يعتبره الأمريكيون والأوربيون هي القاع -يعني: قاع العالم- وفوقها تمتد كل قارة أفريقيا، يمكنك رؤية إثيوبيا تنزانيا كينيا وفي القمة على اليمين توجد المملكة العربية السعودية .

بالفعل عندما ننتقل إلى الصورة الحقيقة -كما نقلها في صفحة ثلاثمائة وستين- نجد أنها فعلاً صورة فريدة ومتميزة، تميز هذا الجزء العظيم الذي تقع فيه جزيرة العرب.

فرؤية الأرض من الفضاء تختلف عما نحن نراها، نحن نرى القطبين في الأعلى وجزيرة العرب كأنها في الوسط على اليمين على مدار السرطان, الحقيقة أن منظراً فريداً جداً أن الأقمار الصناعية عندما يصورنها من الفضاء فيظهر أعلى شيء هو جزيرة العرب -المملكة العربية السعودية والدول المحيطة بها- وكأن مكة هي الوسط -بحيث لو قسمت هذه الخارطة هكذا وهكذا، لكانت بالفعل مكة هي المركز المهم لهذه الكرة الأرضية.

ملخص الدلائل على أن جزيرة العرب مهد الحضارات الإنسانية

إذاً: الحقائق والدلائل كلها تشير إلى أهمية جزيرة العرب في ذلك، وبإجراء مقارنات علمية لغوية

وآثارية وحضارية وما أشبه ذلك؛ نجد أن هذه القضية بارزة وواضحة جداً، ونرجو إن شاء الله أن تَقَدّم العلوم والاكتشافات سوف يؤكد هذه الحقيقة التي قد نعود إليها إن شاء الله في لقاء قادم عن مكة وفضائل مكة وأهميتها، ولماذا اختيرت، ونذكر ذلك من كتب أهل الكتاب ومن غيرهم.

إنما المقصود في هذه الحلقة هو بيان أن مهد البشرية ومهد التاريخ ونشأة التاريخ هو بالفعل جزيرة العرب، التي إذا بدأت تقرأ في كتاب الله تعالى فإن الأمم العظيمة التي نشأت فيها هي أعظم الأمم على الإطلاق، وأن العالم البشري كله مهما تباعدت أقطاره يرجع إلى قضية نوح والطوفان، ثم إلى قضية إبراهيم فضلاً عن عاد وثمود، ثم الآثار الحضارية الهائلة التي اكتشفت والتي سوف نرى إن شاء الله في لقاءات قادمة أثر هذه الأمم القديمة التي انطلقت من هذه الجزيرة؛ فهي التي بنت تلك الآثار كما تدل أحدث النظريات الحديثة والكشوفات.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياكم جميعاً, وأن ينفعنا بما نسمع وما نقول, وأن يهدينا إلى سواء الصراط, والحمد الله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة الثامنة: حادثة الطوفان

العناصر:

1.مقدمة

2.المقصود بالطوفان

3.المناهج الثلاثة في الطوفان:

-المنهج العلمي اللاديني

-منهج الوحي المحرف

-منهج القرآن ومقارنته بما في الأساطير وسفر التكوين

4.الطوفان في:

- الأساطير

- التوراة

- القرآن الكريم

5.الخاتمة

حادثة الطوفان

الحمد الله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها الإخوة والأخوات! فقد تحدثنا في اللقاء الماضي جملة عن موطن الحضارة ومهد التاريخ، وهي جزيرة العرب التي خرجت منها الهجرات, وانطلقت منها الحضارات القديمة، كما أكد ذلك الباحثون التاريخيون وغيرهم في هذه الأيام, وكلما تقدمت الأيام يزداد ذلك تأكيداً.

وباعتبار أن الذي نرجحه ونقرره أن الكتابة والحضارة سابقة لعهد نوح عليه السلام -ولا شك عندنا أيضاً أن التوحيد سابق كذلك، وأن القرون العشرة الأولى كانت على التوحيد المحض- فهناك حادثة عالمية مشهورة، وهي تشكل قضية من قضايا الفكر العالمي، التي تختلف فيها الآراء والمناهج في بحثها والتوصل فيها إلى المعرفة، ولها علاقة بما مضى؛ وهي حادثة الطوفان.

المقصود بالطوفان

نحن نسمع كثيراً من علم الجيولوجيا -وهو من العلوم المقررة والواضحة والمنتشرة الآن في المراحل التعليمية المختلفة- أن الجزيرة العربية في الواقع كانت مغطاة بالمياه، وأن العراق كان مغطى -وهذه نظرية تغيرت الآن- إلى الجزء الجنوبي تقريباً بمياه الخليج وغير ذلك، وكل هذا لا يعنينا على الإطلاق في موضوع الطوفان، ولا علاقة له بهذا الموضوع مطلقاً؛ لأن الآماد والأحقاب الطويلة التي يتحدث عنها الجيولوجيون بعيدة كل البعد عن هذا الموضوع؛ فهم يتكلمون عن آماد وعصور وأحقاب قبل أن يوجد الإنسان، وقبل أن يخلقه الله تبارك وتعالى، ويهبطه إلى هذه الأرض، فمثلاً: هم ينسبون بعض الأمور إلى ما قبل الكمبري -والكمبري نسبة إلى وادي كنبري في بريطانيا- والنسبة إليه مرحلة قديمة جداً؛ يعدونها تقريباً بمئات الملايين من السنين؛ فهذه لا علاقة لها بالموضوع.

إجماع الشعوب والحضارات على وقوع الطوفان

الشاهد أن الطوفان الذي هو بمعنى: الماء الذي أرسله الله تبارك وتعالى عقوبة على قوم نوح؛ بسبب كفرهم وذنبوهم، والحدث الذي يتحدث عنه الناس في مختلف الحضارات والشعوب على أنه حدث يوماً ما للجنس البشري، وأن هناك من نجا منه وهناك من غرق؛ هذا هو المقصود في هذا اللقاء.

هذا الحادث -وهو الطوفان- مُجمع عليه تقريباً لدى جميع الشعوب, حتى التي لم يكن بينها أي تواصل أو تلاقي.

فمثلاً: نجد أن كتاب: قاموس الآلهة والأساطير ألَّفه ثلاثة من الألمان, وهو يتحدث تحت مادة الطوفان المعربة فيقول: إن تصور طوفان عام شامل غطى سطح الأرض هو تصور موجود, ليس فقط في الأساطير الرافدية؛ بل في أساطير حضارات كل الشعوب.

البعض -وهم الباحثون في الأنتربولوجيا أو بمقارنة ثقافات الشعوب- عندما قالوا: إن الطوفان هو الخرافة المشتركة بين بني البشر فهم يقصدون بذلك: أن أي شعب تذهب إليه تجد عنده حديثاً عن الطوفان، وإن اختلفت هذه الأحاديث؛ حتى الجزر النائية مثل: جزر فيجي أو بعض المناطق في المحيط الهادي -ولعلنا نأتي إلى هذا إن شاء الله- المقصود: أن وجود هذه الحادثة ووقوعها مشترك فعلاً بين البشر.

حادثة الطوفان في مناهج المعرفة الثلاثة

عندما بدأ النقد التاريخي للكتب المقدسة في عصر التنوير - القرن الثامن عشر في أوروبا كما يسمى- وعندما بدأت العلوم الحديثة تتقدم وتتطور؛ هنالك اختلفت الآراء، وعندما جمعت هذه الأقوال أصبح في إمكان الباحث الآن أن يمحص بين هذه الأقوال وبين هذه الآراء، ويكتشف ويعرف أين الحقيقة بالضبط من مجموع هذه الأقوال بمصادرها المختلفة.

الطوفان في المنهج العلماني اللاديني

المنهج البحثي العلمي اللاديني -مثلاً- يحتمل نوعين أو فئتين:

الأول: هم الذين ينكرون الطوفان الذي نتكلم عنه مطلقاً؛ أما كونهم لا ينكرون أن الأرض كانت مغطاة بالمياه في عصر ما قبل الكمبري أو بعده، ولا ينكرون أن الجليد كان يغطي معظم الأرض باعتبار العصر الجليدي أحد العصور الجيولوجية القديمة؛ فليست هذه القضية, القضية أنهم ينكرون أن يكون هناك طوفان بهذا المفهوم الذي نتكلم عنه, وما يقولون: إن الناس تحدثوا عنه في التوراة وفي غيرها.

والحجة والشبهة لدى من ينكره مطلقاً هي في الحقيقة أشبه ما تكون بأنه مجرد عدم العلم، وكما يقول علماؤنا رضي الله تعالى عنهم: عدم العلم ليس علماً بالعدم.

ولذلك ننتقل إلى الطائفة الثانية منهم: وهم الذين يشككون فيه، بمعنى: أنهم لا يملكون المقدرة على النفي القاطع لكنهم يشككون؛ لأن أولئك غلوا في الكفر بالأديان والكتب, والآخرون يشككون، فهم أقرب إلى المنهجية المعقولة.

هؤلاء وهؤلاء على أية حال اعتمدوا على أن القصة في التوراة فيها ثغرات كثيرة جداً -وهذا ما سوف نعرض لبعضه إن شاء الله- وإذا كان ما عند الشعوب الأخرى هو خرافات وأساطير، فالأساطير لا قيمة لها علمياً, والكلام المتناقض لا قيمة له علمياً، وبالتالي نشكك في وجود شيء اسمه الطوفان.

حادثة الطوفان في منهج الوحي المحرف

المنهج الثاني: هو منهج الوحي المحرف -ونعني به: ما ورد في سفر التكوين أو الخليقة من

التوراة- وهذا الموضوع هو الذي ثارت ثائرة الفكر الغربي عليه منذ عصر التنوير في القرن الثامن عشر الميلادي -كما يسمونه في الغرب- وأصبحت مشكلة الطوفان هي إحدى المشكلات الكبيرة؛ لأنها جزء من القول بعدم دقة تواريخ التوراة وانطباقها على الحقيقة والواقع.

هذه المشكلة العويصة -التي لن نستطيع طبعاً الإفاضة فيها-؛ لكن نأتي عليها من المصادر أو الشروح الكتابية، ولا سيما من دائرة المعارف الكتابية التي كتبها مجموعة منهم وطبعت مؤخراً، وبذلت فيها جهود كبيرة جداً للدفاع عن الكتاب المقدس عندهم, وأنه كله وحي، وأنه لا خطأ فيه ولا تناقض.

الحقيقة أن ما كانوا قد قرروه -وأشرنا إليه من قبل- في مسألة أنه خلق العالم قبل أربعة آلاف سنة من ميلاد المسيح عليه السلام، وأن ذلك يمكن أن يكون معقولاً جداً, وإلغاء ما يتعارض معه، هذا الكلام الذي أقروه في مادة أنتربولوجيا أو غيرها ناقضوه هنا وبشكل واضح -على ما سوف نذكر إن شاء الله تبارك وتعالى- لأنه لا يمكن الجمع بين النقائض بالفعل.

أول ما بدءوا في الفقرة الخامسة في هذا الموضوع يقولون: إن الطوفان قديم العهد، وأن هناك دلائل على وجود فجوات بين الأجيال المذكورة في الإصحاح الحادي عشر من التكوين.

لاحظوا هنا أنهم يعتبرونها أجيالاً؛ لأنهم قالوا: فلان ابن فلان ترتيب مرتب, فذكروا موته وحياته وولادته وكل شيء، ولم يعتبروها كما جاء في القرآن الكريم أمماً؛ يعني: أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن، فمن هنا وقعوا في هذا الخطأ، وهذا يدلنا على أن كثيراً من التحريف الواقع في الكتب هو بأن يضاف ويدخل فيها تفاصيل ليست حقيقية وليست منها، فبالتالي يشك الشاك في أصل القضية برمتها.

المهم أنهم قالوا: لو أنه لا توجد فجوات بين الأجيال المذكورة؛ لكان معنى ذلك أن كل الآباء بعد الطوفان -بما فيهم نوح نفسه- كانوا ما زالوا على قيد الحياة عندما كان إبراهيم في الخمسين من عمره! وهذه مشكلة كبيرة جداً إذا نظرنا إلى جداول التوراة وتقاويم التوراة وطبعات التوراة -وقد أشرنا إلى هذا في الماضي وأن هناك نسخة عبرانية ويونانية وسامرية- بالفعل هناك إشكال كبير جداً في مسألة كيف يمكن -مثلاً- أن تحدد التوراة أن الطوفان وقع ونوح عليه السلام عمره ستمائة سنة! فعلى هذا يكون كما يقرر الشيخ رحمة الله يقول: يكون نوح عليه السلام حين مات آدم عليه السلام ابن مائتين وثلاث وعشرين سنة؛ تَقَارُب هذه العصور يجعل أن آدم عاش في حياة نوح هذه المدة، ثم

أشد من ذلك هو أنه عندما مات نوح يكون عمر إبراهيم عليه السلام خمسين أو ثمان وخمسين سنة.

فهذه كلها تناقضات لا يمكن أن تكون، وهم أنفسهم وغيرهم من النقاد وافقوا الشيخ في هذا بقولهم: لا بد إذاً أن يكون هناك فجوات كبيرة في المدة التي بين هذا وبين هذا.

ومن ذلك مثلاً: أنهم يجعلون العقوبة نزلت على بابل، و بابل المعروفة كانت تقريباً قبل المسيح بأربع وعشرين ألف قرن, يعني: ألفين وأربعمائة إلى ألفين وثلاثمائة سنة، وهذا أحد الأخطاء التي تتكرر؛ لأن المقصود ليس بابل! -ليس في القرآن طبعاً ولا في العلم ما يدل على أن الذين أغرقوا هم بابل- إلا إذا كان الاسم اسم جنس؛ بأن يقال: المنطقة التي فيها بابل ، أو بابل بمعنى تشمل منذ أن خلقها الله واستمرت في هذه الأرض إلى ما بعد، كما نسمي العراق العراق طوال التاريخ, أما إن كان المقصود بابل أي: الحضارة البابلية التي اكتشفت وكانت في القرن الثامن قبل الميلاد فهذا لا يمكن أن يكون كما قرروا هم بأنفسهم هنا.

ولذلك يقولون: هناك أدلة قوية تقتضي تحديد زمن الطوفان بعد عام سبعة آلاف قبل الميلاد! لاحظ أنهم دافعوا في الموضع السابق عن أنه خُلقت الخليقة عام -الخليقة الكون كله وليس آدم- أربعة آلاف قبل الميلاد أو حول ذلك، والآن نجد أن الطوفان الذي في أيام نوح -ويذكرون أن بينه وبين آدم آماد بعيدة- يفترضون أنه عام سبعة آلاف قبل الميلاد!

ويؤكدون ذلك في الأخير ويقولون: يمكن القول بأن الطوفان حدث قبل ميلاد المسيح بنحو ستة أو سبعة آلاف سنة. هذا خلاصة ما قرروه في هذا الشأن.

فلذلك هناك إشكالية كبيرة في القصة كما وردت في التوراة ، وكما جاءت من الناحية التاريخية بمعنى متى حدث الطوفان؟! فضلاً عن قضية الإشكالات التي أثيرت حول هل كان عاماً وشمل أهل الأرض جميعاً أم شمل بعضهم؟! هل كانت الفُلْك بهذا الحجم أو ذاك؟ قضايا تفصيلية فرعية ليست مؤثرة كثيراً في الموضوع؛ لكنها تدل على التناقض، وما ذُكر أيضاً في بعض الأوصاف والتي مع الأسف نقلها أيضاً المسلمون ضمن الإسرائيليات التي أُخذت إلى بعض كتب التفسير تفاصيل لا علاقة لها بالحقيقة ولا يدل عليها أي دليل.

إنما بهذا القدر من القصة التوراتية يكتفي العلماء بالقول بأن هذه القصة تدل على أن هذه النصوص غير محققة وأنها غير دقيقة.

على سبيل المثال: نحن نعرف الطبيب المشهور موريس بوكاي الذي كتب كتابه المشهور: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة , من هذه القضية ومن أمثالها يقرر أن رواية التكوين أو سفر الخليقة من التوراة عن الطوفان وعن الأجيال ما بين نوح وإبراهيم عليه السلام؛ لا يمكن أن تكون حقيقية، وليست فقط الأخطاء مقصورة على التوراة ؛ بل إن إنجيل لوقا لما ذكر نسب المسيح عليه السلام أخطأ أيضاً في ذلك؛ بل إنه خالف وزاد الخطأ فأصبحت الأخطاء مضاعفة ومتراكمة، -وهنا نذكر بأن حتى الذين ينسبون للنبي صلى الله عليه وسلم ويتعدون معد بن عدنان إلى إبراهيم عليه السلام، ثم يتعدون إلى آدم أن هذا خطأ هو منقول عن أهل الكتاب, ونحن نرفض الخطأ أينما وجد هنا أو هنا؛ لأنه بدون علم وبدون يقين, وقد نقلنا الآثار في ذلك فيما سبق.

إذاً يكفي فعلاً أن يشك الشاك في هذه القصة كما وردت في التوراة وأن يتردد فيها، إلا أن يخرج بخلاصة مجملة لها كما فعل الأستاذ رشيد رضا رحمة الله تبارك وتعالى عليه في هذا الشأن.

حادثة الطوفان في المنهج القرآن المحفوظ

الأستاذ رشيد رضا في تفسير المنار ننتقل معه إلى المنهج الثالث -وهو منهج القرآن- في الحديث عن الطوفان، والمقارنة بينه وبين ما في التكوين.

قضية الستة أيام والخلاف فيها وأول السِّفر لا يهمنا كثيراً؛ لكن يقول: إن القصة التي جاءت في التوراة ليس فيها أن نوحاً كان رسولاً, ولا أنه دعا قومه إلى الله, ولا أنه آمن معه أحد, ولا أنه كان له ولد كافر غرق مع قومه, ولا امرأة كافرة -يعني: لم يأت بهذه الأمور- وإنما يتفق القرآن و التوراة في أن سبب الطوفان غضب الله تبارك وتعالى على البشر بفسادهم وظلمهم. هذا هو القدر المشترك.

ويضيف شيئاً آخر فيقول: يوافق القرآن سفر التكوين تقريباً في عمر نوح؛ وهو تسعمائة وخمسون سنة؛ ولكن نص القرآن أنه لبث في قومه هذه المدة.

والصحيح: أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً كما ذكر الله تبارك وتعالى، وهذا لا علاقة له بعمر نوح؛ لأنه لم يبعث إلا بعد أمد، قيل: إنه ما يقارب خمسمائة عام كما في بعض الروايات، ثم لم يذكر الله تبارك وتعالى لنا كم عاش بعد ذلك عندما قال: ((وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ))[الصافات: 77]؛ فإذاً: هذه الألف سنة إلا خمسين عاماً ليست في الحقيقة عمر نوح عليه السلام؛ وإنما -كما

جاءت في القرآن- هي مدة لبثه ومكثه عليه السلام في دعوة قومه إلى الله تبارك وتعالى فقط.

عند ذلك يأتي الشيخ رشيد رضا ويبدأ في مقارنة، ويلخص لنا خبر الطوفان في الأمم القديمة؛ لتظهر بهذه المقارنة الحقائق الواضحة بين ما جاء في التوراة , وما جاء في القرآن وما جاء في هذه الأمم.

يبدو لي من كلامه أنه رحمه الله نقله من كلام يوسف الدبس من كتابه الذي أشرنا إليه فيما مضى وهو: تاريخ سوريا , اللهم إلا إذا كان الاثنان ينقلان من مصدر واحد؛ لكن ربما يكون الأول أرجح, وهذا لطرافته لا بأس أن ينقل، وفيه بعض الأمور الطريفة فعلاً.

يقول الشيخ: ورد في تواريخ أكثر الأمم القديمة ذِكر للطوفان, منها الموافق للتكوين إلا قليلاً، ومنها المخالف له إلا قليلاً.

ثم يبدأ بذكر الروايات، ويذكر -مثلاً- رواية الكلدانيين وغيرهم, التي تتحدث عن ملحمة قلقامش -الملحمة التي تحدث عنها كثير من المؤرخين، وهي ملحمة قديمة فعلاً وكانت باللغة الآكادية, وقد حظيت بالبحث والإعجاب الشديد، ويتحدث عنها الشعراء والأدباء والمؤلفون والمؤرخون, وترجمت عدة ترجمات، وبين يدي الآن أربع ترجمات لهذه الملحمة، من أطرفها الترجمة التي عملها الدكتور سامي الأحمد ؛ حيث إنه يأتي بالنص الآكادي ثم بعد ذلك يأتي بالترجمة، وبهذا يظهر لنا فائدة عجيبة جداً، وهي: أن أصل اللغة الآكادية القديمة هي اللغة العربية؛ فالكلمات عربية مثلاً: الرب المعبود هنا -كما يزعمون- هو شمش أي: الشمس, وبقية اللغة هناك قواسم مشتركة.

المقصود: أن أقرب رواية لما في التكوين هي ما جاء في ملحمة قلقامش التي جاءت في الأساطير القديمة في بلاد الرافدين ؛ لكن هناك أمم أخرى لها شيء من هذا، والعجيب أننا لاحظنا أن كل شعب يسمي الرسول الذي نجا اسماً مختلفاً، ولا يوجد تطابق إلا ما بين التوراة والقرآن في أن اسمه نوح عليه السلام، أما بقية الكتب فذكروا أسماء أخرى لا تهمنا، -مثلاً: اليونانيون ذكروا اسماً آخر، والفرس لهم قصة أخرى، والهنود والصينيون لهم قصص أخرى، وفي البرازيل لها قصة أخرى، وفي المكسيك لها قصة أخرى, فلكل بلد قصة؛ لكن من أطرب ما فيها ما ورد عن قدماء الفرس، وهو أنهم قالوا: إن الله تعالى أغرق الأرض بالطوفان بما انتشر فيها من الشرور والفساد، وذلك بفعل إله الشر أهرمن -أو لعلهم يريدون الشيطان لكن حرفت- وقالوا: إن هذا الطوفان فار أولاً من تنور العجوز؛ إذ كانت تخبز خبزها فيه!

والتنور لم يذكر في الأساطير المعروفة فيما اطلعت عليه, إلا في أساطير الفرس، وجاء النص عليه في القرآن, ونحن لاحظنا وأشرنا -ونؤكد الآن- أنه ليست عادة القرآن أن يأتي بالتفاصيل! لكن لما ذكر هنا التفصيل هذا فمعناه: أن التفصيل إنما ذكر ليصحح ما قاله قوم ويخطئ ما قاله آخرون؛ لأهميته في التصحيح وبيان الحقيقة، وإن كان غير مهم في العبرة وفي الموعظة وفي الهدى وفي البيان، -هذا لا يهم كثيراً لكن يهم فقط في هذا.

إذاً: الفرس فقط -من بين كل الأمم- هم الذين احتفظوا بأنه فار التنور، فيأتي ذلك في القرآن كذلك, وهو على الأصح فعلاً ما يخبز فيه.

بمعنى: أن الله سبحانه وتعالى أمر السماء أن تمطر، وأمر الأرض أن تُخرج ماءها وفجّرها ينابيع، فإذا كانت قد تفجرت الدنيا ينابيع حتى أن التنور الذي يخبز فيه انفجر منه الماء! فمعنى ذلك: أن هذا لا يمكن أن يكون إلا العذاب؛ لكن في الحالات العادية والطبيعية ممكن أن تنفجر أي عين في أي مكان؛ لكن أن ينفجر التنور ويفور فهذه علامة مؤكدة جعلها الله تبارك وتعالى لنوح عليه السلام على أن الأمر هو عذاب، وأنه جاءهم ما كانوا يوعدون؛ فحينئذٍ عليه أن يدرك نفسه ويركب هو والمؤمنون في السفينة.

أخطاء بعض الأمم السابقة في حادثة الطوفان

من الأشياء المختلف في هذه القضية: أن الهنود يزعمون أن السفينة استقرت على جبال الهملايا، والتوراة لا تذكر الهملايا, لكن تقول: إنها استقرت في جبال أرارات؛ وهي جبال أرمينيا، واجتهد الشراح الكتابيون -وهم كثير جداً- في إثبات أن أرارات هي فعلاً الجبل الذي استقرت عليه السفينة من عهد الطوفان، وأيضاً هذا أمر في سياق القصة والعبرة والموعظة والهدى لا يهم أن يكون أي جبل من الجبال؛ لكن عندما نجد أن القرآن الكريم ذكر هذا الجبل، وأن الله سبحانه وتعالى سمّاه الجودي، فمعنى ذلك أيضاً هو تكذيب لمن قال: إنه أرارات أو هملايا.

طبعاً الهملايا غير معقول أبداً ولا حتى أرارات على نظر من يرى أنه عم الأرض؛ لأن الهملايا كما نعلم ترتفع ارتفاعاً هائلاً جداً، فشيء يعم الأرض بهذا الارتفاع الهائل! لماذا يعم الأرض حتى يصل إلى أعلى جبل! غير معقول أبداً بهذا الشكل، وكذلك أرارات، -طبعاً يمكن الهملايا فوق ثمانية آلاف متر، أرارات أو هضبة أرمينيا أيضاً معدل خمسة آلاف متر؛ فهي ثاني منطقة في العالم في الارتفاع مع بعض مناطق أفريقيا و أمريكا الجنوبية هذا لا يمكن أن يكون؛ وإنما بأقل من هذا ممكن أن تغرق

الأرض جميعاً من غير حاجة إلى هذا، مع أنه لا دليل عليه.

المقصود: أن هناك اختلافات وهناك أشياء جعلت هذه القضية كما قال مَن قال من المفكرين أو الباحثين أو الذين يدرسون الكتب الدينية دراسة نقدية: إن هذه خرافة مشتركة بين بني البشر.

الجداول التاريخية في التوراة في الطبعات القديمة والحديثة

حقيقة في ضوء ما جاء في هذه القضايا من اختلافات نجد أن هناك ظاهرة في تاريخ الكتب الدينية، وبالذات في تاريخ طباعة التوراة والأناجيل والتفاسير المتعلقة بها، عندما كانت هذه الرواية مقررة على أنها حقائق دينية عقدية؛ فكان الذين يطبعون الكتب القديمة -التوراة، التكوين وغيره- يحاولون أن يوضحوها ويرسموها ويرفقوها بالكتب؛ لكي يستطيع من أراد حفظها أن يحفظها، سواء كان في شرح إنجيل لوقا ليحفظ نسب المسيح عليه السلام -طبعاً نحن نعرف التناقض كيف يقولون: هو ابن الله ومع ذلك ينسبونه إلى داود ثم إلى إبراهيم عليه السلام!

المقصود: أنهم يأتون بهذه الشجرة لتحفظ -الحفظ عندهم قليل- أو لكي تفهم ويمكن الاطلاع عليه أو يأتون بها بشكل أوسع، وتفننوا في ذلك لا سيما بعد اختراع المطبعة.

لاحظ موريس بوكاي -وغيره يلاحظ ذلك أيضاً- أنه في الطبعات الأخيرة اختفت الجداول! فأصبحت تثير القارئ إلى أن يكذب ما في التكوين أكثر مما تجعله يؤمن به، فتجاوزها! البعض يقول: إن هذه مجرد تمهيد لبيان الإيمان، فتؤخذ في الجملة ولا تؤخذ على أنها تفاصيل، ولا تؤخذ على أنها دلالة تاريخية حرفية، فالتأويل الحرفي والتفسير الحرفي خطأ كله, والبعض أوّل تأويلات بعيدة وتكلف فيها، المهم: أنهم في الجملة رأوا أنه أفضل شيء ألا ترفق.

ومما يؤكد كلام بوكاي وغيره أن هناك نسخاً قديمة من شروح التوراة، وهذه التي بين يدي مثلاً نسخة قديمة جداً من ناحية الطباعة؛ فهي طبعت عام 1884م, ونجد أنها مرفق بها هذه القائمة وهذه التواريخ؛ لكن عندما نستعرض الآن الطبعات الحديثة والتي أشرنا إليها وعرضناها من قبل في اللقاءات الماضية؛ لا نجد ذكراً لهذه الجداول؛ لأنها أصبحت مما لا يريدون ذكره؛ بل يحاولون أن يمروا عليه مرور الكرام وأن ينتهوا منه.

المنهج الأسطوري وحادثة الطوفان

على أية حال إذا أمكنا أن نقارن ما بين العرض الأسطوري أو المنهج الأسطوري في هذه القضية،

فنجد الاختلاف والتباين الشديد، ونجد أن القدر الذي يمكن أن نتفق عليه هو وجود طوفان عام! لكن لماذا انتشر؟ ولماذا تفرق في أنحاء الأرض بهذا الشكل, مع أنه ربما كان الاتصال ضعيفاً بين القارات؟!

يمكن أن يقال: لأن الله تعالى جعل ذرية نوح هم الباقين فكل جيل يتحدث عما قبله, فمثلاً: يقولون: كيف انتقل الإنسان من العالم القديم إلى العالم الجديد -أي: إلى الأمريكيتين- مع أنه في العصر الجليدي غطى الجليد المضيق الفاصل ما بين آسيا و أمريكا، ومضيق بيرنغ -أو بيرينج- منطقة ليست عريضة، فعبرت البشرية من هناك؟ الله أعلم؛ لكن هذا أحدها، وقد لا يكون.

المقصود: أن أي جيل انتقل أو عبر من منطقة إلى منطقة وبقي في منطقته يحتفظ في ذاكرته بأن آباءنا قد جاءهم الطوفان، وأنهم قد أُغرقوا!

هنا ملحظ أيضاً أنهم يقولون مثلاً: لماذا في أفريقيا أو في مصر يقل الحديث عن الطوفان؟! التعليل في نظري -والله تعالى أعلم- أنه لما كان الطوفان مستمراً وكان النيل يفيض, والله تعالى عاقب قوم فرعون بالطوفان كما أخبرنا، فمن تكرار الطوفانات لم يعد له تلك القيمة العظيمة المدهشة كما عند الشعوب الأخرى التي يمثل الطوفان لديها معلماً تاريخياً كبيراً؛ لكن المقصود أنه من حيث الجملة هو يدل على أن حدثاً ما قد وقع، وهذا الحدث لا يمكن للعلم الحديث أو لأحد عاقل أن ينفي أن حدثاً ما من هذا النوع قد يقع.

أما عن المنهج التوراتي فجاء الخلل والخطل من كثرة التفاصيل في الأنساب، وكثرة التفاصيل في السنوات، فتفاصيل كثيرة قطعاً نحن نقول: إنها زيدت على النص الأصلي الذي أنزله الله تبارك وتعالى على موسى عليه السلام، وطبعاً نحن لا نذهب إلى ما ذكره وأشار له الشيخ رشيد رضا وبعض العلماء أن سفر التكوين أنزل على يوسف، هو الأصل كما هو موجود لدينا؛ لكن الزيادات التي أضيفت مع تقادم العهد، وكون الأحبار والرهبان استحفظوا من كتاب الله تعالى أن يحفظوه فلم يحفظوه، وليس مثل القرآن المحفوظ: ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ))[الحجر:9], حفظه تعالى ولم يستحفظ عليه غيره؛ فلذلك حصلت هذه التعديلات وأدخلت التفاسير ضمن الأصل؛ حتى أصبحنا نجد مثل هذا ليس عجيباً؛ نجد في آخر الأسفار الخمسة يقول: ومات موسى ودفن. هذا طبعاً لا يمكن أن يكون مما أنزله الله تبارك وتعالى على موسى؛ لكن لأنهم هم يكتبون التفسير أو الشرح ويضيفونه على الأصل، ويأتي بعد ذلك أجيال طويلة فتقول: إن هذا كلام الله، ومع الأسف الشديد -كما قلنا- مع أنهم دكاترة جامعات وأساتذة في لبنان وفي مصر وعرب! ومع ذلك يصرون بقوة على

أن كل ما في الكتاب المقدس -هذا الذي عمل له دائرة المعارف وغيره- حق، وأنه ثابت، وأنه كله وحي؛ برغم هذه التناقضات وهذه الأوهام.

الغاية من ذكر حادثة الطوفان في القرآن الكريم

إذا تركنا هذا كله وانتقلنا إلى ما ذكره الله تبارك وتعالى في القرآن,؛ فنجد القضية أولاً: تأتي في سياق تقرير توحيد الله عز وجل، وهذه أهم قضية في تاريخ البشر، وفي فكر البشر، وفي علم البشر.

تأتي القضية في بيان صبر الأنبياء أولي العزم وأولهم نوح عليه السلام.

تأتي هذه الأحداث في بيان قوة الله سبحانه وتعالى.

وتأتي في بيان إعذار الله تعالى للخلق؛ فإنه أعذرهم ولم يعذبهم إلا بعد هذه المدة الطويلة؛ ألف سنة إلا خمسين عاماً.

تأتي أيضاً لبيان تأسي الدعاة, إذ كيف لم يؤمن بنوح عليه السلام إلا قليل، وأكثر الناس أو البقية لم يؤمنوا، كل هذه وغيرها من العبر الكثيرة تأتي في القرآن فتبعدنا كثيراً عن قضية: في أي سنة؟ وفي أي يوم؟ وكيف حصل؟ وما أسماء الحيوانات؟

التفاصيل التي ليس لها دلالة وليس لها عبرة في هذا السياق؛ -وليس في القرآن شيء إلا بحكمة- ((إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ))[نوح:1], لاحظ (قومه) و(قومك) هذه لم تأت عبثاً؛ بل لتؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم هو وحده للناس كافة، ومع ذلك فإن هذا لا يعارض ولا ينفي أن يكون الغرق عم جميع الأرض، ثم من بعد ذلك يكون ((وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ))[الصافات:77]؛ لتكون البشرية بالفعل من ذرية نوح عليه السلام، فهو الأب الثاني للبشرية لا على السلالة التي ذكرتها التوراة بالتفصيل، ولو بعد قرون من نجاة من آمن معه؛ لأن هذا معروف في علم الأنساب، مثلاً: الإسماعيلية انتشرت حتى طغت أو كادت تطغى، بينما نجد أن العرب القديمة طسم وجديس وأمثالها فنيت ولا وجود لها، فيمكن أن تفنى أجيال وتبقى أجيال؛ بحيث كل من بقي بعد ذلك من ذرية نوح عليه السلام.

القصة ملأى بالعبر، وملأى بالأحداث, وتحتاج إلى استنباطات كثيرة ليس المجال مجال الحديث فيها، لعل فيما أشرنا إليه أيها الإخوة والأخوات! ما يكفي للوصول إلى المقصود في بيان منهج المعرفة الصحيح، وأين هي الحقيقة بالفعل في هذه القضية التي شغلت ولا تزال تشغل أذهان

البشرية منذ قديم الدهر إلى حديثه.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبصرنا وإياكم للحق ويدلنا عليه, ويرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه إنه على كل شيء قدير.

والحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة التاسعة: التقويم وحساب الزمن

العناصر:

1.مقدمة

2.دهشة الغرب لمعرفة الأمم القديمة حساب الزمن

3.السنة لا تطابق الحساب وأمثلة على الاضطراب في ذلك:

-الأمم القديمة

-أوربا

-العرب

4.الوحي المعصوم يحسم الخلاف

-جمع الحسنين

-الواقع والدعوة إلى طريقة الأنبياء

-كلام قيم لشيخ الإسلام ابن تيمية

5.الخاتمة.

التقويم وحساب الزمن عند الأمم القديمة

الحمد لله رب العالمين, الرحمن الرحيم, مالك يوم الدين, له الحمد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل, وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى. سبحانه وتعالى, خلق هذا الكون, وخلق فيه هذا الإنسان وكرمه وميزه؛ بأن سخر له كل ما يرى أمامه، فهذه الكواكب العظيمة, والشموس, وكل ما خلق الله تبارك وتعالى في هذه الدنيا مسخر لهذا الإنسان،

وكثير من الأمور يمكن للإنسان أن يصل إليها بعقله وباجتهاده وبكدحه، فهذه قد جعلها الله تبارك وتعالى مفتوحة له, وأمره أن يجتهد وأن يعمل في ذلك، ولكن هناك أموراً كثيرة لا يمكن للعقل البشري, ولا للجهد البشري أن يصل إليها، فاقتضت رحمة الله تبارك وتعالى وعدله وحكمته أن يوحي بها إلى البشر, وأن يعلمها الإنسان؛ حتى لا يضيع عمره سدى؛ بل يشتغل في عمره المحدود فيما ينفعه, وفيما يعود عليه بالخير في الدنيا والآخرة، دون الاشتغال بما هو قليل الجدوى أو لا فائدة فيه, أو كله مشقة وكله تكلُّف. أيها الإخوة الكرام! علاقة هذه المقدمة بالموضوع اليوم: هو أننا قد تحدثنا عن الحضارة، ونشأة الإنسان، ونشأة الحضارة، وعن بعض الأحداث العظمى كالطوفان -كما كان في اللقاء الماضي- والآن نتحدث عن قضية تتضح فيها حقيقة المنهج، أو الحقيقة التي يسعى إليها الإنسان على أي منهج؟ وبأي طريقة يستطيع أن يصل إليها؟ وهو ما يتعلق بحساب الزمن. فإن الشعور والإحساس بالزمن هو من أعظم الخصائص البشرية التي لا يشترك مع الإنسان فيها أحد من المخلوقات الأخرى، فالإنسان هو الذي يحس بالزمن, ويشعر به، والله تبارك وتعالى سخر له هذا الكون، فكيف استطاعت البشرية في تاريخها السحيق القديم أن تنظر إلى الزمن؟ وأن تقسم الزمن؟ وكيف دخل التخبط والاضطراب فيه بسبب الإعراض عن الوحي أو تحريفه؟ لأن المناهج كما قلنا ثلاثة: إما الوحي الثابت المحفوظ, وإما الوحي المحرف, وإما الهوى البشري للإعراض عن الوحي بالكلية, فيما لا يمكن الوصول للحق فيه إلا من خلال الوحي.

دهشة العلماء من معرفة الأمم القديمة لحساب الزمن

مسألة الزمن هذه لا تزال حتى الآن تحير وتدهش العلماء في جانب: كيف أن الأمم القديمة -مثل: السومريين والبابليين- استطاعوا أن يوجدوا نظاماً دقيقاً جداً على النظام الستيني, فيكون اليوم أربعاً وعشرين ساعة, والساعة تكون ستين دقيقة, والدقيقة تكون ستين ثانية؛ فهذه دقة يتعجب العلماء كيف عرفتها تلك الأقوام القديمة! إلا إذا عرفنا أن الله تبارك وتعالى برحمته وحكمته علمهم ما هو أعظم من هذا؛ وهو اللغة بذاتها -كما تقدم في لقاءات ماضية-، وكذلك الكتابة, ثم أيضاً الشعور بالزمن وحسابه. صحيح أننا نشاهد أشياء عجيبة مدهشة محيرة في الدقة التي وصل إليها الأولون، إذا نظرنا بالنظرة المعاصرة؛ وهي أن العلم الحديث تقدم جداً في هذه الأمور، وأولئك لم يكن لديهم إلا وسائل بدائية جداً؛ لكن من ناحية أخرى إذا نظرنا أن الله سبحانه وتعالى أنعم على البشرية والإنسانية جميعاً بالوحي، وأنه أوحى إليهم ما يحتاجون إليه في عباداتهم -كما سار ذلك واضحاً جلياً في الإسلام- فإننا لا نستغرب أبداً وصولهم إلى هذه الحقائق. الغريب هو الانحراف والخلل الذي

يقع دائماً من الأحبار والرهبان والكهان والملوك؛ الذين يتدخلون في دين الناس وعباداتهم, فيحرفونها عن الطريق القويم.

الحاجة الدينية والدنيوية لمعرفة الزمن

أصل الحاجة إلى معرفة الزمن سواء كان معرفة عدد السنين والحساب للقمر أو للشمس، -يعني: باعتبار البروج للشمس أو المنازل للقمر- هو أنه للتعبد وللعبادة, وهذا هو الهدف الأعظم، فكل الحضارات تجعل الدين أعظم وأقدس شيء، وكذلك من الناحية الدنيوية فالحرث والزرع، والمواسم الضرورية لحياة البشر تعتمد أيضاً على هذا.

إشكالية عدم تطابق السنة الفلكية مع السنة الحسابية

هناك إشكالية يجب أن تُذكر؛ لأنها إشكالية لله تعالى فيها حكمة تخفى على كثير من الناس, ويتكلم ويكتب عنها الكثير منذ القدم إلى الآن, ولم يفقهوا ويتفطنوا إلى السر فيها؛ هذه الإشكالية هي: أنه لا تتطابق السنة الفلكية أو السنة المدارية -سواء كانت قمرية أو شمسية- مع الحساب، يعني: ليست السنة الشمسية ثلاثمائة وستين يوماً, ولا ثلاثمائة وخمسة وستين أو ستة وستين يوماً، وليست السنة القمرية ثلاثمائة وخمسين ولا وخمسة وخمسين مثلاً، فلا تتطابق بالدقة التي يريد البشر أن تتطابق بها, وأن يعرفوه بها.

ومن هنا نشأت إشكالات من تحريفات وتبديلات البشر؛ عندما يتبعون أهواءهم, وينصرفون عن نور الوحي, وعما كان عليه الأنبياء، حتى أننا نجد الآن أن المراجع الكتابية من دوائر معارف وشروح الكتاب المقدس وغيرها تقول: إن اليهود اعتمدوا على التقويم البابلي الذي كان يحسب السنة بناء على الشهور القمرية.

والحقيقة: أن أنبياء بني إسرائيل الذين أخبرنا الله تبارك وتعالى عنهم, وتواتر عند جميع الملل أنهم يبعثون كلما هلك نبي خلفه نبي؛ هم الذين كانوا يعلمون الناس ذلك، وبابل وسومر لهم أنبياؤهم, وقد علموا الناس ذلك, وبمعنى آخر: نستطيع أن نقول: إن اعتبار الأهلة والشهر القمري هي ميراث الأنبياء, وعمل الأنبياء بوحي من الله تبارك وتعالى -على ما نوضحه إن شاء الله آخر اللقاء- فليست القضية أن اليهود أو الأمم الكتابية أخذت عن بابل؛ بل الجميع أخذوا عن الوحي.

المقصود: أنه حصل من عدم التطابق بين السنة الفلكية أو المدارية وبين السنة الحسابية إشكالات -لا مجال الآن للتفصيل فيها, والمختصون يعرفونها- وهي أنه لا بد أن تكون هناك -على أي اعتبار اعتبر- زيادة أو نقص في الأيام, يعني: لا بد من خلل وعيب في حساب الأيام؛ وهذا الخلل قد يحسب بالأيام أحياناً, وقد يصل إلى أكثر من ذلك, وقد يكون أقل من ذلك, ومع تراكم القرون فإن الثواني تصبح أياماً فضلاً عن غيرها, نتيجة لهذا كانت التقاويم مختلفة, وكانت كل أمة تحاول محاولات شتى إصلاح أفضل تقويم، إما عن طريق السنة الكبيسة, وإما عن طريق غيرها, ولا يزال -وإلى اليوم- أمر البشرية لم يستقم أبداً على تقويم صالح وسليم إلا بالطريقة الإسلامية, كما سوف نعرضها إن شاء الله تبارك وتعالى في آخر اللقاء.

اضطراب الأمم في التقويم بسبب وضعهم نظاماً اعتبارياً لحساب الزمن

اضطراب المصريين والبابليين والرومان

فعلى سبيل المثال:

اعتمد المصريون القدماء السنة الشمسية اعتبارياً -يعني: عددياً- فجعلوا السنة ثلاثمائة وستين يوماً؛ مقسمة إلى اثني عشر شهراً، وكل شهر جعلوه ثلاثين يوماً, وأضافوا خمسة أيام فجعلوها أعياداً, بحيث تصبح السنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً.

وبالنسبة للبابليين الذين اعتمدوا التقويم القمري تكون السنة لديهم ثلاثمائة وخمسة وخمسين يوماً, فإذا أضيفت أعياد أو إذا أضيف كبس تصبح ثلاثمائة وستين يوماً.

والرومان أجروا عدة تعديلات: التعديل الجيولياني أو التعديل الجورجي المتأخر عند ظهور النصرانية، ففي كل مرة يكون هناك تعديلات.

ومن الطريف في هذا أن البعض لا زال يفتخر بأن البابليين استطاعوا التوفيق بين الحساب القمري والحساب الشمسي؛ بأن جعلوا في كل تسع عشرة سنة سبعة أشهر، وهذه السبعة الأشهر تقارب أو تكمل هذا.

وهناك من جعل المدة أوجز من ذلك كالرومان مثلاً؛ فالرومان وجدوا أن الفرق بين السنة القمرية

والسنة الشمسية أحد عشر يوماً، والواقع أنه ليس أحد عشر يوماً بالدقيقة تماماً؛ لكن تقريباً، فجعل الرومان طريقة عجيبة؛ وهي أنهم يأتون إلى سنة من السنوات ويجعلونها قمرية, ويكون مجموع الأيام ثلاثمائة وخمسة وخمسين يوماً, وفي السنة التي بعدها يضيفون إليها اثنين وعشرين يوماً -يعني: أحد عشر يوماً للسنة الماضية, وأحد عشر يوماً لهذه السنة- فتكون هذه السنة ثلاثمائة وسبعة وسبعين يوماً, وفي السنة الثالثة ترجع ثلاثمائة وخمسة وخمسين يوماً, وفي السنة الرابعة لا يجعلونها ثلاثمائة وسبعة وسبعين مثل الثانية؛ بل يضيفون يوماً من أجل الكبس؛ حتى يتم التوازن, فتكون ثلاثمائة وثمانية وسبعين يوماً!

فهذه أمثلة للاضطراب والخلل الذي يحصل عند محاولة البشر الوصول إلى الدقة في هذا الشأن.

اضطراب النصارى في أوروبا

وفي الدولة الرومانية وطبعاً أغسطس هو المؤسس للدولة, وولد المسيح عليه السلام في أيامه، وولادة المسيح عليه السلام بالضبط في السنة الخامسة قبل الميلاد المعروف الآن؛ لأن الحساب كان خطأً, فقد أخطأت الكنيسة في حساب ولادته وأخرته خمس سنوات, فمثلاً: إذا نحن الآن في عام (2005) فالمفترض أن نكون في عام (2010), وهذا شيء معروف عندهم.

المقصود من هذا: أن الكنيسة أرادت التعديل بعملية طويلة, من أهمها وأشهرها: تعديل البابا جوري جوري ، الذي وجد أن تراكم الأخطاء قد يحتاج إلى زيادة عشرة أيام، فأعلن رسمياً في الكنيسة زيادة عشرة أيام في التقويم, هكذا اعتباراً فقط، فلو كان مثلاً: اليوم واحد أكتوبر, فسيكون غداً أحد عشر أكتوبر.

طبعاً أسماء الشهور هذا موضوع آخر قد تأتي له حاجة فنذكره أو لا تأتي له حاجة فنعرض له؛ لكن المقصود أن عشرة أيام أضيفت في آخر القرن السادس عشر تقريباً، واعتمدت ذلك الكنيسة في إيطاليا وفي فرنسا ؛ لأنهما كانتا خاضعتين للبابا.

الدين النصراني في الجملة خرج عن الأشهر القمرية الكتابية النبوية التي عندهم، وأصبح بالتقويم الشمسي؛ لكي يوافق التقويم الروماني الوثني، فتاهوا واختلفوا واضطربوا, واختلفت أعيادهم كذلك.

إذا أخذنا مثلاً لذلك: نجد في دول أوروبا الشرقية: اليونان و روسيا والدول الأرثوذوكسية عموماً، نجد أن الفرق يقارب خمسة عشر يوماً ما بين تقويمهم وبين التقويم الغربي، الذي يسمى ميلادي, والذي -مع الأسف الشديد- يكاد أن يطغى ويغلب على العالم العربي الإسلامي، حتى في البلاد التي لم يدخلها الاستعمار مثل اليمن, فقد أصبح المعتمد عندهم هو الأشهر الغربية, والتقويم الغربي، على ما يقع فيه من خلل, وما فيه من أخطاء، وهو اعتباري وضعي, وليس وحياً ولا مطابقاً للحقيقة.

المهم: أنه في الاتحاد السوفيتي بقيت هذه الخمسة عشر يوماً أو الأربعة عشر يوماً فارقاً بينهم وبين التقويم الغربي؛ لأنهم رفضوا أن يتبعوا ما عدلته الكنيسة الكاثوليكية، فبقي على الفارق حتى قامت الثورة الروسية، فعندما قامت الثورة الروسية أرادوا أيضاً إلغاء التقويم الديني -بل والدين كله من الحياة- فوقعوا هم أنفسهم في الخلل؛ لأن الثورة كانت في خمسة وعشرين سبتمبر, فأضافوا الخمسة عشر يوماً ليوافقوا التقويم الغربي، فأصبحت في أكتوبر!

والحقيقة: أن تسميتها ثورة أكتوبر غير صحيح إلا باعتبار التقويم الغربي! وهم لما ألغوا أول الأمر كلا التقويمين الدينيين ولم يعتبروهما, وضعوا تقويماً ثورياً، ووضعوا نظاماً خاصاً بالثورة, واعتبروا الثورة هي بداية التقويم، وهم بذلك يقلدون الثورة الفرنسية، والثورة الفرنسية لما وضعت نظاماً يختلف في أسابيعه وفي أيامه وفي شهوره عن النظام الكنسي؛ وقعت في مأزق, حتى جاء نابليون فألغى ذلك النظام.

الثورة الروسية ظنوا أنهم وضعوا نظاماً أفضل؛ بأن جعلوا الأسبوع عشرة أيام, واليوم العاشر عطلة، وبهذه الطريقة لا يعملون لا بالتقويم الغربي, ولا بالتقويم الشرقي.

الذي حدث أنهم بعد فترة وجدوا أن التقويم الثوري لا يصلح! فاضطروا إلى إلغاء التقويم الثوري، فرجعت الكنيسة إلى تقويمها الشرقي، أما الدولة فأخذت تتعامل بالتقويم الغربي الجوري جوري، فأصبح في البلد في وقت واحد ثلاثة تقاويم: المتعصبون للشيوعية على تقويم الثورة، والمتعصبون للأرثوذوكسية على التقويم الأرثوذكسي، والمقلدون للغرب أو التقويم الحكومي على التقويم الغربي.

وهكذا نجد الاضطراب حصل في بريطانيا, ولم يقبل الشعب البريطاني إلا في منتصف القرن الثامن عشر أن يأخذ بالتقويم الجوري جوري، ويضيف الأحد عشر يوماً الزائدة, والتي أصبحت أربعة

عشر يوماً بسبب الكبس, وعدم الكبس أيضاً كما أشرنا.

الشاهد مما سبق: أننا نأتي بأمثلة لبيان الخلل والاضطراب الشديد الذي يقع عندما تكون السنة أو الشهور كلها عددية اعتبارية وضعية، ولا يراعى فيها حقيقة فلكية ثابتة ومشاهدة ومحسوسة.

اضطراب العرب في الجاهلية

لو رجعنا للعرب في الجاهلية نجد أنهم كانوا يستخدمون النسيء، والنسيء كان على نوعين:

النوع الأول: هو تحليل الأشهر الحرم, وتحريم الأشهر الحلال؛ فيؤخر محرم مثلاً فيصبح محرمين, أو يصبح صفر هو المحرم, هذا نوع.

النوع الثاني: هو أيضاً محاولة مطابقة الأشهر القمرية للشمس، فوجد أن الفرق أحد عشر يوماً، فجعلوا كل ثلاث سنوات شهراً يضاف إلى الاثني عشر شهراً، فتصبح السنة بعد ثلاث سنوات ثلاثة عشر شهراً؛ حتى يتقارب الزمن لديهم بهذه الطريقة.

بمعنى آخر: كان العرب أيضاً على نفس الخطأ الذي وقعت فيه الأمم القديمة من المصريين والبابليين والآشوريين، وأيضاً وقعت فيها أوروبا سواء كان عن طريق التقويم الروماني أو عن طريق التقويم الجوري جوري، فكانت هناك نفس المشكلة في تحديد الزمن، ولم يكن هناك معلم واضح يمكن للناس أن يحددوا به أو يعتبروا به؛ لأن الناس لم تكن تميز؛ إما أن تجعلها عددية, وإما أن تجعلها كلها طبيعية, فلا تفرق بين هذا، فهي تحتاج إلى الحسم في هذا الباب.

الوحي المعصوم يحسم الخلاف في حساب الزمن

والحسم يأتي عن طريق الوحي المعصوم, وليس عن طريق الوضع أو الاتفاق البشري, سواء كان هذا الوضع من وضع الملوك كجوليان أو يوليوس، أو من وضع الكنيسة, أو من وضع الأحبار أو الرهبان، فكانت المسألة تحتاج إلى حسم.

وبحكمة عجيبة من الله تبارك وتعالى وتقدير وتوفيق (أن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) -كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم- في السنة العاشرة من الهجرة, فحج النبي صلى الله عليه وسلم في ذي الحجة تماماً، -مع أنه ورد أن حج العام الذي قبله والذي حجه أبو بكر رضي الله تعالى عنه كان في ذي القعدة- فالخطأ تعدل, والزمان استدار حتى عاد كهيئته، وأنزل الله

تبارك وتعالى في ذلك حكماً حاسماً صريحاً، ووضح النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً الأمر توضيحاً واضحاً جلياً.

أما ما أنزله الله تبارك وتعالى فهو قوله: ((إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ))[التوبة:37], وقبلها يقول الله تبارك وتعالى: ((إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ))[التوبة:36]؛ فحسم تماماً أنها أربعة أشهر، ويوضحه ما قاله الله تبارك وتعالى: ((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ))[البقرة:189], والحج الشعيرة التي كانت كل الأمم تُجمع عليها وتعترف بها، فحسم الأمر حسماً واضحاً, فلا يجوز أن تكون السنة ثلاثة عشر شهراً على الإطلاق، ولا أن يؤجل شهر أو يقدم شهر؛ بل هي اثنا عشر شهراً, والأربعة الحرم واضحة جلية، جلاها ووضحها النبي صلى الله عليه وسلم, وأجمعت عليها الأمم من بعده، فقال: (ثلاث متتابعات: ذو القعدة, وذو الحجة, ومحرم), هذه الثلاثة الأشهر متتابعات، و(شهر فرد وحده؛ وهو رجب الذي بين جمادى وشعبان), ولم يعد هناك والحمد لله أي اختلاف بين هذه الأمة في هذا الشأن.

ثم حسم النبي صلى الله عليه وسلم مسألة الشهر بوضوح جداً أيضاً؛ فقال: (إنا أمة أمية؛ لا نحسب ولا نكتب, الشهر هكذا ثلاث مرات -يعني: ثلاثين يوماً- وهكذا مرتين -أي: عشرين- وقبض هكذا في الثالثة) يعني: الشهر إما ثلاثون يوماً, وإما تسعة وعشرون يوماً.

وبالنسبة للسنة فلم يحدد لنا فيها تحديداً معيناً.

وهنا تظهر وتتجلى الحكمة العظيمة في هذا الدين, وفي عدل الله تبارك وتعالى, وفي رحمته، وفي تصحيح الأخطاء العظيمة التي وقع فيها البابليون ثم الآشوريون ومن بعدهم، وكذلك المصريون القدامى, واليونان والرومان وغيرهم، وهو أهم شيء نحتاج إليه في عباداتنا, وهو ما يتعلق بالقمر، فجعل متعلقاً بالرؤية؛ والرؤية تكون واضحة وجلية, ويراها كل أحد، فلا تحتاج إلى حساب, ولا تحتاج إلى إصدار منشور تقديم أيام أو حذف شهور, بل هي واضحة جداً, فكل إنسان يمكن أن يراها، فإذا قال أحد لأحد: آتيك أول الشهر أو آخر الشهر؛ فالقمر يراه الجميع, ويستطيعون أن يعرفوا أول الشهر من آخر الشهر، وينبني على ذلك أمور شرعية, مثل: الصيام أو النذور أو الكفَّارات أو العِدد أو ما أشبه ذلك، وأحكام كثيرة جداً في الدين والدنيا مبنية عليه.

بمعنى آخر: أننا نجد أن الإسلام أخذ أفضل الحسنيين: وهي أنه فرق بين ما هو طبيعي, وبين ما هو اعتباري عددي وضعي.

فمثلاً: اليوم عندنا في الإسلام طبيعي، فاليوم هو: ما بين غروبين؛ يبدأ من بعد غروب الشمس إلى الغروب الآخر, هذا اليوم, وهذا طبيعي يراه ويشاهده الجميع, فاليوم عندنا طبيعي؛ لكن الأسبوع اعتباري، فلا شيء يميز أسبوعاً من أسبوع إلا اعتباراً بالعدد، والحمد لله منذ أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى اليوم، ونحن لم نصل الجمعة إلا يوم الجمعة فعلاً! ولم يحدث أي خلل كما حدث عند أهل الكتاب مثلما رأينا.

فلما يكون اليوم طبيعياً, والأسبوع اعتبارياً عددياً لا إشكال في ذلك، ولما يكون الشهر أيضاً طبيعياً؛ وهو من رؤية الهلال إلى رؤية الهلال الآخر -ما بين رؤية الهلالين- فإن هذا طبيعي, ويشاهده الجميع، ولو حدث اختلاف فتجبر الكسور بأن يصبح يوماً! فالاختلاف لا يزيد عن يوم في أكثر الأحوال, وإن زاد مرة فهو يومين مثلاً؛ لكن يتعدل بعد شهر أو شهرين, ويجمع الأمة ويرجع العالم إليه -طبعاً اختلاف المطالع موضوع آخر؛ لكن نحن نتكلم عنه في الغالب- فترجع الأمة وتضبط على شيء موقوت منضبط.

أما فيما يتعلق بالسَّنَة فجعلت هذه السنة عددية أو اعتبارية، وهناك شيء طريف جداً في هذا الباب لما نشاهد الفرق؛ فمثلاً: المسلمون كانوا يحسبون بالسنة الهجرية يعني: بالتقويم القمري، فكانوا يأخذون الخراج من البلاد المفتوحة ويحسبون بناء على ذلك، طبعاً ما الذي سيؤدي إليه في المستقبل إذا كنا كل سنة حوالي أحد عشر يوماً! وفي كل ثلاث سنوات حوالي شهر! وهكذا في كل تسعة عشر سنة سبعة أشهر تقريباً! أدى هذا إلى أن سنة ستكون زائدة؛ لعدم عدم تطابق الشهور القمرية مع الحرث والزراعة, والتي يؤخذ الخراج من الناس بناء عليها، فأدى ذلك إلى أنه في منتصف القرن الثالث تحذف سنة، لكن ما ضرنا شيء في ديننا؛ وهنا أنا أقول: حتى لو لم يعتبر الحرث والزراعة بالسنة الهجرية فلا إشكال في ذلك؛ ولهذا نجد إخواننا في بلاد الأفغان و إيران وغير ذلك يحسبون بالسنة الهجرية الشمسية ولا إشكال في هذا، أي: من ناحية الحرث والزرع والخراج أن تحسب بالهجرية الشمسية؛ لكن تحسب الأشهر بالقمر ليس هناك أي حرج.

من أراد التفصيل في هذا فهناك رسائل الصابي مشهورة, عمل في ذلك رسالة طريفة إلى الخليفة الذي نشر منشوراً في جميع بلاد الخلافة بحذف هذه السنة؛ مراعاة لهذا الاختلاف, ولم يتأثر والحمد

لله أي شيء.

فبأي اعتبار اعتبرنا السنة الشمسية فلا إشكال؛ لأن أهم شيء في الأمر هو ما يتعلق بالعبادة، وما يتعلق بالحياة العامة للأمة, أن تكون منضبطة، فالزارعة تنضبط طبيعياً, ولا يؤثر فيها اختلاف يوم أو ربع أو ثلث يوم بالنسبة للشمس، والعبادة طبيعية ولا يؤثر فيها أيضاً اختلاف ربع يوم أو نصف يوم؛ لأن الأمر مبني على الرؤية، فإذا رأيناه -يعني: الهلال- صمنا, وإذا رأيناه أفطرنا, فإن غم علينا فنكمل عدة شعبان ثلاثين يوماً.

ولا يوجد أي حرج, ولا أي إثم؛ لأن الله تبارك وتعالى الذي شرع لنا الصيام لو شرع لنا تسعة وعشرين يوماً لصمنا، فسواء كان أقل أو أكثر لصمنا, فرحمنا وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا غم عليكم فأكملوا عدة شعبان), فالحمد لله لا مشكلة على الإطلاق، وفعلاً نخن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب، ولكن ليس معنى (لا نحسب ولا نكتب) ألا نتعلم الحساب! لأن الله تعالى قال: ((لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ))[يونس:5].

فالمقصود: ألا نتعبد بالحساب, ولا نتعبد بالكتابة، وإنما نتعبد بالأمر الظاهر المشتهر الواضح؛ فجمع في الإسلام -ولله تبارك وتعالى الحمد والمنة والفضل- بين الحسنيين.

تعلق بعض المسلمين بالتقاويم الغربية

مما يُؤسف له أن بعض المسلمين لا يشكرون هذه النعمة؛ فنجد أن هناك انسياقاً وراء التقاويم الغربية مع الأسف الشديد، كما نجد في بعض الدول الإسلامية, فمثلاً: الثورة الليبية أرادت أن تعمل أسماء جديدة على طريقة الثورة الفرنسية والثورة الروسية، منها: شهر الماء, وشهر ناصر -يعني: جمال عبد الناصر- وشهر كذا, فدخلت في نفس المتاهة التي دخلتها الأمم السابقة.

الأمر الذي نحن ندعو أنفسنا وندعو الأمة والعالم كله إليه: أن نعود إلى طريقة الأنبياء في احتساب الأشهر بأن يكون اليوم طبيعياً كما هو معروف, وأن يكون الشهر طبيعياً، أما السنوات فتبقى عددية أي: اعتبارية عقلية، ووضعية اصطلاحية, يتفق عليها, فهذا لا إشكال فيه، وبذلك نكون قد حققنا -ولله الحمد والفضل والمنة- أفضل ما يمكن أن يكون في هذا الأمر، واسترحنا من حكاية الاختلافات الشديدة التي تبنى إما على اعتبار كل الأمور عددية, أو اعتبارها كلها طبيعية، أو محاولة الربط والتوفيق الدائم بين السنة الشمسية والسنة القمرية.

كلام قيم لشيخ الإسلام ابن تيمية حول الحساب الزمني عند الأمم

هنا كلام قيم ونفيس جداً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تبارك وتعالى عليه، بعد أن بين أنه لا يمكن أن يكون للمواقيت حد ظاهر معروف واضح جلي لا يختلف عليه إلا الهلال؛ فذكر هذا الكلام النفيس فيقول: (وقد انقسمت عادات الأمم في شهرهم وفي سنتهم القسمة العقلية -يعني: الرباعية- وذلك أن كل واحد من الشهر والسنة إما أن يكونا عدديين أو طبيعيين أو الشهر طبيعياً والسنة عديدة أو العكس، فالذين يعدونهما - أي: يجعلون السنة عددية والشهر عددياً- مثل: من يجعل الشهر ثلاثين يوماً والسنة اثني عشر شهراً، والذين يجعلونهما طبيعيين مثل: من يجعل الشهر قمرياً والسنة شمسية). لأن السنة الشمسية معلوم أنها طبيعية! فدورة الشمس معروفة, وكيف أثر ذلك في الأرض والحياة, وتبادل الفصول الأربعة, ثم قال رحمه الله: (ثم يُلحِق في آخر الشهور مع الأيام المتفاوتة ما بين السنتين التي يجعلونها خمسة أيام أعياد أو ستة أيام أعياد أو كبس أو ما أشبه ذلك).

فنجد السنة القمرية -كما يقول الشيخ- ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً وبعض يوم؛ خمس أو سدس يوم، وأما الشمسية فثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وبعض يوم؛ ربع يوم تقريباً, الآن في العلم الحديث يعدل بعض التعديلات وهي أدق؛ لكن الكلام هذا كان معروفاً حتى من قبل الشيخ، فقد نقل الشيخ عن ابن منادي وهو من علماء آخر القرن الثالث، وكذلك ذكر هذا البيروني و المسعودي ثم المقريزي ثم القلقشندي وغيرهم, فالقضية معروفة عند المسلمين بهذا التفاوت.

وهنا يذكر الشيخ أنه في قوله تبارك وتعالى: ((وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا))[الكهف:25], أن التسع السنوات هي الفرق القمري يعني: فرق السنوات القمرية؛ لأن في كل ثلاث وثلاثين سنة وثلث سنة؛ سنة زائدة على حساب الأشهر القمرية.

ثم يقول رحمه الله: (وأما من يجعل السنة طبيعية والشهر عددياً فهذا حساب الروم والسريانيين والقبط ونحوهم من الصابئين والمشركين، ممن يعد شهر كانون ونحوه عدداً, ويعتبر السنة الشمسية بسير الشمس). طبعاً شهر كانون من الأشهر العربية القديمة التي كانت تسمى رومية بالعربية القديمة، والكانون في لغة العرب هو الموقد، وكل الأشهر العربية القديمة معروفة, مثل: آب أيضاً, فالأب معروف؛ وهو المرعى والخصوبة أو ما أشبه ذلك، فهي أشهر عربية قديمة؛ لكنها شمسية, وهي اعتبارية عددية.

ثم يقول الشيخ رحمه الله: (فأما القسم الرابع: بأن يكون الشهر طبيعياً والسنة عددية -يعني: اعتبارية اصطلاحية- فهو سُنَّة المسلمين ومن وافقهم). ثم بيَّن أن الذي جاءت به شريعتنا هو أكمل الأمور؛ لأنه وقَّت الشهر بأمر طبيعي ظاهر عام يدرك بالأبصار؛ فلا يضل أحد عن دينه, ولا يشغله مراعاته عن شيء من مصالحه, ولا يدخل بسببه فيما لا يعنيه, ولا يكون طريقاً إلى التلبيس في دين الله كما يفعل بعض علماء أهل الملل بمللهم.

إلى أن يقول رحمة الله عليه: (ومن عرف ما دخل على أهل الكتابين و الصابئين و المجوس وغيرهم في أعيادهم وعباداتهم وتواريخهم وغير ذلك في أمورهم من الاضطراب والحرج وغير ذلك من المفاسد ازداد شكره على نعمة الإسلام, مع اتفاقهم على أن الأنبياء لم يشرعوا شيئاً من ذلك, وإنما دخل عليهم ذلك من جهة المتفلسفة الصابئة الذين أدخلوا في ملتهم وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله).

شكر الله تعالى على بيان الحساب الزمني للمسلمين

حقاً إن المؤمن ليشكر الله سبحانه وتعالى ويحمده على نعمة الإسلام, وعلى نعمة الإيمان, وعلى نعمة اتباع الأنبياء، وهذه الأمور الدقيقة كما نرى لا تحل بالعقل المجرد؛ ولكن تحل بالوحي؛ بأن يجعل شيئاً معتمداً الطبيعة المشاهدة المرئية المحسوسة، وأمر آخر اعتباري اصطلاحي لا يؤثر, فيجمع بين ذلك، هذه الحقيقة الظاهرة التي يجب على المسلمين جميعاً أن يعوها, وعلى العالم كذلك أن يعيها، وأن يعلم كيف أن هذه الأمة كما جاء في المثل: تمشي رويداً رويداً, وتجيء في الأول, فمع أنها أمة الوحي المعصوم, وأمة الفطرة إلا أنها أيضاً تأتي في هذا المجال بما لا يمكن أن يأتي به العلم البشري المجرد. وهنا مسألة مهمة أيها الإخوة! يجب أن نعلمها؛ وهي ما يقال: إن العلم الآن تقدم, وأصبح يحسب بكل دقة, وأصبحت الأمور معروفة وبالثواني, وجزء على كذا ألف من الثانية! نقول: إن هذا الكلام صحيح ولا غبار عليه على الإطلاق؛ لكن لا يعني ذلك أنه لا اختلاف بينهم؛ وإلا لما كانت المراصد في جميع أنحاء العالم تختلف في حساب الأهلة وفي غيرها، فالاختلاف موجود وقائم رغم الدقة المتناهية، إلا إذا نحن آمنا بهذا فجعلنا شيئاً بمقتضى الوحي, وجعلنا شيئاً اعتبارياً أو اصطلاحياً واتفقنا عليه واسترحنا من التعقيدات. ونحن لا ندخل في شأن علماء الفلك؛ فعلماء الفلك لهم أن يحسبوا بالثواني وبأقل من ذلك, وأن يراعوا ذلك، فلا إشكال فيه على الإطلاق؛ لكن نحن نتكلم فيما يتعلق بتعبد عامة الناس, وأيضاً بمصالح عامة الناس في هذه الحياة الدنيا. نسأل الله

سبحانه وتعالى أن ينفعنا وإياكم بما نسمع وبما نقول, وأن يجعلنا جميعاً ممن يقدر نعمة الله تبارك وتعالى -الوحي الثابت المحفوظ- ويشكره على ذلك حق الشكر, وأن يكون من أتباع الصراط المستقيم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. والحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة العاشرة: التقويم في المنهج الإسلامي

العناصر:

1.مقدمة

2.تقويم الأنبياء لأممهم والانحراف عن ذلك.

3.مدخل للموضوع

-رسوخ الوجدان الديني

-خضوع الأمور الدينية للأهواء النصرانية كمثال.

4.دقة التقويم الإسلامي ومآل الابتداع

5.التقويم علم نبوي الأصل

6.كل دين أو حضارة لها تقويمها

7.الخاتمة

بيان أن الحديث عن التقويم الغير متعلق بالتنجيم

الحمد لله رب العالمين, الرحمن الرحيم, مالك يوم الدين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد: أيها الإخوة والأخوات! فقد كان موضوع اللقاء الماضي هو التقويم, ونعني به: كيف تحسب الأمم القديمة -ومنها هذه الأمة- حسابها, وتعرف مواقيتها الدينية والدنيوية، وهنا ننبه إلى أن ما يتعلق بالتنجيم -وهو هذا الداء الخطير الذي تفشى في الأمم القديمة ولا يزال في الأمم المتحضرة كما تسمى- لن نتعرض له الآن, ولم نتعرض له في الحلقة الماضية، أي أن الكلام محصور في الفائدة المرجوة الدنيوية في التاريخ، يعني: الفائدة من التاريخ من حيث هو تاريخ، لا من حيث ما عُلق بالنجوم والكواكب مما لم يخلقها الله تبارك وتعالى لأجله، ولا شأن لها به إلا الخرافة والأوهام والشياطين وإضلالهم لبني آدم، كما حدث لقوم إبراهيم عليه السلام وغيرهم. هذا الموضوع -أعني: موضوع التنجيم- قد يأتي له إن شاء الله تبارك وتعالى حلقات نوضح فيها أصله وحقيقته وحكمه الشرعي.

تقويم الأنبياء لأممهم والانحراف في ذلك

إذاً: نحن نتحدث هنا عن التقويم فقط من حيث إنه وضع أو اصطلاح لدى كثير من الأمم، وضعته مع أن الله سبحانه وتعالى قد شرع لبني آدم جميعاً, وكان الأنبياء جميعاً على ملة واحدة في هذا الشأن، كما هو ثابت الآن من العلوم المتقدمة السابقة؛ فكان الناس -منذ عهد البابليين ثم العبرانيين ثم جاءت الأمة الإسلامية- على ملة قويمة, وإن انحرف عنها من انحرف، وهذه الملة: هي اعتبار اليوم طبيعياً من غروب الشمس إلى غروبها، واعتبار الأسبوع عددياً؛ وهو سبعة أيام؛ وهذا لا يُعلم إلا بالوحي، والأمم التي لا تعرف الوحي, ولا تعرف التدين أو بعيدة العهد بذلك -لأنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير- لا تعرف الأسابيع، وقد ذكر ذلك العلماء من قديم, كشيخ الإسلام ابن تيمية و المقريزي في الخطط وغيرهم، ولا يزال هذا معروفاً عند الأمم إلى اليوم.

ومن ناحية أخرى اعتبار الشهر طبيعياً؛ وهو ما بين ظهور هلالين بناء على الرؤية طبعاً، واعتبار السنة عددية، وبذلك تكتمل الصورة, أو يكون الجمع بين أماثل وأفاضل التقاويم الموجودة، كل ذلك كان معروفاً لدى الأمم جميعاً, حتى -مع الأسف الشديد- اجتاح العالم الآن في عصر العولمة وفي عصر الانفتاح الإعلامي أو كاد يجتاحه وأن يطغى أو يراد أن يطغى تقويم من هذه التقاويم على الأخرى، وهو التقويم الوضعي الاصطلاحي، الذي لا مشاحة في الاصطلاح إذا كان موافقاً للحقيقة؛

فنحن قلنا: إن السنة الشمسية هي في الحقيقة عددية اصطلاحية لا إشكال في ذلك؛ لكن الإشكال هو أن ما اعترى ديانة النصارى وغيرهم من الأمم من تحريفات أصبحت علامة وسمة مميزة لها عن سائر الأمم!

يعني: هنا يصدق قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن لكل قوم عيداً), ومعنى ذلك: الاختصاص، فكل أمة لها أعياد.

الأعياد هي أبرز ما في التقويم, وكل أمة لها ما يختص بها، فإذا أردنا أن نركب تاريخ أمة على أمة، فمعنى ذلك: أننا مسخنا هوية تلك الأمة وألبسناها ثوب غيرها، مع أن هذا لو كان من بقايا الكتب القديمة أو الشرائع القديمة المنسوخة لما كان جائزاً؛ فكيف إذا كان من بقايا البدع والضلالات التي أحدثت في تلك الأديان وابتعدت بها كثيراً عن الأصل الرباني؟!

رسوخ الوجدان الديني لدى الأمم

هناك مدخل لهذا الموضوع مهم جداً التنبيه عليه؛ وهو: أن العالم مهما ابتعد عن التدين فإن التدين يظل راسخاً في وجدان البشر, وفي مشاعرهم, وفي أحاسيسهم؛ بحيث إنه لا يمكن أن يغلب الاصطلاح على الدين، ومن هنا تمتزج الشعائر أو الطقوس الدينية بالأمور الاصطلاحية الوضعية في تشكيل هوية أو ثقافة أي أمة من الأمم.

في غير التقويم على سبيل المثال: شعائر النكاح أو ما يتعلق بالنكاح تبتعد فيه الأمم كثيراً عن التدين؛ لكن يظل أن شعائر النكاح ومراسيمه دينية، ومثل ذلك: شعائر الموت والجنائز، فكثير من الأمم ابتعدت عن التدين فيه؛ لكنها تظل محتفظة بهذه الشعائر.. وهكذا، حتى ما يتعلق بجانب التشاؤم؛ فكثير من دول الغرب التي لا تؤمن بـ النصرانية من قرون, ولا تتعبد بها رسمياً؛ ومع هذا لا يوجد في طائراتها ولا في فنادقها رقم ثلاثة عشر الذي هو عندهم رقم مشئوم.

وبالمناسبة هناك قصة واقعية؛ ولكنها طرفة من الطرائف التي وقعت في الغرب، والتي تؤكد رسوخ الوجدان الديني مهما كان، وهو أنه لما قامت الثورة الشيوعية في عام (1917م) في روسيا , وحكم لينين , وأقيمت احتفالات ضخمة هناك جاء أكبر شاعر من شعراء الروس أو من أكابرهم ليثني وليمدح قادة الثورة, وهم واقفون أمام الجماهير، فما وجد كلمة أو تعبيراً يمدحهم به أفضل من أن يقول عن لينين ويشير إليه: كأنك المسيح وحولك الحواريون! -وكان عدد أعضاء الثورة على عدد

الحواريين فعلاً- فنكس لينين رأسه ومن حوله كذلك، وهزتهم هذه الكلمة الغريبة؛ لأن الدين -وهو المسيح- كان العدو الأول للثورة.

الشاهد: أن الوجدان الديني الإيماني يظل عند الشعوب مهما أرادت أن تنحرف، أو مهما حاولت الفطرة أن تنحرف، فمن هنا يجب أن يكون الدين كما شرع الله تبارك وتعالى في أي مرحلة من المراحل, وفي أي عصر من العصور، فالدين أو ما يحتاج فيه إلى الوحي المعصوم يجب أن يكون نقياً بعيداً عن البدع وعن الشوائب.

خضوع الأمور الدينية للأهواء.. النصرانية كمثال

أما ما خلقه الله تبارك وتعالى ووكل علمه للبشر, وأمرهم أن يسيروا في الأرض, وأن يسعوا فيها, وأن يبحثوا وأن ينظروا وينقبوا فليفعلوا ما شاءوا؛ لكن لا يدخلوا هذا في هذا، فإذا خضعت الأمور الدينية لأهواء الأباطرة والملوك أو الأحبار أو الرهبان أو الثورات أو ما أشبه ذلك فإننا نجد هذا التقلب العجيب الذي حصل, والذي تضرب الديانة النصرانية مثالاً شنيعاً عليه في هذا الشأن.

فالدين النصراني الذي اعتنقته الإمبراطورية الرومانية بعيد جداً عما جاء به المسيح عليه السلام بسبب هذه البدع، ومنها: ما يتعلق بالأعياد والصيام، ونحن الآن نتحدث بما له علاقة بالتقويم؛ لأن الأعياد والصيام وكثيراً من أمور العبادة مرتبطة به، فحصلت فيه ضلالات بعيدة أبعدته تماماً عن الحقيقة.

مثلاً: أن يُعتمد ميلاد المسيح عليه السلام بداية للتقويم، وهو أمر اعتمدته الكنيسة وضعاً من عندها، ولم يشرع الله تبارك وتعالى ذلك، ولا مشاحة في أن يكون بعض الأمور وضعياً أو اصطلاحياً، كما اصطلح الصحابة رضي الله تعالى عنهم على أن تكون الهجرة هي مبدأ التاريخ، كما عنون الإمام البخاري وترجم: باب التاريخ من أين أرخوا؟ يعني: كيف أخذ؟ فلا مشكلة في هذا؛ لكن الإشكال أنهم أخطئوا ونسبوا ذلك إلى الدين، فجعلوا كأن المسيح عليه السلام ولد في أول عام ميلادي من التقويم الذي يعملون به الآن بينما هو في الحقيقة ولد قبل ذلك بخمس سنوات, وكان هذا بداية لأخطاء كثيرة جداً، فالميلاد جعلوه يوم الخامس والعشرين من ديسمبر, وحقيقة الأمر أن هذا اليوم هو يوم عيد وثني قديم مشهور عند الرومان وغيرهم، ولا دليل لديهم على أنه في هذا اليوم ولد! فأخطئوا في اليوم, وأخطئوا في السنة, وتعبدوا بما لم يشرعه الله تبارك وتعالى.

ثم بعد ذلك إذا نذر ملك من الملوك شيئاً زاده، كما قالوا: إن هرقل زاد في الصيام عشرة أيام لما انتصر على الفرس فأصبح الصيام أربعين يوماً فأضافوها أيضاً، وأشد من ذلك أنهم نقلوا الصيام إلى الربيع! فهنا دخلت الفوضى العبادية الدينية حتى أصبحت بعيدة جداً عما كانت عليه شريعة الأنبياء؛ بل تحويل الشهور نفسها إلى الشهور المعروفة الآن لكي توافق عدد السنة الشمسية، وتحولهم عن التقويم القمري الذي كان عليه الأنبياء والذي عليه التوراة وأسفار الأنبياء، كل ذلك أيضاً من البدع التي تراكمت حتى أصبح الإنسان لا يدري أين دينه, ولا يعرفه، والفرق الموجود الآن بينهم ليس سهلاً كما قد يظن، نحن أشرنا في اللقاء الماضي وذكرنا أن الفرق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية خمسة عشر يوماً؛ لكن أيضاً في الواقع أن الفرق بين تقويم الكنيسة الحبشية وغيرها قرابة ثلاثة قرون؛ لأنهم اعتبروا التقويم من دخول الدين النصراني على المذهب اليعقوبي إليهم، فهم على المذهب اليعقوبي أي: مذهب الطبيعة الواحدة الذي يتبع مدرسة الإسكندرية، وهي القول بأن الله تعالى هو المسيح والمسيح هو الله, تعالى عما يشركون.

فهنا فروق تعد بقرون, وفروق تعد بأيام وهكذا, فضاعت معالم الدين الحقيقي الذي أنزله الله تبارك وتعالى؛ حتى من الناحية المنطقية العقلية، فمثلاً: عندما جعلوا السنة على الترتيب الموجود حالياً الآن، وهي أن السنة تنتهي بكانون أول ثم تبدأ التي بعدها بكانون ثاني, وهذا غير معقول! لكن ماذا ترتب عليه؟

ترتب عليه أنهم احتفظوا بأسماء الشهور ولكنها خطأ، فمثلاً: شهر سبتمبر، ومعناه: السابع! فيوم السبت هو اليوم السابع، ولا زال باللغة العربية؛ لأنه كما قلنا: اللغة العربية أصل كل اللغات هذه.

فالسبت: هو بمعنى السابع أو سبعة. وسبتمبر يعني: الشهر السابع؛ لكن الواقع أنه الآن هو الشهر التاسع.

ثم جاء بعده (أكتوبر) وهو الشهر الثامن, وهو الآن الشهر العاشر! ثم بعد ذلك يأتي (نوفمبر) ومعناه التاسع, وهو في الحقيقة الآن الشهر الحادي عشر! ثم (ديسمبر) ومعناه العاشر في أصل اللغة عندهم، وهو الآن الثاني عشر! فأصبحت حتى من الناحية المنطقية تسمى الأشهر بأرقام؛ لكنها غير مطابقة لهذه الأرقام.

أهم من ذلك: أن بعض هذه الشهور هي أسماء آلهة أصلاً، فكيف يعتمدها النصارى؟!

فمثلاً: يناير: اسم رب أو معبود من معبوداتهم الذي هو جنري ومارس يقولون: إنه إله الحرب.

وفبراير يقولون: إن معناها من التطهر, وهو شعيرة رومانية قديمة.

أما أغسطس : فمعروف أنه الإمبراطور الروماني المعروف؛ الذي في أيامه ولد المسيح عليه السلام مع بداية تأسيس الدولة الرومانية عندما قضى أغسطس على كليوبترا.

وكذلك يوليو أو يوليوس قيصر.

المهم أنك تجد أسماء آلهة أو معبودات أو أرباب أو أسماء قياصرة مثلما قلنا في أغسطس و يوليو !

فالأرقام غير منطقية أيضاً مع تسميات الشهور! فهي فوضى في الدين, وفوضى في المنطق, وفوضى في الواقع، ومع ذلك يريد هؤلاء القوم أن يفرضوها فرضاً، ويريد الذين يتعبدون بالتقرب للغرب أو بالإعجاب به أن يفرضوها على الأمة التي وفقها الله سبحانه وتعالى للمنهج الصحيح الدقيق المنضبط.

دقة التقويم الإسلامي

وعندما نقول: إن التقويم الإسلامي هو الصحيح والمنضبط فإننا واثقون من ذلك، أما الصحيح تديناً وعبادة فنحن نشاهد ذلك ولله الحمد والمنة، فما صام المسلمون في شهر غير رمضان, ولا حجوا في شهر غير ذي الحجة، وإن وقع -كما قلنا في السابق- اختلاف المطالع أو بسبب أي حادث أو طارئ، فهذا الاختلاف معفو عنه، عفا الله تبارك وتعالى عنه؛ لأنه لا يزيد عن يوم كما أشرنا في الحلقة الماضية.

المقصود: أن هذه الأمة ما بين الصواب المطلق موافقة عين الحقيقة، وما بين العفو لما تسهو أو تخطئ فيه، ولم تكلف بإصابة عين الحقيقة, وهذا من رحمة الله تبارك وتعالى, فهي إذاً على الحق في الدين.

أما من ناحية الانضباط -وهذا هو المهم عند العالم اليوم- فنجد أن الأمة الإسلامية منذ أن بدأت تؤرخ بظهور الإسلام وفي العصور الإسلامية؛ تؤرخ تاريخاً دقيقاً منضبطاً والحمد لله؛ بخلاف بقية الأمم.

فعلى سبيل المثال: أوروبا هذه لم تعرف التاريخ باليوم والشهر إلا في القرن السابع عشر! وأما قبل

ذلك فكان التاريخ بالحوليات؛ أي: الحَوْل, وكانت تقع فيه أخطاء كبيرة جداً، ومهما قيل عن القدامى هيرودوت أو ديودور الصقلي أو من كانوا، فهم أفحش وأكثر أخطاء؛ بحيث كانت تعد بالقرون، وعندما كانوا يحسبون التاريخ المصري والتاريخ البابلي والآشوري، فإنهم يضعون نسبة من الخطأ قد تصل أحياناً إلى مائتي سنة! فهي لا تنضبط.

طبعاً أدق مقياس الآن للزمن لديهم في الآثار هو الكربون المشع, ومع ذلك الكربون المشع لا يوجد اتفاق دقيق عليه، هل هو سبعة آلاف سنة, أو ستة آلاف وخمسمائة أو ستة آلاف وثمانمائة؟! أو شيء من هذا، المهم أيضاً فيه نسبة من الخطأ قد تكون مائة أو مائتي سنة.

وهكذا نجد التفاوت إلا فيما ضُبط وحُقق, وهو ما شرعه الله تبارك وتعالى لهذه الأمة، الأمية المباركة، فاتبعته فلم تضل ولم تخطئ كما ضل من قبلها.

وعندما نجد مثلاً: أن النصارى حوّلوا الصيام إلى الربيع -لعله من باب الرأفة ومن باب الشفقة-، والآن في هذا العصر يتحسرون على أن أعياد الميلاد تأتي وقت الشتاء، فلا يستطيعون أن يمرحوا ويهلوا ويلعبوا ويعبثوا بالنحو المطلوب، خصوصاً إذا تراكمت الثلوج أو حالت بينهم وبين التعري وما أشبه ذلك.

لكن سبحان الله! نجد في هذه الأمة المباركة أن الصوم والحج بما أنها على الدورة القمرية فهما يدوران في كل فصول السنة، ففي إمكان الإنسان من المناطق الباردة أن يحج في السنوات الباردة، ولا يأتي في السنوات الحارة أو العكس، والصيام أيضاً -الحمد لله- يتقلب ما بين الحر والبرد, فهذا من لطف الله سبحانه وتعالى ومن رحمته، ولو كان الأمر ثابتاً لكان هناك مشقة عظيمة على الخلق، وخاصة أن هذا الدين العظيم -دين محمد صلى الله عليه وسلم الأخير- هو دين عالمي؛ للعالم أجمع، أما ما قبله فإنها كانت أديان محلية إلا أن بولس هو الذي جعل النصرانية ديناً عالمياً.

المسيح عليه السلام قال: "إنما بعثت إلى خراف بني إسرائيل الضالة", لم يبعث إلى غيرهم, وقال ذلك للمرأة التي جاءت لتهدي, وهي كانت امرأة فينيقية -كما جاء في بعض الأناجيل- أو سورية، وهذا لا يفرق، المهم أنه قال لها: لم أبعث إلا على هؤلاء.

مآل الابتداع في الأديان

هنا ملحظ مهم جداً يتعلق بأهمية تنقية الأديان من البدع, وهو أن الشريعة التي كان عليها اليهود , وبقيت في التوراة لم ينسخها المسيح عليه السلام، فهو صرح وقال: ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمل؛ والناموس بمعنى: الشريعة؛ لكن بولس نقض الناموس نقضاً صريحاً, وأصبح مشهوراً جداً في الديانة النصرانية أن التبرير، والتبرر, والتقوى, والخير ليست في الشريعة أو في اتباع الشريعة, وإنما هي في الإيمان، وحارب بولس الشعائر الشرعية محاربة شديدة, ومن ذلك: الختان -وهذا سيأتي له ذكر إن شاء الله- ومن ذلك أيضاً: محاربة التطهر من النجاسة، فهم يقولون: إن النَّجِس ما يخرج من الأعلى لا من الأسفل، فعلى ذلك يدخلون إلى كنائسهم وهم غير متطهرين بأي نوع من أنواع الطهارة, ولا يغتسلون من الجنابة، ولم ينسخ ذلك نبي من الأنبياء, ولو فتحتم أي إذاعة تنصيرية بالعربي أو بغيره تجدون إلحاحاً شديداً على أن التطهر لا يكون بالشريعة وإنما هو بالإيمان, وما المعارضة بين الإيمان وبين اتباع الشريعة؟! لا معارضة أصلاً؛ فعلى الإنسان أن يتحلى بآداب الشريعة بأن يتطهر وأن يختتن وأن يتنظف, فهذه شعائر أو شريعة ومع ذلك الإيمان بالله سبحانه وتعالى على الحقيقة، أما عندهم فالإيمان بمعنى: الإيمان بأن المسيح هو المخلص ولا شريعة, إذاً هذا ليس ديناً.

على كلٍ ليس المقصود الآن نقد الدين النصراني , فله إن شاء الله موضعه, وإنما المقصود بهذا بيان خطورة الابتداع, وإلى أي حال يؤول بالناس بسببه.

التقويم علم نبوي الأصل

نجد في هذا الشأن -نرجع إلى موضوع التقويم والتوقيت- ما يؤكد أو يثبت أن هذا العلم نبوي، أصله من الأنبياء, وأصله وحي من الله تبارك وتعالى، ثم قد زيد ما زيد فيه أو حُرّف أو بُدّل، وفي الإسلام لدينا بعض المؤشرات على هذا, وذلك في حديث هرقل الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله تبارك وتعالى في صحيحه في كتاب: بدء الوحي, من أول الصحيح حديث مشهور، لما قابل هرقل أبا سفيان ، ورأى هرقل في الرؤيا أن مُلك أو مَلك -على الروايتين- أمة الختان قد ظهر. فحينئذٍ أهمه ذلك, فقال لقومه: من يختتن؟ ايتوني بأي مختون؟! فقالوا: لا يختتن إلا اليهود وهم أحقر وأذل؛ فلا يهمك شأنهم؛ فقيل: إن العرب يختتنون, فجيء له بأبي سفيان والحديث المشهور؛ لكن الشاهد:
(وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم -على كلام الأسقف الذي روى الحديث- فلما رأى النجوم قال: إن ملك أمة الختان قد ظهر!), فكيف عرف ذلك؟!

لو كانت المسألة تنجيماً، فالتنجيم مرفوض, والتنجيم لا يُقر ولا يرويه حتى البخاري رضي الله تعالى عنه، فالمسألة ليست كذلك؛ وإنما المسألة هي أن الأمم القديمة كانت تؤرخ بأحداث قديمة، مثلاً: التاريخ الإسكندري يؤرخ بفتح الإسكندر لبلاد الشرق مثلاً، والتاريخ الفارسي يؤرخ بأعمال لملوك الفرس, وهكذا أحداث كبيرة تقع، فالتاريخ النبوي أو العلامات النبوية لا تؤرخ بأحداث البشر -وبعض هؤلاء مشرك, مثلاً: الإسكندر وغيره مشركون لا يؤرخ بهم ولا بأحداثهم- التاريخ النبوي مما علمه الله تبارك وتعالى للناس أن يعلموا العلامات بالتقاء النجوم؛ لأنها بطريقة دوران ثابتة تماماً تُعرف باقتران الكواكب أو النجوم بعضها ببعض، فيكون هناك عند ذلك حدث معين سيقع؛ ولذلك كان اليهود وغيرهم يعلمون أن مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قد اقترب، هناك مثلاً: نجوم أو كواكب تقترب كل خمسة وعشرين سنة, بعضها كل سبعين سنة.. بعضها كل قرن.. وبعضها كل قرنين..

على سبيل المثال: نجد الشِّعرى اليمانية التي ذكرها الله تبارك وتعالى في القرآن رُصدت من قديم، وهذا دليل يؤكد أن المسألة وحي, وإلا كيف يعرف البشر ذلك بمجرد النظر! وجدوا أن لها دورة كل ألف وأربعمائة وستين سنة، يعني: تدور دورة كاملة بحيث تشرق من نفس المكان بعد ألف وأربعمائة وستين سنة؛ ولذلك أمكن تصحيح التاريخ المصري القديم بناء على أنه عندما طلعت النجم الشعرى -التي يسمونها دج ستار يعني: نجم الكلب- في أيام أو في أوقات أحد الأباطرة وضعت عملة بهذه المناسبة، فأمكن من خلال ذلك -أي: من خلال معرفة متى وضعت هذه العملة- أن يصحح التاريخ المصري القديم في كثير من الجوانب التي كان خطأ فيه.

الشاهد: أنه كان هناك دقة, وتعلمها الناس وتوارثوها لمن يعرف هذا، -طبعاً الآن الفلاحون والمزارعون في جزيرة العرب أو في بلاد الشام لا تنقصهم هذه، سبحان الله العظيم! فهي سهلة المعرفة، ويتعلمون متى تطلع, ويحرثون ويزرعون بناء على الطوالع هذه, ثم من تعمق أكثر عرف أكثر-، لما كانت تلك علامة للاقتران لم يبق هناك أي شك!

الأحداث البشرية قد تختلف أو قد تضطرب، وما هو -مثلاً- حدث عظيم عند أمة -مثل: فتوحات الإسكندر حدث عظيم عند اليونان - لكنه نكبة وخسارة وبوار على الدول الأخرى أو البلاد المفتوحة, فلا يؤرخ به ولا يعتد به.

لكن المعالم الثابتة في السماء لجميع البشر, ويهتدي بها جميع البشر؛ فمن هنا كان هناك ترقب في العالم -ولعل هذا إن شاء الله يأتي له تفصيل فيما بعد- عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم،

بالإضافة إلى ما يسمى الهواتف من الجان وغيرهم أو الكهان؛ أن حدثاً بشرياً هائلاً سيقع! حدثاً تاريخياً لا نظير له في أحداث التاريخ جميعاً سوف يقع، ومن ذلك: ما حدث في السماء لما ملئت حرساً شديداً وشهباً, وأصبحت ترجم بها الشياطين، فعلم إبليس وجنوده من الجن والإنس أن حدثا هائلاً سيقع؛ وهو نزول هذا القرآن العظيم على النبي صلى الله عليه وسلم.

رأى هرقل تلك العلامة وعرفها، وكان بالفعل كما ذكر ابن حجر رحمه الله تعالى وغيره: أنه كان ذلك مطابقاً بالفعل لصلح الحديبية؛ لأنه لما قُبض على أبي سفيان قال: نحن وهو الآن في عهد فلا ندري ماذا يفعل, والعهد هو عهد الحديبية اتفق عليه أبو سفيان ثم ذهب بتجارته إلى الشام فقبض عليه هناك, وذهب به إلى هرقل.

كل حضارة لها تقويمها الخاص بها

المهم من هذا أن الأديان أو الحضارات الموجودة الآن في جميع أنحاء العالم؛ كل حضارة لها تقويمها الخاص بها, ولها طقوس لذلك، ولها أعيادها, ولها احتفالاتها المبنية على هذا التقويم.

وهذا كله يؤكد أنه لا بد للناس من مرجع عام يتفقون عليه؛ لا يكون اصطلاحياً بحتاً, وإنما يكون من الوحي المحفوظ المطابق أو الموافق للاصطلاح الصحيح.

ونذكر بعض الأمثلة على ذلك:

نحن الآن في الألف السادس بالنسبة للتقويم العبري المعمول به عند اليهود أو عند الطوائف منهم.

نحن الآن بالنسبة للسنة الهجرية (1426ه)، وبالجوري جوري (2005م)، وبالعبري (5765)؛ لأنهم يحسبون من بدء الخلقية، وهذه قضية الحساب من بدء الخليقة إحدى الأخطاء الكبرى في التاريخ البشري -كما سوف نرى بعد قليل عند الحديث عن اليابانيين-؛ لأن كل أمة تظن أن تاريخها هو بدء الخليقة, وقد أبطلنا ذلك فيما مضى.

بعض الطوائف في الهند هم الآن تقريباً (1925) لاحظ الفرق بين (2005) وبين (1925) بناء على تراثهم أيضاً الهندوسي.

هناك مثلاً في الصين اعتباراً من ميلاد كونفوشيوس هم الآن عام (2556) -يعني: قد يكون بعض السنوات فيه فرق سنة أو شيء من هذا- وعام (2556) هو ما يتعلق بولادة كونفوشيوس, وهو عيد

أو احتفالات عندهم، وهو التقويم الذي بنيت عليه كل الأعياد وكل الحياة الاجتماعية والثقافية بالنسبة للصين.

الحبشة الآن التقويم هو عام (1721)؛ ولذلك نكتة عند الغربيين إذا قلت له: متى ولدت؟ يقول لك: بالحبشي أو بالجوري جوري؟! لأن بعض الناس يكون عمره لو قال لك بالحبشي معناها عمرك كم؟!! نكتة؛ لأن الفرق هائل جداً ما بين (2005) وبين (1721) أو نحو ذلك.

اليابانيون عندهم الآن السنة (2665) بناء على ميلاد شانتو أو بالتقويم الشانتوي.

نريد أن نقف قليلاً عند اليابانيين, لماذا؟!

لو تأملنا في الشعوب هذه التي ذكرنا جميعاً نجد اليابانيين أكثر هذه الشعوب تحضراً بلا شك، عندما كتب كينيدي كتابه: تطلع القرن الحادي والعشرين -وغيره طبعاً- كان متوقعاً أن اليابان هي الدولة الرائدة في القرن الحادي والعشرين، لا زلت أذكر أنه كان يسمي اليابان : المعجزة اليابانية. طبعاً لم تحصل معجزة؛ لأن اليابان دخلت في النظام الرأسمالي الربوي الغربي، وهي الآن تعيش وضعاً اقتصادياً صعباً؛ لكن لا يهمنا هذا, المهم أن اليابان فعلاً -على النظرة الغربية وعلى النظرة المادية- حققت معجزات في التقنية لم تحققها أي دولة, ولا أي مجتمع آخر.

ما دام هذه المعجزة في التقنية.. في التطور.. في التقدم, وهي التي تصنع شرائح الصواريخ التي تدور في الفضاء وكل شيء! لو أن المسألة بالعقل وبالدقة لماذا لا تضع اليابان لنفسها وللعالم نظاماً تقويمياً دقيقاً؟! ولماذا هي على هذا النظام؟!

نقرأ لكم هذا الكلام، والكاتب أمريكي يتكلم عن الحضارات, وليس كاتباً يابانياً، يقول: إن تاريخ اليابان الرسمي يبدأ عام ستمائة وستين قبل الميلاد -هذا من كتاب الماضي الحي- بيد أن المؤرخين اليابانيين يقررون بجلاء أن هذه السنة -يعني: ستمائة وستين قبل الميلاد- ما هي إلا بداية لأقدم أسرة حاكمة في العالم. فاليابانيون أصحاب العقول والتطور التكنولوجي يقولون: إن عام ستمائة وستين قبل الميلاد هي بداية الخليقة! فتاريخ الخليقة يرتبط بهذا, ويعتقدون أن الأباطرة -الذين هم حكام اليابان- كانوا يعيشون في السماء قبل ذلك، فالتاريخ الأسطوري الياباني في السماء وليس في الأرض! كما قرأنا عن بلاد ما بين النهرين.

أنا حقيقة قبل أيام قابلني مدير وكالة الأنباء اليابانية وكان معي بعض الإخوة، في مقابلة إعلامية،

فأردت أن أتأكد من هذه الحقيقة فسألته: هل تعتقدون أن الإمبراطور إله؟ فقال: نعم هو إله, يعتقدون أنه إله! تعالى الله عما يشركون. هذا الشعب الذي يقولون: إنه متطور!

وطبعاً بالمناسبة كان سؤالي له عن الإله أني قلت له: الإله يبكي, ويوقع اتفاقية الخضوع للأمريكيين! وما نجد مقاومة مثل المقاومة العراقية؟ كان الموضوع عن المقاومة العراقية, وأن الإسلام يعطي صاحبه حق المقاومة ويجعله يختلف، فقلت: هذا فرق بيننا وبينكم أننا لا نستسلم, مع أن الذي وقّع الاتفاق عندكم هو رب! أتعتبره رباً؟ قال: نعم هو إله, تعالى الله عما يشركون.

فيعتقدون أن الآلهة كانت في السماء ثم نزلت إلى الأرض, ومن سلالتهم كان الأباطرة.

عندما ننظر إلى كلام المؤرخين المسلمين عن جنكيز خان نجد نفس الكلام؛ أنه ليس له أب, إنما أبوه هو الشمس! نزلت الشمس ودخلت في الخيمة التي كانت فيها أمه, وحملت به من الشمس! ويعلق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه تعالى على هذا فيقول: هذا دليل على أن التتار -المغول- يعتقدون أو يعلمون أنه ليس له أب معروف؛ ولذلك جعلوا أباه هو الشمس؛ فهو ابن غير شرعي.

المقصود يأتي بالأسطورة كيف أن الإله القديم عند اليابانيين إيزناجي وزوجته وإيزانامي خلقا أول جزيرة -طبعاً اليابان بلاد جزر- ثم أرادت أن تُنجب الأم ابنها الذي يسمونه إله النار فهبطت إلى الأرض، ثم بدأنا في تاريخ أسطوري كله كذب, وكله لا حقيقة له، ومع ذلك فاليابانيون مستمسكون بهذه الأساطير، ومن الأساطير التي لا يزالون متمسكين بها أنه إله, ومن نسل الشمس الذي هو عندهم المعبود الأعلى, وكان في السماء؛ وعندهم أنه إذا مات الإمبراطور -أو أي أحد- تدفن معه أدواته؛ فلما مات هيروهيتو دفنوا معه النظارات والأقلام وكل شيء؛ لأنه حينما يقوم سيستخدمها في نظرهم، وهذا بالضبط ما هو موجود في الديانة المصرية القديمة وفي غيرها من الأديان القديمة، فهناك إيمان بالآخرة؛ لكن على طريقة ضالة.

ضرورة التمسك بمنهج الوحي

على كل حال الذي نريد أن نوضحه في هذا الشأن -والموضوعات تتشعب بنا- هو أنه لابد للناس أن يتمسكوا بمنهج الوحي فيما هو منهج وحي، أما ما أتيح للعقل البشري المجال فيه فلهم أن يضعوه اصطلاحياً أو منطقياً أو عددياً كما يشاءون؛ بحيث تتضافر العقول السليمة المستنيرة بنور الوحي

على وضع، وبذلك تكمل حياة البشر وتصح, وتستقيم أديانهم على الوحي, وتستقيم دنياهم على العقل الصحيح. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين والعالم جميعاً لذلك؛ إنه على كل شيء قدير. والحمد لله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد. وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة الحادية عشرة: الإنسان العملاق

العناصر:

1.مقدمة

2.العمالقة والأهمية التاريخية

3.العمالقة في الوحي والعلم

- في التوراة ونتيجة ذلك

- الحقائق المتوارثة (الانتربولوجيا)

- في التاريخ الإسلامي

4.وجود العمالقة يبطل نظرية التطور ويؤكد توحيد القرون الأولى

5.البحث المجرد يصدق الوحي ويكذب الأساطير

- المقريزي

- التابعي الجليل عبدالله بن المبارك

- الأهرام

6.الخاتمة.

الحمد لله رب العالمين, الرحمن الرحيم, مالك يوم الدين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين. أما بعد: أيها الإخوة والأخوات! فإن موضوعنا في هذا اللقاء يتعلق بقضية الإنسان القديم أو الإنسان العملاق أو الضخم. وما يُعبر عنه في علم الجغرافيا الطبيعية وغيرها بالعمالقة أو بقبور العمالقة.

الاهتمام البالغ عند الناس بموضوع العمالقة

وموضوع العمالقة وما يتعلق بهم يحظى بجذب شديد، وبتطلع كثير من الباحثين والمتعمقين في العلم, ومن العوام في كل الشعوب؛ فله جاذبية, وله اهتمام؛ ربما لطرافته أو لغرابته، ولكنه أيضاً يمكن أن يكون موضوعاً تجتمع فيه كل المؤثرات أو الصفات التي ذكرناها عن المناهج الثلاثة للمعرفة. فهو من جهة الوحي والكتب السماوية مذكور ومشهور، وهو من جهة البحث العلمي موجود، وهو من ناحية الخرافة والأساطير موجود، فلا حد ولا نهاية لخرافات الشعوب الكتابية منها وغير الكتابية في الحديث عنه والتأمل فيه.

سبب الحديث عن العمالقة

نحن في الحقيقة نورده هنا لسببين: أولاً: لأن هذا موضعه التاريخي. وثانياً: لأمر أهم من ذلك؛ وهو: أن موضوع مسار أو شكل التاريخ البشري منذ أن خلق الله تبارك وتعالى الإنسان في هذه الأرض تختلف فيه الآراء والأنظار، وهذا الموضوع -ما يتعلق بالعمالقة- يؤثر في هذه النظرة، أي: في تقويم نظرتنا إلى شكل ومسار التاريخ البشري, بمعنى: أننا إذا أخذنا أو سَلَّم البعض كما هو ملاحظ في معظم العلوم الطبيعية الآن التي تدرس وفقاً لنظريتي التطور العضوي منها والفكري، فيعتقد أكثر الخلق أن الإنسان ما هو إلا مرحلة من مراحل تطور القردة -كما يزعمون- بشكلها الطبيعي المعروف لدى الناس، -القردة شكلها معروف وأضخم قرد شكله معروف، وكذلك الحلقة المفقودة أصلاً لا وجود لها لا بين القرد والإنسان ولا بين غيره-. المقصود: أن هناك مرحلة انتقال من الشكل الحيواني ومن الحضارة والمفاهيم الحيوانية، مثل: مجرد الأكل بالتناول باليد, واستخدام الحجر, وأكل الطعام نيئاً.. إلى آخره، كأن الحضارة بدأت من هذا المستوى المنحط, والدرك الهابط، ثم تطلعت وارتقت حتى وصلت إلى مستواها الحاضر -كما مرت التفاصيل في الحلقات السابقة- هذه نظرة. النظرة الأخرى: أنه إذا ثبت أن هناك من كانوا أعظم منا قوة وأطول أعماراً وأعظم أجساماً، وأتقن في فن من فنون

الحضارة على ضوء التقنية التي استطاعوها أو وصلت إليهم، فإن مسار التاريخ يختلف تماماً وينعكس على نظرة التطور بشقيها كما ذكرنا.

العمالقة في الوحي والعلم

نحن نجد أن هذين خطين متعارضان، نجد أنه لا بد أن نرى ما الذي يقوله العلم المحايد في هذا الشأن، وما الذي يقوله الوحي المعصوم مع تجريد كل منهما من الخرافة، بمعنى: نجرد النقل من الروايات الضعيفة والموضوعة والتفاسير الباطلة، ونجرد أيضاً العلم والبحث التاريخي من الأكاذيب والافتراءات والتأويلات الظنية؛ فحينئذٍ تظهر لنا الحقيقة ناصعة بإذن الله تبارك وتعالى؛ وهي ما نبحث عنه في كل حلقة من حلقات هذا البرنامج بإذن الله تبارك وتعالى.

العمالقة في التوراة

لو بدأنا بالمصادر هذه حسب تاريخها، فمن أقدم المصادر التي تتحدث عن هذا الموضوع التوراة والتفاسير أو الشروح لها، في الحقيقة أن هناك نوعين ممكن أن نجعلهما باختصار هما محور ما جاء في التوراة :

النوع الأول: هو أن البشر وجدُوا أول الأمر على هيئة كبيرة وضخمة, وهذا موجود؛ لكن ليس بنفس الدلالة القطعية والصراحة الموجودة في القرآن والسنة؛ لكن نعم كانوا أعظم, وكانوا أكثر قوة؛ وهناك ما يدل على ذلك، لكن أضيف إليه من الخرافات الشيء الكثير! وربط في النهاية بما يسمى عمليق أو عماليق, وهو من ذرية عيسو بن إسحاق ابن إبراهيم عليه السلام، فحدثت إشكالية كبيرة جداً هنا في المسألة -الإفاضة في شرح الإشكالية قد تطول لكن نحن نأتي بالحل- نقول: إن القوم الجبارين الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى في كتابه، والذين رفض اليهود أن يدخلوا المدينة التي هم فيها، هم الذين حُصر فيهم -عند كثير من علماء التوراة- مفهوم العمالقة أو عمليق؛ أنهم قوم جبارون, وهؤلاء الجبارون لا يمكن مقاومتهم, ثم أخذت الخرافة مداها؛ فأصبح كأن هؤلاء القوم لا يكاد يوجد لهم ذكر إلا فيما يتعلق بمرحلة موسى عليه السلام ثم ما بعده.

نذكر باختصار مثالين:

المثال الأول: قولهم عن عوج بن عنق أنه كان معاصراً لموسى عليه السلام -هذا ليس في التوراة

لكنه في التلمود- وأنه كان ضخماً, ثم ذكروا أنه كان حياً من أيام نوح عليه السلام، وأنه أيام الطوفان كان يخوض في الطوفان ولا يصل إلا إلى قدمه، وأن الذي قتله موسى عليه السلام, وكان طويلاً عليه السلام, وعصاه طويلة، وقفز حتى وصلت الضربة إلى كعبه أو إلى ساقه.. وكل هذا تهاويل وخرافات؛ لكن ربطت بما يتوهمه بنو إسرائيل عن القوم الجبارين، الذين كانوا أجبر منهم وأقوى منهم، ومن العرب الكنعانيين الذين كانوا يسكنون في أرض فلسطين وبلاد الشام ، ومن غيرهم من بقايا إرم التي سميت آرام أو بقايا قوم عاد وثمود.

الناحية الأخرى: أن اليهود جعلوا جوليات -يعني: جالوت - ضخماً وجباراً ومن العماليق؛ ليعظموا بذلك شأن داود عليه السلام وأنه قتله؛ ولذلك تجد في مواقع الإنترنت وغيرها التي تتحدث عن العمالقة لقطات من أفلام -هي ليس لها أصل من الحقيقة إنما هي أفلام خيال؛ سينما أمريكية- وضعوا صورة جالوت كإنسان عظيم ضخم الجثة، وداود مثل فتى صغير ضربه بالمقلاع ثم حز رأسه إلى آخر ذلك.

هذا الوضع هو الذي جعل كثيراً من الناس يقولون: إن هذه كلها خرافات، ولا يوجد أصل صحيح لأجيال من العمالقة الضخام الجثة الذين تتحدث عنهم الكتب المقدسة.

عندما ظهر النقد التاريخي للتوراة في القرن السابع عشر والثامن عشر كان من السهل على الناس أن ينفوا ذلك، وأن يقولوا بهذا الكلام, وأن ينفوا وجود عمالقة، ولما ظهرت نظرية التطور في منتصف القرن التاسع عشر كان سهلاً أيضاً عليهم أن يؤمنوا بها -أو كثير منهم- ويغضوا النظر عن كل ما يخالفها من كتب التاريخ، أو الحقائق التي يرثها الأبناء عن الآباء عن قبور العمالقة, وعن عظام العمالقة، وعما في ذاكرة البشرية من وجود هؤلاء البشر الضخام، وعن آثار في الأرض أيضاً تدل على ضخامة من كان قبلنا، كان هناك مرحلة تشاد وصراع وتطاحن بين العلم وبين الدين، فهؤلاء كلهم لم يبالوا على الإطلاق بما ذكر في هذه الأمور؛ وإنما ركزوا على الأهم؛ أن كل هذا خرافة فأبطلوه بجميعه، وليس لديهم معيار لمعرفة تفاصيله, وأخذ الحق وترك الباطل، أو لم يبحثوا عن معيار؛ لأنها مرحلة نفور, ومرحلة عداوة واشتداد، مثل مبارزة شد الحبل؛ كل منهم يريد أن يجر الآخر إليه مطلقاً دون أن يلتقي الجمعان أو الطائفتان على نقطة وسط.

هذا ما يقرره إذاً التوراة وشروحها وما ألحق بها من خرافات وضعها التلموديون وغيرهم.

الحقائق المتوارثة عند الشعوب عن وجود العمالقة

في المقابل نجد أن هناك حقائق متوارثة عند كثير من الشعوب، التي لم تعترك معترك الدين والخرافة بهذا الشكل الذي وقع في أوروبا ، أو التي تأخذ بعض القضايا بعيداً عن الفلسفة السابقة واللاحقة لها.

تقريباً كما تذكر الدراسات الأنتربولوجية: كل العلماء أو كل الباحثين وجدوا أن كل الشعوب في الأرض تؤمن بأن آباءنا وأجدادنا كانوا أقوى منا وأكبر منا، ويتحدثون عن آثار موجودة, وعن صخرة ضخمة كل منهم يقول: جد قديم -قد يسميه العوام هنا في جزيرة العرب أبو زيد الهلالي- هذه صخرته أو حذفته, أو هذه يده أو هذا بيته إذا كان كهفاً هائلاً ضخماً، وهكذا فكل أمة لها شيء من هذا يدرجه بعضهم تحت اسم: الفلكلورات الشعبية, بمعنى: أنه قد لا ينفيها بالمرة ولا يثبتها بالمرة؛ لكن هي تندرج ضمن ما تؤمن به الشعوب، ويقولون: إن الأساطير لا يعني: أنه ليس لها أصل, وليست أيضاً لها الصفة العلمية المطلقة، فلتُحلَّل.. هم يجمعونها لتُحلل أو يدرسها غيرهم, أو ليؤمن بها من شاء أو ليفكر بها من شاء, لا يهمهم هذا.

على أية حال هناك أيضاً حقائق ملموسة مشاهدة بغض النظر عما يضيفه العوام أو غيرهم، هناك فعلاً أشياء ثابتة، وأثار عظيمة في الأرض موجودة وحية، وهناك قبور في أماكن كثيرة من العالم ضخمة وكبيرة تختلف عن غيرها، وهناك آثار عظام أو بالأحرى هياكل بشرية بعضها شبه سليم وبعضها عظامه واضحة أنها هيكل بشري، بضخامة يتعجب الباحث أو المطلع عليها، وهذه ثابتة!

مثلاً: لو نظرنا إلى آخر ما توصل إليه الغرب بعد أن هدأت المعارك نسبياً في هذا القرن، والبحث الذي يدأب إليه الباحثون للبحث عن هذه المقابر -بغض النظر هل هم مؤمنون بنظرية التطور أو غير مؤمنين- نجد أن ذلك أنتج أشياء عجيبة! مثلاً: هناك ما يسمى القبور العملاقة, طول بعضها يبلغ خمسين متراً مثلاً, بعضهم وجدوا بعض الجثث التي وجدت من العمالقة تزيد على مائة قدم كما قال شامبليون , يعني: ثلاثة وثلاثين متر تقريباً أو أكثر, بعض الناس يتخيل عشرين قدماً, بعضهم ذكر ستة عشر قدماً، إلى أنه قد لا نصدق؛ لكن بعضهم ادعى أنه قابل قبيلة من العمالقة في محيط نهر الكنغو, وطولهم ثمانية عشر متراً.

لكن يوجد أشياء ثابتة بالفعل ومصورة ومؤكدة, وهي: أنه بالفعل هناك قبور عملاقة كبيرة؛ حتى لو كان بعضها تسعة أمتار -كما يقولون: إنها قبور الأنبياء أو ما أشبه ذلك- فهي أيضاً قبور كبيرة, والعظام التي فيها تدل على ضخامة في الخلقة، وهناك أيضاً آثار عظيمة لا يمكن أن تنسب بنايتُها إلا

لأناس من النوع الذي فعلاً يتمتع بقدرة بشرية خارقة؛ لأننا نكاد نجزم أنه لم يكن لديهم وسائل للرفع والنقل والحمل، أو الوسائل الهندسية والتقنية التي تجعلهم يبنون هذه المآثر العظيمة إلا بهذا الافتراض؛ قوة بشرية ضخمة.

عندما ننظر إلى ما هو ثابت -على سبيل المثال- في الولايات المتحدة الأمريكية ؛ الهواة من جهة, والمحترفون من جهة؛ أصبحت مهنة البحث عن العمالقة وعن قبورهم أمراً رائجاً علمياً وهو هواية عند الهواة، لا تكاد توجد ولاية من الولايات المهمة في أمريكا إلا واكتشف فيها بالفعل, ووضع في متحفها بالفعل العظام أو الدفائن التي وجدت, والتي تدل على ضخامة هذا النوع البشري الذي وجد فيها؛ فهناك مثلاً: عمالقة بنسلفانيا .. عمالقة كولورادو .. عمالقة ألاسكا ، كل منطقة لها عمالقتها الذين وجدوا بالفعل، مع أنه تقريباً عندهم شبه مؤكد أن الإنسان لم يعبر إلى أمريكا إلا بعد انحسار العصر الجليدي، يعني: قرابة عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف سنة بالكثير.

ففي هذا الزمن التاريخي يمكن أن تكون أحجام هؤلاء البشر بهذا الشكل، وربما يكون هناك ما هو أقدم من ذلك؛ لكن في أوروبا مثلاً طبعاً أقدم بكثير، القبور الأكثر طولاً وعرضاً أو العظام الأكثر لا تزال في أوروبا ، وأكثر من ذلك ما وجد في وسط آسيا ، وبالمناسبة: العالم كله وأكثر الناس يتوقعون أن جزيرة العرب هي الأكثر احتمالاً؛ لأنها مهد الإنسان الأول عند أكثر العلماء, ولأنها -وهذا ثابت- موطن قوم عاد.

ومن هنا البعثات الأثرية الحقيقة أنها قليلة -والحمد الله على ذلك؛ لأنها يمكن أن تشوه أي شيء, فليست جزيرة العرب مسرحاً لأي بعثة من البعثات وخاصة في الفترة السابقة- لكن عموماً هناك احتمال كبير بوجود هذا، مما روَّج الأكاذيب والأساطير؛ ومنها: ما ظهر قبل فترة من الفترات على مواقع في الإنترنت أن شركة أرامكو عثرت على جثة عملاق، وبعد ذلك تبين أن هذا أكذوبة، وكان مكتب العلاقات في شركة أرامكو على اتصال دائم لمراسلة كل الناس في الإنترنت وغيره؛ لتبين أنه لا حقيقة لهذا الأمر.

العمالقة في المنظور الإسلامي

فلنعد إلى تاريخنا الإسلامي, وإلى ما ذكره علماؤنا, حيث لا إشكال بين الدين وبين العلم، ولا بين العقل والتجربة, ولا شيء من ذلك، إنما هي حقائق تؤخذ في غاية البساطة, وفي غاية الوضوح.

أولاً: ما الذي يجعل هذه الحقائق بسيطة؟! القول أو الاعتقاد بأن هناك من هم أشد منا قوة, وأشد منا بطشاً, وأعظم أجساماً, وأطول أعماراً! هذا ليس فقط معتقداً عربياً أو تقليداً عربياً توارثوه وثبت لديهم!

إثبات العمالقة من القرآن الكريم

جاء القرآن الكريم فأكده في مواضع كثيرة, وأصبح مما يقرؤه الصغير والكبير؛ أن الذين قبلنا كانوا أشد منا قوة, وأشد منا بطشاً, و((وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوْهَا))[الروم:9], يعني: على الأقل من نزلت في أيامهم هذه الآيات, ((وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ)) [سبأ:45], هذا عام (ما أتيناهم)، والمعشار يقول العلماء: عشر العشر، وما ذكر الله تبارك وتعالى عن قوم نوح وقوم عاد -وبالذات عن قوم عاد- كل هذا يعطي المسلمين قناعة بأن القرآن يدل على ذلك؛ فلا يحتاج إلى جدال, ولا يحتاج إلى استشهاد بآثار أو بغير آثار.

إثبات العمالقة من السنة النبوية والآثار

يأتي أيضاً الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن الله تبارك وتعالى خلق آدم على صورته طوله ستون ذراعاً), فيبين الحديث أن طول آدم عليه السلام كان ستين ذراعاً, وهذا حديث صحيح لا شك في ذلك.

ثم تأتي أيضاً الأحاديث والآثار عن الصحابة وعن التابعين وعن الوقائع التاريخية أيضاً التي تؤكد أنه فعلاً ولا شك في أن هؤلاء كانوا ضخام الأجسام, وبالذات قوم عاد؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ((وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً))[الأعراف:69], وكما جاء في الآية الأخرى: ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ))[الفجر:6-7], فهو زادهم بسطة ولم يخلق مثلهم في البلاد! هناك ميزة واختصاص لقوم عاد في هذه القوة, وفي هذه الضخامة، حتى أنه لما أهلكم الله تبارك وتعالى شبههم: ((كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ))[الحاقة:7], والنخل معروف ضخامته وطوله، وهذا دليل على ضخامة أجسادهم أيضاً.

إذاً نستطيع أن نقول: من خلال ما هو ثابت ديناً وتواتراً في التاريخ -وأيضاً وقائع سنذكر لكم بعضها الآن إن شاء الله تعالى- أنه لم يكن هناك أي إشكالية عند الناس في أن قوماً قبلنا كانوا أكبر منا, وأعظم منا, ولا سيما قوم عاد.

وجود العمالقة يبطل نظرية التطور

تبقى قضية الآثار؛ ثبت أن عاداً بنت الأهرام أو بنت في اليمن أو بنت في تدمر لا إشكال فيها، فهذه قضايا بحثية يبحثها أي إنسان، ويبحثها العلم.. ويبحثها التاريخ، وربما البشرية حتى الآن لم تصل في البحث إلا إلى مستوى بسيط جداً؛ لكن ليست هذه مشكلة, فالمهم ما يتعلق بنظرية التطور, فلا شك أنه عندما يثبت وجود هذه الأمم بهذا الشكل يبطل نظرية التطور بنوعيها أو بشقيها: العضوي, والفكري.

إبطال نظرية التطور العضوي

أما العضوي فيبطل؛ لأنه حتى الآن لم يثبت وجود أي حلقة من الحلقات المفقودة أو الموصلة ما بين جنس وجنس، يعني: ما بين النباتات والأحياء, ثم ما بين -مثلاً- رتبة الأسماك والبرمائيات، ثم البرمائيات والأسماك والطيور، ثم الطيور إلى الثديات.. لا يوجد شيء يثبت هذا! فالموجود إما هذه الأجناس مستقلة منفردة كما نشاهدها اليوم، وإن وجد فهو شيء ضئيل جداً؛ هو ما يكون تشويهاً خلقياً, والتشويه لا يعتبر حلقة، الداروينية أرادت أن تحشر أو تحاول البحث عن أي خلق مشوه لتجعله حلقة وصل، وافتروا في سبيل ذلك ما أشرنا إليه في الحلقة الماضية؛ أن اصطنع بعضهم جماجم معينة وفكاكاً معينة, وقد ثبت الآن بعد خمسين سنة أو أكثر أنها كانت مفتعلة.

إذاً: عندما يثبت وجود هؤلاء العمالقة الضخام فهو يؤكد تأكيداً قطعياً ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم, وما لمح وأشير إليه أيضاً في التوراة من قبل: أن هذه الأمم السابقة أعظم منا, وأنهم خلق مستقل خلقه الله تبارك وتعالى, وأبعد ما يكون عن الحيوان.

إبطال نظرية التطور الفكري

كذلك من ناحية التطور الفكري يصبح أن هؤلاء الذين بنوا هذه الأبنية وشادوها, وكتبوا عليها ودونوا عليها, وبعضها لا يزال محفوراً ومعروفاً, وبعضها لم يعرف بعد، هم كانوا بالفعل على دين, وعلى معرفة بالله سبحانه وتعالى, وعلى إيمان باليوم الآخر، وإن كان بعضهم يغلب عليه الشرك، ولكن يمكن أن تكون هناك فرضية نطرحها ونعتقد صحتها؛ وهي: أن بعض العبارات الشركية, وبعض المخالفات هي تأويل أو إضافات على النصوص الأصلية التي كانت للبعض! لا نقول: إن كل ما كتب من نقوش كتبها موحدون؛ لكن نقول: الموحدون كتبوا, ويأتي من بعدهم فيضيف أو يعدل. وهذه

الكعبة بيت الله الحرام بناها إبراهيم عليه السلام على التوحيد, ومع ذلك نجد أن العرب ملأوها ووضعوا فيها الأصنام؛ فلو جاء من يبحث في الآثار, وقال: هذه الأصنام وضعها إبراهيم لكان كاذباً! بل إنهم صوروا إسماعيل عليه السلام وهو يستقسم بالأزلام، وكذبهم النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك, فما كان ليفعل ذلك, فما يضاف إلى الآثار أو الأبنية الموجودة لا يمكن أن يحسب أنه أصل هذا البناء. الكتابات التي على الأهرامات أيضاً لا يمكن أن نقول: إنها فعلاً تعود إلى الفرعون الذي كُتبت ونسبت إليه هذه الكتابات. إذاً: هذا يؤكد أن البشرية في تاريخها كله الطويل القديم كانت على التوحيد, وعلى استقامة في الخلْق والخُلق, والفكر والدين والاعتقاد، ولكنها تهبط فيأتي الله تبارك وتعالى إليها بالرحمة, وهم الأنبياء يُنزل عليهم الوحي فيرتفع بهم، ثم تَنْزل ثم يأتي بالأنبياء وهكذا؛ حتى جاء الدين الخاتم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ليظهره على الدين كله, وسوف يظهر على الدين كله بإذن الله تبارك وتعالى.

نماذج وصور مؤكدة لوجود العمالقة

الآن نذكر بعض التفاصيل التي يمكن أن تعيننا وتوضح لنا كيف يمكن للعقل البشري بالبحث المجرد أن يصدق الوحي, وأن يكذب بالأساطير وبالخرافات.

واختصاراً رأيت أن أنقل من بعض المصادر التاريخية المعروفة، على سبيل المثال: عندنا الخطط المقريزية نقل عن المسعودي وعن غيره ممن سبق، نذكر مجموعة -بعضها آثار ثابتة, وبعضها قد تحتمل وبعضها لا تحتمل- كنموذج للحقيقة في الإسلام أنها يُبحث عنها, ولا يجزم بها ولا يقطع إلا بما جاء به الوحي المعصوم, أو كان الدليل العقلي قاطعاً فيه؛ لكنها على أية حال تذكر، ولا إشكال في ذكرها, ولا تؤثر على من ذكروها لا المسعودي ولا الأقريشي ولا المقريزي ولا غيرهم ممن ذكر شيئاً من هذا.

صور مما ذكره المقريزي

مثلاً: عندما يتحدث المقريزي في الخطط أنه عثر في بعض المقابر وأخرج منها جمجمة عظيمة، ووضعت على عجلة يجرها ثوران مثلاً كقضية من القضايا.

وعندما يتحدثون أنه كان في الإسكندرية ضرس إنسان عند قصاب يزن به اللحم زنته ثمانية أرطال!

وعندما يذكر -وهذه إشارات فيه نوع من الأهمية ثبتت- أن أعمدة الإسكندرية بناها من قوم عاد رجل يقال له: البتون بن مرة العادي , وأنه حملها من جبل جهة أسوان حتى أوصلها إلى هناك.. هذا كلام؛ لكن هل نرى له احتمالية؟!

سنرى فيما بعد أن عمالقة من قوم عاد وثمود كانوا هم الذين حملوا الحجار الضخمة تحت إبطهم, وقد يكون بالعربات، المهم حملوها من المناطق التي تبعد مئات الكيلومترات من مقاطع أو محاجر الأهرام؛ حتى بنوا بها الأهرام, وبنو منها منارة بالإسكندرية, وبنوا منها آثار تدمر , أو بنوا منها آثاراً بـ اليمن .

الحقائق هذه كلها تؤكد في النهاية أن أصل الحضارة هو جزيرة العرب، وأن الجزء الجنوبي من هذه الجزيرة الطيبة المباركة هو أصل الحضارة العالمية، وأول ناطحات سحاب بنيت -ولا تزال موجودة ومبنية- في اليمن ، وما يوجد في الشام و العراق فهو لأن هذه الشعوب -ومنها الكنعانيون والفينيقيون وغيرهم- أصلاً هاجروا من اليمن ، والتشابه في الأسماء الموجودة وبوضوح في اللغات ما بين اللهجة اليمنية وأماكن في صنعاء وما حولها، وبين ما يوجد في الشام و العراق وغيرها هو أيضاً مما يدل على أن أصل الحضارة المعروفة والمشاهدة: هو في هذه الجزيرة, وفي جنوبها بالذات.

المقصودك أنه ذكر أسماء وأعمدة مأرب و بينون ومآثر اليمن .. إلى آخره، كل هذا مما يدل على أن هناك قدراً من الحقيقة.

ثم يقول المقريزي رحمه الله: وكأني بمن قل علمه ينكر علي إيراد هذا الفصل -بعدما ذكر فصلاً طويلاً في هذا- ويراه من قبيل المحال, ويكذب به, لا يوحشنّك ذلك! اسمع قول الله تبارك وتعالى عن عاد قوم هود: ((وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً))[الأعراف:69], أي: طولاً وعظم جسم, وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: [كان أطولهم مائة ذراع, وأقصرهم ستين ذراعاً].

((وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً)), قيل: كانت على خلق آبائهم, وقيل: على خلق قوم نوح، ويحتمل أنه زادهم في الخلق عن الأمم المحيطة بهم، ثم ذكر أيضاً وهب بن منبه و ابن لهيعة وغيرهم أن الوحوش كانت تضع أولادها في قحف العين للعماليق!

على كل حال إذا كانوا بهذا الطول؛ فلا يستبعد أن الوحوش فيما بعد إذا وجدت مقبرة تضع أولادها في مثل هذا؛ ولا غرابة, وقد كان الناس -كثير منهم- لم يصدقوا أن أبا عبيدة رضي الله تعالى عنه جمع بعض الصحابة في قحف عين الحوت، أو أن البعير سار من تحت ضلعه، والآن اكتشف الناس وعرفوا أن الحوت الأزرق هو أضخم من الفيل بعشرة أضعاف! وأن هذا الكلام عادي جداً, كما وقع في أيام الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وهكذا تتضح الحقائق ولو بعد حين.

صور مما ذكرها الأقريشي

هناك شيء من الطرافة فيما نقله عن الأقريشي -في باشقرد أو في مناطق من أواسط آسيا - أن هناك نوعاً من العمالقة؛ ولكن بشكل أقل, يقول: فك الرجل منهم سبعة عشر ذراعاً, بعضهم يقول: أربعة أذرع.. ثلاثة أشبار, ليست مشكلة, وإنما بشكل معقول قريب جداً مما ذكره ويل ديورانت في قصة الحضارة، وقريب من القبور التي نحن رأيناها بأنفسنا هنا في جزيرة العرب, وفي منطقة الجنوب حيث وقفنا عليها، فهي فعلاً قبور كبيرة, ليست مثل قبور هذه الأمة، ولكنها ليست أيضاً بالضخامة الهائلة التي تحدث عنها الغربيون, يعني: خمسين متراً أو أربعين متراً, وإنما هي تقريباً أربعة أمتار، تقريباً يمكن يكون طول الرجل منهم ما بين مترين ونصف إلى ثلاثة أمتار, والله تعالى أعلم؛ لكنها قبور متميزة وموجودة, ووقفت عليها بنفسي أيضاً.

على كل حال؛ هناك من يتحدث عن صنف من هذا النوع كان موجوداً في أيام الأقريشي ، و المقريزي يضيف ويقول: أنا أدركت شيئاً من ذلك، وذكر قصة وقعت أيام السلطان الظاهر برقوق ، وأن ناساً اختلفوا في ترِكة, وأنه وجد رجل ضخم الجثة في مصر , الآن أصبح الحديث عادي جداً في هذه الأمور, وأن ما يوجد في مصر وغيرها أكثر بكثير مما كان يتخيل أو كان يُظن، بعد أن تفرغ الباحثون والمختصون, وبدءوا ينقبون في كل مكان, لعلنا نذكر طرفاً منها إن شاء الله تبارك وتعالى.

صورة ذكرها عبد الله بن المبارك

لكن نحب أن نوضح من مصدر ثقة, وهو أن الإمام المجاهد العلامة العابد: عبد الله بن المبارك رضي الله تبارك وتعالى عنه، وهو مَن نعلم قيمته, وما ورد في فضله، أُوتي في أيامه بأسنان يقول الذهبي في سير أعلام النبلاء -الجزء الثامن المحقق صفحة أربعمائة وسبعة عشر-: قال أبو إسحاق الطالقاني كنّا عند ابن المبارك فانهد الحصن -حصن كان لديهم- فأوتي بسِنَّين -عظام أسنان- فوجد وزن أحدهما مَنوان, يقول المحقق: أن المنوان.. المنا: 8,10 , يعني: المنوان يزنان حوالي كيلوين إلا

ربع أو شيئاً من هذا.

يقول: فأنشد عبد الله بن المبارك رضي الله تعالى عنه في هذه السن شعراً يقول:

أتيت بسنين قد رمتا من الحصن لما أثاروا الدفينا

على وزن منوين إحداهما تقل به الكف شيئاً رزينا

ثلاثون سناً على قدرها تباركت يا أحسن الخالقينا

فماذا يقوم لأفواهها وما كان يملأ تلك البطونا

يعني: كيف تأكل هذه الثلاثين سناً والواحد منها ملء الكف؟!

إذا ما تذكرت أجسامهم تصاغرت النفس حتى تهونا

وكل على ذاك ذاق الردى فبادوا جميعاً فهم هامدونا

رضي الله تعالى عنه.

هذا مما يؤكد الشيء المهم؛ أنه مثل هذا كان أمراً عادياً ومعروفاً.

نموذج مما تحدث به الباحثون عن قصة الحضارة

لما نرجع إلى ما تحدث به الباحثون نجد مثلاً أن في قصة الحضارة -نفس المنطقة تقريباً التي كان يسكن فيها الإمام عبد الله بن المبارك- يتحدث ويل ديورانت أن من أقدم الأماكن الحضارية أو ما يقول به الكثير منهم، أن موطن الإنسان القديم العملاق كان في وسط آسيا ، هناك من يقول: تركيا , وهناك من يقول: الحبشة , لا اعتراض لنا على هذا، المهم أن نعتقد ونقول: أنها جزيرة العرب؛ لكن امتدوا في الأرض, وامتدوا في الآفاق.

فيقول: إن مدينة يكترا مساحتها يمتد قطر دائرتها اثنين وعشرين ميلاً, يعني: أكثر من خمسة وثلاثين كيلو! يعني: مدينة في تلك الأزمان السحيقة -البعض يرجعها إلى تسعة آلاف سنة قبل الميلاد - يعني: أحد عشر ألف سنة من الآن أو نحو ذلك, ويكون قطرها خمسة وثلاثين كيلو متر!

ثم يذكر عِظَم الآثار التي وجدت -طبعاً حتى لو قدرناها أنها أربعة آلاف متر كما يرى هو وغيره- المهم أن هناك شيئاً بالفعل يشد الانتباه والنظر في تلك المناطق, ولو نقب -وقد بدأ بعد انهيار الشيوعية بالتنقيب أكثر وأكثر- لوجد أعظم وأعظم, مما يدل ويؤكد قول النبي صلى الله عليه وسلم:

(إن الله تعالى خلق آدم طوله ستين ذراعاً؛ فما زال الخلق ينقص).

فمعنى ذلك: أن هذه الأمم العظيمة التي عاشت سواء كانوا في أواسط آسيا أو في تركيا أو في اليمن أو في بلاد الشام أو في أي مكان؛ أنهم فعلاً أمة عظيمة هائلة وجدت, وأنها كانت على هذا القدر من العظم والخِلْقة.

الأهرام

تبقى قضية الآثار، وأعظم الآثار تقريباً -ويمكن أن نقول ذلك بدون جدال- في العالم كله هي الأهرام -وسيأتي إن شاء الله تعالى عند ذكر الفراعنة تفصيل لهذا, فنحن الآن فقط نلمح إلماحة- أعظم ما يقال من الآثار في العالم وهي حقاً عجيبة ومدهشة؛ بل لم تنته أعجوبتها بعد هي الأهرام, وما يوجد في مصر من المسلات والأعمدة والمعابد، حقيقة أن الأسرار -كما يقال- في الأهرام, واكتشاف اللغات, واكتشاف العقائد والأساطير المحيطة بها شيء ضخم جداً، حتى أن إحصائية أجريت في أمريكا تشير إلى أن عشرة ملايين أمريكي -وهي قد مضى عليها عدة سنوات- يعتقدون ويؤمنون بأسرار غيبية للأهرام، والبعض يعتقد فيها اعتقادات -تعالى الله عما يشركون- شركية؛ من دعاء الأموات, ومن الاستشفاء بها, ومن اعتقادات باطلة أخرى.

المهم أن من زارها من الأمريكيين, واعتقدوا فيها يبلغون عشرة ملايين فضلاً عن غيرهم من شعوب العالم، ولك أن تتخيل هذه الأهمية لهذه الآثار.

ذهبت النظريات فيها شتى؛ كيف بُنيت؟ ومن بناها؟ لا يهمنا الآن هذا, -وسيأتي له إن شاء الله شيء من التفصيل عندما نتكلم عن الفراعنة, ونأتي في موقعهم التاريخي- الذي يهمنا الآن فيما يتعلق بهذا هو أن نقول: علاقة هذا بقوم عاد، فمن المحتمل جداً أن يكون الذين بنوها هم فعلاً قبل ما يعرف الآن من التاريخ الفراعنة -قبل الميلاد بـ 1300 أو 1400سنة أو ما أشبه ذلك, على ما سنوضحه إن شاء الله تبارك وتعالى- يحتمل أن تكون بالفعل من آثار قوم عاد أو الأمم العظيمة القوية.

ولنا أن نستأنس هنا ببعض ما كتبه بعض الباحثين المعاصرين؛ من ذلك الأستاذ: محمد سمير عطا ؛ فهو ذكر أو نص على أن قوم عاد هم الذين بنوا الأهرام، والدليل على ذلك: وجود آثار لهؤلاء العملاقة، آثار وجدت في مصر -طبعاً في عدة أماكن؛ منها في المعادي ومنها في سوهاج ومنها في منطقة

جنوب الأقصر أو الكرنك- هياكل عظمية طول البعض ستة عشر متراً، ويربط هذا بقضية أنه لا يمكن أن يكون الذين بنوا الأهرام هم الفراعنة الذين نحتفظ بمومياءاتهم، وهم بالشكل القريب من شكلنا الحالي -هم مثلنا بالضبط تقريباً- إنما هم قوم أكبر من ذلك، وهناك قضايا أخرى في التقنية في نقل الحجارة.. في تقطيعها.. في ترتيبها، قضايا كثيرة جداً تشعرك بأن أمة عظيمة هي التي بنت ذلك، وأن ملايين العمال في حجمنا الحالي لا يستطيعون أن يبنوها في المدة التي ذكرها هيرودوت , وفي النهاية أن الرمال غطت كثيراً من الآثار، ما لم تغطه الرمال واكتشفه الفراعنة كتبوا أسمائهم عليه كأنهم بنوه، وما غطته الرمال واكتشف حديثاً الآن وجد أنه ليس لهم كتابة عليه؛ مثل: أبي الهول، فهذه في تقديرات الباحث الأستاذ: محمد سمير عطا تؤكد أن الذي بناها هم قوم عاد، وأن الله تعالى سلط الريح عليها, وأنها ليست كما تنسب أو كما يدعي الفراعنة.

الوحي الصادق من الكتاب والسنة هو الحق

على أية حال؛ الذي يهمنا نحن في هذا الموضوع هو أن الله سبحانه وتعالى عندما ذكر قوم عاد وعِظم خِلقتهم، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم عِظَم خِلقة آدم عليه السلام، وأن ما نعتقده في القرآن وفي السنة من هذه الأمم العظيمة التي قبلنا وما ممكنهم الله تبارك وتعالى فيه، وما بنوه في اليمن و الشام و العراق ووسط آسيا وغيره، وما هو موجود من قبورهم وعظامهم وآثارهم، كل ذلك يؤكد حقيقة عظيمة جداً وهي: أن الوحي الصادق الذي جاء في القرآن والسنة هو الحق.

أما الخرافة التي أضيفت إلى الوحي القديم كما أضيفت قصة عوج بن عنق أو غيره إلى ما ذكره، حتى في كتب التفسير الإسلامية بعض الإسرائيليات؛ هذه نشطبها ونلغيها, ولا نقرها ولا نؤمن بها.

تتضح الحقيقة ناصعة بين ما يدعيه أهل نظرية التطور وبين ما يدعيه المخرفون أو أهل الأساطير والتهاويل والإسرائيليات وغيرها، وهي حقيقة تقوم على ظاهر القرآن الكريم, وعلى السنة النبوية الصحيحة، وأن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الإنسان خلقاً مستقلاً وكرمه وفضله، وأعطاه هذه القوة والضخامة، وكان من قبلنا ضخام الأجسام وطوال الأعمار، وعوضنا الله تبارك وتعالى والأجيال اللاحقة بالقوة وبالفهم وبالعلم، بالتراكم المعرفي لدى البشرية حتى أصبحنا في الوضع الذي نحن الآن عليه.

نختم هذا اللقاء المبارك إن شاء الله ببعض الطرف -المفيدة أو شيء من هذا- وهو أنه أجري

استفتاء في أمريكا عن الإيمان بهذه الهياكل العظمية والمخلوقات القديمة والعمالقة؛ فكان هناك من يؤمن بها، وهناك من يقول: إنها بقايا حيوانات، وهناك من يقول: إنها مشوبة بالأساطير، وطبعاً هناك من يتردد, ومن يتوقف.

إذاً: المسألة لا قطع فيها ولا جزم فيها إلا ما جاء في الكتاب وما جاء في السنة الصحيحة، وما هو متواتر ومشهور عند أهل التاريخ, وعند كافة الشعوب من عظم الأمم التي قبلنا, وما تدل عليه آثارهم لنا.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الاعتبار بهذه الآثار والأحوال, وأن يجعلنا ممن يستمعون الحق ويستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة الثانية عشرة: الحضارة في بلاد اليمن

العناصر :

1.مقدمة

2.الحضارة اليمنية (ميزة الحضارة اليمنية) (قيمة)

-أقدم الحضارات

-أرض الحكمة

3.الإشارات القرآنية

4.حقائق كبرى تناقض النظريات التاريخية

-كلمة منصفة

-اللغة العربية والأمثلة على ذلك

-تقارب ملوك التاريخ الظني مع ملوك اليمن

5.الخاتمة

رجوع جميع الحضارات إلى أصل واحد

الحمد الله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها الإخوة الكرام! تأتي هذه الحلقة تتمة لما تقدم من الحديث عن نشأة الحضارة, وبداية التاريخ, واختلاف المناهج البحثية والعلمية في ذلك.

الذي نريد أن نؤكده في هذا الحلقة وفي غيرها هو: أن المركزية التي يدعيها الفكر الغربي، أو كثير من الباحثين الغربيين للحضارة الغربية، أو للأصول اليونانية للحضارة؛ لا تقوم على أي أساس علمي, وبالتالي هناك مجموعة من الحقائق الدينية والتاريخية والعلمية، ومجموعة أيضاً من التقاليد ومن الأساطير، كل ذلك يُكوِّن لدى البشرية جميعاً -ولكل مطلع باحث من أي جنس من أي بلد- أن كل الحضارات ترجع إلى أصل واحد, وإلى منبع واحد، كما أن كل الجنس البشري يرجعون إلى أسرة واحدة وأم وأب, أي: آدم و حواء عليهما السلام.

وحدة الأصل الحضاري للبشرية حقيقة يمكن أن نقدم عليها أدلة كثيرة, ونماذج كثيرة جداً من غير الخوض في التفاصيل الدقيقة والعميقة؛ لأن المقصود هنا: إعطاء إخواننا المشاهدين فكرة عامة مجملة، وعندما نتعرض لذلك ونشير إلى المصدر المعصوم من الخطأ؛ وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة؛ فإنما نشير إلى ذلك لكي نوضح أن المنهج القرآني نفسه إنما يقوم على إعطاء هذه الحقائق كإشارات عامة مجملة، والخوض في التفاصيل يترك للجهد البشري وللبحث البشري وللتنقيب البشري، كما سوف نرى أهمية ذلك في موضوعنا اليوم, وهو موضوع الحضارة في بلاد اليمن , أو في جنوب الجزيرة العربية.

الحضارة اليمنية

سبق أن تحدثنا في بعض الحلقات السابقة عن مركزية الجزيرة العربية, وأهمية الجزيرة العربية حتى بالنسبة لبعض الحقائق أو النظرات الكونية، كموقعها مثلاً بالنسبة لما يراه الإنسان من الفضاء الخارجي من الكواكب الأخرى، وأشرنا إلى أن اللغات في كل أنحاء العالم أو أن الباحثين اللغويين أُثْبِت لديهم أن الحضارات القديمة ترجع إلى لغة واحدة, وأبجدية واحدة, وتفرعت منها أبجديات أخرى، وأن موطن هذه اللغة وهذه الأبجدية هو الجزيرة العربية.

قدم الحضارة اليمنية

ونحن عندما نركز اليوم على اليمن بالذات, أو الجزء الجنوبي أو الخصب من جزيرة العرب؛ فإنما نقدم حقائق إضافية إلى ما قدمنا فيما سبق وتقدم عن الحضارة في جنوب العراق , وفي أجزاء من بلاد الشام .

فالحضارة التي نشأت في بلاد اليمن لا تزال في نظرنا وتقديرنا مهملة إلى حد كبير إذا ما قورنت بالحضارات الأخرى، بعد أن كانت نظرة الباحثين إلى أن أقدم الحضارات هو ما وجد في مصر أو في بلاد الرافدين، في إمكاننا نحن أن نقدم نظرية أخرى ونقول: إن أقدم من هاتين الحضارتين هي الحضارة اليمنية، ولكنها لم تحظ بالعناية الكافية في حدود ما اطلعنا عليه وما علمنا؛ لأن المشكلة الكبرى التي ناقشناها في أوائل هذه الحلقات: الفجوة الكبيرة بين نشأة البشرية وبين آدم ونوح عليهما السلام، وبين إبراهيم عليه السلام ومن جاء بعده، هذه الفجوة الكبرى أكبر من أن يمكن أن يغطيها ويسدها هو التاريخ اليمني الواسع الممتد، وقد جاء ذلك صريحاً في المصدر الموثوق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وهو القرآن الكريم، حيث نجد صراحة أن عاداً بعد قوم نوح ثم ثمود بعدهم، ثم بعد ذلك بآماد يأتي إبراهيم عليه السلام.

طبعاً ثمود في شمال جزيرة العرب، والظاهر أنها غطت جزيرة العرب جميعاً, وكثيراً من أرجاء العالم القديم؛ لكن في هذه المرحلة يهمنا جداً معرفة عاد، فهي أقدم باتفاق أهل العلم من ثمود، ومع ذلك فهذه الحضارة التي لا تكاد تذكر في التاريخ البحثي أو التاريخ العلماني هذه حضارة أهملت، ونجد عندما يتعرض هذا التاريخ لليمن وللحضارة ولنشأتها وللدين في اليمن ، فإنه يتكلم عن حضارة سبأ -على سبيل المثال- وبعض الحضارات المعينية أو القتبانية وما أشبه ذلك، التي هي قريبة جداً من الألف الأول أو بعده، -ما بين سليمان عليه السلام والمسيح, في فترة تعتبر قريبة وحديثة- تعتبر بالتأصيل الذي ذكرناه نحن وقلنا: إنه جاء في القرآن: أن التاريخ الحديث أو المتأخر يبدأ من هلاك فرعون, ومن إنزال التوراة ، فإذاً تعتبر فترة حديثة جداً.

فأين عهد موسى عليه السلام وإنزال التوراة من عهد عاد؟! آلاف من السنين وأحقاب واضحة جداً لمن يقرأ في كتاب الله سبحانه وتعالى، ولمن يتأمل في السنة الصحيحة, ولمن ينظر إلى التاريخ المشهور المتواتر عند العرب.

ولا يصح بأي حال من الأحوال أن نقول: إن هذه أساطير, وكما يقول المستشرقون ويزعمون:

هذه روايات عربية.. تقاليد عربية, وما أشبه ذلك، وننظر بالجانب الآخر إلى كلام المؤرخين الغربيين أو اليونانيين المتأخرين -حتى زمنياً- على أنه هو الحقيقة أو هو أقرب للحقيقة!

هيرودوت أو تيودور الصقلي أو ما أشبههم، لمَ يكون كلام هؤلاء حقائق أو تاريخ موثق وعليه بعض التحفظات، وأما يقوله الكتاب العرب أو ما يحفظه العرب من تراث أو ما تنطق به النقوش العربية؛ فإنه يعد وكأنه أساطير أو شبه أساطير؟! لا بد أن ننظر نظرة منصفة إلى ذلك.

وصف الحضارة اليمنية بالحكمة

نقول: معنى ذلك أن الحضارة في اليمن ، الحضارة في جنوب جزيرة العرب حضارة متميزة وقديمة، لا يميزها فقط القدم؛ بل إنها متميزة, وجاء هذا التميز واضحاً وجلياً من خلال الكتب السماوية، والآثار الموجودة التي تنطق حتى الآن، وإن كان التاريخ البحثي لم يُعَمَّق, وهذا ما نرجو أن نثيره, وأن نشجع عليه في مثل هذا اللقاء إن شاء الله تبارك وتعالى، لكي تكتمل الحلقات التي يمكننا من خلالها أن نشهد تاريخاً بشرياً حقيقياً وصحيحاً، ينطلق من قضية أن هذه البشرية أصلها واحد, وأن دينها واحد, وهو التوحيد في الأصل، وأن ما طرأ على ذلك من وثنيات وانحرافات فهي انحرافات طارئة، وبالتالي نلغي المركزية التي يجعلها البعض لأمة دون أمة, أو مكان دون مكان إلا ما ثبت في الدليل الصحيح، فنحن المسلمين -ولله الحمد- نؤمن بجميع الأنبياء, ونؤمن بجميع الكتب, ونعلم أن منهم من قص الله تعالى علينا نبأه, ومنهم من لم يقص الله تعالى علينا نبأه، فلا حرج لدينا أن يأتينا من يتحدث عن حضارة أو عن أنبياء أو عن تراث آخر غير مذكور لدينا! المهم أن يكون ذلك ثابتاً بالأدلة الصحيحة, وأن يكون مقبولاً علمياً وموضوعياً.

أما يفعله المستشرقون من تسييس الآثار وعلم الآثار وعلم الأبحاث، فالملاحظ أنه تحامل! فما فعلوه مبني على التحامل, وعلى طمس الآخر تماماً -الذي هو المسلم العربي- محاولة شديدة ويائسة لأن يطمس, ومع ذلك الحمد الله لم يستطيعوا؛ لأن من الغربيين أنفسهم الباحثين المتجردين، وفي نفس الوقت الحقائق تظهر شيئاً فشيئاً حتى تكشف عن أمور لا يمكن لهؤلاء أن ينكروها.

نحن على سبيل المثال عندما نذكر الميزة العظمى للحضارة اليمنية غير القدم، هناك ميزة السمو والرقي العقلي والروحي، والتفكير الذي يمكن أن نجمعه في كلمة واحدة وهي: الحكمة؛ أنها حضارة حكيمة, وأنها بلاد حكمة.

مما يدل على ذلك في الكتب القديمة وفي التاريخ -على منهجنا الثلاثي في المصادر- لو أننا

نظرنا إلى العهد القديم فنجد أن هذا واضحاً جلياً، ففي سفر أيوب على سبيل المثال: عندما تكون تلك المجادلة حول القضاء والقدر وحرية الإرادة والإنسان، وكيف يبتلي الله تبارك وتعالى الإنسان, وهل هذا عدل أم غير عدل -تعالى الله عما يصفون- نجد أن الحكمة في هذا السفر من أولها إلى آخرها حكمة يمانية، والأسماء أسماء يمانية، وهذا ما يُقر به كل من يكتب عن التوراة والعهد القديم، ويضعون ذلك تحت اسم اليمن أو التيمن؛ اللفظ التوراتي يكون التيمن مأخوذ من التّيمُّن أو من اليمن ، فيقولون: إن هذه بلاد الحكمة, وقالوا: إنها منبع أو أصل للحكمة.

كذلك في الأمثال الأخرى, وكتب الحكمة الأخرى، وهي أحد الأجزاء الكبرى مما يسمى بمجموعه: البايبل عند أهل الكتاب أو العهد القديم بالذات، نجد أيضاً في إنجيل متى أن المسيح عليه السلام عندهم نص على هذا يقول: إن ملكة سبأ جاءت وطلبت الحكمة من سليمان -في معرض ذم اليهود- و اليهود لم يقبلوا الحق منه عليه السلام وهو أفضل من سليمان, وأعظم حكمة, وأعظم نبوة، وهذا حقيقة نعم هو كذلك، فيتعجب يقول: كيف الأمم البعيدة والغريبة تقبل الحكمة بينما أنتم يا بني إسرائيل! لا تقبلونها مع أنها أمام أعينكم؟ فهذا أيضاً مما يؤكد الصفة نفسها.

تأتي هذه على لسان أصدق البشر صلى الله عليه وسلم فيختصر بكلمة واحد ويقول: (الإيمان يمان, والحكمة يمانية).

لاحظ المصادر الثلاثة تتفق بأن هذه بلاد حكمة, وأنها حضارة حكمة، بمعنى: السمو الروحي والأخلاقي فيها أعظم من أي مظهر آخر, بالإضافة إلى أن لها مآثر أخرى.

مثلاً: أول ناطحات سحاب عرفها العالم هي في اليمن , ولا تزال آثار منها موجودة إلى الآن! أعظم السدود في تاريخ البشرية هي السدود التي بنيت في اليمن , ولا تزال الآثار موجودة وقائمة حتى الآن! إذاً: هناك أيضاً حضارة عمرانية مزدهرة وقديمة, وتشمل جوانب مادية, وتشمل جوانب روحانية، بإمكاننا أن نجد هذا, وأن نجد أيضاً جوانب الانحراف.

إشارات قرآنية في الحضارة اليمنية

إذا نحن أخذنا من الإشارات القرآنية مجموعة من الحقائق، وركبنا من خلالها تاريخاً عميقاً وعظيماً لهذا الجزء المهم من جزيرة العرب.

بمعنى آخر: أننا يمكن أن نعتبر أمة عاد، أمة طرأ عليها الشرك ثم بعث الله تبارك وتعالى إليهم هوداً عليه السلام؛ فكان ما كان من هلاكهم وعقوبتهم، وهذه ممكن أن تفرد في لقاء أو أكثر لبيان ما الذي توصل إليه العلم أو الكشوفات الأثرية من مواقع عاد؟! وأسباب الهلاك التي يفسرها البعض تفسيرات قد تتفق مع النص القرآني وقد تختلف؛ لكن على أية حال هناك بحوث مهمة وحديثة في هذا الشأن, هذا جانب.

بعد ذلك نجد أن هناك في القرآن حديثاً عن ذي القرنين ، من هو ذو القرنين ؟ أقرب الأقوال -على كثرة الخلاف- فيه أنه من ملوك اليمن , الذين كان -كما في نص القرآن- رجلاً صالحاً عبداً مؤمناً موحداً تقياً وفتح الأرض، وهذه الحقيقة التي جاءت في كتاب الله تبارك وتعالى هي من ضمن حقائق كثيرة، أو من ضمن ثوابت كثيرة في التاريخ اليمني القديم، معلومة بشبه تواتر أو متواترة عن العرب القدماء, وعن ملوك وحكام اليمن .

فيما أثر عن عبيد بن شرية فيما كتبه أو نقله هشام بن الكلبي وأمثاله, وحفظه لنا مثل كتاب: المحبّر أو كتاب المسعودي مروج الذهب و المقريزي -وقد نقلنا بعض النقول من ذلك- نأخذ من ذي القرنين إشارة إلى أن مُلكاً عظيماً كان لهذه الأمة، لم يكن حادثاً منفصلاً؛ بل جزءاً من تاريخ.

كذلك ما ذكر الله تبارك وتعالى عن تبع وقومه جزء من تاريخ طويل جداً وعظيم، وما ذكر أيضاً عن أصحاب الأخدود، وما ذكر أيضاً عن سبأ وملكها وعظمة عرشها، وما نقل عن الجنتين وعن السد, وعن التواصل الحضاري ((وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ)) [سبأ:18], هناك إشارات كثيرة في القرآن واضحة وجلية إلى أمة متحضرة.. إلى رقي.. إلى تواصل مع أنحاء العالم كله، كل ذلك ممكن أن نجعله الأسس الثابتة والقوية للتاريخ اليمني الشامل العام، ثم بعد ذلك نسد هذه الثغرات -التي قد تبقى فيه- نسدها بما ثَبت.

أولاً: نبدأ بالأحاديث الصحيحة، ثم ننتقل بعد ذلك إلى أقوال العرب الثابتة، وما ذكروا في شعرهم, وما ذكروا في أخبارهم عن هذه الأمة العظيمة، وما توارثوه من قبل؛ فنشكل تاريخاً فيه الحق وفيه الظن, وطبيعة التاريخ هكذا، طبيعة التاريخ أنه ليس كل ما فيه يقين, وإنما فيه ما هو ظني؛ لكن لا يوجد ما ينفيه.

حقائق كبرى تناقض النظريات التاريخية عند الغرب

هنا سنجد أنفسنا أننا أمام الحقائق الكبرى التي اعترف بها بعض المتجردين من المؤرخين، على سبيل المثال: المؤرخ المشهور -وهو على مستوى عالمي- جورج سارتون لما تحدث في كتابه تاريخ العلم يقول: لقد سبق للعرب أن قادوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الإنساني طوال ألفي سنة، يعني: على الأقل قبل اليونان ثم في العصور الوسطى، يقول: ولا مانع من أن تجتمع هذه الشعوب وتقود العالم مرة ثالثة.

وهذه كلمة منصفة من رجل في مثل هذه المكانة التاريخية والعلمية.

قيادة جزيرة العرب كموطن لهذا الدين, ولهذه الحضارة، والجانب الأكثر تحضراً منها وهو اليمن ؛ أن تقود البشرية قبل اليونان ولمدة ألفي سنة، هو يتناقض تماماً مع أكثر النظريات التاريخية، التي تبدأ تؤرخ بكلام اليونان! وكأنما تؤرخ من اليونان، مع أننا نعود ونذكر الإخوة الكرام بما قلناه وهو أن: التاريخ اليوناني والنظريات اليونانية والفكر اليوناني إنما ابتدأت في القرن السادس قبل الميلاد!

وهنا تعجبون وتقولون: كيف يقارن بين حضارة نشأت في القرن السادس قبل الميلاد، وتعتبر أصل الحضارات في العالم، وبين حضارة قيل: إنها نشأت في الألف السادس قبل الميلاد! يعني: الحضارة اليمنية في الألف السادس أو السابع قبل الميلاد؟

ثم أيضاً هناك شيء عجيب! كيف تنسب الحضارة إلى هذه الأمة المتأخرة؟! ونحن قد اكتشفنا وامتلأت الدنيا من هذه الكشوفات؛ بأن هناك لغات وحروفاً وأمماً وأبجدية -كما تسمى- قبل التاريخ بآماد بعيدة.

يمكن أن نمثل لهذا مثلاً بآثار أوغاريت أو راس شمره في الشمال الغربي من بلاد الشام ، هناك اكتشفت حضارة تعود إلى الألف السابع قبل الميلاد، العجيب ليس هذا، ليس كلامنا عن ما أثبته الباحثون من قدم حضارة أوغاريت, الأعجب من هذا أن أصلها حضارة عربية يمنية قديمة! انتقلوا من اليمن إلى هناك, واكتشفت الآثار هناك، ولم تكتشف الآثار الأقدم الموجودة في اليمن نفسها حتى الآن, وقد تكتشف.

بداية اللغة العربية من الحضارة اليمنية

ونجد أن الأبجدية أو الحروف بدأ بها من هناك, وهي قبل ألوف من السنين عن بداية اكتشاف ما

ينسب إلى الحضارة اليونانية، يعني: في إمكاننا لو جمعنا كل اللغات الآثارية القديمة -مثلاً: اللغات الآكادية.. اللغات السريانية والآرامينية, اللغة العبرية.. اللغة العربية- نستطيع أن نقول: إن اللغة العربية هي الأساس، وأنك من خلال المعاجم العربية الموجودة الآن بين يدي طالب اللغة العربية -سواء كان عربياً أو غير عربي في العالم- من خلال هذه المعاجم: تستطيع أن تقرأ وأن تفك أي رمز من الرموز القديمة؛ بأسهل بكثير من أن تفترض أبجدية أخرى أو لغة أخرى.

على سبيل المثال: نجد أن الحضارة المصرية أو ما يسمى بالحضارة الفرعونية ذاتها نجد أن كوستاف جيكي وهو من المؤلفين لتاريخ المدنية المصرية يقول: إن سكان مصر القدماء جاءوا إليها من جزيرة العرب قبل ستة آلاف سنة، وإن الأسر الفرعونية الأولى هي من هؤلاء القادمين.

وهذا يتطابق مع ما يوجد في المصادر العربية من تسمية الفراعنة كما في كتاب: المحبّر ؛ فنجد أن الفراعنة أنفسهم القدامى يسمون فيقال: إن فرعون إبراهيم اسمه كذا مثلاً, وفرعون يوسف هو الريان، وفرعون موسى عليه السلام اسمه الوليد بن مصعب! يعني: أسماء عربية ثم مع الزمن تتغير، كما قال الدكتور أو العالم أحمد كمال : أصل اللغة المصرية هو أصل اللغة العربية؛ لكن التغييرات التي طرأت على اللغة المصرية هو مثل أي تغيير يكون نتيجة القلب أو الإبدال أو اللغة عندما تستخدم في حالة التعامل مع الأجانب.

ولذلك أصبحت توضع جداول الآن بالمقارنة بين اللغة المصرية أو اللغة الفرعونية أيام الفراعنة وبين اللغة العربية القديمة، فنجد أن هذه أسهل طريقة لفك الرموز.

كذلك في بلاد الرافدين -وقد أشرنا وألمحنا إلى نماذج من ذلك- تجد أن اللغة العربية القديمة هي التي يمكن أن تفكك وأن تحل هذه الرموز، بمعنى آخر: أن هذه شعوب عربية قديمة، قد تنتمي للعرب العاربة أو العرب الهالكة من مثل عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق وأشباههم، وأن هذه الأمم تناسلت وتكاثرت ثم اختلطت بالشعوب الأخرى أو بالحضارات الأخرى، في شرق البحر الأبيض المتوسط أو في جنوبه، ونتج عن هذا الاختلاط حضارات جديدة أخرى مدمجة مختلفة، لا يمنع أن تنشأ لغات بعد ذلك أخرى؛ ولكن المقصود هو أنك بإمكانك الرجوع إلى الأصل العربي الموجود الآن حالياً، أو في إمكان أي باحث علمي أن يرى تلك الحقيقة، وليس في إمكان أي باحث آخر أن يأتي إلى اللغات القديمة إلا من هذا الباب إلا بتعسف.

عندما ننظر ونقول: إن اللغة العبرية جُعلت مدخلاً؛ لأن الباحثين اليهود بالذات ركزوا على أن

يسموا هذه الشعوب: الشعوب السامية, وأن يجعلوا ما في التوراة هي المرجع الوحيد والأصيل لأبحاثهم، وهم كثرة كاثرة, وتكلم عن هذا عدد كثير منهم طه الباقر و محمد عزت دروزة في تاريخ الجنس العربي , وغيرهم من الباحثين، أكدوا أن هؤلاء متعصبون, وأن نظرتهم متعصبة وسياسية ومؤدلجة.

في إمكاننا أن نثبت أو أن نؤكد هذه النظرية من خلال قصة مشهورة عن بعض الباحثين الذين يأتون لبلاد اليمن ، عندما يأتي إلى بلاد اليمن وينقبون بالخط المسند، يحاولون أن يفسروا أي كلمة أو أي عبارة بما يتفق مع التوراة ، مثل ما حصل مع وندل فليبس الذي كان دائماً يجد كلمة: علي -واسم علي معروف قديم في اليمن- فكان يترجم كلمة: علي بأنها: إيلي؛ فتصبح كأنها: الله! ويقول: هذه كلمة عبرية, وهذا دليل على أن بني إسرائيل عاشوا أو نشأوا في اليمن ، باعتبار كلمة: إيلي أو إيل كلمة عبرية.

فلننظر إلى هذه الكلمة نفسها (إيل) أو (إل) أو (إيلي) هي كلمة عربية قديمة وفصيحة، يعني: مستعملة أيضاً, وقد جاء في كلام أبي بكر رضي الله تعالى عنه [لما قال له قوم مسيلمة : إنه نبي. قال: ائتوني بشيء مما يزعم، فأخذوا يقرءون عليه: والطاحنات والعاجنات.. إلى آخر الهراء. فقال: والله ما خرج هذا الكلام من إل]. من (إيل) أو من (إل), يعني: بمعنى من إله، أي: لا يمكن أن يكون هذا من كلام الله تبارك وتعالى.

وإلى الآن كلمة: (بعل) أو كلمة: (إل) في التاريخ القديم ممكن أن تفهمها أو أن تعرف كلمة عربية قديمة معناها الإله.

أشهر ما تذكر فيه هذه الكلمة هو طبعاً عندما ينسبون إلى المصلوب الذين يدعون أنه المسيح ((وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ))[النساء:157], يزعمون أنه قال: إيلي إيلي لما شبكتني. ومعنى ذلك: يا إلهي! يا إلهي! لماذا شبكتني؟! يعني: لماذا أوقعتني في الشَّبَك.. أوقعتني في الفخ.

الجملة كلها عربية, وهي دلالة على لغة المسيح عليه السلام وبني إسرائيل -كما سنوضح إن شاء الله في لقاءات لاحقة - أن المسيح عليه السلام كانت لغته هي اللغة العبرية لا اليونانية ولا غيرها من لغة الأناجيل، العبرية التي هي فرع من اللغة العربية، وأن لغة إبراهيم عليه السلام كانت هي اللغة العربية كما قرر الأستاذ العقاد وغيره.

تقارب ملوك التاريخ الظني مع ملوك اليمن

نستطيع أن نقول: إنه حتى لو انتقلنا إلى التاريخ شبه الأسطوري -أو التاريخ الذي ليس يقيناً فلنقل التاريخ الظني- لو عملنا جدولاً بسلسلة ملوك وأنساب ملوك سومر مثلاً كما جاءت فيما بعد الطوفان؛ لأن قبل الطوفان أشبه بالتاريخ الأسطوري -أن ملكاً يحكم آلاف السنين!- لكن لو وضعنا سلسلة مقارنة بين ملوك سومر فيما بعد الطوفان وملوك اليمن ؛ نجد أنه تقريباً نفس الشيء!.

يقول المؤرخون المسلمون كما في كتاب: المحبّر للمؤرخ ابن الكلبي مثلاً يقول: إن قحطان حكم مائتي سنة ثم حكم يعرب بن قحطان مائتي سنة ثم يشجب إلى أن نصل إلى شداد بن عاد الذي بنى إرم ذات العماد, وهو الذي كان ملكاً على قوم عاد.

إذا وضعنا سلسلة لملوك سومر ولملوك اليمن نجد هناك تقارباً وتشابهاً؛ إن كان في المدد, وإن كان في طريقة الحكم!

لما يعتبر هذا كشوفاً تاريخية رائعة ومهيلة؟! ويعتبر ما يقوله ابن الكلبي مثلاً أو ما يقوله المسعودي في مروج الذهب أنه أسطورة أو ما يشبه الأساطير!

الحضارة اليمنية حضارة موثقة ومكتوبة

أيضاً هناك ما يؤكد أن الحضارة اليمنية حضارة موثقة مكتوبة -وهذا نستطيع أن نؤكده؛ لكن لا نريد الإفاضة أكثر مما ينبغي- نقول: مثلاً في كتاب: تاريخ دمشق -وهو قد حوى كثيراً من الكتب السابقة- كثيراً ما ترد مواضع أنه وجد حجر وقرئ بالمسند وفُك، وكان في أيام بني أمية -وفي غيرهم- مَن يفك رموز هذه الكتابة الموجودة على الحجارة.

في أول سيرة ابن هشام ينقل ابن هشام عن نسب قضاعة وأنهم يقولون:

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر قضاعة بن مالك بن حمير

النسب المعروف غير المنكر في الحجر المنقوش تحت المنبر

فهي أيضاً كانت حضارة كتابة, وكانت مكتوبة، وكانت أبجديتها بالفعل هي أقدم وأُولى الأبجديات.

كذلك عندما نجد مثلاً الحديث عن الأمم القديمة في أيام ذي القرنين ومن تبعه، نجد مثلاً من يتحدث -كما فعل المسعودي وغيره- أن بلاد التبت الغالب عليهم أنهم حمير، عندما يتكلم عن الانتشار

الذي حصل لملوك اليمن القدامى -كما في كتاب ملوك حمير وأقيال اليمن - الانتشار شرقاً وصل إلى الصين ويثبتون ذلك, وغرباً وصل إلى غرب أفريقيا ، وكل هذا العالم كان يُحكم من خلال اليمن , وكانت قاعدة حكمه هي اليمن .

نجد أنه يقول: إن التبت يغلب عليهم أنهم من حمير, وينقل أبياتاً لدعبل الخزاعي الشاعر المشهور يقول فيها:

هم كتبوا الكتاب بباب مرو وباب الصين كانوا الكاتبينا

إلى أن يقول:

وهم غرسوا هناك التبتينا

كان هذا معروفاً مشهوراً ودعبل الخزاعي كما هو معروف في القرن الثاني الهجري؛ أن البلاد هذه فتحت في أيام اليمن -يعني: ملوك اليمن القدامى- وأن هؤلاء يرجعون لأصول عربية قديمة.

هناك أيضاً بعض الشعوب الأوربية القاطنة في جنوب أوروبا , وكان لها حضارات في كريت وفي صقلية وغيرها، مما أكد أنهم كانوا من العرب القدماء؛ بل إن هناك من يقول: إن اليونان أنفسهم أصلهم من قحطان.

أما ما يتعلق بشمال أرمينيا إلى جبل أرارات فهناك أيضاً حقائق ذكرها اليونان والرومان وغيرهم؛ بأن هذه الشعوب هاجرت من اليمن -طبعاً الآن لا يتسع الوقت للإفاضة في ذلك- بل إلى القول بأن حتى الأسماء الحضارية وأسماء المدن أنها كلها ذات أصول يمنية عريقة.

توجيه ظاهرة القول بأن التوراة نزلت في اليمن

نشير فقط هنا في خاتمة هذا اللقاء إلى ظاهرة أشيعت وتُحدث عنها؛ وهي ما يتعلق بأن التوراة نزلت في اليمن ! من أين جاءت هذه الإشكالية؟!

جاءت لأنهم وجدوا أن الأسماء الموجودة في التوراة تتشابه كثيراً مع الأسماء اليمنية؛ فجاء مثل كمال الصليبي وغيره وقالوا: إن التوراة نزلت في اليمن !

الموضوع يطول شرحه؛ لكن نوجزه ببساطة؛ وهو القول الذي يؤكده التاريخ الإسلامي وهو: أن

الأسماء اليمنية كانت تنقل من اليمن إلى بلاد الشام وإلى غيرها؛ فأهل اليمن عندما نزلوا إلى الشام سموا المدن بالأسماء اليمنية، فيوجد صنعاء في الشام كما أنه يوجد صنعاء في اليمن ، عندما انتقل أهل نجران من نجران إلى الكوفة سموها النجرانية، وهكذا حتى بلاد الأندلس فيها هذه الأسماء التي كان الناس عندما يهاجرون إلى بلد يسمونه بأسماء بلادهم الأصلية.

فكل ما تثبته هذه الافتراضات إن صحت هي: أن المهاجرين والهجرات اليمنية كثيرة ومشهورة عندما هاجروا إلى هذه البلاد سموا هذه البلاد وهذه المدن بأسماء مدنهم الأصلية، أو هناك شيء من التشابه, فعندئذٍ لا يكون هناك أي دليل على أن التوراة نزلت أصلاً في اليمن ، ولا يترتب على ذلك أي إشكال تاريخي.

لعل وقت الحلقة انتهى، وإن شاء الله تعالى نكمل في حلقات قادمة مثل هذه القضايا.

ونسأل الله تبارك وتعالى أن ينفعنا وإياكم بما نسمع وما نقول؛ إنه سميع مجيب.

الجزء الثاني

بعد أن تحدث الشيخ في الحلقات الماضية عن مسيرة التاريخ الإنساني.. يتحدث الآن عن المعلم الثابت فيه وهو (النبوة) والأنبياء والرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم الذين اختارهم الله تبارك وتعالى، وبعثهم إلى الأمم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

في الحلقات 13-17 تحدث عن النبوة مبينا معناها وحقيقتها على ضوء المناهج الثلاثة:

-المنهج الإسلامي

-المنهج الكتابي المحرف

-المنهج اللاديني

ممهدا بذلك للحديث عن أبرز أحداث التاريخ العالمي.. وما هي النبوءات التي تحدث عنها الأنبياء؟! باعتبار أن النبوة إخبارا عن الغيب -كما في المنهجين الإسلامي والكتابي.

ثم بعد ذلك تناول سيرة الخليل إبراهيم عليه السلام باعتباره النموذج الأمثل والواضح في تاريخ النبوة والأنبياء عند أصحاب الملل الثلاث وغيرهم.

مؤكدا على أن عقيدة إبراهيم عليه السلام هي التي تجمعنا، وتجمع البشرية جميعا على توحيد الله تبارك وتعالى، وعلى هذه القبلة المشرفة المعظمة باستقبال بيت الله الحرام الذي تنطبق عليه الأوصاف الدقيقة المفصلة في كل كتب الله قديمها وحديثها.

الحلقة الثالثة عشرة: ثبوت النبوة

العناصر:

1.مقدمة

2.عظم شأن النبوة.

3.عظم ما جاء به الأنبياء صلوات الله عليهم.

- الانحراف وتشويه تاريخهم.

4.فلاسفة اليونان:

-العقل اليوناني

-أصل ما عندهم

5.علو الأنبياء وأتباعهم

ضرورة الحديث عن النبوة وعظم شأنها

الحمد الله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد: أيها الإخوة المشاهدون! السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فقد تحدثنا في اللقاءات الماضية بإجمال عن مسيرة التاريخ البشري، وعن النظرة إلى هذه المسيرة التاريخية الطويلة من خلال المناهج الثلاثة أو المصادر الثلاثة للمعرفة: الوحي المجرد المعصوم. الوحي المختلط المحرف. والنظرة اللادينية على اختلاف مدارسها واتجاهاتها. وكما قد وجدنا من يقول: إن هناك مرحلة هي ما قبل الأديان, أو تاريخ ما قبل الأديان التي ارتبطت -كما رأينا- بمرحلة ما قبل التاريخ. وكذلك نجد على الجانب الآخر من يرى أن هناك مرحلة أخرى؛ وهي مرحلة ما قبل الفلسفة، وهي ترتبط بما بعد التاريخ؛ ولكنها بما قبل ظهور الفلسفة؛ وبالذات في نظر الكثير من هؤلاء أو نظر أهل العلم المادي وجملة الغربيين ترتبط بمرحلة ما قبل تاريخ الفكر اليوناني، الذي يرون أنه قد حرر

العقل البشري من الأساطير والأوهام -في نظرهم وتقديرهم- وارتقى بالبشرية مرحلة أخرى هي: مرحلة الفلسفة. هنا نجد أنفسنا ومن خلال ما قد عرضنا من الأخطاء في النظرة التاريخية بهذه الطريقة، أو الأخطاء الكبرى أو ما نستطيع أن نقول: إنه الخرافة التي تُخيّلت عن تاريخ الإنسان؛ سواء من الناحية العضوية الحيوية البيولوجية، أو من الناحية الفكرية النظرية المعرفية؛ على كلا الأمرين قد قررنا -والحمد الله- وتبين لنا من خلال معالم كثيرة وشواهد التاريخ والحضارة، ومن خلال تكريم الله تبارك وتعالى، ومن خلال ميزات وخصائص الإنسان وغير ذلك مما تقدم؛ يتبين لنا أن تاريخ الإنسان أرقى وأسمى وأعلى من أن يفسر بهذه السذاجة والبساطة، بمرحلة ما قبل الأديان أو مرحلة ما قبل الفلسفة أو ما أشبه ذلك. هناك معلم مهم جداً من المعالم الثابتة في التاريخ الإنساني التي لا يجوز بحال إغفالها، وإن كان هنالك -للأسف الشديد- من يتجاهلها عمداً، ولا سيما في البحث اللاديني الغربي، وهو ما يتعلق بثبوت النبوة, وظاهرة الأنبياء والرسل الكرام؛ الذين اختارهم الله تبارك وتعالى، وبعثهم إلى الأمم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور. النبوة شأنها عظيم, وهي مما لا يخضع لكثير من التقديرات البشرية أو الحسابات الأرضية أو المعايير التي قد يظنها الحكماء أو الفلاسفة أو غيرهم، إلا لمن أذعن قبل ذلك كله بأن الله تبارك وتعالى الذي خلق هذا الكون جميعاً وخلق البشرية جميعاً؛ خلقها بعدل ورحمة وخير وحكمة، وأنه يختار لها من يدلها على طريق الخير.

بعثة الأنبياء

فهذا الكون له مغزى عظيم وحكمة عظيمة، والوجود الإنساني هو أعظم ما في هذا الكون؛ فلا بد أن له حكمة عظيمة جداً، ومن هذه الحكمة لا يليق بالخالق العظيم المتصف بالجلال والعدل والخير والرحمة أن يدع هذا الخلق المكرم وهو الإنسان ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ))[الإسراء:70], ولا أن يجعله من غير نور يهتدي ويقتدي به في ظلمات الحيرة.

ثبوت نبوة آدم

وقد لاحظنا وأثبتنا -والحمد الله- أن الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام كان نبياً مُكلَّماً يوحي إليه الله تبارك وتعالى، وخاطبه ربه عز وجل، ومِن بعده ظلت البشرية على هدى الوحي, وعلى هدى النور والخير حتى وقع فيهم الشرك.

أول الرسل إلى البشرية

في مرحلة سحيقة من التاريخ لم يدركها هؤلاء, افترضوا أنها مرحلة ما قبل التاريخ -أو يفترضوا ما شاءوا في مرحلة سحيقة من التاريخ القديم الثابت-, والذي تؤيده الشواهد يوماً بعد يوم من الأثريات والحفريات وغير ذلك؛ وُجدت أو جاءت ظاهرة النبوة لعلاج مشكلة الانحراف البشري؛ فكان أول الرسل كما هو ثابت في التاريخ الإسلامي بوضوح جداً في القرآن وفي السنة وفي اعتقاد المسلمين جميعاً، وكما يمكن أيضاً أن يكون ثابتاً -وإن لم يكن بتلك الميزة والقوة والظهور- في التوراة -الكتاب السابق- فنوح عليه السلام هو أول الرسل الذين أرسلهم الله تعالى، ومن ثَمّ فإنه يتصف أيضاً بأنه الأب الثاني للبشرية؛ إذ جاءت مرحلة ما بعد الطوفان، فكان من جاء من البشر من بعد هذه المرحلة هم من ذرية نوح عليه السلام.

سنة الخلاف بين الأنبياء ومناوئيهم

من هذه الحقيقة ثم ما تلاها من حقائق، يظهر أن الله تبارك وتعالى لم يدع البشرية على الإطلاق في يوم من الأيام بغير هدى وبغير نور: ((وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فِيهَا نَذِيرٌ))[فاطر:24]؛ لكن الناس ينحرفون، ويضلون، ويحرِّفون ما جاءت به الأنبياء, وما جاءت به الرسل، والناس بالجهل وبالانحراف وبتأثير شياطين الإنس والجن, وبتأثير الطواغيت المتجبرين المتكبرين في الأرض؛ لا يفرقون بين النبي وبين مجرد الفيلسوف أو الحكيم أو الرجل ذي الشأن، أو من يطلب الشهرة, ومن يطلب المنصب, وما أشبه ذلك.

وهكذا في كل مرحلة من مراحل التاريخ نجد الصراع الشديد والخلاف القوي بين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وبين مناوئيهم ومخالفيهم من الجبابرة؛ من الملأ المستكبرين المتسلطين في الأرض، من المشعوذين والدجالين والكهنة من السحرة، إلى أن جاء نور الإسلام وجاء محمد صلى الله عليه وسلم فجاء بالدين العجيب.

الذي سبق أن أوضحنا مظهراً من مظاهر العجائب فيه؛ وهو أن المعجزة الكبرى فيه مع كثرة الآيات والبراهين الدالة عليه أن وحي من الله تبارك وتعالى.

وهنا نجد أن الإسلام يرجع الأمر كله إلى المعرفة، فالوحي يُعرف وتَتجدد معرفته, ويتجدد إدراكه على مدار القرون؛ فإذاً: هذه أعلى حالة يصل إليها العقل البشري والإنسان، وهو: أن يكون إيمانه من خلال المعرفة، ومن خلال العقل, ومن خلال الدليل, ومن خلال البرهان، وإن كانت الآيات

المادية والحسية موجودة في الإسلام, وهي موجودة للأنبياء السابقين صلوات الله وسلام عليهم.

تعظيم شأن الأنبياء وعلو منزلتهم

النبوة شأنها عظيم؛ لأنها تخرج عن نطاق ما يمكن للعقل البشري أو العلم البشري أن يصل إليه، ومن هنا نجد التعظيم الجليل للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لدى كل البشر، لدى النفوس البشرية قاطبة, التعظيم لهم والتعظيم لعلومهم؛ لأن هذه العلوم خارجة عن أن تكون من نطاق ما يمكن للبشر أن يحصّلوه أو يكتسبوه أو يأتوا به.

والله سبحانه وتعالى جعل للأنبياء الكرام -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- من الميزات في خَلْقهم وخُلُقهم وأفعالهم وأعمالهم وما يدعون إليه ما يبهر العقول! وما يجعل أكبر النفوس تنقاد صاغرة إلى القول واليقين بتصديقهم؛ حتى أعتى الفراعنة أو المتسلطين أو الطواغيت قال الله تبارك وتعالى فيهم: ((وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا))[النمل:14], حتى عند المناظرات، كما حدث في المناظرة بين الطاغية المتمرد المتجبر على الله تعالى وبين إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه؛ والتي ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة وغير ذلك.

المقصود: أن هذه الصفات العظيمة الجليلة لا تقتصر على ما لدى الأنبياء من العلوم ومن المعارف، ولا ما لديهم من الفضيلة والطهارة والخلق؛ بل تشمل جوانب كثيرة جداً؛ بحيث لا يشتبه على الإطلاق النبي الذي يرسله الله تبارك وتعالى ويوحي إليه بأي رجل آخر ممن يدعي أن لديه خارقة أو معجزة أو حكمة أو فلسفة أو أي نظرية من النظريات التي تظهر في القديم والحديث.

جعل الله تبارك وتعالى هؤلاء البشر المختارين المصطفين أصدق الخلق وأبرّ الخلق وأرحم الخلق وأعدل الخلق، جعلهم تبارك وتعالى أبعد الخلق عن العمل لحظ النفس أو لأجل الجاه أو لأجل المطامع الدنيوية الحقيرة القليلة، جعلهم نموذجاً في البرِّ وفي الطهارة وفي التعامل الأفضل وفي حسن الخلق، في الحث على الإطعام، وعلى الإنفاق على المسكين والأرملة والفقير، والرحمة بكل من يحتاج إلى الرحمة من عباد الله تبارك وتعالى، حتى من الطير أو الحيوان أو الوحوش أو ما أشبه ذلك، فجعلهم نموذجاً فريداً.

لو أن المتلمس أو المريد لأن يكون مثلهم حاول واجتهد لما استطاع أن يكتسب هذه الفضائل، إلا في جوانب منها ولا يبلغ مرتبة الأنبياء قط!

معاداة الأنبياء والقول بأن ما أتوا به ضرب من الشعوذة

فكيف بمن يعاديهم أو ينابذهم أو يناوئهم؟! فكيف بمن لا يتفق معهم في شيء إلا ما يزعمه مما يظهره البعض فيقول: إنه خوارق أو معجزات؟! مثل: ما يفعله المشعوذون والسحرة والكهنة، وقد يتحدون به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ كما فعل فرعون والسحرة في ظنهم أن بإمكانهم أن يتحدوا آيات الله، وكما فُعل أيضاً في أيام المسيح عليه السلام، وكما أراد مسيلمة أن يأتي بشيء من مثل القرآن؛ ولكن الفرق يظل جلياً واضحاً، بحيث لا يمكن أن يختلط إلا لو اختلطت الشمس في رابعة النهار بالظلام في الليل، فالأمر والفرق كبير جداً.

لا حاجة في الحقيقة إلى الخوض الذي خاضه المتقدمون من علم الفلسفة, وعلم الكلام في مسألة الخوارق أو المعجزات, وهل تشتبه أو تختلط الآيات والبراهين؟! لأن الله لم يسمها معجزات؛ بل سماها آيات وبراهين تدل على صدق الأنبياء، لا يمكن أن تختلط بما يفعله المشعوذون أو الكهان أو الدجالون؛ إلا على أعشى البصر والبصيرة, الذي لا يستطيع أن يميز بين هؤلاء وبين هؤلاء.

وعندما نتكلم نحن في هذا الزمن حيث ارتقت العلوم والمعارف والفلسفات, وحيث ابتعد الناس حقيقة عن الإيمان بالخوارق أو المعجزات؛ نجد أن المعجزة النبوية أعظم وأعظم؛ فيما جاء به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهي أكمل ما تكون فيما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

الدعوة التي بعث بها الأنبياء

ومع ذلك فلننزل إلى التاريخ القديم, وننظر ما الذي جاء به الأنبياء الكرام! ننظر من خلال الكتب السابقة للقرآن؛ وننظر أيضاً من خلال ما أثر أو نقل من الآثار المكتوبة أو المنقوشة وما أشبه ذلك.

نحن نجد أن هناك مادة عظيمة جداً تدلنا على أمر جاء, وتوضح في القرآن بأجلى ما يكون؛ لكنه قائم وقديم منذ القدم, وهو: أن الأنبياء جميعاً دعوا إلى نبذ عبادة ما دون الله تبارك وتعالى، ينبذون عبادة ما سوى الله, ويرفضون الشرك بالله تبارك وتعالى، ويحقرون عبادة الأصنام أو الحيوان أو مظاهر الطبيعة كما يسمونها, وما أشبه ذلك.

جاءوا بألا يعبد إلا الله تبارك وتعالى, ونحن نستطيع أن نستشف هذا من أخبار كثيرة للأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم في العهد القديم، وأجلى ما يكون ذلك -كما قلنا- في القرآن.

إذاً: كل من يريد أن يكتب عن الأنبياء مع الإقرار بنبوتهم يلاحظ هذا الملحظ؛ أنهم يعترفون بأن المعبود الخالق تبارك وتعالى واحد لا شريك له، وأنه لا نسبة على الإطلاق بينه وبين شيء من مخلوقاته, أو ما عبد من دونه تبارك وتعالى.

فلذلك نجد أن هذا الركام الهائل من الأصنام والمعبودات والوثنيات التي تنقل عن الأقدمين -عن بابل سومر، وعن القدماء في الحضارات الشرقية والغربية, وفي الشرق الأوسط, وفي الصين وفي الهند, وفي أمريكا الجنوبية والوسطى وغير ذلك- كل هذا الركام والخرافات والأساطير انحطاط بالعقل البشري إلى ما هو أدنى وأقل من العقل البهيمي؛ وانحطاط بالعقل البشري من أن يكون مستنيراً بنور معرفة الله تبارك وتعالى؛ إلى أن يعبد ما يصنعه وينحته بيده من الحجارة أو من الخشب وما أشبه ذلك، وهذا بلا شك فارق عظيم جداً بين الارتفاع والسمو والرقي الروحي والأخلاقي والديني لدى البشرية، وبين ما عدا ذلك من الهبوط في دركات الانحراف العقلي والروحي والخلقي في دركات دنيا مشاهدة لدى كثير من الشعوب؛ تنشأ عنها في النهاية المظالم والمفاسد العظيمة جداً؛ لأن أعظم أنواع الظلم هو الشرك بالله تبارك وتعالى، ينشأ من ذلك أن يتسلط الجبارون والمتكبرون والطغاة والمتمردون على الله؛ لأنهم يرون أنهم -وهم بشر- أعظم من أن يكونوا كهذه الجمادات، فيدعون الألوهية -تعالى الله عما يشركون- ويتسلطون على الأمم، ويسفكون دماء الشعوب ويدمرون الحضارات.

وهكذا تصطرع البشرية وتصطخب, ويموج بعضها في بعض بألوان من الأحداث والفتن، وأنواع من الظلام والدمار الخلقي والروحي، وكل ذلك ناشئ عن الشرك بالله تبارك وتعالى، ومن ترك ما جاء به الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم من الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له, وألا يعبد شيء سواه تبارك وتعالى، فكل ما عدا الله فهو مخلوق, وهو مربوب, وهو خاضع لله تبارك وتعالى.

نظرة في علوم الأنبياء وغيرهم من الفلاسفة

نسبة ما جاء به غير الأنبياء إلى ما جاء به الأنبياء

ومن هنا نجد أن نسبة علوم الأنبياء أو ما جاء به الأنبياء كما عبر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تبارك وتعالى عليه: ما جاء به غير الأنبياء إلى ما جاء به الأنبياء كنسبة أي شيء أو أي رقم أو أي

علم من العلوم إلى ما لا يتناهى, فمثلاً: في علم الرياضيات نسبة أي رقم إلى ما لا يتناهى أو إلى النهاية معروفة! صفر ليس شيئاً.

بمعنى: أن ما جاء به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فيما يتعلق بأشرف أنواع العلوم والمعارف، وهو معرفة الله تبارك وتعالى، فهو أعظم من أن يأتي به غيرهم وأجل وأسمى, وبمعنى آخر: يلزم من ذلك أن يكون ذلك أعظم مطلب تسعى إليه البشرية! فعلى البشرية أن تجتهد في معرفة علوم الأنبياء، وما الذي جاءوا به؟ وكيف ترتقي إلى درجتهم ومرتبتهم؟

ومن أشد ما يُرتَكب في حق البشرية من الإجرام أن يحرّف الوحي الذي جاء به الأنبياء، وأن يُغيّر عن منهجه وأن يساوى بعد ذلك، أو كما وقعت في كثير من الأمم المساواة بمجرد رؤية الفلاسفة أو الحكماء أو ما أشبه ذلك، وهذا حدث مع أهل الكتاب -كما سوف نبينه إن شاء الله- فما بالك بغيرهم.

ظهور العلوم التي جاء بها الأنبياء على غيرها مهما كان

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يأتون إلى هذه الدنيا, يرسلهم الله تبارك وتعالى ويبعثهم ليقدموا للبشرية النموذج الذي لا يمكن أن يأتي أحد بمثله في التعامل, وفي حسن الخلق, وفي العدل وفي الرحمة، ومع ذلك يُؤيدون ببراهين لا يمكن لأحد أن يأتي بها على الإطلاق مهما ادعى ذلك.

ثم تأتي القضية الثالثة المهمة جداً وهي أن الله تبارك وتعالى ينصرهم على من خالفهم وعلى من ناوأهم، وتظل ذكراهم خالدة مدى الدهور لا يدانيها ولا يقاربها أحد على الإطلاق.

فمهما تحدثنا مثلاً: عن ملوك الحضارات القديمة, عن التجار, عن الأدباء, عن الكتاب، أياً كان من هذه الصفات فلا أحد حظي أو يحظى قط بمثل منزلة ودرجة ورتبة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ ولذلك من أكبر الأخطاء التي تقع فيها تلك الأمم أن تنحط من مقام النبوة إلى مجرد أنهم حكماء أو فلاسفة أو ما أشبه ذلك، فهذا من عدم تقديرهم على حقيقتهم.

نقول: تبقى ذكراهم خالدة.. تبقى آثارهم خالدة.. تبقى علومهم وما بينوا وما أرسوا للناس أسمى منار يمكن أن يهتدي به البشر.

هناك بشر لهم تأثير كبير في تاريخ البشرية، ولهم أثر عظيم في مسارها الخلقي وسموها ورقيها الروحي، ولكن كثيراً من الناس يشتبه عليهم الأمر؛ لأنه بفعل تأثير الانحرافات والتشويه وما حدث

من أعدائهم وما حدث من أتباعهم من الضلال اختلطت! أصبحت دعوتهم وما جاءوا به كأنما هو أفكار فلسفية أو آراء بشرية؛ ولذلك نجد على سبيل المثال أن النبوة في الحضارات الشرقية كـ الصين و الهند و اليابان أصبحت أشبه ما تكون بمجرد حكمة! فـ بوذا عند أكثر هؤلاء ليس بنبي يوحى إليه, وإنما هو مجرد حكيم، نحن لا يهمنا شخص بوذا مَن هو؟ لكن الذي يهمنا أنه لا بد أن هناك أنبياء، وأنهم قد بعثهم الله تعالى، فليكن اسمه ما كان؛ فهذا لا يهمنا, فليكن تاريخه ما كان؛ فلا يهمنا كذلك، أما أن يكون التاريخ البشري هو مجرد حكماء يُسمى أحدهم أو بعضهم بوذا فقط؛ فإن هذا بلا شك خطأ مناف للحقائق التاريخية والحقائق الإيمانية عند المؤمنين؛ فهذا نوع من أكبر أنواع التشويه لتاريخ النبوة والأنبياء في هذا الجزء من العالم.

في المرحلة المتأخرة أو في العالم الغربي نجد مثلاً: سقراط، يذكرون أنه نبذ الآلهة, وأنه رفضها, وأنه حذر اليونان منها؛ لكن لا يثبتون أنه نبي، -نحن لا يهمنا أيضاً أن يثبت أو لا يثبت؛ لأن ثبوت نبوة أي أحد إنما تثبت بالدليل الصحيح الشرعي, أو بتواتره عند أمة من الأمم, مثلاً: عند أمة الفرس أو غيرها- لكن المقصود أن نقول: أياً كان اسمه فإنه ما تكلم به فلان من الناس -أو من قبله أو من بعده- فهو من آثار النبوة, كما يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه: لا يخلو العالم من آثار النبوة أبداً! ومن أعظم آثار النبوة نبذ الشرك ونبذ عبادة غير الله تبارك وتعالى.

العلوم التي جاء بها غير الأنبياء

العجب ليس هذا فقط، العجب هو ما الذي جاء به الآخرون الذين نُصِّبوا وجعلوا وكأنهم معالم أو هداة في التاريخ البشري، كما حدث على سبيل المثال لبعض فلاسفة اليونان.

إذا نحن نظرنا من خلال تاريخنا المعاصر التاريخ الحي؛ الذي نحن نقرؤه الآن وقد كثرت شواهده واستفاضت, وانتشرت بين البشر بما لم يكن من قبل؛ فإننا نجد أن فلاسفة اليونان كانوا في حالة يرثى لها في أمور كثيرة، -وقبل أن نبين ذلك قد يظن البعض أن هذا على سبيل الانتقاص أو الاحتقار، نحن نقررها وهذا ما قرره علماء الإسلام من قبل-.

نقول: إن ما يتعلق بالعلوم الطبيعية أو الفلكية أو الرياضيات أو ما أشبه ذلك، فهذا لا إشكال فيه, وليس الكلام في هذه الأمور، الكلام فيما يتعلق بالله، فيما يتعلق بمعرفة الله تبارك وتعالى وهي أجل أنواع العلوم والمعارف، فيما يتعلق بالدار الآخرة, وأيضا فيما يتعلق باستقامة الفكر الذي تنتج عنه هذه العلوم الأرضية والعلوم البشرية.

مع الأسف نجد أن الفلسفة اليونانية بجميع مراحلها وإن كانت تُعد في نظر هؤلاء المفكرين الماديين أعظم المراحل أو هي النقلة للتاريخ الإنساني والبشري من مرحلة ما قبل الفلسفة إلى مرحلة الفلسفة التي هي عندهم مرحلة النور، عندما نجد من يكتب عن مراحل ما قبل الفلسفة في الفكر الغربي، يُذكر أن هؤلاء نقلوا العالم إلى مرحلة الفلسفة، وهي مرحلة الدليل العقلي والاستنباط والبينات والبرهان، وما قبلها في نظرهم مرحلة خرافة!

هل هذا الكلام صحيح؟! ماذا نجد إذاً؟!

نجد أن فلاسفة اليونان بينهم أولاً من التناقض والاختلاف الشيء الكثير جداً - الذي نأتي عليه إن شاء الله في موضعه- بل هناك مدارس مختلفة اختلافاً شديداً؛ ف أفلاطون مختلف عن أرسطو ، و أرسطو اختلف عليه من بعده، فليس هناك منهج جامع يجمعهم، ولو نظرنا إلى أفضل ما جاءوا به فهو في العلوم التي يمكن أن يباريهم فيها أي إنسان! وهي كما قلنا نظرات في الطبيعة أو الطب أو في الفلك، والآن العلم البشري بل قبل قرون من الآن تجاوز علوم اليونان هذه؛ بل المسلمون العرب تجاوزوها بكثير في أيامهم، إذاً هذه لم يعد لها قيمة.

لكن فيما يتعلق بالله وفي معرفة الله تبارك وتعالى نجد أن أرسطو ومن قبله ومن بعده وتلامذتهم كانوا منحطين إلى درك الشرك، كانوا يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله تبارك وتعالى، كانوا يعتقدون في الموتى وفي الأضرحة والقبور مثلما يفعل المشركون من أهل الكتاب وغيرهم، كان أولئك الأقوام وأولئك الفلاسفة يعبدون الجن، ويسمونهم الآلهة وعندهم في جبل الأولمب في اليونان هذا يسمونه جبل الآلهة، فكثير منهم يقول: إنه يرى الآلهة وأنه يدعوهم، يؤمن بالخرافات الكثيرة جداً عن صراع الآلهة, وأن بعض الآلهة أقوى من بعض, وهكذا منحدرات من الشرك الذي يترفع عنه أدنى عاقل من أتباع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وهؤلاء الذين يظهرون لهم ويتصورن لهم ويحدثونهم إنما هم من الشياطين من الجن الذين يعبدونهم, والذين أضلوهم كما أضلوا غيرهم من الأمم، فلم يكن أي فرق بين هؤلاء وهؤلاء، السحر والشعوذة والكهانة والدجل الذي نجده عند الحكماء العراة من الهنود وأشباههم، موجود ولكن بعد آلاف من السنين وبأنواع أيضاً من التحريف والتبديل بذاته وبنصه عند كثير من حكماء أو فلاسفة اليونان؛ على اختلاف مدارسهم وعلى اختلاف مناهجهم.

ما يمكن أن يعتبره المفكرون الماديون إنجازاً للعقل اليوناني هو أن يأتي من يرفض الغيب جملة،

ونحن في الحقيقة لم نجد هذا, نقول: من خلال القراءة المستقرئة للفكر اليوناني لا تجد من ينكر الغيب جملة كما يتخيل أو تخيل بعض فلاسفة عصر التنوير في القرن السابع عشر والثامن عشر في أوروبا ! إنما يوجد على سبيل المثال من يفسّر الكون ونشأة الكون تفسيراً مادياً بحتاً، أي: لا يفترض أن الله تعالى هو الخالق؛ بل يأتي بتفسير يختلف عن رواية سفر التكوين في التوراة ، ويختلف أيضاً عن الروايات عن بابل وعن سومر وعن أشباهها في كيفية الخلق أو كيفية ما بعده من أحداث كالطوفان مثلاً، فاعتُبر طاليس أو غيره الذين قالوا: إن العناصر الأربعة هي التي تكوّن منها الكون, وأنهم لا يفترضون أن خالقاً خلقها وهي: النار والماء والهواء والتراب.

هذه نظرية مادية جديدة, واعتبروها فتحاً عظيماً في التاريخ الإنساني كما يزعمون، وقال بها أصحابها في القرن السادس والخامس قبل الميلاد أو السابع قبل الميلاد، بمعنى آخر قبل غزو الإسكندر بقرنين أو ثلاثة، وبناء على ذلك يظنون أن هذه أول نقلة في التاريخ من النظريات الغيبية أو الخرافة إلى الانتقال للفكر العلمي!

حقيقة الأمر أنه لا يوجد بهذا المصطلح بهذه الدقة أي شيء من ذلك.

كل هذه النظريات التي ورثها اليونان من الثابت ومن المؤكد أنهم مسبوقون بها وإليها، ونجد أن من الكلام العظيم الدال على عظم العلم وسعة الاستقراء؛ أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه يذكر أن هذه العلوم اليونانية منقولة عن أهل الكتاب وغيرهم من الذين جاءوا بعد سليمان عليه السلام، يعني: في القرن العاشر قبل الميلاد، بعده بأربعة قرون عندما أخذ الناس عنه وعن الأنبياء الآخرين صلوات الله وسلامه عليهم علماً وتنويراً حقيقاً، ولكن حُرِّفت وطُمست؛ فنجد بعدهم بأربعة قرون يظهر هذا الفكر اليوناني؛ من خلال دراسات أهل الكتاب المنحرفين الذين نجد أنهم في التوراة نفسها -كما سوف نرى إن شاء الله- يعتبرون سليمان عليه السلام موصوفاً بصفتين: أنه ملك، وأنه حكيم, ولا يذكرون له صفة النبوة على الإطلاق!

فهذا الانحراف ولد عند اليونان -وهم لا يريدون أن يعترفوا أو يقروا لغيرهم بعلم خارق للعادة وخارج عن المألوف- فأخذوا هذا ونقلوه من العبرية وغيرها من اللغات إلى اللغة اليونانية، وأصبحت كثير من المصطلحات في اللغة اليونانية والفلسفة اليونانية نستطيع أن نرجعها إلى أصولها العربية، إما عن طريق اللغة العبرية, وإما عن طريق غيرها من اللغات.

الموقف من المقارنة بين ما جاء به الأنبياء وما جاء به غيرهم

يتبين بذلك أن المقارنة -التي مع الأسف وقع فيها كثير من الناس ولا يزالون- بين معارف وعلوم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وما جاءوا به، وبين ما جاء به اليونان وغيرهم ومن بعدهم من الفلاسفة -حتى من يُدعون: الفلاسفة الإسلاميين- مقارنة جائرة وغير صحيحة, إلى حد أن الذين يدّعون الحكمة المشرقية أو الإشراقية مثل: الرازي وأتباعه و ابن سينا ، أو من جاء بعد ذلك بحكمة أرسطو مثل ابن رشد وأتباعه.. فكلا المجموعتين وقعتا في خطأ مشترك وضلالة كبيرة جداً في المنهجية العلمية البحثية؛ فضلاً عن القضية الإيمانية الاعتقادية، ونحن لا نتكلم عن النيات؛ بل كثير منهم -كما يظهر في وصية الرازي وغيره- يظن أنه ينصر الحق وينصر الدين؛ لكنه بهر وأعجب بالحضارة القديمة وبالفكر القديم وبالفلسفة القديمة، وهي لا تكاد أبداً أن تذكر ولا تساوي شيئاً إذا ما قورنت بحقائق وأنوار القرآن والوحي القرآني والوحي النبوي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

غلبة أمر الأنبياء وما جاءوا به على غيره

أما التمكين والظهور والعلو في الأرض, وكيف جعله الله لأصحاب النبوات وأتباعهم؛ فهذا أمر مشهود جداً، فحتى هذه اللحظة لم يثبت ولم يصح ولن يكون أبداً أن يأتي قضية عقلية صحيحة صريحة أو أن يثبت اكتشاف علمي حق يخالف آية من كتاب الله أو حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإطلاق، بينما نجد أن العلم الحديث قد جاء بما يخالف تقريباً كل -لا نقول معظم- ما قرّره اليونانيون القدماء والفلاسفة القدماء, ومن بعدهم من الفلاسفة الإسلاميين؛ بحيث إنها أصبحت نوعاً من الكلاسيكية التي تؤخذ على أنها مجرد تاريخ، ولا يمكن أن يكون لها أثر لا في علوم الطبيعة, ولا في علوم الفلك, ولا في علوم الحياة, ولا في علوم الاجتماع، فضلاً عما هو أشرف وأعظم من ذلك؛ وهو ما يتعلق بأجل العلوم وأشرف العلوم وأفضل العلوم وهو: صفات الله تبارك وتعالى, والإيمان بالآخرة والإيمان بالقدر, وما أشبه ذلك من العلوم التي لا يمكن أن تُتلقى إلا عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ولا يمكن أن يكون لغير الأنبياء أي نصيب أو أي إسهام فيها.

الواجب على البشرية تجاه النبوة والأنبياء

بل الواجب على البشر جميعاً أن يؤمنوا بأنبياء الله جميعاً، وأن يؤمنوا بآخر الرسالات وأعظم

الرسالات؛ الرسالة الخاتمة الكاملة التي لم يدخلها التحريف ولا التبديل، وهي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله تبارك وتعالى كما قال: ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)) [الأعراف:158], وأرسله رحمة للعالمين فجاء بأعظم العلوم, وأجل العلوم, وجاء بأرحم شريعة وأعدل شريعة وأحكم شريعة، وأفضل دين فصلوات الله وسلامه عليه وعلى أصحابه والتابعين لهم برضوان إلى يوم الدين.

ونسأل الله سبحانه تعالى أن يوفق في لقاءات قادمة إن شاء الله للتفصيل في هذا الأمر العظيم؛ الذي هو فعلاً أحد المعالم الرئيسية في تاريخ الإنسانية قديماً وحديثاً، وبه يظهر ضرورة الإلحاح الشديد على الإنسانية في أن تتبع المنهج المعرفي العلمي الصحيح، الذي لا يكون إلا باتباع ما جاء به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ولا سيما ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

نرجو الله تبارك وتعالى أن يوفق لذلك إنه سميع مجيب, وأن ينفعني وإياكم إخواني المشاهدين بما نسمع وما نقول إنه سميع مجيب, وعلى كل شيء قدير.

والحمد الله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة الرابعة عشرة: مناهج فكرية في مسألة النبوة

العناصر:

1.تمهيد

2.تأثر الفكر الإسلامي وما شابه في مسألة النبوة

-قسمي الفلسفة اليونانية

-تأثر قضية النبوة مع وضوح المنهج القرآني

-النتيجة

-خطأ تعريف الاستاذ محمد عبده

3.الفكر القومي العربي.

-انحراف القوميون مع وضوح المنهج القرآني

4.خاتمة ومجمل الانحرافات.

5.الفوائد

موقف البشرية من الإيمان بالرسل

الحمد الله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها الإخوة المشاهدون! وفقني الله وإياكم لما يحب ويرضى، فقد تحدثنا في اللقاء الماضي عن النبوة, وعن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وعن قيمة النبوة وأثرها في العالم كله, وعن الأنبياء إجمالاً, والصفات التي جعلها الله تعالى فيهم، وكيف أنه اختارهم جل وعلا فحظوا بإجماع كل من

يؤمن بالله أو من يؤمن بالغيب؛ بأنهم أكمل البشر عقلاً وديناً وخلقاً وفضيلة؛ على ما شاب ذلك لدى كثير من الأمم مما أشرنا إليه وسنوضحه إن شاء الله في هذه الحلقة.

هذه القضية -قضية النبوة- هي أحد المعالم الفاصلة والرئيسة -الواضحة جداً- بين الفكر اللاديني وبين الفكر الذي يؤمن بالغيب أو العقائد التي تؤمن بالغيب، وفي الوقت نفسه أيضاً بين الفكر الوثني أو الفكر الغيبي المشوب بالوثنية والخرافة والأساطير، وبين الفكر الإسلامي النقي.

وعندما نقول: الإسلامي أو المسلم فإننا نعني به: كل ما كان على هدى الله تبارك وتعالى وفطرته منذ قديم الأمم إلى أن ظهر الإسلام في مفهومه الشامل والكامل, وفي رسالته الخاتمة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

فكل الأنبياء من قبل كانوا مسلمين, والدين كان الإسلام, كما قال الله تبارك وتعالى: ((إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ))[آل عمران:19]، وهم في كل العصور وفي كل الأزمان ((وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فِيهَا نَذِيرٌ))[فاطر:24]، وهذا النذير يدعوهم إلى الإسلام وإلى الإيمان، الذي هو دين الله تعالى، الذي هو الدين الحنيف, كما قال سبحانه وتعالى: ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ))[الروم:30]؛ فكل البشر في تاريخهم الطويل منذ آدم عليه السلام إلى أن وقع الشرك والانحراف وأصبحت البشرية نوعين: مؤمن موحد، وكافر مشرك؛ وإلى اليوم نجد هذين المعلمين لم ينقطعا:

معلم أو مجموعة أو فسطاط إيمان واضح جلي إيماني يؤمن بالله تبارك وتعالى وأنبيائه وكتبه ورسله بلا تفريق ((لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون))[البقرة:136].

والآخر الذي وقع في الضلالة والجهل والشرك والغبش، وهذا الذي مع الأسف الشديد يطغى غالباً عند كثير من الباحثين العلمانيين اللادينيين، ثم يتبعهم بعض المسلمين فيجعلون تاريخ البشرية فقط هو هذا الجانب المنحرف الضال، ولا يكادون يأتون على ذكر الأنبياء لا في قليل ولا في كثير.

وقوع الشوائب في الفكر الإسلامي في النبوة

الشاهد والذي يهمنا الآن هو أن نوضح أن هذا التاريخ أو هذا المنهج الواضح الذي كان منذ أن بعث الله تبارك وتعالى الرسل الكرام، بعد أن انحرفت البشرية أيام نوح عليه السلام إلى محمد صلى الله

عليه وسلم وإلى اليوم؛ أن هذا المعلم واضح جداً متميز جداً، وأن أي شائبة تشوبه من شوائب الفكر الوثني أو الخرافة أو الأسطورة أو ما أشبه ذلك، فإنها تعكر نقاءه، وتكدر صفوه، هذا -مع الأسف- ما وقع في التاريخ الإسلامي وفي الفكر العقدي الإسلامي الديني.

نحن في الحقيقة ليس من منهجنا في هذه الحلقات أن نناقش تفصيلات الانحرافات عند الفرق العقدية الإسلامية؛ بقدر ما يهمنا أن نقارن بين مناهج ثلاثة: بين المنهج الإسلامي النقي، والمنهج العلماني ، والمنهج الوثني أو المنهج المنحرف أو المشوب بالأساطير القديمة والحديثة المتلبسة بثوب العلم أو بغيره.

لكن عندما ألمحنا أو أشرنا في اللقاء الماضي إلى الفلاسفة وإلى مواقفهم، وإلى أن الفكر العلماني اللاديني, وأنه يعتبر أن الفلسفة هي مرحلة راقية من تاريخ التطور الإنساني -يعني: ما قبل الفلسفة ومرحلة الهمجية ثم بعدها مرحلة التطور الفكري- وأن النبوة عندهم إما غامضة لا تذكر, وإما تندرج في مرحلة ما قبل الفلسفة, وإما أنها معادية للتفكير العقلي والتفكير التنويري.. إلى آخر ما هنالك من اختلافات.

لما كان ذلك فإنه يجدر بنا أن نشير ونوضح أن النظرة إلى النبوة بهذا الشكل بما يشوبه من شوائب، تأثر بها علم الكلام الإسلامي كما تأثرت بها الفلسفة المسماة بالفلسفة الإسلامية.

أقسام الفلسفة اليونانية

ببساطة يمكن أن نقول: إن الفلسفة اليونانية وغيرها ممن تأثر بهذه الأفكار هي في الحقيقة تنقسم إلى نوعين:

النوع الأول: المنتمي إلى أفلاطون ؛ وهو الذي يقوم على الاستنباط أو الاستدلال عن طريق الكشف والإلهام والعرفان، يعني: منبع داخلي، منبع باطني، مصدره في أخذ الحقيقة والمعرفة هو الوجدان, هو الحقيقة الباطنية؛ ولهذا تسمى: نظرية العرفان أو المعرفة أو الغنوص أو الغنوصية, وهذه منتشرة في العالم الشرقي؛ في الصين في الهند , وفي الفلسفة التي أخذت عنهما في الإسلام؛ ولذلك تسمى: الفلسفة الشرقية أو المشرقية أو الإشراقية، ليس المقصود هو الإشراق بقدر ما هو المشرق بمعنى الحكمة التي تعود إلى الإشراق، أو الفلسفة التي مصدرها الوجدان والعرفان الداخلي.

النوع الثاني: هو ما يعتمد أو يرجع إلى نظريات أرسطو , وهو المعتمد على الاستدلال العقلي, والقياس البرهاني الذي وضع بناء عليه علم المنطق، ثم بعد ذلك حصل التطور الذي حصل في علم المنطق وما بعده, عندما طُورت النظريات في ذلك؛ حتى أفضت في عصر التنوير الأوروبي إلى المذهب العقلي الجامد، الذي أدى في النهاية إلى أن يثور عليه هؤلاء وأن يأتوا بمنطق جديد يخالف المنطق الصوري اليوناني, وظهرت بعد ذلك نظريات اللامعقول أو التي لا تنتمي إلى العقل، وهذه مرحلة أخرى قد يأتي الحديث عنها إن شاء الله فيما بعد.

المقصود أن هذين منهجان مختلفان متباينان: منهج أفلاطون في الكشف والعرفان والإلهام والذوق والوجدان، ومنهج أرسطو في المنطق والاستدلال والعقل والبرهان.. إلى آخره.

وضوح المنهج القرآني في النبوة

التأثر الذي حصل في التاريخ الإسلامي -مع الأسف الشديد في تاريخ الفرق الإسلامية- تأثر هؤلاء وهؤلاء وبالذات في أهم قضية كما أشرنا؛ قضية النبوة -وعندما نقول: أهم قضية لأن كل المعرفة الإلهية, كل ما جاء عن اليوم الآخر هو مبني على النبوة- فمن هنا قضية النبوة تكتسب أهمية خاصة جداً في أي نظرية وفي أي عقيدة وفي أي تفكير. عندما تأثر هؤلاء وهؤلاء نتج هنالك ألوان من الخطأ بالابتعاد عن منهج القرآن الكريم الواضح الجلي في هذا -وعندما نقول: واضح جلي نقصد أنه لا يحتاج إلى شيء من التعقيد الذي أطال فيه أولئك الأقوام-.

وضوح المنهج القرآني في اختيار الله للأنبياء

فالمنهج القرآني: أن ((اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ))[الحج:75], ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ))[القصص:68], فالرسل هؤلاء الذين يختارهم الله تبارك وتعالى يؤيدهم بالبينات ويؤيدهم بالبراهين وبالحجج التي هي أعم من أن تكون -كما أشرنا من قبل- معجزات، آيات وخوارق؛ يشهد كل ذي عقل, وكل ذي لب، وكل ناظر بالنظر الفطري السليم أنها لا يمكن أن تكون من عند هؤلاء الناس.

ثم هم في خُلُقهم وفي سلوكهم أفضل الناس, فهم أكمل الناس حلماً وعقلاً ورأياً وفضيلة وحباً للخير ورحمة بالخلق وعدلاً بينهم.. إلى آخره, وهكذا، من هذا المنطلق الذي أشرنا إلى شيء منه في الحلقة الماضية, ونجده واضحاً في القرآن وفي السنة، لا يكون هناك هذه التعقيدات وهذه الإشكالات

في مفهوم النبوة وحقيقتها، ولا تختلط أصلاً هذه المفاهيم بالمفاهيم التي حدثت فيما قبل عند الأمم الأخرى، التي حرفت وشوهت هذا التاريخ؛ فأصبح نوعاً من الغموض، أي أساطير مشوبة بخرافات, مشوبة بشيء من الحق المختلط.

وضوح المنهج القرآني في التفريق بين الألوهية والملائكية والنبوة

فالأمم القديمة -أقدم ما وصل إلينا تقريباً سومر وما بعد- هناك اختلاط بين مفهوم أن يكون إلهاً, أو أن يكون نبياً, أو أن يكون ملكاً, أو أن يكون حكيماً, بينما في الإسلام المعالم واضحة جداً، هناك رب سبحانه وتعالى, وهو الذي ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ))[الشورى:11]؛ فهذا صفاته هي صفات الكمال المطلقة له تبارك وتعالى، وله الأسماء الحسنى.

وهناك مخلوق من بني آدم من البشر, من الطبيعة البشرية التي لا تختلف في أصل التركيب والتكوين الجسماني عن بقية البشر؛ ولكن هناك ميزة له أن هناك واسطة بينه وبين الله تبارك وتعالى وهم الملائكة الكرام، فيوحي الله تبارك وتعالى إلى هؤلاء الأنبياء غالب الوحي عن طريق هؤلاء الملائكة، وقد يكون إيحاء مباشراً من الله تبارك وتعالى كما قال تعالى: ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ))[الشورى:51]؛ فيمكن أن يخاطبه مباشرة كما خاطب آدم وموسى عليهما السلام، ويمكن أن يكون في المنام كما كانت رؤيا إبراهيم عليه السلام، ويمكن أن يكون -وهو الغالب- بأن يبعث الله تبارك وتعالى الرسول الملكي إلى الرسول البشري؛ فيبلغه عن الله عز وجل.

وهنا تظهر آثار الخير والبركة والنفع؛ فهم مباركون أينما كانوا وحيثما توجهوا, وفي كل أمر يقولونه وفي كل شيء يفعلونه، فصل واضح جداً بين حقيقة الألوهية وبين حقيقة الملَكية -نسبة إلى الملائكة- وبين حقيقة البشرية في الأنبياء.

وضوح المنهج القرآني في وقوع الخطأ من الأنبياء

وفي نفس الوقت بكل بساطة ووضوح في القرآن وفي السنة، الأنبياء بما أنهم بشر مع أنهم معصومون عن الخطأ فيما يبلغونه عن الله تبارك وتعالى؛ لكنهم قد يخطئون وقد يعصون وقد يذنبون، ولكن الله تبارك وتعالى لا يقرهم على ذلك، فسرعان ما يعودون وما يتوبون وما يستغفرون، وما يجعل الله تبارك وتعالى في الخطيئة هذه ما يرقيهم بهم بدرجات الكمال, كما حدث لآدم عليه السلام, وكما حدث لداود, وكما حدث لغيرهم من الأنبياء في القرآن مما لا مجال لتفصيله. أما في

النظرية الأخرى فنحن نجد إما أن يقال -كما اتجه إلى ذلك بعض العلماء-: إن الأنبياء لا يتصور منهم الخطأ مطلقاً؛ لأنه لو أخطأ أو لو جاز عليه الخطأ لجاز أن يخطئ أيضاً فيما يبلغ عن الله؛ وهذا لا يمكن! فأدى بهم ذلك إلى أن يؤولوا كل ما قيل في القرآن من أنّ آدم عصى، أو أن داود أخطأ، أو أن نوحاً سأل الله تعالى فيما يتعلق بموضوع ابنه، أو غيره من الأنبياء. التأويل هذا هو دال على عقيدة فلسفية تجريدية ذهنية؛ وهي: أن هناك كمالاً بشرياً مطلقاً لا يعتريه النقص؛ لأنه لو اعتراه في مسألة لجاز أن يعتريه في أخرى، كما هي العادة في المنطق الرياضي أو في المنطق الذهني المجرد أنه لو جئنا بدليل واحد على خطأ أي قاعدة لاخترمت القاعدة جميعاً؛ لكن الأدلة المنطقية العقلية الذهنية المجردة لا تكون أبداً بواقع الحياة البشرية التي جعلها الله تعالى أرحب وأوسع وأشمل من ذلك. وهذه إلماحة يسيرة في هذا الجانب.

تعريف النبوة بالعرفان وما يترتب عليه من إشكالات

المقصود هو الجانب الآخر الذي حدث وكان أكثر انحرافاً وأشمل.

فالذين رأوا أو نحو المنحى العرفاني الوجداني الباطني الحدسي التخميني.. إلى آخره؛ على مذهب أفلاطون أثَّر هذا في المتصوفة وفي أشباههم فلم يعد هنالك فرق بين الكشف وبين الإلهام وبين الوحي الذي يوحيه الله تبارك وتعالى، فاختلط النبي بالولي؛ بل ربما جعل بعضهم الولي أعلى درجة من النبي, وهكذا أصبحت المسألة خطيرة جداً إلى حد الخروج من الدين والعياذ بالله، والخروج عن شريعة النبي صلى الله عليه وسلم, وعن كل كتب الله؛ بدعوى أو بزعم أن النبوة مكتسبة يمكن أن تنال عن طريق الرياضة الروحية المتتابعة، كما يفعل الرهبان في الهند و الصين وغيرها من البوذيين -يسمونهم العارفين- ويتحدثون عن ذلك, وظهرت هذه النظرية الغنوصية العرفانية الباطلة، أو الإشراقية الباطلة, وتأثر بها كثير من المتصوفة المشهورين؛ الذين لا مجال الآن للتفصيل في الحديث عنهم بأسمائهم وذكر انحرافهم, وإنما المقصود أن هذا المنحى الخطير أيضاً اتخذ شكلاً مضاداً للمنحى الكلامي والفلسفي والمنطقي؛ فأدى ذلك إلى أن مفهوم النبوة تعتريه شوائب تكاد أن تكون مشابهة لما حدث منذ المراحل الأولى، عندما حدثت أساطير سومر و بابل والأمم من قبلهم.

هنالك تصبح قضية حقيقة النبي والأنبياء حقيقة غامضة مبهمة مشوشة, وفي الإمكان أن يدعيها

كل أحد، وبذلك لم يعد هناك أي قيمة -مع الأسف الشديد- للمنهج الرباني الواضح الجلي في الفصل التام بين الألوهية وبين النبوة، وبين مقام النبوة من جهة وبين غيرها من البشر من جهة أخرى، الذين لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكتسبوا ما أوحاه الله تبارك وتعالى إلى الأنبياء، الذين أهلهم بصفات معينة لتلقي علوم من لدنه عز وجل، لا يمكن للعقل البشري أو الجهد البشري ولا العرفان البشري أن يصل إليها بأي شكل من الأشكال.

هنا ينبغي أن أنبه إلى أن مثلاً الأستاذ محمد عبده رحمة الله عليه في: رسالة التوحيد وقع في خطأ قريب أو يكاد أن يباشر القضية من ناحية الكشف والخطأ، عندما عرَّف الوحي بأنه عرفان يجده الإنسان في نفسه مع يقينه أنه من الله! في الحقيقة أن هذا الكلام أقرب ما يكون للمدرسة العرفانية الغنوصية الحدسية، التي انتشرت وظهرت -مع أنه مع الأسف شيء عجيب! والشيخ محمد عبده رحمة الله عليه وغفر لنا وله معروف اتجاهه العقلاني المحض، وفي شرحه لكتب العقيدة وفي أيضاً منهجه العقلاني فيما بعد، عندما كاد أو تمرد على كل ما سماه الدراسة في الأزهر وبعبارته: أن يكنس من مخه كل ما تعلمه في الأزهر سواء شرح العقيدة العضدية أو غيرها-

فالمقصود أن الشيخ مع المنحى العقلي الذي ينحوه غالباً واشتهر عنه؛ إلا أنه في هذه المسألة لم يستطع أو ربما رأى أنه أقرب إلى الفكر المادي أو العقلي؛ مسايرة للنظريات التي رآها في أوروبا -مثل نظرية كونت وأمثاله- أو درسها هناك واطلع عليها؛ فرأى أن يفسر الوحي بما يَقْرُب في الحقيقة من المدرسة العرفانية الغنوصية الأخرى، أصبح مع الأسف الشديد في بعض كتب التفسير كأن للوحي تعريفين! تعريف السلف أو التعريف المأخوذ من القرآن, وتعريف الشيخ محمد عبده .

وهذا من الخطأ، فلا ينبغي إلا أن تكون قضية الوحي واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض ولا تشويش، كما وضحنا من حيث الفصل بين حقيقة الألوهية وبين الحقيقة البشرية، مع وجود الوساطة الملكية بين هذا وبين هذا.

فهذه مسألة أحببنا أن ننبه إليها من غير أن يكون منهجنا الخوض في تفصيل الخلاف أو الأخطاء في الفرق الإسلامية؛ لكن ننبه إليها لأننا عندما نقول: إن المنهج الإسلامي هو الحق في هذه القضايا، فإننا لا نعني المنهج الكلامي, ولا منهج الفلاسفة من إشراقيين أو من منطقيين، ولا نعني به أيضاً منهج المتأخرين في هذه الأمة أو أي فرقة من الفرق؛ وإنما نعني المنهج الصافي النقي, الذي اعتمدناه في كل حلقاتنا بإذن الله تبارك وتعالى، والذي نأتي عليه بالأدلة المباشرة والصريحة والواضحة من

الكتاب ومن السنة؛ لنقابل به المنهج الآخر.

منهج الفكر القومي العربي في النبوة

هنا أيضاً نأتي على منهج آخر أو اتجاه آخر في البحث العلمي، فيما يتعلق بالنبوة والأنبياء وتاريخهم, وما يتصل بذلك -مع أننا قد أوضحنا أن كل بحث في الفرق أو في الأديان؛ فهو تاريخي بشكل ما- أقول: هناك أيضاً من أخطأ في هذه المسألة ولكن من نوع آخر.

استهداف بني إسرائيل بالعداوة حتى الأنبياء منهم

الخطأ الذي يقع فيه هؤلاء, أو النوع الذي نقصده هو: أن كثيراً من الكتاب والباحثين القوميين العرب تأثروا بالصراع اليهودي العربي في الأحقاب الأخيرة وفي العقود الأخيرة؛ فأخذوا يكتبون في هذه القضايا عن أنبياء بني إسرائيل, وعن تاريخ بني إسرائيل وكأنهم أمة عدو لا بد أن تتحين الفرصة لكي تبطل كل أعمالها؛ لكي تبين خطأها في كل مسألة, لكي تبين أنها أمة معتدية, وأنها أمة وحشية, وأنها أمة همجية؛ فأثر هذا بشكل آخر حتى وجدنا انحرافات خطيرة خارجة عن منهج القرآن والسنة في التعامل مع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ولا سيما أنبياء بني إسرائيل؛ مثل: موسى وسليمان وداود ومن بعدهم، فضلاً عن جزء مهم من تاريخ بني إسرائيل الذي جاء في القرآن الكريم, والذي نحن نؤمن به ونعتقده؛ لأن بني إسرائيل المؤمنين هم جزء من أمة الإسلام العظيمة التي تمتد من آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ من الأمة المسلمة الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بالإسلام ما داموا متبعين لأي نبي من الأنبياء من غير أي تفريق، ولا تفرق أمة الإسلام في القديم والحديث بين أي نبي من الأنبياء.

فالأمة الإسلامية أو أمة الإسلام -قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم- المسلمون الحنفاء أتباع أي نبي من الأنبياء؛ كانوا يؤمنون بالأنبياء الذين سبقوا, ويؤمنون بالأنبياء الذين سيأتون، وبعد محمد صلى الله عليه وسلم حيث ختمت النبوة، فالأمة الإسلامية بمعناها الأخير والخاص المعروف الآن في العالم: تؤمن بكل أنبياء الله تعالى ولا تفرق بين أحد منهم.

الفكر القومي العربي نحى منحاً آخر؛ وهو استهداف بني إسرائيل بالعداوة, حتى أنبياءهم, حتى التوراة ! فنجد كلاماً خطيراً جداً، نجد هناك توجه إلى القول بأن كل ما جاء في سفر التكوين عن الخلق والخليقة منقول من أساطير أقدم, نجد من يقول: إن شريعة موسى عليه السلام منقولة عن

شريعة حمورابي ، ثم يقول: إن حمورابي عربي باعتبار أن السامية أكذوبة وتلفيق، فردوا هم على أكذوبة أو تلفيقات الباحثين المستشرقين اليهود عن السامية بأن جعلوا العربية؛ لكن جعلوا العربية مقدسة وجعلوا اليهودية مدنسة! وليس هذا بصحيح..

نعم هناك تاريخ للعرب ما قبل إسماعيل عليه السلام؛ وهم العرب القديمة, وليست سامية، ونحن نقول: إنهم عرب قدماء -وهذا سنوضحه إن شاء الله وقد أشرنا إليه فيما مضى- لكن ذلك لا يعني أنهم على الحق؛ بل هناك منهم المشرك ومنهم المؤمن ومنهم البر ومنهم الفاجر، ومنهم الطواغيت الكبار كما منهم الأنبياء العظام؛ لكن القوميين العرب جعلوا هذا مقابل هذا، فإما أن يُرجعوا كل فضيلة في التوراة أو في الوحي الذي أوحاه الله لبني إسرائيل إلى أصل عربي بأي شكل من الأشكال ولو بالتلفيق أو بالمجازفة، وإما أن يقولوا: لا. إن هذه كلها أباطيل وأساطير ترجع إلى أساطير سومر والفراعنة وغيرهم، كما يتحدثون إذا تحدثوا عن التوحيد وأنه مأخوذ عن أخناتون .

حتى الأستاذ عباس محمود العقاد مع تعمقه في هذا، في كتابه: إبراهيم أبو الأنبياء قبل أن تتضح الفكرة القومية بأبعادها التي حدثت فيما بعد أيام الناصرية؛ لكنه مع ذلك كان يجعل الأمرين؛ الإسرائيلية من ناحية، والعربية من ناحية، ويثبت أو يكاد يؤمن بنظرية تطور الدين, ويقارن بين أخناتون وبين عقيدة التوحيد.

هذه مع الأسف أيضاً إحدى الانحرافات المنهجية التي وقع فيها المفكرون القوميون العرب وأشباههم، حتى أنك تجد الذم والعيب والنقص لديهم لا يسلم منه الأنبياء!

فيفرحون بأي نقيصة يجدونها منسوبة إلى داود عليه السلام مقابل أن الفلسطينيين -كما يزعمون- أو العرب الأصليين أو الذين يسمونهم فلسطينيين, فهم عندما أصبحت القضية عنصرية عرقية يقولون: حرب داود عليه السلام مع جالوت وما حدث كما قصها الله تعالى في القرآن، تأخذ منحى آخر وكأنها شكل متقدم للصراع العربي الصهيوني المعاصر؛ فكل فضيلة تسلب من هذا الجانب وتعطى للفلسطينيين لـ جالوت ولجيشه، وتؤخذ قضية طالوت وداود كما وقع في التوراة المحرفة وأشد من ذلك أيضاً.

ونحن إن شاء الله سوف نبين ما وقع في التوراة من تدنيس لمقام النبوة والأنبياء خطأ، إن شاء الله في الحلقة القادمة أو التي بعدها حسب الإمكانية، عندما نبين أن النظرة الكتابية نحن لا نقرها؛ لكن نحن هنا نشير إلى الخطأ الذي قد يحسب على أنه إسلامي! أو يُظن أنه إسلامي!

والحقيقة أن هؤلاء الكتّاب وإن كانوا مسلمين إلا أنهم وقعوا في أخطاء كبيرة جداً في هذه المسألة الخطيرة والمهمة؛ لأنهم عاملوها أو نظروا إليها بالنظرة القومية العنصرية، وأسقطوا قضايا حديثة على قضايا قديمة والأمر مختلف تماماً، وهو واضح جداً بالنسبة لمن يؤمن بالله واليوم الآخر، وفي كتب العقيدة وكتب التفسير المسألة هذه لا تحتاج إلى لبس, ولا تحتاج إلى أن تدافع عن أي شيء؛ لأنه عربي أو تثبت عروبته, وإن كان غير ذلك, ولا أن تثبت أن أي أمر آخر أنه باطل وأنه خطأ أو أنه تدنيس أو أنه رجس لمجرد أنه ينتمي إلى الأمة الإسرائيلية, ليس ذلك ولا ذاك.

انحراف القوميين مع وضوح المنهج القرآني

المنهج القرآني في هذا واضح جداً منذ أن بين الله تبارك وتعالى ذلك منذ الهجرة عندما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم، وحدث الاحتكاك المباشر بنيه وبين اليهود في المدينة، فتأتي السور القرآنية ومنها سورة البقرة وآل عمران وغيرها؛ لتبين حقائق عظيمة وجلية، لا ينبغي لأي كاتب مسلم وعربي أن يتغافل عنها؛ بل اللوم على العرب أكثر؛ لأن القرآن بين أيديهم ويقرءونه!

نجد حقائق واضحة, كل الأنبياء هم على الإسلام, وكلهم دعوا إلى الإسلام والإيمان بالله تبارك وتعالى، ولا سيما موضع الخلاف وهو من إبراهيم عليه السلام فصاعداً.

إبراهيم عليه السلام ((إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ))[البقرة:131], هذه حقيقة مقررة ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم, وبينها في الآية مائة وواحد وثلاثين من سورة البقرة، ثم يقول: ((وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ))[البقرة:132], وقبلها يقول: ((رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ))[البقرة:128], يعني: دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان الكعبة.

وهناك يأتي السياق القرآني، فبعد أن يؤكد حقيقة أن يعقوب مسلم -لأن الإشكال حدث في ذرية يعقوب عليه السلام والقول بأنهم كانوا يهوداً أو نصارى - ((أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ))[البقرة:133], هذه عقيدة جلية.

ثم يبين بعد ذلك السياق القرآني الكريم أن اليهود و النصارى ((وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا))[البقرة:135]؛ فيؤكد ((قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ))[البقرة:135], (ملة إبراهيم حنيفاً) هي التي يقول الله فيها: ((ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا))[النحل:

123], يعني: النبي صلى الله عليه وسلم في هذا ما هو إلا متبع, وفي الآية الأخرى: ((مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ))[الحج:78].

بين تبارك وتعالى أن أبانا إبراهيم هو أب لنا في مسألة الدين ومسألة الاعتقاد -لا أبوة النسب- أبوة عظيمة، أبوة روحانية جليلة؛ فنحن جميعاً أمة محمد صلى الله عليه وسلم يمكن أن نسمى ويمكن أن يقال: إننا على ملة إبراهيم ولا حرج، ويمكن أن يقال: إننا حنفاء ولا حرج، ومسلمون بهذا المفهوم أيضاً كل ذلك أشبه بالمترادفات اللغوية؛ ولذلك نحن نجد تفاسير السلف لهذه الآية أو لمفهوم كلمة (الحنيفية).

التفسير والتاريخ الذي حدث بعد ذلك يؤكد هذه المعاني.

أما تفسير الحنيفية فقد فسرها مجاهد و الربيع بن أنس كما نقل ابن كثير رحمه الله بأن (حنيفاً) أي: متبعاً. قال أبو قلابة : الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم.

كان هذا المفهوم الراقي العظيم، الإيمان بالرسل جميعاً من أولهم إلى آخرهم!

ثم يأتي أيضاً قتادة فيقول: الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله, ويدخل فيها -هذه نقطة مهمة ونحن هنا نذكرها لأهميتها- تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات -يعني: خروجاً عن الشرائع المحرفة في هذا الشأن- وما حرم الله تبارك وتعالى -دخول تحريم الخمر والخنزير وعبادة الأصنام داخلة في الحنيفية- ثم يقول: والختان! الشعائر التي هي من سنن الفطرة!

ملة إبراهيم عليه السلام هي عقيدة هذه الأمة، عقيدة في الله تبارك وتعالى, وفي الأحكام جملة وهي تحريم الخبائث وإحلال الطيبات، وفي الشعائر التي هي من سنن الفطرة، ومن أعظم وأهم ذلك الختان! ذلك الذي كان معروفاً متداولاً بين العرب، وظل عليه بنو إسرائيل حتى نسخه بولس بدعواه وزعمه الكاذب.

فسنن الفطرة وخلال الفطرة -فضلاً عن العقائد التي أكبر من ذلك- تنسب إلى إبراهيم عليه السلام, ونحن من أتباع ملة إبراهيم عليه السلام؛ ولذلك أمرنا الله تبارك تعالى بعد هذه الآية مباشرة بأمر نحن نتعبد به ونقرؤه في صلاتنا تذكيراً به يومياً وشبه يومي: ((قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ))[البقرة:136], ونبطل بطلاناً شديداً كل

من يدعي أن نبياً من الأنبياء كان على غير الإسلام, وأنه كان يهودياً أو نصرانياً.

اليهودية و النصرانية هي انحراف وقع في أتباع الأنبياء؛ ولذلك عندما يأتي الكلام عن العدل والتفريق بين المخطئ والمذنب منهم لا يأتي الكلام بصفة اليهود أو النصارى في القرآن، اليهود أو النصارى وصف في الأصل للذم للأمة المنحرفة، أما الأصل فهم يسمون أهل الكتاب كما في قوله تعالى: ((لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ))[آل عمران:113], يعني: أهل الكتاب ليسوا سواء منهم ومنهم، أو قوله تبارك وتعالى: ((وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ))[الأعراف:159]؛ فليسوا سواء؛ لذلك قال: (من قوم موسى) يشمل الذين اتبعوه بحق والذين يدّعون غير ذلك، وكذلك عيسى عليه السلام.

فأفضل الخلق عندنا نحن المسلمين في عقيدتنا الإيمانية الواضحة الجلية هم الأنبياء، وأفضلهم أولو العزم من الرسل، وأفضل من بعدهم هم أتباع الأنبياء.

فأفضل الناس هم من صحب موسى عليه السلام مؤمناً به، ثم صحب عيسى عليه السلام مؤمناً به وبموسى، ثم من صحب النبي صلى الله عليه وسلم وهم كانوا طبعاً مؤمنين بموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وكل أنبياء الله ((لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ))[البقرة:285], ثم التابعون من هؤلاء وهؤلاء.

أما من انحرف ومن ضل ومن ابتدع؛ فنحن نبرأ إلى الله تبارك وتعالى من انحرافه وضلاله وشركه وبدعته، سواء كان من قوم موسى أو من قوم عيسى أو ممن يدعي أنه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فالمسألة عندنا لا عنصرية فيها, ولا قومية فيها بأي شكل من الأشكال، وإنما هو دين جلي واضح مثل الشمس، جعله الله تبارك وتعالى دين الأنبياء جميعاً وقال: ((إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ))[آل عمران:19], وقال: ((وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ))[آل عمران:85], نؤمن بهم جميعاً ومن انحرف من هؤلاء الأقوام جميعاً فحسابه على الله, وبحسب انحرافه يُعامل، وفي ذلك إيضاح وتجلية لكثير من القضايا التي وقع فيها من أخطأ وضل.

مجمل الانحرافات في المناهج الفكرية وواجب المسلم نحوها

أهل الكتاب عندما نسبوا إلى الأنبياء من القبائح والشنائع -ما سوف نأتي عليه في الحلقة القادمة

إن شاء الله- أو الفكر القومي العربي الذي يحشد كل طاقته لحمل كل عيب وكل ذنب في التاريخ؛ فيلحقه ببني إسرائيل ولو كان أيضاً بأنبيائهم، وكذلك الفكر الآخر الفكر الأسطوري والفكر الوثني والفكر الشركي الذي ينكر نبوة الأنبياء أو ينفيها، أو يعدهم مجرد أشخاص وأفراد متميزين، وكأنما هم نوع من الفلاسفة، أو الفكر الآخر الباطل الذي يكاد يخلط بين الأنبياء وبين غيرهم في أن الجميع إنما يأتون بما يأتون به من العلوم والمعارف من الذات من الداخل، عن طريق العرفان والغنوصية كما أشرنا أو الكشف أو الإلهام أو ما أشبه ذلك. هذه كلها مناهج ضالة, وقد أخذت هذه الأمة المسلمة -مع الأسف الشديد- بنصيبها كما بين النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يتبعون سَنن من كان قبلهم من الأمم، أخذ طوائف من هذه الأمة بنصيبهم من الخطأ والانحراف اتباعاً لتلك المناهج الضالة التي ليست من الإسلام في شيء. أقول: إن هذه القضايا التي أتينا عليها على عجل وعلى إلماحة هي من أهم وأخطر القضايا في تاريخ الفكر الإنساني عامة، التي يجب على كل مسلم أن يحرر فكره ونظره إن كان تاريخياً أو أدبياً أو عقدياً وهو أشد، أن يحرر ذلك كله على منهاج النبوة، أن يجعله على وفق صريح وجلي القرآن، وألا يتأثر لا بقليل ولا بكثير بهذه المناهج الضالة المنحرفة، وعندما نفعل ذلك فسوف نجد أن كل عاقل من أهل الكتاب أو من غيرهم من أمم الأرض، لا بد أن يجد نفسه مضطراً -وبدون أي ممانعة- بأن يقبل هذه العقيدة الصافية الخالصة النقية من شوائب الشرك أو العنصرية, أو ما يسمونه التعامل الخطأ مع الآخر، أما بالنسبة لنا نحن المسلمين فالآخر بما يفهمونه هم ليس هو المقابل العنصري أو المقابل القومي أو المقابل الاقتصادي أو المقابل لشيء ما؛ إنما الآخر هو بمعنى العدو من خالفنا في الدين والعقيدة التي أنزلها الله تبارك وتعالى، وجاء بها محمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله. كل من آمن بهذه العقيدة في أمم التاريخ قديمها وحديثها فهو أخ لنا، وهو قريب لنا، ونحبه ونواليه في الله تبارك وتعالى، وكل من خالفها فإننا نبغضه ونعاديه مهما كانت قرابته، ومهما كان انتماؤه. أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفقني وإياكم جميعاً لما يحب ويرضى, وأن ينفعنا بما نسمع ونقول؛ إنه سميع مجيب, والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة الخامسة عشرة: مقام النبوة في الفكر الكتابي المحرف

العناصر:

1.مقدمة

2.النبوة في منهج الوحي المحرف أو في المنهج الكتابي.

3.آدم عليه السلام في الوحي المحرف

4.نوح عليه السلام في الوحي المحرف

-لماذا أضيف هذا الكلام الشنيع

5.لوط عليه السلام في الوحي المحرف

-التبرير للشناعة

-العلة الحقيقة للافتراء والكذب مع التنبيه. مع التوضيح

6.خاتمة

تاريخ النبوة في منهج الوحي المحرف

الحمد الله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد: أيها الإخوة والأخوات! في الحلقة الماضية والتي قبلها كان الكلام عن مقام النبوة، وكان محصوراً فيما يتعلق بالنظرة النبوية من خلال التكريم والاصطفاء الرباني للأنبياء، ومن خلال النظرة الوثنية الجاهلية الفلسفية لهؤلاء البشر المختارين من الله تبارك وتعالى. والآن نأتي على المنهج الثالث وهو ما يتعلق بالمنهج الكتابي, أي: الوحي المحرف، وما هي درجة الأنبياء والنبوة فيه؟ وفي الحقيقة إن هذا الموضوع يحتاج منا إلى أكثر من حلقة، وإلى أكثر من وقفة؛ لأهميته في تاريخ الفكر العالمي والصراع العالمي؛ لأن كثيراً من النظرات المادية والأخطاء التي وقعت في الحديث عن تاريخ الأنبياء, وفي العقائد البشرية عن الأنبياء، كانت نتيجة للجهل والتحريف الذي أصاب الكتب المنزلة، والعمل الذي عمله الأحبار والرهبان وغيرهم ممن ينتسبون إلى هذه الكتب, بمعنى: أن بعض أتباع الأنبياء هم الذين جروا البلاء والكوارث على هذه المقامات والرتب العالية؛ بما حرفوه وبما بدلوه، فهم نزلوا بدرجة الأنبياء إلى درجات الكهنة أو درجات رجال الدين من السلك الكهنوتي أو غيره؛ ليجعلوا الأنبياء يشبهونهم, بدلاً من أن يرتقوا هم بأنفسهم أو يرتقوا بالأمة إلى

درجات الأنبياء، فكان ذلك التشويه سبباً وباعثاً أن يأتي المفكرون الماديون والعقلانيون وغيرهم فينفوا النبوة من أصلها.

آدم عليه السلام

إذا أردنا أن نبتدئ من تاريخ النبوة الحقيقي فهو كما تقدم يبتدئ في الحقيقة من نبوة آدم عليه السلام، وقد تقدم الحديث في حلقات أولى عن المنزلة التي جعلتها الكتب المحرفة لآدم عليه السلام, ومن ثم للجنس البشري، فهي لم تثبت له من الكرامة والمنزلة ما جعله الله تعالى له، وذكرنا على سبيل المثال: أن من يقرأ الكتاب المقدس يرى أن هناك تعمداً لتجهيل آدم عليه السلام, وتجهيل الجنس البشري، بحرمانه من الأكل من شجرة معرفة الخير والشر، وتقدمت الإشارة إلى ذلك، وأثر ذلك في التفكير اليوناني والفلسفي الغربي, ومع أن الكتاب أو العهد القديم -التكوين السفر الأول منه- ذكر أن الله تعالى علم آدم أسماء كل شيء، إلا أنه لم يورد ذلك كما ورد في القرآن بنفس المستوى من السمو والعلو، ومن اختبار أو امتحان الملائكة به الذي يظهر الكرامة والمنزلة التي جعلها الله تعالى لآدم عليه السلام.

نوح عليه السلام

على أية حال لو تجاوزنا هذا إلى الأب الثاني للبشرية, فهناك نجد أن الأمر قد اتخذ شكل المأساة أو الكارثة في تاريخ الأنبياء والنبوة, والنظر إلى هؤلاء الخلق المصطفين الكرام، فإن نوحاً عليه السلام الذي هو الأب الثاني للبشرية، والذي كرمه الله تبارك وتعالى وجعله أول الرسل الكرام، والذي يحتل في العقيدة الإسلامية مكاناً مرموقاً عظيماً نظراً لهذه المكانة، وهذه المكانة تمتد إلى يوم القيامة كما جاء في حديث الشفاعة الكبرى؛ عندما يأتي إليه الناس ويقولون له: يا نوح أنت أول رسول أرسله الله تبارك وتعالى ويطلبون منه أن يشفع لهم، ثم تكون الشفاعة العظمى للنبي صلى الله عليه وسلم.

فمنزلة نوح عليه السلام منزلة عظيمة في التصور العقدي الإيماني الصحيح؛ ولذلك نجد أن الطفل المسلم وهو لا يزال في أولى مراحله الدراسية يقرأ سورة نوح عليه السلام وأولها ((إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ))[نوح:1], بمعنى: أن أول ما يستشعره الطفل من عظمة هذا النبي الكريم, وهذا الرجل العظيم؛ أنه رسول أرسله الله تبارك وتعالى إلى قومه, هذا المعنى غامض في التوراة, أي: بمعنى أنه نبي، والحديث عنه يأتي وكأنه رجل ذو شأن، ولكن الإرسال والنبوة والنذارة لقومه

والتحذير من الشرك لا يكون بمثل المستوى القرآني؛ بل هو بعيد عن ذلك كثيراً.

ليس هذا فقط وإنما يأتي بعد ذلك ما قلنا: إنه الكارثة أو الطامة الكبرى، وهو ما جاء في التكوين في الفصل التاسع من السفر؛ وهو أن نوحاً عليه السلام -وأنا الآن أقرأ بالنص-: كان نوح أول فلاح وغرس كَرْماً, وفي بعض الترجمات: وابتدأ نوح يكون فلاحاً.

ثم يقول كاتب هذا الكلام والمحرِّف لكلام الله تعالى: وشرب نوح من الخمر فسكر وتعرى في خيمته؛ فرأى حام ابن نوح أبو كنعان عورة أبيه، فأخبر أخويه وهما خارجاً فأخذ سام و يافث ثوباً وألقياه على أكتافهما ومشياً إلى الوراء ليسترا عورة أبيهما، وكان وجهاهما إلى الخلف، فما رأيا عورة أبيهما، فلما أفاق نوح من سكره -كما يقول الكاتب الخبيث- علم ما فعل به ابنه فقال: ملعون كنعان! وكنعان حتى الآن غير موجود، فالثلاثة هم الموجودون: حام و سام و يافث ولكن اللعنة على كنعان لماذا؟! نرى لماذا الآن.

قال: ملعون كنعان عبداً ذليلاً يكون لأخوته, وفي بعض الترجمات: عبد العبيد يكون لأخوته, وقال: تبارك الرب إله سام ويكون كنعان لعبداً لسام .. إلى آخره.

هذا الخبر الذي حقيقة تقشعر منه أبدان المؤمنين الذين يقدرون الله تبارك وتعالى حق قدره، وأنبياء الله تبارك وتعالى حق قدرهم وتعزيرهم وتوقيرهم, ويعظمون ما عظم الله، ويعظمون شعائر الله، هذا الكلام الموجود بهذا النص لم يستطع أحد من شرّاح التكوين أو الخليقة الذين شرحوا هذا السفر الأول من العهد القديم أن ينفوه، أو أن يقولوا: إن هذا مضاف أو مقحم ليس من كتاب الله، إلا عندما بدأت مدرسة النقد التاريخي في القرون المتأخرة -كما شرحنا من قبل- مجمعون وإلى الآن لا يزالون يكتبون وبعضهم من العرب -الذين شرحوا سفر التكوين- بعضهم من اليعاقبة, بعضهم من النساطرة, بعضهم من الكاثوليك .. إلى آخره.

الكل يجمع على أن هذه القصة حقيقة, وأنها وقعت، ويجعلونها من مآثر الكتاب، يقولون: إن الكتاب المقدس كما أنه يذكر ما يعطيه الله تعالى من الكرامات أو الخوارق أو المعجزات فإنه أيضاً واقعي ينقل ما يفعله القديسون وما يفعله الصالحون بواقعية ولا ينفي ذلك عنهم.

لكن هذا الكلام في الحقيقة إذا تأملناه ونظرنا إليه بعين البصيرة الإيمانية, وما ذكره الله تبارك وتعالى من أخبارهم في كتبه التي لم تحرف ولم تبدل، فإننا نجزم قطعاً أن هذا لا يمكن أن يصدر عن نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

نحن لا يمكن أن نتخيل ذلك أو أن نؤمن به أو نصدقه، بمعنى: أننا لا نتردد في أن ننفي وقوع ذلك، وإنما ننتقل إلى القضية الأخرى المهمة؛ وهي: إذاً لماذا كُتب؟! أو لماذا أضيف مثل هذا الكلام إلى نبي عظيم من أولي العزم؟!

القضية -كما أشرنا قبل قليل- هي في كلمة كنعان أو في اسم كنعان ، الشعوب المخالفة لليهود وبالذات نخص بالذكر الكنعانيين؛ لأنهم هم الشعب الذي فيما بعد قرون وبعد آلاف السنين من هذه الحكاية سوف نجد أنهم يكونون أعداء, وأنهم يتقاتلون مع بني إسرائيل، فمن هنا يمهد هذا اليهودي الخبيث الذي أضاف هذه الحكاية للعنة كنعان وبني كنعان, وأنهم فعلاً أشرار، -وهذا ما يعترف به الشراح كما ذكرنا قبل قليل- ويقول الشراح: إن هذا تمهيد من الله تعالى ليبين لكل بني آدم من الأب الثاني نوح عليه السلام الذي تفرقت منه بقية الأمم والشعوب؛ أن الكنعانيين أمة ملعونة شريرة؛ ولذلك فإن العبرانيين عندما يقاتلونهم على يد يوشع فهم في الحقيقة على الحق، ويستحق أولئك أن يطردوا، وبعد ذلك نجد في أيام إبراهيم عليه السلام أن الله تعالى يعده بكل أرض كنعان ، فيأتي التمهيد لوعد الله تعالى المزعوم عندهم, والذي قد يكون حقيقة؛ ولكن للمؤمنين، فالتمهيد لهذا الوعد لإبراهيم, وكذلك التمهيد لانتصار أو لاستحقاق الكنعانيين للإبادة التي سوف يؤمر بها يوشع -كما سوف نرى- شكل من أشكال الإبادة العجيبة الغريبة، يأتي وكأنما هو بجناية الأب القديم الذي لم يكن كنعان قد ولد بعد، ولكن لأن أباه الذي رأى عورة أبيه نوح؛ لأنه رآه ولأنه لم يستره بخلاف أخويه وما فعلا؛ فلذلك يستحق ابن هذا الابن أن يلعن، وأن يحمل اللعنة، وأن تظل اللعنة حالة به إلى أن يأتي الأحفاد وإلى آخر الزمان.

بمعنى آخر: أننا نشاهد لوناً من العنصرية البغيضة المقيتة في النظر إلى هذه الشعوب، والكنعانيين ما هم إلا جزء أو اسم من جملة شعوب ملعونة، يلعنها كاتب التوراة جميعاً, هكذا ملعونة مطرودة من رحمة الله تبارك وتعالى، ويحاول أن يدنسها لكي تبقى الخلاصة والصفوة النقية أو شعب الله المختار هم بنو إسرائيل فقط!

بهذا المستوى العنصري ينبغي أن يُنظر إلى هذه القصة، وأن تُعلم الأسباب النفسية لدى الشخصية أو الكاتب اليهودي الذي أضاف هذه العبارات وظل اليهود متمسكين بها.

لوط عليه السلام

ولذلك عندما ننتقل إلى قصة أخرى لا تقل عنها في الشناعة؛ بل هي أشنع منها حقيقة، فإننا نجد

أيضاً أن هناك غرضاً من إيرادها ومن ذكرها، وهذه القصة أو الحادثة الأخرى هي الحادثة المنسوبة إلى لوط عليه السلام، وهي أيضاً أبعد وأفحش من أن تليق بنبي من الأنبياء.

نأخذ العهد القديم ونقرأ ماذا قال عن لوط عليه السلام، وقبل ذلك نشير إشارة إلى أن هذا السفر في الفصل العشرين منه وفي الفقرة الثانية عشرة, ذكر قصة ينبغي لنا أن نتذكرها ونأتي عليها إن شاء الله بالتفصيل عند الكلام عن إبراهيم عليه السلام؛ وهي أن إبراهيم عليه السلام تزوج أخته! القول أو الزعم بأن سارة زوجة الخليل عليه السلام كانت أخته غير الشقيقة! وهذا يمرون عليه مرور الكرام, لا يكاد الشراح يأتون عليه إلا بسطر أو سطرين، ولكن الغرض يشبه أن يكون أيضاً توطئة للكلام عن قوم لوط, أو ما سوف يفعله لوط من بعد.

هناك علاقة واضحة وقوية ما بين لوط عليه السلام وإبراهيم عليه السلام، والله سبحانه وتعالى ذكر ذلك في القرآن دون أن ينص على أن لوطاً ابن أخي إبراهيم؛ لكن قال: ((فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ)) [العنكبوت:26]؛ فذكر الله تبارك وتعالى أن لوطاً عليه السلام كان معاصراً لإبراهيم، وأنه آمن بدعوته، وأنه هاجر معه الهجرة التي هي لله وفي ذات الله، ولم يأت القرآن على ذكر الأماكن والمواقع أو كما في التوراة عدد الأغنام وعدد الحمائل والعبيد, كل هذه لا تهم أبداً؛ لأن العبرة والعظة هي أن لوطاً عليه السلام كان نبياً مُكرَّماً، وكان على دين الخليل إبراهيم عليه السلام، أي أنه كان على الحنيفية.

وقد ذكرنا في اللقاء الماضي أن الحنيفية التي هي دين إبراهيم عليه السلام تشمل عند علماء الإسلام بالدرجة الأولى العقيدة التي هي البراءة من الشرك وأهله، هذا بالدرجة الأولى, والحنَف أو التوجه أو الميل للتوحيد الخالص النقي الذي دعا إليه الخليل وبنى لأجله الكعبة وأوصى بها بنيه عند الموت, وأمر آخر تشمله هذه الحنيفية السمحة؛ وهي: أن هناك محرمات حرمها الله تعالى لا تليق بالأنبياء جميعاً، ونص عليها علماؤنا، فقالوا من ذلك: نكاح الأمهات أو الخالات أو القريبات. والأمر الثالث: هو شعائر وسنن الفطرة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم, وأنها من سنن أبينا إبراهيم عليه السلام, ومن أشهرها وأعظمها الختان.

إذاً: نجد أن هناك في العقيدة الإسلامية ما ينفي نفياً قاطعاً هذا الكلام الذي ينسب إلى إبراهيم عليه السلام من جهة أن سارة كانت أختاً له غير شقيقة؛ لكن هذا كما قلنا يأتي بشكل أصرح في موضوع لوط عليه السلام، ونأتي إلى واقعة, لولا أن مقتضى البحث العلمي أن نوردها وأن نقرأها لكان الإنسان يستحي أن يوردها أو أن يتحدث عنها أو أن ينشرها؛ لكن لا بد من ذلك لبيان ما فعله

هؤلاء المحرفون الذين دنسوا الأنبياء، توصلاً إلى تدنيس الشعوب المخالفة لهم, وإظهار العنصرية الحاقدة التي لا زالوا يمارسونها حتى اليوم باسم: محاربة من يعادي السامية, أو من يتكلم عن الساميين بزعمهم.

في الفصل التاسع عشر يقول التكوين: صعد لوط من صوغر -اسم مكان- وسكن في الجبل وابنتاه معه. المهم أنه اتخذ من مغارة في الجبل بيتاً له، هنا يأتي الإشكال؛ ابتداء من الفقرة الحادية والثلاثين: وقالت البكر الصغيرة: أبونا قد شاخ -تقول لأختها- وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض -يعني: ليتزوجنا- فقالت لأختها: هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً, يعني: يكون لنا ذرية من أبينا.

يقول في الفقرة الثالثة والثلاثين: فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة, ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها, وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضا فادخلي واضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلاً؛ ففعلتا في الليلة الثانية -والعياذ بالله- وقامت, وفي النهاية يقول: فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. نعوذ بالله هذه الشناعة التي يقولها هذا الكاتب المحرف لكلام الله, ثم يقول: فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم, والصغيرة ولدت ابناً دعته ابن عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم.

التبرير للشناعة التي تنسب إلى بعض الأنبياء في الكتب المحرفة

هذه الحادثة وهذا الإفك الشنيع المنسوب إلى نبي من أنبياء الله تبارك وتعالى وإلى ابنتيه؛ ماذا يقول عنه الشراح؟! لنأخذ أحد الشراح أو أحد الكاتبين في ذلك كنموذج، هذه الحوادث مع الأسف تقرها دائرة المعارف الكتابية ، التي كتبها مجموعة من الكتاب منهم لبنانيون ومنهم مصريون وغيرهم، ويقرها أيضاً قاموس الكتاب المقدس الذي أيضاً كتب كل مادة وكل حرف من حروفه باحث أو باحثان أو أكثر من هؤلاء -مع الأسف- العرب، الذين يعيشون في البيئة الإسلامية النقية الطاهرة, التي يترفع أفجر الفجار فيها عن مثل هذه الأعمال، ومع ذلك لا يكتمون هذه الحقائق ولم يتجرءوا أن يقولوا: إن هذا كلام لا يليق ولا ينبغي بالأنبياء؛ ولكن شرحوه.

يقول هذا الشارح: إن المفسرين -يعني: شرّاح الكتب هذه- يلتمسون العذر لابنتي لوط اللتين ربما

ظنتا أن العالم كله قد هلك, كما وقع في حادثة الطوفان.

من جاء بهذا التأويل؟! ومن أين جاء بهذا التبرير؟! فبدلاً من أن ينفي الحكاية ويقول: هذا كذب وبهتان، وهذا لا يليق؛ أخذ يتفلسف ويقول: ربما أن البنتين ظنتا أنه مثلما حدث أيام الطوفان؛ فلم يبق أحد في العالم إلا هما وأبوهما؛ فلذلك يقول: عملتا هذا العمل الشاذ رغبة في إحياء النسل لحفظ الجنس البشري وحفظ اسم أبيهما.

وهذا التأويل من النوع الذي -كما يقول علماؤنا- يكفي تصوره في فساده فلا يحتاج أن يرد عليه.

يقول: هناك أيضاً نوع آخر واتجاه آخر في تأويل وتبرير هذا؛ وهو أنهما كانتا تتوقعان مجيء المسيّا الذي يسحق رأس الحية؛ ولهذا فعلتا هذا الشيء, المسيّا هو المسيح الذي يأتي في آخر الزمان، والمبشر به في آخر الزمان الذي يسحق رأس الحية.. الحية من أين أتت؟! لعلنا نتذكر عندما تحدثنا في لقاء سابق أنه لم ينص الكتاب -التوراة- صراحة على أن الشيطان هو الذي أغوى آدم, وإنما قال: الحية، فالشراح أدخلوا الحية فقالوا: إنه نطق من على لسان الحية أو تمثل في شكل الحية، وليس في النص -النص المحرف- شيء من هذا، فعندما توعد الله تبارك وتعالى بإنزال العقوبة على الحية كما أنزل العقوبة على آدم بالطرد من الجنة وحواء، أن تكون العداوة بينها وبين الإنسان فهو يسحق رأسها وهي تسحق عقبه, هكذا يقول.

هنا جاء الذين جاءوا في آخر الزمان والذين ادعوا الربوبية والألوهية للمسيح عليه السلام, فقالوا: الحية هي الشيطان, والذي يسحق رأسه هو المسيح، وبماذا؟ بأن يصلب فداء عن البشرية؛ فيكفر الخطيئة التي لحقتهم بفعل أبويهم آدم و حواء بأكلهما من الشجرة, التي كانت بسبب الحية التي دخل فيها أو تبطنها إبليس!

لاحظ هذا التأويل البعيد جداً لكي تقرر العقيدة الوثنية؛ وهي التثليث والخطيئة الأصلية معاً المنقولة من الكتب ومن الأمم الماضية، وهذا نشرحه إن شاء الله في مكانه عندما نتحدث بإذن الله تبارك وتعالى عن الابتداع في الدين النصراني والتحريف, ففي كل مرة يحاول الشراح هؤلاء إذا أعوزتهم الحيلة أن يراوغوا عن الاعتراف بالتحريف أو إنكاره بأن يأتوا بنوع من الفلسفة التي تقول: هذا من أجل المسيح.. هذه قصة رمزية ترمز إلى كنيسة الله, إلى المجد الذي سيكون له في آخر الزمان.. إلى آخر ذلك.

هنا نوضح حقيقة؛ وهي أن ما جاء في التوراة وكذلك العهد الجديد؛ من أن الله تعالى سوف يرسل

رسولاً ويختار المختار أو المصطفى الذي يأتي ويدمر كل الوثنيات في الأرض، وكل الشرك والشر في الأرض ويظهره على الدين كله؛ أنها جميعاً تنطبق بدون أي تحريف ولا تأويل على عبده ورسوله خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم.

بوضوح لكن المسيح عليه السلام كان معه عشرات من الأتباع, حتى أنهم ركبوا مرة في قارب في بحيرة! وهم عدد قليل من الأتباع، وكانوا مضطهدين من اليهود وكانوا مضطهدين من الرومان، وحدث ما حدث أنهم أرادوا أن يقبضوا عليه ويقتلوه، فألقى الله الشبه على من أخذوا وصلبوه، وأما هو عليه السلام ((وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ))[النساء:157], لم تتحقق هذه النبوءات ولم يدمر ممالك الشر ولا الإمبراطوريات الوثنية, ولم يقض عليها عليه السلام، فهذا تحريف مركب؛ تحريف البشارات التي في النبي صلى الله عليه وسلم بأن تجعل للمسيح هذه من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يظلوا يدخلون في أي مكان يجدون فيه حادثة غريبة وقصة غربية، يحاولون أن يفسروها أو أن يؤولوها بما يدل على عقيدة سوف تأتي بعد آلاف السنين، وتأتي منقولة عن وثنيين ومشركين لا علاقة لها بالكتب السماوية, ولم ينزلها الله تعالى في أي كتاب، وهي عقيدة التثليث والخطيئة الأصلية والكفارة, التي سوف إن شاء الله تبارك وتعالى نوضحها فيما بعد.

إذاً: كان هذا هو التبرير أنه ما دام أن ابنتي لوط عليه السلام تظن أن العالم كله هلك، وفكرتا من أين يأتي المسيّا والمسيح الموعود؟ إذاً لا بد أن يسقيا أباهما الخمر، ولا بد أن يضطجعا معه والعياذ بالله، ولا بد أن ينجبا منه؛ لكي تتحقق تلك التي نجزم جزماً أنها لا صلة لقوم لوط ولا ابنتيه ولا الناس في عهده بهذه الحادثة، لا يوجد أي نص لا منزل ولا تاريخي أن هناك خطيئة أصلية, وأنها تصحب الجنس البشري, وأن الجنس البشري سوف يحتاج إلى من يصلب عنه في آخر الزمان لكي يفديه.

ثم يعقب هذا الكاتب فيقول: الكتاب المقدس يذكر الوقائع التاريخية بكل صراحة ونزاهة كما وقعت؛ ففي هذا دليل على أنه حقيقي وأنه كلام الله؛ لأنه حتى ما يقال عن القديسين والصالحين مثل نوح ومثل لوط فإنه ينقله دون أن يداري فيه.

ونحن نقول: إن للحقيقة قدراً، وللخرافة قدراً، ويجب أن يوضع الحد الفاصل بين الحقيقة وبين الخرافة، ويجب أن ينبذ من كتاب الله ومما ينسب إلى الأنبياء حتى لو كان في أخبار التاريخ مما فيه تدنيس وتحقير لمقام النبوة العظيم.

العلة الحقيقة لافتراء الشناعة على الأنبياء في منهج الوحي المحرف

نرجع أيضاً للعلة التي ذكرها في آخر الكلام، والتي هي مثل العلة في كنعان, لم تفتعل هذه الحكايات؟!

كنعان من أجل إثبات عداوة الكنعانيين, لعنة الكنعانيين، شناعة الكنعانيين, أنهم أمة شريرة, أنها أمة تستحق الإبادة.. عرفنا ذلك. ما الشعوب التي تأتي في قصة لوط ويريد اليهود أن يشنعوا بها أيضاً، وأن يجعلوها في مثل تلك المنزلة الحقيرة المستحقة للعن والوعيد؟!

يشرح ذلك فيقول: إن الموآبيين والعمانيين -الذين بلدهم الآن عمّان التي هي عاصمة الأردن اليوم.. شعبان من الشعوب التي كانت تسكن في تلك المنطقة- يريد أن يجعل هذه الشعوب كما كان كنعان وكما تكون شعوب كثيرة في التوراة شعوباً مدنسة وشعوباً نجسة، ويمكن لكل واحد أن يعيرها بأنها نشأت من هذا العمل الشاذ, ومن هذا السفاح المقيت الذي تنسبه التوراة إليهما، وبالتالي فهذا ما فعله لوط وابنتاه وهو ابن أخ إبراهيم عليه السلام -طبعاً حسب ما يقولون لا ننفي ذلك ولا نثبته، نعم نثبت أن له قرابة وصلة وهي صلة أعظم من كل القرابات, وهو أنه كان مؤمناً آمن لإبراهيم عليه السلام وهاجر في ذات الله تبارك وتعالى معه.

أمور لا بد من معرفتها في تحريف الوحي في الأمم السابقة عن الأنبياء

فوات وعد الله لبني إسرائيل بالتكريم

المقصود أن يقال عن هؤلاء القوم: إن هذا العمل الذي عمله هؤلاء يخرج هذه الشعوب عن وعد الله تبارك وتعالى بالتكريم, وأن يكونوا أمة عظيمة، وأن يملكهم الأرض، الذي هو يختص بذرية إبراهيم؛ بل بذرية يعقوب بل ببني إسرائيل خاصة؛ الذين يدعي هؤلاء أنهم من نسلهم ومن الأسباط الاثني عشر؛ فلذلك لا يدعون أية فرصة لتدنيس أو تشويه الأنبياء، توصلاً بذلك إلى تدنيس الشعوب التي يريدون أن يحاربوها أو يريدون أن يعادوها. يمضي التاريخ وتنتهي الأحداث وتنتهي تلك الشعوب من الأرض, ويبقى أن التحريف الذي وقع في كلام الله تبارك وتعالى شنيع جداً, وأن ما ينسب إلى الأنبياء فظيع جداً عندما يدنس تاريخهم بمثل هذا الشكل، وبذلك يظهر لكل ذي عقل وبصيرة ميزة هذا القرآن العظيم, وميزة النظرة الإسلامية، والعقيدة الإسلامية الصافية النقية في

تكريم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، في تقديرهم وتوقيرهم وتعظيمهم, وفي نسبة كل الفضائل والكمالات البشرية إليهم، ونفي النقائص والعيوب التي تخل بمقام الرسالة عنهم جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم.

ظهور عقلية التدنيس والتنجيس اليهودية

الواقع أن هناك نوعاً من التدليس يمكن أن نسميه الآن التدنيس أو التحقير لأنبياء بني إسرائيل بالذات بعد أن ملكوا, وبعد أن ورثوا، وهو ما يتعلق بداود وسليمان عليهما السلام.

لا يكفي وقت الحلقة لعرضه؛ لكن نشير إلى أن هذه التحريفات التي حدثت, والتي نُسبت إلى نوح وإبراهيم ولوط عليهما السلام هي أيضاً مقدمة لما سوف يأتي فيما بعد، بمعنى: أن العقلية عقلية التدنيس والتنجيس التي يكتبها هؤلاء -لا نعلم في أي عصر كتبوها قبل الجلاء أم بعد الجلاء, في عصور الاضطهاد التي حلت بهم- إنما نعرف النفسية اليهودية الخبيثة التي كتبت مثل هذا الكلام عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ أنها لم يسلم منها لا داود ولا سليمان ولا أحد من الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

عدم شمول وصف التحريف لمن آمن بالله وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام

ونعود فنكرر عندما نقول: إن اليهود فعلوا ذلك فإننا لا نعني من آمن بالله تعالى, وآمن بموسى عليه السلام, ثم آمن بعيسى عليه السلام, ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء هم المؤمنون, وهؤلاء جزء من الأمة الإسلامية العظيمة الممتدة في أعماق التاريخ، وإنما نتكلم عن من حرفوا وبدّلوا كلام الله تبارك وتعالى، وعن من صاغوا وكتبوا كتب الله, وبدلوا في وحي الله تبارك وتعالى؛ لكي ينفثوا سمومهم وحقدهم على شعوب الأرض التي اضطهدتهم أو عذبتهم من الفرس والرومان ومن العرب وغيرهم، نحن لا نقر أي اضطهاد حدث لا لليهود ولا لغيرهم ولا لأي أمة من الأمم، نحن أمة تنكر الظلم؛ ولكن لا يجوز بأي حال من الأحوال أن نجعل من وقوع الظلم أو وقوع التعذيب النفسي والمعنوي على أية أمة من الأمم، مبرراً ودافعاً لأن يُعتدى على مقام الألوهية أو على مقام النبوة، فيأتي هؤلاء فيصفون الله تبارك وتعالى بما لا يليق من الحزن أو الندم أو البداء -أن يعلم بعد أن يجهل تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- أو أن يصفوا أنبياء الله تعالى بمثل هذه الشنائع والقبائح، من شرب الخمر، ومن فعل الفواحش, ومن لعنة من لا يستحق, ومن مؤاخذة الأحفاد بظلم الأجداد، أمور كلها في الحقيقة لا تتفق أبداً مع مقام النبوة، وإنما تتفق مع نفسية الشعوبي الحاقد، الذي يريد

أن ينفث حقده, ويفجر كبته وإحباطه ويأسه من طوال هذا التاريخ الاضطهادي الطويل في الشتات، فيصب جام غضبه على هذه المجموعة؛ لكي يُظهر أنه مهما نالهم من اضطهاد, ومهما نالهم هم من قوة أو تمكن؛ فإنهم شعوب نجسة مدنسة ملعونة من عهد نوح، وهم من ذرية هذا الفعل القبيح الشاذ الذي ينسبونه إلى ابنتي لوط.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يصلح حال الإنسانية جميعاً, وأن يردنا جميعاً إلى الحق والهدى، وأن يكتب لهذه العقيدة الإيمانية الصحيحة التي جاءت في الكتاب والسنة ما وعد به من النصر والظهور والغلبة؛ لكي تحرر العقل البشري من الخرافة ومن التحريف ومن التأويلات الباطلة، وأن يهدي هؤلاء القوم.

وندعوهم بهذه المناسبة إلى أن يتأملوا ما في كتاب الله تبارك وتعالى من تعظيم الله وتوقيره، ومن تعظيم أنبياء الله تبارك وتعالى وتوقيرهم، فيرفعوا أنفسهم من التعصب الأعمى ومتابعة الآباء والأجداد، ويؤمنوا من قبل أن يطمس الله سبحانه وتعالى وجوها أو يردها على أدبارها أو يلعنهم كما لعن أصحاب السبت.

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم، أن يمن علينا وعلى المسلمين جميعاً وعلى البشرية جمعاء بالهداية والخير والتوفيق والصلاح، إنه سميع مجيب.

الحلقة السادسة عشرة: أنبياء بني إسرائيل في الوحي المحرف

العناصر:

1.مقدمة

2. موسى وهارون عليمها السلام في الوحي المحرف.

3.موسى عليه السلام في القرآن الكريم (مقارنة).

-بعض الافتراءات على موسى وهارون عليهما السلام.

4.داود عليه السلام في الوحي المحرف.

5.داود عليه السلام في القران الكريم (مقارنة).

6.خاتمة.

نظرة بني إسرائيل إلى أنبيائهم

الحمد الله رب العالمين, الرحمن الرحيم, مالك يوم الدين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى سائر أنبيائه المختارين المصطفين.

أما بعد:

أيها الإخوة الكرام! لا زال الحديث عن تاريخ النبوة, لا عن تاريخ الأنبياء -كما أشرنا من قبل- فالغرض هو النبوة, ومكانة النبوة، وبعد ذلك بإذن الله تبارك وتعالى نعود إلى الوراء, ونستعرض ما وقع من أحداث لبعض الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم, ونذكر شيئاً من سيرهم.

وإنما الغرض الآن هو بيان مقام ودرجة النبوة في الفكر الكتابي, أو في العقائد الكتابية المحرفة، وقد تقدم -في اللقاء الماضي- ما يتعلق بنوح ولوط عليهما السلام, وأشرنا إلى ما فيهما من محاولة واضحة وإفك وافتراء؛ ترمي هذه المحاولة إلى تحقير وتدنيس وتنجيس الشعوب المعادية لبني إسرائيل في ذلك الوقت, بمعنى: أن المحرفين الكهنة الذين حرفوا كتاب الله تبارك وتعالى حرفوه بناء على نزعة عنصرية شعوبية؛ لكن العجب -وهذا ما نراه الآن في هذه الحلقة- أننا عندما ننتقل إلى التاريخ الإسرائيلي نفسه -إلى موسى وهارون عليهما السلام ومن بعدهم- نجد أن النزعة لا تزال موجودة, والهدف لا يزال موجوداً؛ لكن لا بشكل يستهدف الشعوب الأخرى؛ ولكن بشكل شيطاني يستهدف تحقير أو تنقيص درجة هؤلاء الأنبياء؛ باعتبار أنهم كهنة أو شبه كهنة لغرض شيطاني آخر؛ وهو الهبوط إلى مستوى النفوس الشهوانية المادية المنحطة, التي لا ترتقي أبداً إلى درجة الأنبياء.

ومن هنا يكون التاريخ المتعلق بأنبياء بني إسرائيل هو حقيقة حطاً وتهويناً من شأنهم وقدرهم في معظم الكتاب؛ فتصبح كل الأخطاء التي يرتكبها الكهنة أو الأحبار أو المشعوذون, وكل النوازع

البشرية الشريرة أو الخبيثة من تعظيم الدنيا أو حبها أو كراهية الخلق أو العداوة للبشر أو ما أشبه ذلك؛ كلها يريدونها أن تستند إلى تاريخ الأنبياء نفسه؛ فليس هناك من شيء مقدس.

الكلام الذي نقوله الآن ليس افتراضاً, طبعاً قضية نظرة الكتبة أو الأحبار الذين كتبوا العهد القديم أو التوراة وما بعده، وعقيدتهم ونفسيتهم وما أشبه ذلك؛ خضعت لدراسات طويلة جداً من علماء النفس, ومن علماء الاجتماع من القديم والحديث، حتى أن فرويد صاحب مدرسة التحليل النفسي المشهور, ولا زال الآن نعوم تشومسكي وغيره من اليهود هم بأنفسهم يحارون أو يحاولون أن يفسروا هذا المنحى النفسي الذي وجد في تلك النفسية اليهودية .

بمعنى آخر: القضية ليست سامية ولا سامية, نحن في منهجنا الإسلامي نرفض الشعوبية والعنصرية والقومية بأي شكل وتحت أي اسم، ولكن القضية أن هناك من لم يؤمن حقيقة بالأنبياء الذين أرسلهم الله تبارك وتعالى إلى بني إسرائيل, وإنما تزندق؛ ولذلك نجد الحافظ ابن كثير رحمة الله عليه وغيره يقولون: هذا من وضع زنادقة أهل الكتاب؛ تزندقوا أو نافقوا فأدخلوا في الكتب ما ليس منها, مع احتفاظنا الدائم -وأذكر الإخوة دائماً بهذا- بأن عقيدتنا وإيماننا بأنه ((وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ))[الأعراف:159], وأن الجيل المؤمن استمر, وأنهم في كل مرة يبعث إليهم نبي يجدد لهم الإيمان؛ فهناك منهم المؤمنون ومنهم الفاسقون، وكما ذكر الله سبحانه وتعالى عن كل الأمم, وحتى في هذه الأمة الإسلامية هناك من هو على الجادة المستقيمة وهناك من هو منحرف.

موسى وهارون عليهما السلام في الوحي المحرف

إذاً: نرجع إلى كيف تناول كاتبوا العهد القديم ما يتعلق بسيرة موسى وهارون عليهما السلام من هذه الزاوية أي: من حيث معنى النبوة.

في الحقيقة أننا نجد أن الملحوظة التي تحدثنا عنها في الحلقة الماضية لا تزال قائمة؛ وهي أن الفرق بين النبي وبين الكاهن لا يكاد يذكر، فعندما يبدءون بهارون -باعتبار هارون عليه السلام أكبر من موسى عليه السلام كما يقولون, وكما تثبت رواية العهد القديم- فالكلام عنه هو كلام عن أي كاهن, وأن مرتبة الكهنة أخذها باعتبار السن، ثم بقيت وراثة في ذريته من بعده؛ وهم اللاويون؛ فهم كهان في نظرهم, ولا نكاد نجد ذكراً للنبوة, بل لم نجد ذكراً لنبوته!

بخلاف ما نجده واضحاً جلياً في القرآن الكريم؛ بأن الله تبارك وتعالى أكرم نبيه موسى عليه

السلام ورحمه بأن جعل معه ((أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا))[مريم:53], فهما نبيان كريمان ويتلقيان من الله تبارك وتعالى، والله عز وجل يثبتهما بأنه معهما يسمع ويرى, ويسدد خطواتهما مرة بعد مرة، وهذا لا نكاد نرى له أثراً إلا في بعض الأحداث التي يوردها العهد القديم؛ لكن أصل نبوة هارون عليه السلام لا نقول فقط: لم يثبتوها؛ بل ذكروا ما ينافيها منافاة مطلقة, مثل قولهم: إن الله سبحانه وتعالى عندما أراد أن يخاطب موسى عليه السلام, وذهب بقومه، وكان الموعد ثلاثين ليلة، فاستبطأه قومه فحدثت إشكالية أنه استبطأ القوم، وحدثت إشكالية أخرى وهي: أن بني إسرائيل جمعوا من الحلي ومن الذهب ما ردموه وجعلوه في حفرة، فاستطاع السامري أن يصنع لهم عجلاً, وهم ينسبون ذلك صراحة إلى هارون؛ أنه استجاب لبني إسرائيل وصنع لهم عجلاً! وهذا نص ما جاء في سفر الخروج: صنع هارون عجل الذهب وبنى له مذبحاً.

فهم يقولون: إنه هو الذي صنع العجل, وبنى له مذبحاً, وجعل بني إسرائيل يعبدونه, ورضي بأن يعبد من دون الله تعالى! وهذا إفك مبين, وهنا نجد أننا لا بد أن نشير إلى عدة قضايا في الحقيقة مهمة جداً.

القضية الأولى: أن هذا الموضوع من أهم الموضوعات التي يمكن لطلاب العقيدة وطلاب البحوث التاريخية وحتى طلاب الأدب؛ أن يقارنوا ما بين القرآن الكريم وما بين هذه الكتب المحرفة في قضية السمو والإيمان والأسلوب في كل القضايا.

القضية الثانية: أننا نستطيع أن نتأكد تماماً كيف ينظر هؤلاء اليهود وأهل الكتاب بالفعل إلى أنبيائهم, وإذا كان هذا الكلام عن أعظم الأنبياء فماذا سيكون الحديث فيما بعد؟! إذا كانت عبادة الأصنام أو إقرارها؛ بل صناعة الأصنام نفسها! إذا كان ذلك يفعله الأنبياء فماذا يمكن أن يفعل فيما بعد؟! ولماذا ينكرون على من حرف من اليهود فيما بعد في تاريخهم الطويل؟! فهناك إذاً قضايا لا بد أن تستوقفنا ونحن نتعرض لمثل هذا, وهي قضايا كثيرة نأتي إن شاء الله فيما بعد على بعضها.

لنذكر فقط هنا بأن القضية عندما تأتي مسألة الأنبياء أو ما أشبههم وهي تأتي عن اليهود أنفسهم، فانظر ماذا يقول المسلمون؟

هناك جانب آخر أعظم من هذه، وهو إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم عندهم هو الذي قال القرآن أو كتبه أو أملاه ووضعه -وحاشاه من ذلك صلوات الله وسلامه عليه- فأي عدو يريد أن يعادي اليهود -عدو من أعداء اليهود- فيجد في كتبهم ما يحط من قدرهم وما يحط من قدر أنبيائهم وإلى آخره,

فلماذا يكلف نفسه وهم يعادونه ويؤذونه؟ لماذا يكلف نفسه أن يرفع درجتهم؟! وأن يأتي بغير ما في كتبهم, وأن يمجد من هم يحقرونه! يعني: قدواتهم ونماذجهم المفضلة لديهم لماذا هو يرفعها ويقدرها إلا أن هذا وحي من الله تبارك وتعالى، وما عنده علم -اللهم صل وسلم عليه- أبداً, ولا كان يتلو من قبله من كتاب, ولا كان يخطه بيمينه, ولم يطلع على ما يبرئ أولئك الأقوام، هذه النسخ القديمة من العهد القديم وغيره هي التي كانت موجودة في أيام النبي صلى الله عليه وسلم في التاريخ القديم، ومن أين له أن هذا لم يكن كذلك؟

قصة تأتي في القرآن عجيبة جداً, من أعظم وأروع القصص القرآنية التي تأخذ بمجامع الألباب والعقول في مضامينها وفي أسلوبها.. وتأتي في التوراة بهذه الشكل! فإذا كان هذا الذي يعاديه اليهود ويؤذونه وحاولوا قتله يأتي بمثل هذه المعاني العظيمة عن أنبيائهم، إذاً هذا النبي صلوات الله وسلامه عليه وهذه الأمة التي من بعده ليست شعوبية ولا عنصرية, ولا تنظر من زاوية سامية ولا سامية، وإنما تنظر إلى الحق من حيث هو حق, ومن حيث هو وحي من عند الله تبارك وتعالى.

موسى وهارون عليهما السلام في القرآن الكريم

فنجد بإيجاز أن الله تبارك وتعالى اختار موسى عليه السلام واصطفاه واجتباه وأوحى إليه وواعده للميقات، وكان الميقات ثلاثين ليلة؛ ولكن الله تعالى يقول: ((وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً))[الأعراف:142]؛ فتم الميقات من عند الله تبارك وتعالى أربعين ليلة, واختار معه صفوة من قومه، وعند غيابه دخل الشيطان إلى تلك القلوب المريضة التي لا تزال حديثة عهد بالوثنية وبالشرك، والتي تعبد الذهب, وأشربت في قلوبها حب الذهب، وهم فئة من بني إسرائيل, ولا نقول: كلهم لا في القديم ولا في الحديث, وإنما فئة منهم هذه نفسيتها -لكن طبعاً الجيل الأخير غلب ذلك على أكثره- المقصود: أن هذه الفئة هي التي بين الله سبحانه وتعالى أنه ليس هارون عليه السلام من أضلهم! وإنما هو رجل ثالث ضال؛ وهو السامري، مع التنبيه أن اليهود منذ العصر القديم إلى الآن يقولون: لا ينجس أحد منهم فمه بأن ينطق كلمة سامري -كما يزعمون- فيعادونهم أشد العداء! فما المانع ما دام أنكم تحتقرون أتباع السامري إلى هذا الحد أن يكون فعلاً -كما جاء في القرآن- هو الذي أضل, وهو الذي زاغ وأزاغ قومه عن الحق؟! المهم هذا السامري عندما قبض قبضة من أثر الرسول الملكي وهو جبريل عليه السلام ورماها على الذهب؛ فالله سبحانه وتعالى بحكمته عز وجل صار كأن له خوار.

حتى إن ابن عباس رضي الله عنه قال: [والله ما تكلم العجل قط], وكما ذكر الله تعالى: ((لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا))[الأعراف:148]، [ما تكلم قط؛ ولكن كان الهواء يدخل من فمه ويخرج من دبره]، والمقصود من ذلك: فتنة!

فهارون عليه السلام يقف بكل قوة في هذا الموقف العصيب الرهيب، أمة نبي من الأنبياء الكرام, أمة ينقذها الله من فرعون وقومه, أمة كانت على الشرك وعلى العبودية ويخرجها الله إلى نور الإيمان وإلى نور التوحيد، وتنتظر أن يأتي موسى عليه السلام بالألواح وبالخير وبالهدى وبالنور من ربه، ومع ذلك تنتكس إلى أرذل وأحط أنواع الشرك التي لا يفعلها إلا الشعوب الملعونة المنبوذة، مثلما لعنوا هم من قبل كنعان والموآبيين والعمونيين.. إلى آخره, إذا عبد هؤلاء الأصنام مثلما عبدها أولئك أي قيمة لهذه الأمة بعد ذلك؟ كيف يكون شعب الله المختار وهو يعبد ما يعبده أولئك, وأشد من ذلك أن الذين يصنعون الأصنام هم الأنبياء كما يزعمون!

المقصود أن هارون عليه السلام يقول: ((يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ))[طه:90] هذه فتنة, ((وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ))[طه:90] تبارك وتعالى, ويبذل جهداً عظيماً معهم -كما بين الله تبارك وتعالى- لأن يهتدوا، ولكنهم أصروا أن يظلوا عليه عاكفين, وأن يظلوا يعبدوه حتى يرجع إليهم موسى، فلما رجع موسى عليه السلام أخبره الله تبارك وتعالى بذلك؛ فيفاجأ بهذا الحدث الرهيب, فيلقي الألواح التي فيها ما كتب الله تبارك وتعالى لهم من الموعظة والحكمة والشريعة من الغضب, وأخذ برأس أخيه يجره إليه، كان هذا الموقف العجيب من أعجب قصص القرآن؛ الأخ -وعلى قولهم أنه- الأصغر يجر برأس أخيه الأكبر وبلحيته, ويقول: كيف يحصل هذا؟! إنكار شديد لأن يقع الشرك, وإنكار شديد لأن يقره، ويصر هارون عليه السلام أنه لم يقر ذلك، وأنهم غلبوه, وأنهم ضيقوا عليه الخناق ولا يدري, احتار! يخشى أن يأخذ من آمن معه من بني إسرائيل ويلحق بموسى عليه السلام إلى الجبل؛ فيكون قد فرق بينهم، وحاول وظل ينصح حتى جاء موسى عليه السلام. هذا بإيجاز.

إذاً: الفرق كبير جداً ما بين هذه النظرة القرآنية السامية العالية، هذه النظرة الإسلامية للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وبين ما يصف اليهود به أنبياءهم.

بعض الافتراءات على موسى وهارون من الوحي المحرف

هل اكتفوا بهذا؟ لا؛ بل كما في سفر العدد, ونقله صاحب قاموس الكتاب المقدس يقول: وكانت

آخر أخطائه أنه لم يقدس الرب أمام بني إسرائيل لا هو ولا موسى, يعني: لا تزال الأخطاء مستمرة, ولا يزال أنه لم يقدس الله هو وإياه؛ فعاقبهما الله بألا يدخلا فلسطين .

جعل من يدخل الأرض المقدسة هو يوشع غلام موسى عليه السلام، أما موسى وهارون ففي نظر الكاتب المحرِّف أن ذلك عقوبة من الله فلا يدخلا الأرض المباركة؛ لأنهما عصيا الله تبارك وتعالى.

وأبرز ما عندهم في قصة هارون أنه أسس الكهانة -كما يقولون- فأصبحت الكهانة اللاوية, وهو أول رئيس كهنة -في نظرهم- وبقي الكهان اللاويون أو الليفيون -كما ينطقوها الآن في العصر الحالي ليفي أو لاوي- في نسله؛ فلا يكون كاهن من بني إسرائيل إلا من نسل هارون. فهذه إشارة إلى ما يتعلق بهارون عليه السلام.

داود عليه السلام في الوحي المحرف

في الحقيقة هناك قضايا أعجب من هذا, أو ربما أكثر إيلاماً في بعض الجوانب؛ وهو أن أعظم أنبيائهم فيما بعد ذلك هما: داود وسليمان عليهما السلام.

في البداية نتحدث عن أمر خطير وعجيب في نفس الوقت! وهو: كيف نسبوا دواد عليه السلام؟ أي: إلى من ينتسب داود عليه السلام؟ نجد أنهم نسبوه إلى امرأة تسمى راحاب -وهذه كلمة عبرية قريبة من نفس المعنى العربي رحاب- هذه امرأة يقولون في التوراة في العهد القديم: إنها امرأة زانية، ويذكرون حيلها وما صنعت من أحابيل من أجل بني إسرائيل.

المقصود أنهم يقولون: إن هذه المرأة الزانية تزوجها أحد أسباط يهوذا, فصارت من سلسلة نسب الملك داود -وهنا لاحظوا أنهم لا يقولون: النبي داود بل الملك داود، فهو ملك عندهم- فمن سلسلة هذه المرأة الزانية ومن سلالتها ومن ذريتها جاء الملك داود، وهذا الكلام يقشعر منه البدن؛ لكن العجيب أيضاً جداً أن يقولوا كما في إنجيل متى: ثم بالتالي أصبحت في سلسلة نسب الرب يسوع! فهم ينسبون المسيح عليه السلام أنه من ذرية داود, ومع ذلك فهو رب كما يقولون! ثم بعد ذلك تصبح هذه المرأة الزانية هي الأم أو الجدة لكل الأنبياء هؤلاء؛ لداود هي أيضاً جدة, وأم لسليمان ثم أيضاً للمسيح عليه السلام.. فأي شناعة أعظم من هذه الشناعة؛ أن هؤلاء الأنبياء الكرام ينتسبون أو يتسلسلون من امرأة زانية والعياذ بالله، فهذا كلام مرفوض -وكما قلنا في الحلقة الماضية- نحن ننزه الأنبياء عن هذا، وكان يجب على شراح هذا الكتاب, وعلى من يكتبون عنه في دائرة المعارف

الكتابية, أو في القواميس والمعاجم المتعلقة بالكتاب أن ينفوا نفياً قاطعاً هذا الكلام، وأن يقولوا: إنه محرف, وأنه باطل, وأنه مقحم, وأنه مضاف، فهذا ما نعتقده ونجزم به؛ لأنه لا يمكن أبداً أن يكون الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إلا من سلالة وذرية طاهرة أرحاماً وأصلاباً, حتى يبعث الله تبارك وتعالى من يبعث منهم.

على أية حال لم يقف الأمر عند هذا, وإنما أيضاً نجد أن في سفر النبي هوشع, وهو عندهم السفر الثامن والعشرون من الكتاب من العهد القديم -وهو أول الأنبياء الصغار كما يسمونهم- نجد أيضاً أن الرب -كما يزعمون- يأمر هوشع أن يتزوج من فلانة الزانية! وعندئذ نجد هناك نوعاً من التفسيرات لأول مرة كأنهم استغربوا! لماذا استغربوا؟ لأنه كيف يأمر الرب بأن يتزوج نبي من زانية! وهم يقولون: إن الشريعة التي جاءت على موسى عليه السلام في الأسفار الخمسة الأولى تحرم أن يتزوج الكهنة من الزواني.

طبعاً المشكلة لا زلنا في أن يوشع كاهن مع أنهم يقولون: إنه نبي, ومع ذلك باعتباره كاهناً لا يجوز أن يتزوج من الزانية ليس فقط لأنه نبي! فلاحظ أيضاً الخلط بين مقام النبوة ومقام الكهانة, ولاحظ أن باعتباره كاهناً يحرم عليه! لكن باعتباره نبياً لم يأبهوا به.

الشاهد أنهم أخذوا يؤولونها؛ أي: كيف يأمر الله نبياً أن يتزوج من زانية؟! فأولوا ذلك بثلاثة تأويلات:

التأويل الأول: قالوا: إن هذه مجرد رؤيا وحلم لم يقع.

التأويل الثاني: أن هذه حقيقة وأنها درس للبشر.. إلى آخره.

التأويل الثالث: أن هذا النبي ما كان يعلم أنها زانية, كأنه خبر عمن لم يقع, أو كما يقولون بالنص: أن المرأة زنت بعد الزواج, والعياذ بالله.

ولكن على أي تأويل من تأويلاتهم فهي فاحشة, وهي منكر يجب أن نرفضه في تصورنا الإسلامي؛ هذا ما يتعلق بتدنيسهم لنسب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وتستمر هذه السلسلة من الشناعات، فعندما نأتي إلى نبي الله داود عليه السلام, وكيف جاء منه النبي المختار المصطفى الآخر سليمان عليه السلام؛ نجد أيضاً قصة شنيعة يفتريها هؤلاء المحرفون عنه؛ فيقولون: إن قائداً كان في جيش الملك داود عليه السلام -يسمونه الملك داود فهو عندهم مجرد

ملك- يدعى أوروبا الحثي -من الجنس الحثي- أوروبا كانت له زوجة جميلة تسمى بات شبع -يعني: هي تحريف لـ(بنت شبع) أي: لبنت اليوم السابع, يحرفونها بالعبرية بات شبع- المهم هذه كانت على قدر كبير من الجمال ويفترون في ذلك خيالات وحكايات، فداود عليه السلام اطلع على عورتها من سطح البيت فرأى جمالها.. وهذه افتراءات أيضاً، المهم أنه رآها وهي تغتسل فأعجب بجمالها -وحاشاه من ذلك- فأرسل القائد أوروبا الحثي في كل معركة يقحمه في المقدمة حتى يقتل, وبالفعل قتل، فلما قتل تزوج هذه المرأة, فأنجبت منه نبي الله سيلمان عليه السلام!

فهذه أيضاً قصة يقشعر منها البدن؛ وهي شنيعة جداً, ومع الأسف الشديد كيف يرضى الشراح -نحن الآن لا نتكلم عن المحرِّف فقط؛ لكن نتكلم عن الشراح- مثل هذا الكلام؟! ويقولون بالنص في كتاب قاموس الكتاب المقدس : وقد ارتكب داود خطيئته الشنيعة ضد أوروبا الحثي أثناء حربه مع العامونيين, ثم يقولون بعد ذلك: ومع أن داود ارتكب في بعض الأحيان خطايا يندى لها الجبين خجلاً إلا أننا إذا نظرنا إليه.. إلى آخر ما ذكروه من الشناعات.

إذاً: بعد هذه النظرة الشنيعة عنه في كتبهم، نجد أننا إذا أردنا أن نشكل شخصية داود عليه السلام من التوراة ومن أسفارهم فإننا نجد أموراً ثلاثة:

الأمر الأول: أنه ملك محارب ومقاتل, فلا يذكرون نبوته.

الأمر الثاني: أنه فعل هذه الشنائع والأخطاء.

والأمر الثالث فيما يتعلق بـ الزبور الذي أنزل عليه؛ فإنهم يقولون: إنه كان ملحناً ومنغماً ومنشداً, فأبدع وأنشأ مزامير تنشد في كل بقاع العالم المسيحي طوال قرون وقرون!

فهو رجل شاعر مبدع ملحن، أنشأ هذه النغمات الروحانية -التي يسمونها المزامير- وترنم بها، ويذكرون في أول مزمور يذكرونه: هل هو منه أو من أحد أتباعه وكيف نغمته؟ وهذا يذكرك أحياناً بما في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني عن كيفية النغمات.

الشاهد: أنه لا يعدو في نظرهم أنه ملك, وأنه محارب مقاتل, وأنه رجل شهواني -حاشاه من ذلك- تجعله شهوته يرتكب هذه الموبقات، وفي نهاية الأمر أنه ما أثر عنه وهو هذا الزبور العظيم -ولا يزال حتى الآن فيه معاني عظيمة جليلة سنأتي عليها إن شاء الله عند الحديث بالتفصيل عن تاريخ الأنبياء وتاريخ الكتب المقدسة- مع ذلك هو عندهم مجرد ألحان وأناشيد وأشعار روحانية, وهذه

مأثرة له، يعني: لا يذكرون أنها وحي من الله, ولا يذكرون أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أنزلها عليه.

داود عليه السلام في القرآن الكريم

حقيقة عندما يقارن المرء بين هذا وبين ما جاء في القرآن؛ لا نستطيع أن نعبر بل ينبغي لنا أن نستعير ما عبر به علماؤنا الأجلاء عن الخطيئة التي حدثت من داود عليه السلام, وجاءت في القرآن، ليست النظرة الإسلامية نظرة تاريخية عن رجل أخطأ أو لم يخطئ, وماذا أخطأ؟ الأمر أعظم من ذلك الأمر -وقد شرحناه ولله الحمد بالتفصيل في مقام التوبة في الكلام عن التوبة بشرح العقيدة الطحاوية- أقول: الأمر يتعلق بأمر عظيم جداً, ويتعلق بي وبك وبكل مؤمن على وجه الأرض، وهو: ماذا نفعل إذا وقعنا في خطيئة؟ وهل يكون حال الإنسان قبل الخطيئة أعظم أو حاله قبلها؟ وكيف يمكن تدارك الإنسان إذا أخطأ؟!

حالة طبيعية بشرية يخطئ كل إنسان فيقع فيها، هذه المعاني الروحانية العظيمة تفقد رونقها؛ بل والعياذ بالله تصبح أشنع من أن تذكر إذا ارتبطت أو ذكرت على ما ذكر في العهد القديم، أما في كتاب الله الحكيم، الذكر المبين كما بين الله سبحانه وتعالى، الخطيئة واضحة لا علاقة لها بزنا ولا فحشاء, القضية هي أن الله سبحانه وتعالى جعل داود عليه السلام خليفة -هو ملك؛ لكن خليفة أشرف- وجعله قاضياً, وأمره أن يحكم بين الناس بالحق، فكان خطؤه: أنه لما ابتلي وجاءه الملكان وتسورا عليه المحراب على أنهما خصمان؛ فظن أنهما رجلان من بني إسرائيل؛ يدعي الأول أن لأخيه تسعاً وتسعين نعجة وأن له نعجة واحدة وأنه أخذ منه النعجة.. فجاء الخطأ من داود عليه السلام أنه تعجل في الحكم, فقال كما جاء ذلك في القرآن: و((قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ))[ص:24].

القضية: كيف صاحب التسع والتسعين يأخذ من صاحب النعجة؟! هل هذا موافق للشرع؟ لا؛ لأن الشرع لا ينظر إلى ذلك؛ بل قال الله تبارك وتعالى: ((إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا))[النساء: 135], ولمَ لا يكون رجل له مئة نعجة ويأتي واحد ويأخذ منها نعجة! إذاً كان عليك يا داود وقد جُعلت حكماً وخليفة وقاضياً تحكم بشرع الله وبالعدل؛ ألا تعجل في الحكم, وأن تستمع إلى الطرف الآخر، فإذا أثبت الطرف الآخر المدعى عليه أن المائة له يكون هذا هو الظالم, وهذا هو السارق، فلا يتعدى الأمر شيئاً من ذلك على الإطلاق؛ لكن لما علم أنه فعلاً استعجل في الحكم وأخطأ، ((فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ))[ص:24].

وأصبح هذا درساً روحياً عظيماً, ودرساً إيمانياً من دروس الفقه الإيماني التي يتكلم عنها السلف الصالح، وقد قلنا أن الصحيح ما رجحه العلماء: أن داود عليه السلام كان بعد هذه الخطيئة أفضل منه قبلها؛ لأنه اتعظ واعتبر واتبع أمر الله تبارك وتعالى، وكل واحد منا إذا وقع في خطأ أو وقع في خطيئة فاتعظ واعتبر وتاب، فإن حاله يكون أفضل بإذن الله تبارك وتعالى، وقد رددنا -فيما سبق- على بعض المزاعم الصوفية الذين يقولون: إن الله تعالى قال: يا داود! أما الذنب فقد غفرناه, وأما الود فلا يعود. وقلنا: إن هذا باطل؛ لأن الله تعالى يقبل توبة العبد إذا تاب؛ بل إنه عز وجل يقول: ((إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ))[الفرقان:70], فبيَّن الله سبحانه وتعالى أنه يبدل السيئات حسنات بعد التوبة لي ولك ولكل إنسان إذا تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً، فكيف بنبي من الأنبياء؟!

والحمد الله أن الأمر لا يتعدى أن يكون تعليماً وتأديباً من الله تبارك وتعالى، وحدث مثله للنبي صلى الله عليه وسلم في ((عَبَسَ وَتَوَلَّى))[عبس:1]، وحدث مثله في موضوع الأسرى، وحدث مثله للنبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله: ((وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا))[النساء:105].

فهذه تقع, وهذه من باب التوجيه, ومن باب رفع الدرجة، ومن باب أن يبين الله سبحانه وتعالى أنه لو وكل البشر إلى أنفسهم لما كانوا شيئاً، وحتى الأنبياء الكرام مع ما أعطاهم من المكانة والمنزلة والاختيار والاصطفاء! مع ذلك لولا أنه تبارك وتعالى يسددهم ويوجههم ويرشدهم ويذكرهم ويعظهم؛ لما كانوا بما كانوا عليه, ووصلوا إليه، فهذا المضمون وهذه العبرة التي نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياكم جميعاً لأن نأخذها.

الرؤية الصحيحة حول أنبياء بني إسرائيل

فنعود إذاً ونقول: إن التدنيس والتنجيس المتعمد لهارون؛ بل حتى معه موسى عليهما السلام, والتحقير لشأنهما ولمقام النبوة من بعدهم, واعتبارها كهانة, ثم ما حصل مع داود عليه السلام.. هذا في نظرنا الإيماني والإسلامي وفي النظرة العملية الصحيحة أيضاً لا حقيقة له إلا الأهواء الشعوبية, والدسائس النفسية الخبيثة التي كانت تحوك في نفوس من كتبوا وحرّفوا العهد القديم.

نحن لسنا مع من يقول: إن هذا الكتاب كله باطل, وكله محرف, وأنه لم ينزل على موسى شيء, ولم ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم شيء, ولا على عيسى شيء، فهذا كلام باطل, نحن لا

نقره, ولا نؤمن به، وبناء على هذا نحن لا نقول به.

ولكن في المقابل أيضاً لا نقول: إن الله سبحانه وتعالى جعل الأنبياء بهذه المنزلة المهينة المنحطة والمشينة؛ وإنما نقول: إنهم على درجة من الكمال والسمو الخلقي والعلمي, واختارهم الله تبارك وتعالى وأعطاهم هذه الفضائل؛ فلا صحة لا لمنهج المحرفين من أهل الكتاب ولا لمنهج العلمانيين و الماديين من أتباع النقد التاريخي للكتب المقدسة.

لا هؤلاء ولا هؤلاء، وإنما الطريق الجادة والصراط المستقيم وسط بين ذلك، وقد هدى الله تبارك وتعالى أمة الإسلام إليه, فجعلها -ولله الحمد- على الصراط المستقيم.

أسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهله.. ونستكمل إن شاء الله تعالى في الحلقة القادمة قصة نبي الله تعالى سليمان ونبوته من العهد القديم.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياكم للحق, وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا إتباعه, وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه؛ إنه سميع مجيب.

الحلقة السابعة عشرة: سليمان عليه السلام في الوحي المحرف

العناصر:

1.مقدمة

2.سليمان عليه السلام في الوحي المحرف.

- النظرة لسيرته من حيث الثروة والمال فقط

3.سليمان عليه السلام في القرآن الكريم (مقارنة)

4.نسبة نشيد الإنشاد إليه عليه السلام.

- تأويلهم لذلك

5.إفكهم العظيم على نهاية حكم سليمان عليه السلام.

6.خاتمة.

سليمان عليه السلام في الوحي المحرف

الحمد الله رب العالمين, الرحمن الرحيم, مالك يوم الدين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين, وعلى سائر الأنبياء المختارين المصطفين, ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها الإخوة المشاهدون! فقد تحدثنا في الحلقة الماضية عن الأنبياء كما هو الموضوع النبوة، ورأينا مقدار نبوتهم, ومدى الاحترام الذي يحظون به في الإسلام, ولا يحظون به عند أهل الكتاب، وكان الحديث عن هارون وداود عليهما السلام, ووعدنا بأن نستكمل إن شاء الله في هذا اللقاء ما يتعلق بسليمان عليه السلام.

ونعود فنذكر أننا حتى الآن لا نؤرخ لتاريخ الأنبياء، وإنما نؤرخ فقط أو نتحدث عن تاريخ النبوة أو عن حقيقة النبوة عند أهل الكتاب، هذا المنهج المحرف حيث ابتليت الأمة؛ بل البشرية جميعاً بأن يأتي مثل هؤلاء فيحرفوا كلام الله تبارك وتعالى, ويفتروا على الله الكذب, وعلى أنبيائه الزور والبهتان.

سليمان عليه السلام أشهر وأعظم الأنبياء عندهم بعد موسى عليه السلام, وترتبط الشهرة عندهم بالغنى والثروة والملك، ومع ذلك كله فإنهم لا ينظرون إليه عليه السلام على أنه نبي مكرم, وعبدٌ صالح, آتاه الله تبارك وتعالى الملك, فسخر ذلك الملك والقوة والسلطان لتوحيد الله وعبادة الله وطاعة الله، وإنما ينظرون إليه كما نظروا إلى أبيه من قبل على أنه ملك؛ بل إن التشويه الذي لحق أباه يلحقه -كما أشرنا- من جهة النسب الأول القديم, ومن جهة نسب سليمان عليه السلام نفسه أكثر؛ لأن أمه عندهم -كما يزعمون- هي بات شبع التي كانت زوجة أوروبا الحثي , وكما ذكرنا في اللقاء

الماضي ما نسبوا إلى داود عليه السلام من الاحتيال والخديعة للحصول على زوجة قائده أورويا الحثي وامتلاكها لتكون زوجة له.

نجد حتى في هذه المسألة -وهي لا تتعلق بالنبوة؛ ولكن لأن أمهات الأنبياء وأنساب الأنبياء معظمة- نجد أيضاً هنا في الإسلام ذكراً لأم سليمان عليه السلام؛ حيث روى ابن ماجه وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قالت أم سليمان عليه السلام: يا سليمان! لا تكثر النوم بالليل؛ فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة), فلها ذكر في ديننا؛ أنها امرأة صالحة, تحث ابنها -مع ما آتاه الله تبارك وتعالى من ملك- على العبادة, وعلى الخير, وعلى الصلاة.

تشويه اليهود لسليمان من جهة البيئة التي ولد فيها

أول ما يبتدئ اليهود بهذا التشويه من جهة أبيه, وأنه ورث عن أبيه الاستبداد، وأن البيئة التي ولد فيها ورباه أبوه فيها كانت بيئة أحقاد وضغائن.

فمثلاً: يذكرون أن أبناء داود عليه السلام تقاتلوا، وأن التنافس بينهم كان شديداً، وأن إخوة سليمان الأكبر منه قُتلوا؛ بل يذكرون أن إحدى أخواته اغتصبت -يعني: ابنة نبي الله داود عليه السلام- وشناعات كثيرة في تربية ونشأة سليمان عليه السلام، فكأنه نشأ في هذا البلاط الذي لا يختلف عن بلاط أي ملك من ملوك الأرض فيه من الدنس, وفيه من البغضاء, وفيه من التقاتل, وفيه من التنافس على الدنيا ما فيه.

تشويه اليهود لسليمان بكونه حرص على الملك

ثم بعد ذلك تأتي قضية الصراع على هذا الملك, بمعنى: أن سليمان عليه السلام عندهم حاول مبكراً ولاحقاً أن يقضي على إخوانه, وأن يقتلهم فيستأثر دونهم بالملك, ولا سيما أخاه الذي هو أدونيا, حيث استطاع سليمان في النهاية أن يتخلص منه, وأن يأمر من يقتله, بعد منافسة شديدة على الملك، كما يحدث أيضاً في بلاط ملك من ملوك الدنيا في تلك الأيام أو فيما بعد.

ولذلك لا عجب أن نجد قاموس الكتاب المقدس يعرف هذا النبي العظيم فقط من ناحية الملك, فيقولون: هو ابن الملك داود, وهو كان أعظم ملك، وقد ملك أربعين سنة.

فأهم قضية عندهم هي أنه ملك، ثم تأتي إشارات إلى نبوته كما في قولهم: إنه رأى حلماً في المنام، وفي دائرة المعارف الكتابية يقولون: إن له مقابلات مع الله أو ما أشبه ذلك؛ لكن السيرة العامة

له هو أنه ملك، وما يتحدثون عنه من مظاهر الملك والأبهة والفخامة هذا أيضاً مستفيض في الكتاب المحرف الذي تحدث عن سليمان عليه السلام، وحتى بناء بيت الله -المسجد الأقصى- يتكلمون عنه على أنه بناء عظيم للهيكل، فيتكلمون عن الأبهة والفخامة, ولا يتكلمون عن المضمون؛ وهو عبادة الله تبارك وتعالى وتوحيده إلا لماماً.

نظرة اليهود لسليمان من جهة الثروة والمال

فالقضية أننا نجد سيرة سليمان عليه السلام مشبعة ومثقلة بتفكير الأحبار والرهبان، والذين جاءوا من بعدهم من كهان وأشباههم، وهو التشبع بالنفسية الجشعة التي لدى هؤلاء الأقوام من بني إسرائيل؛ نفسية متعطشة للدنيا، نفسية تعشق الملك, نفسية تعشق المال والذهب والتجارة والمراكب الفخمة والخيول والأبنية العظيمة وما أشبه ذلك، حتى أنهم شبهوه برمسيس الثاني؛ الذي هو فرعون في كثرة ما بنى, وتسخير آلاف العمال لبناء الفخامة والملك والمجد، دون أن نجد أي شيء يذكرنا بأنها سيرة نبي عظيم من أنبياء الله تبارك وتعالى، جعله الله تبارك وتعالى قدوة في تسخير الملك والمال والغنى والثروة والسلطان في طاعة الله عز وجل، كما جعل أنبياء آخرين وأعظمهم في ذلك محمد صلى الله عليه وسلم قدوة للخلق في الزهد والعزوف عن الدنيا والتواضع والرحمة والمسكنة؛ فـ(كان صلى الله عليه وسلم قد أثر الحصير في جنبه), و(كان صلوات الله وسلامه عليه يأكل كما يأكل العبد, وينام كما ينام العبد). فكان عبداً رسولاً, بينما كان سليمان عليه السلام ملكاً رسولاً، وعلى هذين المحورين تدور دائماً النفوس الإيمانية، فالنفوس الإيمانية في البشر جميعاً من قديم الدهر وفي حديثه هم: إما غني شاكر, وإما فقير صابر، إما زاهد في الدنيا راغب عنها, ويتعبد الله تبارك وتعالى بذلك، وإما أوتي حظاً في الدنيا؛ لكن يسخره لطاعة الله تبارك وتعالى، فيجمع بين الطائفتين الطاعة والعبادة والتقوى, وكل منهما يأخذ بحظه من الدنيا كما كتبه الله تبارك وتعالى له، وكما اختار له.

هؤلاء الذين كتبوا هذه الأسفار وحرفوها لا يأتي في فقههم أو في نظرهم هذه المعاني العظيمة التي تحدث عنها على سبيل المثال والمقارنة فقهاء الإسلام، ولا نعني الفقه العملي؛ أي: فقه الأحكام.. فقه العبادات؛ لكن نعني: فقه أعمال القلوب، حتى أنهم ذكروا أيهما أفضل الخلافة أو الملك؟ وتقريباً لا يوجد خلاف في أن الخلافة أفضل من الملك؛ لكن تكلم بعضهم عن جواز الملك وعدم جوازه؟
والصحيح أن الملك جائز؛ لكن بشرط أن يكون ملكاً مسخراً لدين الله تبارك وتعالى، وبالتالي نجد أثر

هذه الوراثة النبوية في الصحابة.. ونجدها في العباد.. ونجدها في أئمة الإسلام.

فمثلاً: نجد في حياة أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه كان زاهداً؛ لكن كان لديه مال؛ وفي المقابل عثمان رضي الله تعالى عنه و الزبير بن العوام و عبد الرحمن بن عوف وغيرهم كانوا ممن أنعم الله تبارك وتعالى عليهم وتوسعوا في الدنيا؛ بل نجد في عصر الزهد الذي تميزت فيه الصفات, وأصبحت الكتابة فيه عن الزهد, كما كتب وكيع وكما كتب الإمام أحمد وكما كتب عبد الله بن المبارك وغيره، نجد أن العلماء الأئمة -أئمة اليقين والتقوى والزهد- يشملون هذين النوعين، من أخذ جانب العبودية والزهد بمعنى: الاقتداء بالنبي العبد, ومن أخذ -مع أنه زاهد- جانب الاقتداء بالنبي الملك، وكلاهما كانوا على درجة من اليقين والتقوى, والخير والصلاح.

فنجد مثلاً: عبد الله بن المبارك رضي الله تعالى عنه كان يشبّه بالملوك في حياته, ونجد الليث بن سعد وكذلك أيوب السختياني وغيرهم من الأئمة في العباد والعلم والجهاد؛ لكن كانت حياتهم حياة توسع مما أعطاهم الله, وينفقون على إخوانهم أيضاً، وفي الوقت نفسه نجد مثل: الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه والأئمة الآخرين -طبعاً وهم الأكثر في هذا الشأن- من أئمة الإسلام كانوا يتقللون من الدنيا بقدر الإمكان.

المقصود: أن هذا المعنى العظيم الذي لا يفقهه هؤلاء القوم لا نجد له ذكراً لديهم؛ بل تنحى كتاباتهم في القديم والحديث عندما حرفوا الأسفار والكلام -كما في سفر الملوك وغيره عن سليمان عليه السلام, أو عندما كتبوا ويكبتون الآن- تنحى منحى الملك والأبهة والعظمة والفخامة البعيدة عن التقوى والمجردة عنها, كما سننقل بعض كلامهم.

إلى حد أن إحدى الروايات الأدبية المشهورة في اللغة الانجليزية عنوانها: كنوز الملك سليمان -هذه من العصر الكلاسيكي- وأصبحت مثلاً عاماً لمن يريد أن يكتب؛ فيتكلم عن كنوز الملك سليمان, يتكلمون عن زوجات الملك سليمان, ويتكلمون عما هو أشنع مما سنذكره الآن إن شاء الله تبارك وتعالى.

سليمان عليه السلام في القرآن الكريم

المقصود: أن سيرة هذا النبي العظيم كلها نُظر إليها من زاوية الثروة, ومن زاوية جمع المال والجشع في ذلك، حتى الأحداث العظيمة التي وقعت في أيامه مثل: قدوم ملكة سبأ مثلاً، فعندما

نجد أن القصة في القرآن قصة عجيبة جداً, قصة لا نظير لها على الإطلاق, لا في كتب أهل الكتاب ولا في غيرها، وهي من الدلائل العجيبة والعظيمة على أن النبي صلى الله عليه وسلم يتلقى الوحي من عند الله تبارك وتعالى، وإلا -كما ذكرنا في الحلقة الماضية- فهؤلاء اليهود يعادون النبي صلى الله عليه وسلم، وبنو إسرائيل الذين ينتسبون إلى هؤلاء الأنبياء يعادون المسلمين، ومن ينسب إلى عدوه ما يقوله عنه أتباعه فما ظلمه؛ لكن أن يأتي هذه الوحي العجيب بأمور تخالف ما عند هؤلاء الأعداء في تعظيم متبوعيهم وأنبيائهم وأئمتهم, وعبادهم وعلمائهم؛ فهذا غاية في العدل, وغاية في التجرد, ومتضمنة لأخبار لا يمكن أن تأتي عليها علوم البشر, وإنما هي وحي من الله تبارك وتعالى.

القضية في أصلها كلها مرتبطة بتوحيد الله, بالإيمان بالله تبارك وتعالى؛ الذي لم ينكره عليهم فقط نبي الله العظيم سليمان عليه السلام؛ بل أنكر ذلك أيضاً الهدهد؛ فقد أنكر الشرك.. وأنكر الكفر.. وأنكر الجحود والسجود لغير الله تبارك وتعالى، وهو أحد المستخدمين لدى هذا النبي العظيم، وأحد من خدموه, وأحد من سخرهم الله تبارك وتعالى له من جملة ما سخر له: من الرياح, ومن الطير, ومن الجن, ومن الإنس، فيأتي هذا الطائر العجيب ويستنكر أن يجد أمة تسجد للشمس! -وهذا الآن مؤكد من خلال الآثار, ولا تزال حتى اليوم القبور في تلك المناطق متجهة جهة الشمس, والآثار والنقوش مكتوبة عن عبادة الشمس بالآلاف-، فإذا أنكر الهدهد ذلك, فكيف بسليمان عليه السلام, فقد كتب إليها أن تأتيه مسلمة هي وقومها، لا يريد منهم إلا الدين والإيمان, ولم ينظر إلى الثروة, ولا إلى الكنوز, كما تذكر الأسفار المحرفة، وأن المراكب كانت تأتي محملة بالضائع من اليمن ومن بلاد العرب، وتأتي إلى سليمان, وكذا..

ونحن لا ننفي ذلك ولا يفترض أن ننفيه؛ لكننا نقول: لم يكن هذا هو الغرض الأساس, وإنما تأتي هذه الأمور تبعاً؛ فما أعطاه الله تبارك وتعالى من الملك, وما أعطى لملكة سبأ من الملك, ومن العظمة؛ سُخرا في النهاية في طاعة الله تبارك وتعالى, وفي توحيد الله, وفي عبادة الله، ونستطيع بناء على هذا أن نقول: إنه حتى الملك الذي أعطاه الله تبارك وتعالى لعبده سليمان عليه السلام أوسع وأعظم مما تخيلوا.

هم يقولون: إنه حكم من الفرات إلى شبه جزيرة سيناء تقريباً، فهم يرونه حكم هذه المنطقة بهذا الحكم الذي فيه استبداد مطلق بلا رقابة كما تقول دائرة المعارف الكتابية يعني: هناك فساد مالي إداري.

على أية حال الذي يظهر لنا من القرآن الكريم من قصة نبي الله تبارك وتعالى سليمان أنه حكم أوسع وأعظم من ذلك، ولا سيما إذا خضعت له ملكة سبأ؛ فمعنى ذلك: أن جزيرة العرب قد خضعت له ولا غضاضة في ذلك.

وهنا أيضاً نشير إلى الافتراء الذي يفتريه القوميون العرب وغيرهم من الحديث والقول بأنه لا يمكن أن يكون ذلك قد حدث؛ لأنه إذا أثبتنا ذلك فقد أثبتنا حق اليهود في جزيرة العرب أو في غيرها, ونحن نقول: ((مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا))[آل عمران:67], ولا داود ولا موسى ولا الأسباط ولا سليمان، هؤلاء أنبياء الله تبارك وتعالى, وهؤلاء يحكمون بحكم الله وبشريعة الله تبارك وتعالى، وكل ما أعطاهم الله من الأرض فإنهم يستحقونه؛ لأنهم يقيمون فيه دين الله تبارك وتعالى؛ فليس لهم هوى, ولا مطامع شخصية.

نسبة اليهود نشيد الإنشاد إلى سليمان عليه السلام

المقصود أيها الإخوة! أن نبوة هذا النبي من أنبياء الله تبارك وتعالى هدمت وحجّمت في ما يسمونه: الحكمة، فيقولون: إن الله تبارك وتعالى لما ظهر له في المنام أمره أن يسأله: ماذا يريد؟ فطلب منه الحكمة؛ فلذلك ينسبون إليه كثيراً مما يسمونه أسفار الحكمة من كلامه في سفر الأمثال مثلاً, وفي الباقعة التي يستحي الإنسان من ذكرها والمرور عليها, وهي نشيد الإنشاد, وكذلك في سفر الجامعة .

الذي يهمنا الآن هنا ليس فقط قولهم بأن بعض المزامير تنسب إليه من الزبور , أو أن له في الأمثال كذا أو ليس له؛ هذه قضية ثانوية، الذي يهم جداً في هذا الموضوع -موضوع العلاقة بالنبوة وتقديس الأنبياء والنبوة- هو أن ينسب إلى سليمان عليه السلام نشيد الإنشاد.

وهذا النشيد الحقيقة أنه من أفحش الكلام الذي لا نستطيع أن نعرض نماذج منه أمام الإخوة المشاهدين؛ لما فيه من الغزل المكشوف, لكن حسبنا فقط أن نشير إلى أن هناك من كتب عما يسمونه الحب في التوراة؛ من خلال هذا السفر وأمثاله من المواضع التي وردت في الكتاب المحرف، والتي نجد في كتاب الله تبارك وتعالى في القرآن -هذه أحد المقارنات التي تدلنا على ذلك- من العظمة في الأسلوب, ومن السمو.. ومن العلو.. ومن الترفع.. ومن طهارة الألفاظ الشيء العجيب!

حتى عند الحديث عن قصة يوسف عليه السلام, أو مثلاً عند الكلام عن الحيض وتطهرها وما أشبه

ذلك، هذا الذي يدل حقيقة أن هناك تفصيلاً وبياناً واضحاً للقصة أو بياناً واضحاً للأحكام الشرعية؛ ولكن مع العفة والفضيلة والطهارة والسمو في التعبير والإجمال، ولكن مع الأسف الشديد أننا نجد أن هؤلاء الذين يتكلمون وألفوا في القديم والحديث عن الحب والغرام في التوراة ؛ لم يكتفوا بأن دنسوا مقام الأنبياء بجعلهم من أبناء الزنا -كما تقدم- ولم يكتفوا بأن جعلوا الأنبياء يعشقون؛ بل إضافة إلى ذلك دونوا باسمهم هذه الأسفار، ومنها هذا النشيد الذي يسمونه نشيد الإنشاد, ونسبوه إلى سليمان عليه السلام.

الإشكال في هذا النشيد وفي أمثاله هي أن تؤخذ على أنها نصوص مقدسة, ومن هنا لا نجد هناك إجماعاً منهم على ما هو المقصود من هذه الأسفار, أو كيف يمكن أن نؤولها.

بمعنى آخر: أن اختلافهم في تأويل مثل هذه الأسفار؛ لأنها لا تليق بالأنبياء زاد الأمر حيرة وشكّاً، على سبيل المثال: بعض الرهبان من النصارى وأمثالهم يقولون: إن ما جاء في هذا النشيد إنما هي رموز! يعني: العشق الشهواني الواضح فيه الذي يمكن أن تقارنه بالشعر الإباحي لدى بعض الشعراء المتقدمين أو بعض الشعراء المعاصرين -قريب من كلام نزار قباني أو ممكن أفحش- يقولون: هذا رمز للعلاقة بين الله وبين الكنيسة! فهذه القضية ليست كما يزعمون مجرد عشق شهواني حسي إباحي ظاهري, وإنما هذا رمز العلاقة بين الله وبين الكنيسة الجامعة والمؤمنين، وأن هؤلاء عندما يتغنون بهذا, فإنما هو غناء أشبه بما يتغنى به الصوفية.

وهذا في الحقيقة مما يدلنا على أن الداء واحد, وأن الشيطان واحد في كل الأمم، فما يتغنى به الصوفية من العشق والهيام والوجد والغرام وذكر الأطلال والدمن.. إلى آخره, صارف لهم عن ذكر الله تبارك وتعالى وعن قراءة القرآن، ولا نقول: إن هذا النوع من الشعر هو حرام في ذاته؛ لكن أن يكون هو ما يتعبّد به! لا الذكر ولا العبادة التي هي القربة إلى الله تبارك وتعالى.

لو جعلت هذه الأشعار والأناشيد على هامش العبادة فالأمر فيه سعة بشروط وضوابط؛ لكن أن يكون الغرض هو هذا فلا، حتى إن بعضهم يقولون: فلان زنديق, لأنه يقول: أقرأ القرآن فلا أتأثر، فإذا جاءت مثل هذه الأشعار تأثرت.

المقصود: أن هذا أحد التفسيرات والتأويلات لهذه الأساليب والقصص أو الأناشيد أو الأغاني التي تسمى نشيد الإنشاد بمختلف قضاياه -هو نشيد حواري؛ يقوم حوار بين العروس وبين العريس وبين الجوقة أو المجموعة- يقولون: هذا كله تمثيل, أو القضية هي قضية أنه عشق إلهي؛ لكنه جاء في

شكل الألفاظ الحسية والأساليب التي يألفها الناس.

هناك بعض التفسيرات الأخرى يقول بخلاف ما تقدم من التأويلات؛ فيقول: إن هذا من عظمة هذا الكتاب, ومن الفسحة التي في هذا الدين, وأنه كان سليمان وداود عليهما السلام هذا عندهم. وهذا من أخطائهم وشنائعهم, فالكتاب يتكلم عنهم بواقعية, ويبين ما فعلوه حتى يكون عبرة لغيرهم.

بعض افتراءات اليهود على نهاية حكم سليمان عليه السلام

على أية حال الإشكال الأعظم وهو أفحش من هذا كله؛ هو ما جاء في النهاية التي يعتبرون أنها نهاية حكم وملك سليمان عليه السلام.

ادعاء اليهود بميل سليمان عليه السلام إلى النساء الأجنبيات

انطلاقاً من نظرته إلى النساء, ومحبته لهن, وميله لهن يصرحون كما هو بالنص من قاموس الكتاب المقدس يقول: إن الفترة الأخيرة من حكمه كانت مؤسفة؛ فقد بدأ بتعدد الزوجات.

لاحظ لأن الكتبة نصارى فيجعلون الإشكال هو تعدد الزوجات مع أنه في التوراة لا شيء في ذلك, ولا يوجد ما يحرمه.

ثم من التعدد بدأ يحب النساء الأجنبيات الغريبات, ومن جملتهن بنات الملوك, مثل: بنت فرعون.. وبنت ملك صيدا.. وبنت ملك عمون أو عمان.. إلى آخر ذلك.

لو كان الأمر كذلك لقلنا: هذا يندرج في الشهوة والحب والميل إلى التحلل الأخلاقي -كما يزعمون- لكن أكثر من ذلك أن هؤلاء النساء اللاتي بلغن سبعمائة من الزوجات, وثلاثمائة من الإماء أملن قلبه -كما يقول التوراة في الملوك- إلى الآلهة الغريبة, حتى بنى أماكن لعبادة الأوثان إرضاء لهن؛ فغضب الرب عليه وهدده بتمزيق ملكه!.

سبحان الله! ما أفحش هذا الكلام أن ينسب إلى هذا النبي الذي دعا إلى توحيد الله تبارك وتعالى, وكان هو وجنده -حتى جنوده من الطير- يوحدون الله تبارك وتعالى, وينكرون على أمم الشرك، فيصبح الطير أعلى من الإنسان فكراً, وأسمى منه خلقاً؛ لأنه يوحد الله ويدعو إلى توحيد الله وينكر الشرك، ينسب إليه أنه بنى بيوتاً للأصنام؛ استرضاء لزوجاته الغريبات الأجنبيات من بنات فرعون أو ملوك عمون أو ملوك صيدا, أو ما أشبه ذلك.

ادعاء اليهود بكون الأوثان كانت تعبد في بيت سليمان

ومن أسوأ ما ختموا به كلامهم الشنيع القبيح عن هذا النبي -صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم- أنهم جعلوا خاتمة حياته هي أنه أنهك وأجهد وضعف أمام هؤلاء الأجنبيات الوثنيات، فأصبحت الأصنام والأوثان تعبد في بيته, ويصورون التماثيل ويعبدونها, ويذبحون لهذه الآلهة الغريبة في بيت نبي الله, وفي بيت هذا الملك الذي جعله الله تبارك وتعالى نموذجاً للملك المطيع العابد, الذي لم يشغله ملكه عن طاعة الله تبارك وتعالى؛ بل إنه في كل حياته كان شاكراً كما دعا ربه تبارك وتعالى أن يوزعه شكر النعمة، فكان شاكراً لنعم الله تبارك وتعالى عليه في الخيل، شاكراً لنعم الله تبارك وتعالى عليه في الريح، شاكراً لنعم الله تبارك وتعالى في تعليمه منطق الطير، شاكراً لنعم الله تبارك وتعالى عليه لما آتاه من المال.

كان يقضي بين الناس بالعدل, وأعطاه الله تبارك وتعالى تلك الحكمة في القضاء والفهم؛ حتى أنه فهَّمه ما لم يفهِّم أباه -كما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى- ومع ذلك -مع الأسف الشديد- نجد أن أسوأ ما يمكن أن تجد من الكلام في سيرة أي نبي من الأنبياء؛ فإن اليهود أشبعوا به سيرة هذا النبي العظيم، ونعني بهم: الذين ضلوا وانحرفوا عن هدى الله تبارك وتعالى، وإلا فإن المؤمنين من قبل ومن بعد لا يزال له في قلوبهم من التقدير, ولا يزال في قلوبهم من التعظيم لأنبياء الله تبارك وتعالى، فبقي المؤمنون على قلة شديدة وعلى ضعف حتى أوحى الله تبارك وتعالى إلى عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن، وهذا الذكر الحكيم.

فانتقلت القضية نقلة بعيدة جداً عما كان يدور بين بني إسرائيل وأتباعهم؛ إلى أن يقرأ ويتلى في المحاريب على مدى هذه القرون وفي كل مكان ما ذكر الله تبارك وتعالى عن هذا النبي وعن أبيه، في سورة البقرة مثلاً: قصة داود عليه السلام, ثم نجد في سورة النمل, ثم في سورة ص وغير ذلك, نجد أن أسيراً عجيبة عظيمة، هي -كما تقدم- قدوة ونموذج للعباد وللزهاد وللصالحين من المسلمين، الذين جمع الله تبارك وتعالى لهم بين خيري الدنيا والآخرة، فكما كان عثمان رضي الله عنه أو عبد الرحمن بن عوف أو الزبير بن العوام أو كما قلنا عبد الله بن المبارك أو الليث بن سعد ، الذين أعطاهم الله من المكانة والمنزلة ما جعلهم يسخرونه بدون أي غضاضة في طاعة الله تبارك وتعالى، ويشعرون أن لهم قدوة في هذا؛ وهم الأنبياء الكرام الذي أعطاهم الله تبارك وتعالى من الملك ومن النعمة ما يستخدم جميعاً في طاعة الله تبارك وتعالى.

الجزم بكذب الوحي المحرف على سليمان عليه السلام فيما ادعوه

نحن نجزم إذاً بدون أي تردد أن ما شوّه به هؤلاء المشوهون في الكتب المحرفة لا حقيقة له، لا من حيث النسب القديم له, ولا من حيث ما تعرضوا به من شأن أمه وقصة أوروبا الحثي، ولا أيضاً من جهة مملكته والانحراف والفساد الأخلاقي الذي كان فيها، فكل هذا باطل.

ونجزم أيضاً بأن ما نسب إليه عليه السلام من أنه مال بقلبه إلى الأجنبيات الوثنيات, وأصبحت الأصنام تعبد في بيته؛ نجزم بأن هذا أيضاً لا يمكن أن يصح بأي حال من الأحوال؛ لأن القضايا عندما تتناول القطعيات والأساسيات المحكمات فإنا لا ننظر إلى الروايات إن كانت كتابية, وإن كانت غير كتابية؛ لأن هذه من الأمور التي عصم الله تبارك وتعالى منها أنبياءه جميعاً, وبيّن ذلك وفصله, ونحمد الله على ذلك.

فيكف ولدينا الخبر الصريح الصادق بالوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عن هذه القصص جميعاً, وعن هذه الأحوال جميعاً, وعن توحيد الله تبارك وتعالى، ودعوة سليمان عليه السلام إليه, ودعوته الناس أن يدخلوا في الإسلام, ومنهم أهل اليمن ، وعن تسخير كل ما أوتي من ملك واستخدامه في طاعة الله تبارك وتعالى وفيما يقرب إليه، هذا هو المنهج المقتدى به, وهذه هي النبوة في معانيها السامية الكريمة وأخلاقها الفاضلة التي يدعو إليها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا جميعاً بما نسمع وما نقول، وأن يجعل للمسلمين وللعالم أجمع العبرة والعظة فيما يقال عن هؤلاء الأنبياء؛ بأن يأخذوا ما قيل في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم، وأن يلغوا كل ما يخالف ذلك ويشوهه من الكتب المحرفة, أو من أفكار الفلاسفة الذين يدّعون أن النبوات مكتسبة وأشباههم, أو من كلام الماديين والملحدين الذين ينكرون النبوة من أساسها.

نسأل الله تبارك تعالى أن يهدينا جميعاً إلى صراطه المستقيم, وأن يجعلنا نعظم ما عظم, ونوقر ما وقر, ونعزر من عزر.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين, والحمد الله رب العالمين.

الحلقة الثامنة عشرة: نبوءات تحدث عنها الأنبياء

العناصر:

1.تمهيد

2.مملكة الله في الحياة الدنيا:

- عند اللادينيين الماديين.

- عند أهل الكتاب والأمم الأخرى.

3.مملكة الله والمنقذ بين النظرة اليهودية والنصرانية.

- النظرة النصرانية.

4.مدينة الله والاتجاهات الثلاثة.

5.المحتفظين بالحق من أهل الكتاب.

-تأويل النصارى العرب وتعسفهم.

6.خاتمة.

انتظار جميع الأمم مجيء النبي الموعود

الحمد الله رب العالمين, الرحمن الرحيم, مالك يوم الدين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين, وعلى سائر أنبياء الله المختارين المصطفين.
أما بعد: أيها الإخوة والأخوات! فقد تحدثنا في اللقاءات الماضية عن النبوة؛ معناها وحقيقتها على ضوء المناهج الثلاثة: عند الفكر المادي, وعند أهل الكتاب, وفي العقيدة الإسلامية الصافية النقية.
وبما أن هذا الموضوع لم يكن إلا تمهيداً لما سوف نأتي عليه من حلقات قادمة؛ فإننا الآن سوف نتحدث عن التاريخ العالمي في مسيرته العامة، بمعنى: ما هي أبرز النبوءات التي تحدث عنها الأنبياء من قبل؟ باعتبار أن النبوة من تعريفها عند المسلمين وعند أهل الكتاب هي: الإخبار عن الغيب.
وباعتبار أن أهل الكتاب لا يكادون ينظرون إلى النبوة إلا أنها إخبار عن المستقبل أو إخبار عن الغائب, وماذا سيقع, وماذا سيأتي فيه. وهذه القضية -قضية الإخبار عن الغيبيات- ترتبط بأمور عقدية أكبر وأوسع وأهم من مجرد تحقيق وعد من الله تعالى على لسان نبي, أو أن ذلك لم يتحقق، أو مجرد التفريق بين من يتنبأ بحق ومن يتنبأ بباطل مثلاً -مع أن هذه من القضايا المهمة- فالأمر أوسع من ذلك وأشمل؛ لأنه يتعلق بالمصير البشري عامة، وبالمستقبل الذي كتبه الله تبارك وتعالى في اللوح المحفوظ لبني الإنسان، وبالميثاق الذي أخذه الله تبارك وتعالى على كل الأنبياء, وعلى كل الأمم في جميع العهود والعصور؛ بأن النبي المبعوث في آخر الزمان هو النبي الموعود المنتظر الذي يجب على الجميع أن يؤمنوا به. وهذه القضية على بساطتها ووضوحها تلتقي في أذهان الأمم بالتفاعل مع الأحداث التاريخية الطويلة المتكررة بقضايا تاريخية خطيرة وبأحوال كثيرة، دخلها مثلما دخل غيرها التحريف والتأويل؛ بل الإنكار والجحود، حتى أصبحت في كثير من الأحيان بعيدة كل البعد عن المعنى الأصلي أو الهدف والغرض المراد من هذه النبوءة أو من هذا الخبر العظيم، والخبر العظيم

والنبأ العظيم الذي هو أكبر أحداث التاريخ قاطبة هو: بعثة محمد صلى الله عليه وسلم, وهو قيام مملكة الله, وملكوت الله على يدي هذا النبي العظيم, وهو نزول القرآن والوحي عليه صلوات الله وسلامه عليه نذيراً للعالمين، وهادياً للعالمين، ورحمة للعالمين، وبشيراً للعالمين، ودعوة إلى الناس كافة, ومنهم أهل الكتاب.

رؤية الأمم حول المنقذ وقيام مملكة الله في الحياة الدنيا

هنا إذا أردنا أن نفصل -على طريقتنا في التبسيط والتوضيح- المذاهب أو النظرات في هذه المسألة؛ فيمكننا أن نقول:

رؤية الفئة المؤمنة الموحدة

إن الواضح في تاريخ البشرية جميعاً هو أن الفئة المؤمنة الموحدة، الذين يريدون عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له, والذين يحرصون على توحيد الله، ويريدون أن يروا هذا الإيمان -الذي يعلمونه ويعرفونه- منتشراً في واقع البشر, ويؤلمهم جداً أن يروا مظاهر الشرك ومظاهر الوثنية في الحضارات القديمة، وأن يروا هذه الوثنيات الطاغية؛ فلا يكاد بابلي أو آشوري أو آكادي أو غيرها من الشعوب المذكورة في التاريخ في العهد القديم أيضاً أو في غيره, لا يكاد يذكر إلا غير الله تعالى، يعبدون الأصنام.. يعبدون الأوثان.. يعبدون البشر والملوك، يصدقون العرافين والدجالين والكهنة.. يعبدون الكواكب والنجوم. فالتاريخ البشري بالنظر إلى الجاهلية هذه مظلم ومعتم جداً، فهؤلاء الذين يحترقون شوقاً إلى الخلاص الإيماني, وإلى الإيمان الحقيقي, وإلى أن يروا عبادة الله تبارك وتعالى تتحقق في هذه الأرض، يأتيهم العزاء والرجاء والأمل بأن الله تبارك وتعالى سوف يقيم مملكته أو ملكوته في هذه الحياة الدنيا بمن يأتي في آخر الزمان, ويظهر الله تبارك وتعالى على يديه الإيمان والتوحيد، ويدمر كل ممالك الشرك والكفر والطغيان التي على ظهر الأرض، ويحكم بالكتاب, ويحكم بالعدل, ويحكم بالرحمة, ويعظم جميع الأنبياء, وعلى يديه تبعث حياتهم، يعني: يبعث تاريخهم.. وتبعث آثارهم الطيبة.. وتبعث مآثرهم بعد أن راحوا في الأمم وتفرقوا؛ إما أهملوا في التاريخ, وإما قتلوا, وإما حرفت شرائعهم, إلى غير ذلك من المشكلات التي هي واضحة وظاهرة في التاريخ البشري.

رؤية الماديين

هنا عند هذه القضية تختلف هذه المناهج، فمثلاً: لو نظرنا إلى التفكير المادي البحت -الذي ظهر من ثلاثة قرون تقريباً في أوروبا- نجد أن نظرية من يخلص أو من ينقذ البشرية أو من يقيم ملكوت الله ومملكة الله تعتبر عندهم نوعاً من التعويض النفسي؛ فهي قضايا نفسية فقط، وتصورات تصورتها الشعوب المضطهدة, فهي تعوض عن واقعها المؤلم سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، كما إذا أخذنا اليهود نموذجاً: ما عانوه في بابل بعد السبي, وما عانوه من الشتات والفرقة، كما هو مذكور في المزامير وفي غيرها: إنك يا رب! جعلتنا كغنم للذبح, وأن العار يغطي وجوهنا أينما اتجهنا. فهناك حسرات وأحزان متتابعة نجدها في مثل هذه المزامير, وكذلك في مراثي أرمياء وفي غيرها من مواضع التوراة تدل على المعاناة الشديدة, والمحن المؤلمة القاسية التي تعرض لها هذا الشعب.

فعلى ذلك يرى هؤلاء الماديون أن الموعود به من الخلاص، ومن ظهور مملكة الله، ومن الأمل الذي يأتي في آخر الزمان هو اختلاق داخل نفسية المجتمع الإسرائيلي؛ اختلقوا ذلك لكي يتخلصوا من واقعهم, ولكي يخرجوا من ضيق الواقع إلى رحابة الأمل الخيالي الذي تخيلوه وافترضوه، وهو لا حقيقة له.

مختصر هذه النظرة هو هذا, ويضربون على ذلك مثالاً: بأن أي إنسان في هذه الحياة يعيش حالة من الإحباط واليأس والقنوط؛ فإنه يعمد إما إلى تناول المخدرات الحسية, وإما أن يظل يسبح في خيالات وأوهام الثروة والغنى والجاه وما أشبه ذلك، كما يفعل أحياناً بعض الشعراء حين يلجئون إلى الشعر أو غير ذلك؛ لكي يعيشوا في فسحة الأمل الوهمية أو المتخلية التي لا يبررها إلا الواقع الصعب المر الذي يعيشونه ويعانون منه.

باختصار هذه هي النظرة المادية لنظرية المخلص الموعود به, وسوف نأتي إن شاء الله بالرد عليها تفصيلاً؛ لأن الرد عليها هو رد من خلال الواقع الهائل الذي حدث بعد ذلك, والذي يكذب هذا المقال سواء اعترفوا هم أو لم يعترفوا بهذه الحقائق؛ لكن المقصود هو هذا.

رؤية أهل الكتاب والأمم الأخرى

بالنسبة لأهل الكتاب فقد كانت الفكرة عند بني إسرائيل واضحة جداً, وتعترف بذلك الكتابات النصرانية المتأخرة, كما في دائرة المعارف الكتابية؛ أن هنالك مُخلّصاً سوف يظهر وينقذ العالم البشري والإنساني؛ لكن دخل التحريف عندهم؛ بأن الخلاص سيكون لشعب إسرائيل فقط!

وهم كالعادة حرفوا وضيقوا دين الله تبارك وتعالى, وضيقوا شرع الله, وأمره, ووعوده؛ بأن

جعلوها محصورة في الشعب الإسرائيلي؛ فجعلوا كأن الدين الذي أنزله الله تبارك وتعالى دين قومي أو قبلي ولا علاقة لبقية الشعوب به.

في واقع الأمر أننا يمكن أن نجد في التاريخ العام للبشرية في الهند أو في الصين أو في الشعوب الإيرانية وغيرها؛ أننا نجد انتظار الرجاء والأمل الموعود والمملكة التي تقوم في آخر الزمان أو الجنة أو على أي تأويل من التأويلات؛ أننا نجدها ظاهرة عند جميع الشعوب حتى التي لم تضطهد؛ لأن الأمر -كما قلنا- هو أمر الاضطهاد الديني أو الشعور بأن ما يُفعل في الأرض هو شر لا ينسجم مع الفطرة, أو مع الإيمان أياً كان هذا الإيمان عند من يتخيلوه.

وهذا لأن هناك بقايا من علم موروث تأتي فتؤيده وتشجعه فيظل متداولاً مستمراً، علم موروث عن الأنبياء الأوليين وعن الآباء، وكذلك واقع يدعو ويحفز إلى أن تؤمن به, وأن تعتقده، فهو ظاهرة وسمة إنسانية مشتركة عند جميع الشعوب, وليس فقط عند الشعب الإسرائيلي، وإن كان بنو إسرائيل تعرضوا ربما أكثر من غيرهم للأذى والاضطهاد والتشتيت والتدمير, لأسباب لا علاقة لها بموضوعها الآن.

على أية حال نحن نجد أن الهندوس يعتقدون بظهور هذا المخلص -وإن شاء الله نأتي بشواهد من كتبهم في حينه عند الكلام بالتفصيل عن بشارات النبي صلى الله عليه وسلم - المجوس الزرادشت؛ الذين ينتسبون إلى زرادشت يعتقدون بأنه سوف يظهر سوشن أو ثوثن -كما تختلف اللهجة فيه- الذي هو المنقذ والمخلّص الذي يخلص الشعوب الإيرانية من الاضطهاد, والذي يملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً، وهذا بالذات موجود, وكثير من المعاني أو الصفات التي تطلقها الزرادشتية أو تلبسها عليه موجود في عقيدة الفرقة الاثنا عشرية -على ما سيأتي إن شاء الله تبارك وتعالى- نقلوا واقتبسوا منها الكثير، فعندما دخلت هذه الشعوب في الإسلام إما حقيقة؛ لكن مع ضعف في الفهم، وإما نفاقاً كما دخل بعضهم فألبسوا بعض هذه العقائد القديمة لباساً إسلامياً جديداً؛ فأصبحت الصفات المتشابهة لمن يسمونه المهدي المنتظر أقرب ما يكون إلى المخلص أو المنقذ في الفكر الإيراني المجوسي القديم.

مملكة الله والمنقذ بين النظرة اليهودية والنصرانية

على أية حال هذا جانب، والذي يهمنا أكثر الآن في هذه الحلقة هو: ما يتعلق بالمملكة التي سوف

تأتي كيف كان تصورها في نظر اليهود؟ وكذلك المنقذ كيف يكون في نظر اليهود؟

لم يكن هناك تقريباً أي اختلاف عند اليهود في أن هذا المُلك سيكون مُلكاً مادياً، مملكة بمفهومها الحرفي, ملك يبعثه الله تبارك وتعالى -وهنا عندما نقول: ملك نذكر بما قلنا في الحلقة الماضية وما قبلها أن داود ملك, وأن سليمان ملك، فالمهم عندهم أنه ملك- ويأتي فيوحد هذه المنطقة, ويجمع هذه الشعوب، ويقضي على كل الوثنيات والإمبراطوريات, وكل الاستبداد في التاريخ، فهو رجل حقيقي ويسمونه: ملك, والدولة التي يقيمها هي مملكة, والعدل الذي يقيمه عدل حقيقي؛ بمعنى: أنه إقامة أحكام الشريعة، كما هي الشريعة موضحة في التوراة ؛ شريعة القصاص مثلاً, شريعة العدالة في كل شيء.. إلى آخره، عبارة عن شريعة حقيقية تقيم الحدود, وتأمر بالمعروف, وتنهى عن المنكر.

كانت هذه النظرة السائدة لدى اليهود , وتأتي على ذلك نبوءاتهم الكثيرة جداً -التي إن شاء الله نأتي على شيء منها بالتفصيل- من أشهرها وأهمها: نبوءة النبي أشعياء, وهو نبي عظيم من أنبيائهم، وتستطيع أن تستخرج من كل فصل من فصول كتاب أشعياء حقيقة تدل على هذا الأمر؛ لأن المرحلة التي كان فيها هو ومن بعده من الأنبياء كانوا في مرحلة شدة الاضطهاد، فكانوا يعزُّون أنفسهم ويعزون بني إسرائيل بهذا النبي الذي سوف يأتي، على أن هناك إخباراً منهم بأنه سوف يكون هنالك مسيح, وسوف يكون هنالك مشيح -نحن سوف نستخدم المصطلحات التوراتية فقط للإيضاح الآن-.

المشيح أو المسيّا -إما بالشين وإما مسيّا كما يقولون: إن أصلها كلمة آرامية- هذا هو الذي سيكون الملك، أما المسيح فإنه سوف يكون بين يدي المسيّا أو المشيح, وهذا سوف يكون نبي من أنبياء بني إسرائيل, وفي الأناجيل واضح -وإن شاء الله نأتي عليه بالتفصيل- أن الناس كانوا يسألون المسيح عليه السلام لما بعث: أأنت المسيّا؟ يسألونه: هل هو الملك؟!

ثم التهمة التي وجهت للمسيح عليه السلام والتي اتهمته بها اليهود عند الرومان؛ أنه هو الملك! يعني: يدعي المُلك ويدعي أنه المسيّا الذي سوف يدمر مملكة الروم, وهم يتقربون بهذه التهمة إلى الرومان؛ بأننا نحن من أوليائكم, ونحن من رعيتكم ومملكتكم العظيمة الطيبة, ونحن مواطنون رومانيون، فهذا الرجل يجب أن تقتلوه؛ لأنه يدعي أنه سوف يقيم مملكة ضد مملكتكم.

هذا الكلام أدى إلى التباس كبير جداً في مسألة من هو المسيح؟ ومن هو المشيح -بالشين- أو المسيا؟ مع أنهما شخصيتان مختلفتان -على ما سوف نوضحه إن شاء الله- واختلطت شخصية ثالثة أيضاً - فقط للإيضاح نقولها الآن- أنه سيأتي ابن الإنسان أو ابن الرجل؛ فأيضاً أصبحت المشكلة هل

أنت ابن الرجل؟ هل أنت ابن الإنسان؟

فعندما -هذا هو المهم هنا الآن- أراد النصارى أن يثبتوا أن ما أخبر به الأنبياء السابقون, وكل ما جاء في الكتب السابقة جميعاً أنه المسيح عليه السلام، وينفون وينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم, وما سوف يأتي به من الدين الحق والمملكة التي تقيم دين الله، أولوا هذه الأخبار جميعاً تأويلاً روحانياً!

بمعنى: أن الاضطهاد هو روحي ديني فقط، والخلاص هو الخلاص من الخطيئة وليس الخلاص من ملوك بابل , أو من الأسر في بابل , أو من ملوك الشرك في مصر , أو في عمون أو موآب أو غيرها إلى آخر الشعوب التي حاربت اليهود ، إنما القضية هي خلاص من الخطيئة الأصلية التي اختلقوها ونقلوها عن أفكار وثنية قديمة -نوضحها إن شاء الله فيما بعد- فالقضية قضية خلاصية روحية بحتة, فهي فقط ما يتعلق بالروح.

المملكة التي يقيمها المسيح وسوف تقوم له في آخر الزمان -لأنها لم تقم طبعاً, هم يقولون بأنه صلب وهو رفع ولم تقم- هي مملكة روحانية, وبعضهم يقول: المملكة الروحانية هي عرش المسيح عليه السلام في قلوب المؤمنين به حيث انتشر الإيمان به، واعتقاد أنه ابن الله -تعالى الله عن ذلك- واعتقاد أنه هو الله تجسد ونزل الأرض وانتشر في أرجاء الأرض.

إذاً: هذه هي المملكة, والتي يمثلها الرمز العام الذي هو الكنيسة، والكنيسة عندهم الهيئة المكونة من مجموع المؤمنين, كما هو واضح في المبادئ الكاثوليكية, ثم بعد ذلك خرجت بعض الفرق الأخرى.

المقصود أنهم يقولون: الإشكالية والاضطهاد روحي، والخلاص هو روحي, جاء به المسيح عليه السلام، والمملكة هي الإيمان الذي وقع في قلوب الأتباع, فانتشرت في أنحاء الأرض, هذه العقائد التي يسمونها مسيحية, ويظنون أنها هي حقيقة دين المسيح عليه السلام.

بمعنى آخر: لا وجود لمملكة حقيقة, مَلِك حقيقي.. نَبي حقيقي من بني البشر، يقيم الدين ويقيم الشريعة بمفهومها المادي المعروف الذي يؤمن به اليهود ، وكانوا من شدة إيمانهم به أنه وجد في اللفائف الفلسطينية -في لفائف البحر الميت وفي غيره- معلومات تفصيلية عن الأسينيين وغيرهم؛ أنهم كانوا يعدون تنظيماً جهادياً قتالياً ويقولون: أول ما يأتي المنتظر فنحن جنوده, ونحن سوف نقاتل معه، هذا التنظيم العجيب والدقيق -وفعلاً دقيق دقة عجيبة نعرض لها إن شاء الله في حينها-

في وقتٍ هم فيه مضطهدون, ويصدر من جماعة يهودية قليلة العدد, ومعتزلة مترهبة, فهم أقرب شيء ما يكونوا من الرهبان المتشددين في الرهبانية، ومع ذلك يكون لديهم تنظيم قتالي جهادي!

معنى ذلك: نستشهد بهذا هنا على شدة اعتقاد اليهود ووضوح اعتقادهم بأن النبي حقيقي, وأن القتال حقيقي, وأنه سيقيم في واقع الأرض هذه المملكة؛ التي تقوم على دين الله, وعلى شرع الله وتدمر بالسيف وبالسهام وبالقوة كل ممالك الوثنية، ويظهر الحق والدين, ويُعبد الله تبارك وتعالى، وتُبنى وتعمر مدينة الله.

مدينة الله والاتجاهات الثلاثة فيها

إذا وصلنا إلى ما يتعلق بمدينة الله فهنا أيضاً نأتي إلى قضية أخرى مهمة جداً في هذا الموضوع: أين هي مدينة الله؟ وكيف تكون؟

ثلاثة اتجاهات ممكن أيضاً أن نصنفها في هذا الباب:

الاتجاه الفكري المادي يرفض هذه كلها على أية حال, فلا داعي للخوض في التفاصيل فيه, كل ذلك نبوءات وخيالات كما أشرنا.

الفكر اليهودي حرف كل ما يتعلق بمدينة الله وموقعها ومكانتها وما تكون؛ إلى أنها هي القدس , هي أورشليم -كما يسمونها- هي جبل بيت صهيون, هي بيت الله, هي مدينة داود, إلى آخر هذه المترادفات والمصطلحات، على أن السامرة منهم -فرقة من اليهود لها تأويل آخر- يقولون: إنه جبل جوزريم شمال نابلس ؛ لكن عامة اليهود يعتقدون أن هذه الصفات جميعاً تنطبق على الملك اليهودي الذي يأتي في آخر الزمان، وهذا الملك اليهودي يكون مقر وقاعدة ملكه هي أورشليم مدينتهم, التي هي مدينة داود عليه السلام.

جاء الفكر النصراني ووقع في نفس المأزق؛ هل يقر هذا التفسير الحرفي المادي أو يحرف؟

فكثير منهم أو فلنقل: طائفة منهم أقرت ما قاله هؤلاء اليهود , وآمنت به على ظاهره، وهناك طائفة أخرى قالوا: لا.. هناك دلالات واضحة ونصوص صريحة بأن هذه المدينة لن تكون القدس, وأن قبلة الصلاة لن تكون القدس ولن تكون أورشليم! إذاً أين هي؟

هنا نأتي للتأويل الذي يتعامى عن الحق وعن الحقيقة والبراهين الواقعية والجلية، فقالوا: إن هذه

المدينة هي أيضاً رمزية! وهي مدينة روحانية, وهي عبارة عن السماء الجديدة, والأرض الجديدة, والملك الجديد الذي يأتي في آخر الزمان، وهذا مجد وبهاء يكون للمسيح عليه السلام, وإذا جاء في آخر الزمان تأتي معه الملائكة, وهذه المدينة مدينة سماوية، ويؤولون ما ورد في صفة أبوابها وفي بنائها، وفي الأخبار المتعلقة بمن يطوفون حولها, ومن يذبحون حولها, ومن يقربون القرابين عندها, ومن يخدمونها، وكيف أنها تحلى بالذهب والفضة وكيف وكيف, -إن شاء الله أمور كثيرة جداً نأتي عليها بالتفصيل- فالنصوص الصريحة التي تدل على أن هذه المدينة أو هذا البلد أو هذا البيت -بيت الله ومدينة الله- أنها مكان حقيقي في هذه الأرض، وموجود وتنطبق عليه كل هذه الصفات من غير اختلاف؛ كل ذلك يؤولونه على أنه معنى روحاني ومعنى سماوي، معنى لن تُعرف حقيقته إلا في آخر الزمان, إذا ظهر المسيح وآمن الناس به ورأوا المجد والملكوت الروحاني العجيب! الذي ربما يعجزون عن فهمه أو عن استيعابه! فهذا انحراف في تأويل هذه النبوءات عن مدينة الله تبارك وتعالى.

رؤية المحتفظين بالحق من أهل الكتاب نحو مدينة الله

طبعاً من أهل الكتاب من ظل محتفظاً بالحق والحقيقة, وهؤلاء هم الذين كانوا ينتظرون بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء الذين لما عرفوا الكعبة المشرفة ومكة المكرمة وجدوا أن الصفات المذكورة في كتب الأنبياء وما قبلها تنطبق جميعاً على هذه البلدة العظيمة، وأن ما ورد عن بنائها, وما ورد عن أبنائها, وعن العبادة فيها, وعن تعظيم الله تبارك وتعالى فيها, وعن القرابين التي تقدم إليها, وعن الملوك الذين يخدمونها, وعن الشعوب الذين يعظمونها, عن أنها العروس التي تحلى بأجمل أنواع الذهب والفضة, إلى آخر ذلك.

وجدوه حقيقة, فلمَ التأويلات البعيدة هنا وهنا، وبالفعل النصوص التي تدل على أنها ليست هي القدس واضحة، وتأويل النصارى بأنها مدينة في السماء دليل على أنهم لم يقتنعوا بأنها في الأرض, وأنها هي هذه القدس الموجودة فجعلوها في السماء، لمَ لا تكون أخرى وفي الأرض! ويظل الأمر على ظاهره؟!

هذا الذي رأى هؤلاء المؤمنون الذين كانوا يعتقدون العقيدة الحقة في الله سبحانه وتعالى, أن هذه المدينة المعظمة والمقدسة سوف تأتي، وما زادتهم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلا إيماناً وتصديقاً لما كان لديهم من أخبار الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فرأوا أن هذا الوحي بعضه

يصدق بعضاً، هو حق يصدق حقاً؛ لكنه يبين ما أُجمل, ويوضح ذلك, ويقع مثلما تقع الرؤيا الصادقة التي تراها في المنام، أو يقع الخبر الصادق الذي تخبر عنه بأوصاف حقيقية ثم تراه في الواقع كما أخبرت به, وكما رأيته، ومن هنا كانوا كما أخبر الله تبارك وتعالى عنهم: ((يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ))[البقرة:146].

وجاءت هذه الآيات ضمن إثبات النبوة للنبي صلى الله عليه وسلم, وضمن آيات القبلة؛ لأنهم أيضاً كانوا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى سوف ينقل القبلة, وينقل الدين, وينقل الوعود التي عندهم عن الشعب الإسرائيلي إلى أمة أخرى، وكثير من الوعود التي كانوا يؤولونها ويظنون أنها في القدس تنقل إلى مكة وتنطبق على مكة .

فلذلك هؤلاء لم يكن لديهم أي شك في هذا, وهؤلاء هم الذين لما ظهر الإسلام سارعوا بالدخول فيه وشهدوا على أقوامهم، واستشهد الله تبارك وتعالى بهم على بني إسرائيل بقوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ))[الشعراء:197], وعلى غير بني إسرائيل؛ لأن هذه الحقائق الواضحة الجلية التي حتى الآن تقرأ في كتبهم لا يمكن على الإطلاق أن يجحدها أو أن ينكرها إلا مكابر.

تأويل النصارى العرب وتعسفهم

حقيقة أيها الإخوة المشاهدون! إنك لتعجب غاية العجب عندما ترى هذه الكعبة, وهذا البيت الحرام, وترى صفاتها الواضحة الجلية! ثم تقرأ -مع الأسف الشديد- لعرب من لبنان ومن مصر ومن غيرها فضلاً عن غيرهم؛ يتكلمون عن هذه الصفات واحدة تلو الأخرى, ويؤولونها ويحرفونها أو يراوغون عنها ذات اليمين وذات الشمال! يا سبحان الله!

أإلى هذا الحد يغالط الإنسان نفسه! يغالط الإنسان الحقائق التي يراها أمام عينيه؟! يكابر وهو يرى الحق واضحاً جلياً! الحقيقة شيء مؤلم جداً, وهو مما يجعلنا نقيم الحجة, ونبين إن شاء الله تبارك وتعالى وبالتفصيل ابتداء من سيرة الخليل عليه الصلاة والسلام، ثم ننتقل بعد ذلك إلى البشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالكعبة وبنائها, ونبين كيف تنطبق هذه الصفات واحدة إثر واحدة على هذه البلدة المحرمة، وهذا البيت الحرام المعظم.

وحقيقة أنه من خلال لقاءات لي مع بعض هؤلاء أجد أنهم يحتارون, ولا يجدون جواباً أبداً عندما

نواجههم بمثل هذه الحقائق، وأتوقع أنه لو كان لدينا وعي إسلامي عام, ونشر بكل لغات العالم لهذه البشارات, ولهذه الأوصاف عن هذا البلد الحرام, وعن هذا البيت المعظم؛ لوجدنا أن أكثر أهل الكتاب سيؤمنون, أو على الأقل سيهتز إيمانهم بالخرافات وبالتأويلات الباطلة، التي يؤولها علماؤهم وأحبارهم ورهبانهم, ومن يضلونهم عن سبيل الله تبارك وتعالى.

هاهنا نجد الأنبياء دينهم واحد, وهاهنا نجد أن بيتاً بناه الخليل إبراهيم عليه السلام وهو أبونا جميعاً كل ما جاء فيه حقيقة واضحة بين أيدينا، نجد أنه ليس هناك دعوة عنصرية ولا دعوة قبلية.. وقد كنت حدثت بعضهم فقلت له: أدعوك إلى دين إبراهيم الخليل؛ لأن نبيي صلى الله عليه وسلم أوحى الله تبارك وتعالى إليه: ((أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا))[النحل:123], نحن كلنا نتبع الأب المشترك بيننا جميعاً، وكما عبر الرئيس كارتر في كتابه دم إبراهيم أنه يجمعنا دم إبراهيم, يعبِّر به عن السلام بين العرب و اليهود، ونحن نقول: عقيدة إبراهيم عليه السلام هي التي تجمعنا وتجمع البشرية جميعاً على توحيد الله تبارك وتعالى، وتجمعنا هذه القبلة المشرفة المعظمة باستقبال بيت الله الحرام, الذي تنطبق عليه الأوصاف الدقيقة المفصلة في كل كتب الله قديمها وحديثها.

هنا نتوقف ونعد الإخوة المشاهدين -وفقني الله وإياهم لما يحب ويرضى- بأن نتابع بإذن الله تبارك وتعالى هذه الأوصاف وهذه البشارات بقدر ما نستطيع, وبقدر ما يسمح به المقام والوقت بإذن الله عز وجل ونناقشها مناقشة علمية واضحة جلية، حتى تتضح الحقيقة, وحتى يتبين لأهل الكتاب ولغيرهم أن ديننا هو الحق, وأن هذه الكعبة حق, وبيت الله تبارك وتعالى هو الحق، وأن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم هي أكبر حادث في تاريخ البشرية, وأن كل ما أخبر به الأنبياء, وكل ما حدثنا عنه أهل الكتاب في نبوءاته -مهما حرفها من حرفها- فهي دالة دلالة قطعية صريحة واضحة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وإيمانه -كما نؤمن جميعاً نحن المسلمون- بجميع كتب الله وبكل أنبياء الله.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يهيئ لنا ذلك, وأن ينفعنا جميعاً بما نسمع ونقول؛ إنه سميع مجيب.

والحمد الله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة التاسعة عشرة: الخليل إبراهيم عليه السلام

العناصر:

1.مقدمة

2.حول نسب إبراهيم عليه السلام

-اصطفاء الله تعالى له وصلته بمكه المكرمة

3.ميزة هذه الأمة من خلال سيرة الخليل عليه السلام ومحاولة تجاهلها

-تجاهل الرسالة الإسلامية مع وضوح الأدلة في التوراة والقرآن

4.دعوى الانتساب لإبراهيم عليه السلام

-قيام الحجة على من يعظمه عليه السلام من خلال سيرته في التوراة والقرآن.

5.عصر الخليل عليه السلام

6.خاتمة وزيف دعاوى تطور التوحيد.

مقدمة في الحديث عن إبراهيم عليه السلام

الحمد الله رب العالمين, الرحمن الرحيم, مالك يوم الدين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين. أما بعد: أيها الإخوة والأخوات من المشاهدين الكرام! فقد تعرضنا في الحلقات الماضية لموضوع النبوة، وموضوع مقامها وبيان ما وقع فيها من اختلاف وتباين؛ بين المنهج السامي الكريم المعصوم في الإسلام, وبين المناهج المنحرفة إن كانت كتابية أو مادية أو إلحادية. ووعدنا بأن نبدأ في هذه الحلقة بإذن الله تبارك وتعالى بالحديث عن إبراهيم عليه السلام؛ باعتباره النموذج الواضح والأمثل في تاريخ النبوة والأنبياء عند أصحاب الملل الثلاث وغيرهم, كما سوف نرى بإذن الله تبارك وتعالى. ونحن في الحقيقة مع أننا قد تجاوزنا الحديث عن قوم عاد وقوم ثمود -وقبل ذلك الحديث عن الطوفان- ولكن قد نعود للحديث عن هاتين الأمتين عرضاً -إن شاء الله تبارك وتعالى- أو استطراداً عندما يأتي الحديث عن قوم موسى عليه السلام وعن الفراعنة، وفي مواضع معينة ينبغي أن نتعرض لهما, وما عدا ذلك فلا إشكال في هاتين الأمتين, ولا مجال للنقاش ولبيان الاختلاف فيهما؛ إلا في المسألة المهمة التي تأتينا الآن في هذا الموضع؛ وهي فيما يتعلق بنسب إبراهيم الخليل عليه السلام، أو المدة ما بين إبراهيم عليه السلام وبين نوح عليه السلام. فهنا فقط نحتاج أن نقول: إن الذي جاء في كتاب الله تبارك وتعالى -القرآن الكريم- واضحاً جلياً أن عاداً قد أتت بعد قوم نوح, وأتت بعدها ثمود, ثم بعد ذلك جاء عصر إبراهيم عليه السلام، إذاً فهناك آماد بين الخليل عليه السلام وبين قوم نوح لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى, وهناك كثير من الأمم والقرون لا يعلمهم إلا الله، ولا يعرفهم النسَّابون ولا المؤرخون.

نسب إبراهيم عليه السلام

هذا هو المهم في هذا الموضوع تاريخياً في الجملة -كما أشرنا- وهو مهم هنا في الكلام عن نسب إبراهيم الخليل عليه السلام؛ لأن أول ما يتحدث عنه العلماء -كما فعل الحافظ ابن كثير أو ابن عساكر أو غيرهما- أن يتحدثوا عن آبائه، ثم يأتون بما في التوراة ، والذي في التوراة أن نوحاً عليه السلام هو الأب العاشر للخليل عليه السلام, وهذا غير معقول إذا نظرنا إلى هذه الأمم العظيمة بينهما؛

فلذلك قد يقال: إن الذي يسد هذه الفجوة هو طول الأعمار التي تذكر, فالبعض قد يعمر أربعمائة سنة أو مائتين أو نحو ذلك؛ لكن هذا في الحقيقة لا يكون إلا إذا ثبت لدينا ذلك.

عندما تثبت قضية تاريخية كحقيقة فإننا نوفق بينها وبين غيرها من الحقائق الثابتة، أما عندما تكون القضية مثل قضية عاد وثمود ثابتة في القرآن بدون أي شك بترتيب تاريخي وتسلسل واضح؛ فإنه لا داعي على الإطلاق أن نفترض غير ذلك, أو أن نؤول بينها وبين شيء آخر, بل يجب علينا أن نجزم مباشرة أنه غير صحيح؛ لأنه -كما أشرنا- لم تذكر في التوراة هاتان الأمتان, ولم تذكر القرون التي ذكرها الله تبارك وتعالى وأشار إليها بأنهم لا يعلمونها؛ فلذلك نحن نجزم مبدئياً بأن هذا النسب غير صحيح بهذا الشكل، وبهذا التسلسل.

الذي يهم في هذا الجانب -وله دلالته فيما بعد إن شاء الله- أن إبراهيم عليه السلام هو من نسل عابر, ويهمنا اعتراف أهل الكتاب بأنه من نسل عابر, وأنه من قوم إرم, وأنه -كما في العهد القديم- كان آرامياً، ويتكلم اللغة الآرامية.

لغة إبراهيم عليه السلام

المهم في هذا هو إثبات أن إبراهيم عليه السلام من بقية العرب القديمة, وأنه بالفعل جاء إلى مكة, ويؤيد أنه أتى إلى مكة أنه بنى الكعبة، وأنه خاطب العرب الذين لقيهم في طريقه, أو عندما تخاطب مع زوجات إسماعيل عليه السلام, وهن من العرب المحدثة؛ لأن إسماعيل عليه السلام هو بداية العرب المحدثة أو الحديثة أو المستعربة, أو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أول من نطق بالعربية المبينة إسماعيل), والعربية المبينة أو العربية الأخيرة التي كانت منها لغة قريش, ثم بالتالي بقيت -ولله الحمد- وحفظها الله بهذا القرآن إلى اليوم.

فإبراهيم عليه السلام قبل ذلك كان على اللغة الآرامية التي جاءت في التوراة وذكروها, قال له: كلم عبدك بالآرامي, يعني: أنه كان على اللغة العربية القديمة؛ التي هي وسط بين اللغة العربية القديمة جداً التي كانت معروفة في قبائل اليمن ، وبين العربية الحديثة التي نتكلم بها، والخلاف بين هذه اللغات لا يعدو الخلاف بين اللهجات القبلية المعروفة إلى اليوم.

إذاً: نحن استطعنا أن نعلم -وهذا واضح ويعترف به المستشرقون وغيرهم- أن اللغة العبرية على ما مر بها من تغيير قريبة جداً إلى اللغة العربية, وأنها فرع من فروع اللغة العربية القديمة، فإذا كان ذلك في شأن اللغة العبرية؛ فما بالك بشأن اللغة الآرامية التي هي قريبة جداً من اللغة العربية التي

نتكلمها اليوم, والتي نزل بها القرآن، وإن كانت تسمى أحياناً السريانية، التي وضعها اليونان نسبة إلى سوريا أو آسوريا؛ لأنهم يطلقون على اسم المنقطة سوريا فيقال لها: السريانية.

على أية حال هي اللغة الآرامية التي يقولون: إن العبرية الحديثة تفرعت منها؛ ولذلك كثير من الأسفار في كتب العهد القديم مكتوبة بالآرامية، وهذه هي اللغة العربية التي كان يتكلم بها إبراهيم الخليل عليه السلام، فهو عليه السلام كان عربياً من العرب العاربة أو من آخرهم؛ لأنه من بعده تفرعت الأمم الفروع المعروفة, ومن أهم هذه الفروع الفرع العربي الأخير الذي غلب على العنصر العربي كله؛ وهو الفرع الإسماعيلي، والفرع الإسرائيلي الذي هو من ابنه إسحاق, يعني: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، فكان منه بنو إسرائيل.

اصطفاء الله تعالى لإبراهيم وصلته بمكة المكرمة

الذي يهمنا في هذا الباب -ولا يهمنا كثيراً في تاريخ العقيدة أو الدين غيره- هو أن إبراهيم الخليل عليه السلام اصطفاه الله سبحانه وتعالى واختاره من هذه الأمة، وإمكانية أن يكون هو الذي تتفرع منه هذه الشعوب والقبائل -حقيقة مشتركة- وأن يكون قد تكلم باللغة التي تكلم بها أهل جزيرة العرب هذا يشهد به الواقع، فقبل إبراهيم عليه السلام بمئات السنين أو أكثر يمكن فكُّ كل الرموز التي عُثر عليها -في الألواح والنقوش والأختام وغير ذلك- جميعاً باللغة العربية المستعملة اليوم أو من المعاجم.

إذاً: ليس هناك أي إشكال في هذا الأمر والحمد الله, وبالتالي فدعوى أنه كان يهودياً أو نصرانياً أو إسرائيلياً أو أي اسم من هذه الأسماء هي دعوى باطلة ليس فقط من ناحية الدين؛ بل أيضاً من ناحية النسب، ومن ناحية اللغة.

فمن المؤكد -وهذا نكرره لأهميته- أن شعوب ما بين النهرين بلاد الرافدين وشعوب الهلال الخصيب في بلاد الشام أيضا -الهلال كله منه بلاد الشام- و مصر، وهذه الشعوب أنها انطلقت أصلاً من جزيرة العرب، وبالتالي تفرعت وتعددت اللهجات -كنعانية أو عمونية أو موآبية .. إلى آخره- ولكنها كانت كلها تنطلق من هذه الجزيرة التي يمكن بدون مبالغة في القول؛ بل بكل يقين -إن شاء الله- أنها هي: مهد البشرية ومهد الإنسانية الأول.

وبالتالي فلا معنى لما يجادل ويناقش فيه المستشرقون الحاقدون؛ و اليهود بالذات ثم من تبعهم من غيرهم في مسألة: إلى من ينتسب الخليل عليه السلام؟ وكيف يكون له صلة بـ مكة؟!

ويتجاهلون ذلك؛ بل ينكرونه؛ بل وصل الأمر ببعضهم أن ينكر وجوده عليه السلام تماماً.

وتعجبنا هنا كلمة للعقاد في كتابه إبراهيم أبو الأنبياء يقول: إن هؤلاء يكتبون لإثبات دين وإنكار دين, وليس لإثبات الحقائق التاريخية.

وحقيقة هم يهمهم إثبات الدين التوراتي اليهودي, وإنكار الدين الإسلامي, هذا الذي يهم هؤلاء المستشرقين جميعاً! أما الباحث التاريخي المتجرد فسوف نرى أن هناك نقاط التقاء كثيرة معه يمكن أن نصل إليها إن شاء الله؛ لأنه ليس هناك إشكال ولا تعارض بين الحق الذي يأتي بطريق الوحي والحق الذي يأتي بطريق التواتر والحق الذي يأتي بطريق النقوش والآثار؛ الحق دائماً بعضه يشهد لبعض، وبعضه يصدق بعضاً، وإنما يكون بين الاختلاق وبين التأويل وبين محاولة أن يُنكر دين بجملته وحضارة برمتها ونبوة بأكملها لإثبات نبوة أخرى وحضارة أخرى.

ميزة هذه الأمة من خلال سيرة الخليل عليه السلام ومحاولة تجاهلها

هنا عند الحديث عن سيرة الخليل عليه السلام تظهر الميزة العظيمة لهذه الأمة المباركة, وليس فقط لهذا الرجل المبارك العظيم، إننا نحن الآن -أيها الإخوة والأخوات- نعاني من قضية ما يسميه الغرب الاستئصال أو التعصب أو عدم الانفتاح على الآخر أو رفض الآخر، أو ما أشبه ذلك من النعوت التي تدل بمعنى آخر أن هذا تصرف غير حضاري وغير علمي وغير لائق؛ فعلى هذا من الذي إذن يقصي الآخر؟! من الذي يستبعد الآخر؟! من الذي لا ينفتح على الآخر؟! من الذي لا يعترف للآخر بشيء؟!

إذا تأملنا في سيرة الخليل إبراهيم عليه السلام فسوف نرى أنها تصلح نموذجاً جلياً لمن فعلاً يفعل ذلك، وبدون أي شك فإننا نجد أهل الكتاب هم الذين يفعلونه في حق هذه الأمة الطيبة المباركة.

كيف ذلك؟

إننا وهم نعترف ونقر بأن إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء جميعاً الذين جاءوا من بعده, وهو أب لهذه الأمم؛ وبنو إسرائيل بالذات يرجعون إليه من ناحية النسب, وكذلك يرجع إليه العرب، وفي نفس التوراة -التي يعتمدون عليها ويريدون أن يجعلوا كل كلمة فيها حقاً ووحياً وإن كانت غير ذلك, ويقصون القرآن إقصاء مطلقاً عن هذا الموضوع كما هو مشاهد في كل كتبهم- فيها نفسها ما يدل

على عظمة وشأن إسماعيل عليه السلام, وعلى ذريته التي ستكون أمة عظيمة جداً جداً، وأنه يكون منهم اثنا عشر رئيساً، وفيها ذِكر هذه القبائل مثل النّبت و قيدار إلى آخره, وذِكر أبنائهم وأبناء أبنائهم أيضاً مثل: سبأ وقحطان و مدين.. إلى آخر ذلك كما سيأتي إن شاء الله فيما بعد.

فالمقصود: أن ما يعترفون به بأنفسهم يقصونه نهائياً في عملهم العلمي, وفي نظرتهم التاريخية, وكأننا أمة على الهامش لا وجود لها على الإطلاق، فضلاً عن الحجم الهائل للأمة العربية والعرب عموماً، إذا نظرت على أنهم كانوا يغطون جزيرة العرب بأكملها و بلاد الرافدين و بلاد الشام و مصر وإلى أفريقيا وغيرها؛ بل وصلوا إلى أرمينيا كما هو ثابت في تاريخ اليونان, بينما نجد بني إسرائيل محصورين في بقعة معينة!

فمن حيث العدد.. ومن حيث البقعة الجغرافية.. ومن حيث البعد الحضاري -الأمم المتحضرة من العرب التي عرفت واشتهرت- هناك إنكار أو محاولة تجاهل حضارة عظيمة جداً!

لجأ أولئك إلى أن يلصقوا بها جميعاً اسماً غريباً استحدثوه، وأول من ابتدعه هم؛ فلا وجود له لا في تاريخ بني إسرائيل ولا تاريخ العرب ولا غيره؛ وهو أن يطلقوا عليهم لقب الساميين أو السامية؛ تخلصاً وتعصباً من أن يطلق اسم العرب.

تجاهل الرسالة الإسلامية مع وضوحها الأدلة من التوراة والقرآن

على أية حال ليست القضية قضية التاريخ القديم؛ فلو اقتصر الأمر عليه فسيكون الأمر أخف، لكن الإشكال هو ما موقع رسالة الإسلام ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم من هذا التاريخ؟! في الحقيقة أن أي إنسان يتأمل فإنه يَعجب من حكمة الله تبارك وتعالى واختياره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فقد اختاره صلوات الله وسلامه عليه من العرب الذين لا يشك أحد من الأمم -بتواتر من حولهم وتواتر الأمة جميعاً- أنه من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام، وفي المكان الذي لا يختلط فيه أحد من الأمم بغيرهم! هذه الجزيرة الطيبة المباركة التي لا تكاد تختلط بغيرها على الإطلاق -مع أنه قد يقع أحياناً على الشواطئ شيء من ذلك- وفي المكان نفسه، وفي البيت نفسه الذي بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تكون ولادته صلى الله عليه وسلم! فأمر صريح وواضح جداً لا إشكال فيه ولا شبهة بأي وجه من الوجوه، وبالتالي يأتي هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ويُبعث بدين عظيم جديد فيه جِدّة كل الجدة، فيه أحداث.. وفيه أخبار.. وفيه ما لم يتطرق له كتاب

من قبل مطلقاً, وبالذات عن إبراهيم عليه السلام, والجدال يأتي فيه، وأخباره تأتي عليه السلام في سورة البقرة, وفي سورة آل عمران, وفي الأنعام والشعراء, -قصص كثيرة إن شاء الله قد نتعرض لبعضها؛ لكن ليس غرضنا التفصيل، وإلا فإن القصص القرآني من أروع وأعجب ما يكون- فقط أشير إلى قضية واحدة وهي أنك في كل موضع يُذكر فيه إبراهيم عليه السلام فإنما ذُكر لحكمة، فمثلاً: لماذا ذكر في هذا الموضع؟ لماذا تأتي قضية إمامته للناس وبناء البيت في المكان؟ نجد أن ذكره هنا لحكمة.

ثم تأتي بعد ذلك محاجته الملك وإيمانه بالبعث لحكمة أخرى.. وهكذا.

المقصود: أن هذا النبي العظيم تأتي له من الأحداث في القرآن ما لا ذكر له في التوراة ؛ بل حتى القضية البسيطة التي يمكن أن يقولها بعض الناس؛ لماذا ينص على اسم أبيه كما في قوله تعالى: ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ))[الأنعام:74]؟ فنجد أنه نص عليه عمداً وقصداً, وإلا فلا يؤثر أن يكون أبوه من كان؛ أيَّ نبي من الأنبياء, أو أي إنسان, فالله تعالى يختار لهم أفضل الآباء؛ لكن لماذا يُنَص على الاسم؟ لأنه يراد منه تكذيب ما في التوراة .

فلو كان هذا النبي أو هذا القرآن يمكن أن يأتي تجميعاً مما عند الناس، أو يقتبس مما عندهم؛ فلم يجادل في أشياء تسبب له إشكالات مع اليهود ومع أهل الكتاب, وكان من المكن أن يسلم بها، ولا سيما وهي لا تؤثر على الإطلاق, أما عندما يأتي فيوضح حقائق عظيمة عن هذا النبي صلوات الله وسلامه عليه تخالف ما عندهم عمداً حتى فيما يتعلق بالنسب؛ فهذا دليل على أن هذا القرآن حق محض لمنزل من عند الله تبارك وتعالى، لا مجاملة ولا مداهنة فيه, ولا مراعاة لكل من انحرف وأخطأ وضل.

دعوى الانتساب لإبراهيم عليه السلام

هذا الخليل إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، الذي كل أمم الأرض تجمع عليه, وكل أمم الأرض تعظمه, وكل أمم الأرض تنسب إليه, حتى البراهمة والصابئة يدعون أنهم على دنيه؛ فضلاً عن الملل الثلاث, -وهي: اليهود و النصارى والمسلمون- فالكل يعظمون هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

لكن عندما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم كان هنالك دعويان عريضتان جداً، فيأتي النبي صلى

الله عليه وسلم بالوحي من عند الله تبارك وتعالى لإبطالهما ونبذهما معاً من غير تعصب ولا عنصرية؛ لأن هذا دين الله التوحيد الخالص الحق, لا محاباة فيه ولا مجاملة لأي عنصر من البشر أو العصبيات والقوميات.. وهذان الدعويان هما:

دعوى العرب في الجاهلية الانتساب لإبراهيم عليه السلام

العرب التي كانت تعترف أنها من ذرية إسماعيل عليه السلام؛ ولا سيما العدنانية الذين يسكنون شمال جزيرة العرب من مكة وشمالها وبالذات من كان حول الكعبة، ويعظمون البيت الحرام على أنه الذي بناه إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام، ويقيمون شعائر الحج وغيرها, وينسبونها إلى إبراهيم عليه السلام، ويعتقدون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام؛ لكنهم انحرفوا إلى الوثنية كما هو معلوم, وعبدوا اللات والعزى وهبل وأمثالها، فدعوى انتساب إليه، وانحراف إلى الوثنية.

دعوى أهل الكتاب الانتساب لإبراهيم عليه السلام

في مقابل ذلك نجد أهل الكتاب يدعون الانتماء إلى إبراهيم عليه السلام, ومع ذلك يحصرون ورثة النبوة فيهم، وأن وعد الله تبارك وتعالى لهم وحدهم فقط، وأنه حتى الذبيح هو منهم، وكل ما جاء من فضل يجعلونه فقط في أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ولا يجعلون لغيرهم أي ميزة ولا فضل ولا شأن ولا ذكر؛ تقرأ هذا الكتاب -التوراة- من أوله إلى آخره فلا تكاد تجد إلا لماماً هاهنا أو هاهنا عندما يعترفون في شروحهم بأن أيوب عليه السلام لم يكن من بني إسرائيل وإنما كان من العرب, أو ما أشبه ذلك من إشارات، لكن الخلاصة والمحور كله هو حول بني إسرائيل فقط.

وهناك انحرافات, وهناك تأويلات, وهناك إخلال بوعد الله وأوامره ونواهيه, وتحريف شرعه عظيم جداً فعله اليهود ، وتنطق به التوراة وينطق به أنبياؤهم الكرام في مواضع لا حصر لها كما قد تأتي الإشارة لذلك إن شاء الله تبارك وتعالى.

إذاً: هاتان هما الأمتان؛ هاهنا قريش تدعي ما تدعي, و اليهود يدعون ما يدعون؛ فيأتي أعظم رسل الله تبارك وتعالى، وسيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ويأتي بهذا الدين العظيم, ويوحي الله تبارك وتعالى هذا القرآن العظيم وهذا الذكر الحكيم، ويصطفيه ويختاره من ناحية النسب, ومن ناحية البيان اللغوي أيضاً بهذا القرآن العظيم، ويأتي بالحق المطلق الذي لم يثبت لا العلم ولا التاريخ ولا ما تواتر في الأمم أن فيه خطأً واحداً على الإطلاق! وإنما ما كان

من خطأ منسوب لهذه الأمة فهو مما ينقلونه عن أهل الكتاب من أخطاء أو من الأمم الأخرى، أما الوحي الثابت في الكتاب والأحاديث الصحيحة؛ فهذا حق مطلق لا لبس فيه بأي حال من الأحوال، ومن ذلك: المكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة والرتبة السامية لإبراهيم الخليل عليه السلام التي لا نظير لها على الإطلاق.

قيام الحجة على من يعظم إبراهيم عليه السلام من خلال سيرته في التوراة والقرآن

تجد في التوراة هذا الرجل كأي رجل دنيوي -كما ذكرنا موضوع النبوة- رجل تهمه غنمه ومواشيه, وتهمه سلامته وعافيته, وينتقل من بلد إلى بلد، مع نوع من الإشارات أن الله كلمه وخاطبه، والتركيز في كلام الله له على أنه وعده بالأرض, وأن يعطي أبناءه الأرض.

لكن في القرآن أمر أعجب وأعلى وأبعد وأسمى من ذلك، وهو أنه الله سبحانه وتعالى جعله إماماً للناس أجمعين في أعظم أمر؛ وهو توحيد الله تبارك وتعالى في الوقت الذي كانت الأرض والبشرية تموج بالوثنيات في كل ناحية، حتى أنه كان في كل قرية, وفي كل حي, وربما في كل بلد وفي كل قبيلة أنواع لا تعد من الأوثان والأصنام والعبادات والضلالات والشركيات, فيأتي هذا الرجل العظيم الذي اجتباه الله تبارك وتعالى واختاره واصطفاه, وأمره بأوامر فوفى بها، فالله سبحانه وتعالى اختاره وجعله إماماً للناس ((قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا))[البقرة:124].

إلى حد أن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم, وهو الذي بُعث نذيراً للعالمين, ورحمة للعالمين, وهداية للخلق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه؛ يوحى إليه ((أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا))[النحل:123]؛ فهو الإمام, وهو القدوة لابنه محمد صلى الله عليه وسلم، حتى أنه صلوات الله وسلامه عليه كان أشبه الخلق بأبيه إبراهيم عليه السلام في خِلقته، وكذلك كما كان في دنيه وفي إيمانه وفي اتباعه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فمن هنا قامت الحجة ولزمت الحجة كل من يعظم الخليل إبراهيم عليه السلام من أية أمة من الأمم أن يعظم ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، مع التسليم بالحق الذي يأتي في التوراة أو في غيرها من الكتب، الذي إذا عرضناه على منهج القرآن, وما جاء في الأحاديث الصحيحة, وما جاء في العقيدة النقية التي عليها دين الإسلام ولله الحمد يتبين بالفعل أنها حق، ولا مانع من أن يبقى ما لا يؤثر في هذه القضايا كقضايا تاريخية بعيدة, أو أمور ليس لها تأثير في الحط من مقام النبوة؛ كما

يجعلون أن سارة كانت أخته غير الشقيقة, وأنه تزوجها.. هذا فحش عظيم لا يجوز نسبته إليه.

والمهم -كما قلنا- هو أنه لا يتكلم عن إبراهيم عليه السلام على أنه بهذه الإمامة وهذه المنزلة الجليلة العظيمة، حيث قاوم الملك الكافر وحاجه في الله، وحطم الأصنام، والله سبحانه وتعالى أنقذه وأخرجه من النار وجعلها برداً وسلاماً عليه، ودعا إلى الله، وجاهد في الله حق جهاده؛ هذه القضايا العظيمة المهمة جداً لا تأتي إلا لماماً، أهم ما عندهم في الأمر وعده لذريته, وأهم ما عندهم في قصة إبراهيم عليه السلام هو علاقته بأبي مالك وبملكي صادق وبفلان وفلان مما ليس لها أهمية في ذاتها؛ بل مع الأسف الشديد يأتي التحريف الكثير فيها كما سوف نبين إن شاء الله تبارك وتعالى.

عصر الخليل عليه السلام

يمكن أن نستعرض قبل نهاية هذه الحلقة الطيبة المباركة إن شاء الله قضية تاريخية, وهي متى وجد عصر الخليل عليه السلام؟

الذي يظهر وتكاد تجمع عليه الآثار والبحوث التاريخية وغيرها أن إبراهيم عليه السلام كان في القرن الثالث قبل الميلاد، أي: قبل المسيح عليه السلام أو قبل التاريخ الميلادي بألفي عام؛ ما بين (2000) إلى (2100) إلى (2200) أو نحو ذلك، وبمعنى آخر: أن ما ذكره بعض علماء المسلمين مثل أبي الفداء وغيره أنه صلوات الله وسلامه عليه كان قبل الهجرة بنحو (2800 سنة), يمكن أن يكون صحيحاً أو مطابقاً، وليس هناك أي علم ثابت في هذا.

إنما الذي يمكن أن يقال: إن هناك حقائق ثابتة في التاريخ, ويمكن أن تقارن بالحقائق الثابتة في القصص أو الكتب الدينية؛ وهو أنه قريب العصر من عصر حمورابي, والذي يقول البعض: إنه أمورافل, والبعض يقول: إنه حمورابي , والبعض يجعلهما شخصيتين, وهذه خلافات تاريخية لا نهاية لها؛ لكن هذا الرجل المشهور حمورابي صاحب الشريعة المشهورة يمكن أن يكون هناك تقارب في المدة بينه وبين الخليل إبراهيم عليه السلام.

بالنسبة لاسم الملك الذي حاج إبراهيم عليه السلام لا يهمنا كثيراً؛ لكن يهمنا أن إبراهيم عليه السلام وقف وقفة إيمانية قوية صادقة في وجه ملك عتي جبار متسلط، كما هو واضح، وكذلك أنجاه الله تبارك وتعالى من تسلط فرعون, كما ثبت في الحديث الصحيح في قصته مع سارة .

فهذه المدة وهذا الزمن نستطيع أن نقول: إن أهم ما فيه هو أن إبراهيم عليه السلام كان متوسطاً تقريباً بين عصرين عظيمين من عصور التوحيد، وجاء هو ليكون رأس العصر الثالث وهو الإمام الذي يتبعه من بعده.

العصر الأول من عصور التوحيد هو: ما بين آدم عليه السلام إلى وقوع الانحرافات والشرك في قوم نوح, وهذا واضح لا إشكال فيه.

أما العصر الثاني من عصور التوحيد فهو: العصر الذي هو بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، يعني: التوحيد الأول والتوحيد الآخر.

هذا التصور الإسلامي الفريد العجيب للتاريخ لا يوجد لدى أهل الكتاب, ولا يوجد لدى غيرهم من الأمم، إلا تشويهات عند النصارى : أن المسيح قد ينزل أو لا ينزل أو ما أشبه ذلك، المقصود: أن البشرية مرت بعصر توحيد طويل جداً, جاء إبراهيم عليه السلام بعد أن غرقت في الوثنية التي وقعت من بعد انحراف الأقوام من بعد الطوفان، فالتوحيد القديم من خلق آدم عليه السلام إلى بعثة نوح عليه السلام أو وقوع الشرك في قومه؛ هذه آماد لا يعلمها إلا الله, حقبة طويلة لا يعلمها إلا الله, كلها على توحيد الله, وعلى شهادة أن لا اله إلا الله، ولم يكن فيها أي شائبة شرك, حتى وقع الشرك فابتدأت الرسل وأولهم نوح عليه السلام لإنذار الخلق عن ذلك، هذا جانب.

التوحيد العظيم الذي يأتي في آخر الزمان هو من بعد محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة, ويكون وجود المسيح عليه السلام تبعاً لهذا النوع -لأنه يأتي بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم كما سنوضح إن شاء الله- وبينهما في فترة احتدام واشتداد الوثنية العظيمة, وعمومها على معظم التاريخ العالمي والبشري والأرضي تكون بعثة إبراهيم عليه السلام كسراج منير وقدوة وإمام مضيء لكل من جاء بعده, ولكل من يدعيه من الأمم، بأنه نموذج ومثال لعبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له.

بيان زيف دعاوى تطور التوحيد

وبهذه الحقيقة الواضحة النيرة الجلية نكذب -من جملة ما نكذب- دعاوى أن التوحيد تطور, وأن البشرية انتقلت شيئاً فشيئاً إلى أن عرفت التوحيد، والدعوى المزعومة التي تقول: إن أخناتون هو أول من وحّد, أو المقارنة بين ما قاله أخناتون وما قاله إبراهيم عليه السلام, ومن الذي أخذ من

الآخر.. هذا كله كلام متهافت, ولا اعتبار له لا من حيث الحقيقة التاريخية ولا من حيث الإيمان الديني العميق الذي جاء في كتب الله تعالى.

كل ذلك لا اعتبار له؛ إنما يشار إليه ويذكر لكي نتنبه إلى أن مناهج التاريخ ومناهج كثير من العلوم والآداب والأديان والفرق والمقارنة وما أشبه ذلك في أكثر أنحاء العالم وحتى في العالم الإسلامي مع الأسف؛ أنها جميعاً تقوم على أن الدين تطور, وأن التوحيد تطور, وبالتالي يختلفون من الذي أثر في الآخر، ومن الذي علم الآخر؛ هل هو أخناتون أو إبراهيم عليه السلام! وكيف جاء التوحيد؟ وهل كان هذا التوحيد توحيداً مطلقاً مجرداً؟ أو كان توحيداً بمعنى: أن رباً أعظم ومعه أرباب من دونه تشترك معه -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-!

هذه قضايا تمتلئ بها صفحات من كتب التاريخ ومن المعاجم الغربية، وتجرد لها باحثون غربيون كثير منذ حوالي مائتي سنة على الأقل, وكثير منهم تخصص بالذات في الكتابة عن إبراهيم الخليل عليه السلام، كان أكثر ما يهمهم ويشغلهم هو هذه المقارنات العقيمة السقيمة وهذا الهراء الذي لا قيمة له على الإطلاق، ونسوا أو تجاهلوا ما في القران الكريم عن عمد وعن قصد، وإلا فقد جاء في كتاب الله تبارك وتعالى أن هذا الرجل العظيم كان أمة وكان إماماً للناس, وأنه لم يكن من المشركين بأي حال من الأحوال، وأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً, وكيف يكون يهودياً أو نصرانياً ((وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ))[آل عمران:65], هذه من الحجج العقلية القرآنية القطعية العظيمة في إلزام أهل اليهود ((وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ))[آل عمران:65], لو كان هؤلاء يعقلون ويستخدمون المنهج العقلي والعلمي لما جعلوه يهودياً ولا جعلوه نصرانياً ولا جعلوه وثنياً أو تطورياً، ولآمنوا حق الإيمان بما أنزله الله تبارك وتعالى وجاء على لسان هذا النبي الأمي من الوحي، وهو أن إبراهيم عليه السلام هو فعلاً أمام الموحدين, وهو خليل الرحمن تعالى، وهو الذي أمرنا الله تعالى جميعاً أن نتبع ملته وألا نخالفه في ذلك, وأن نعظم الله تبارك وتعالى، وهو الذي دعا الله عز وجل أن تظل هذه الأمة وهذه البقية الباقية على التوحيد، وهو الذي أورث عَقِبَه وأوصاهم بكلمة لا إله إلا الله ((وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ))[الزخرف:28].

وهو الذي دعا ربه تعالى أن يجنبه وبنيه أن يعبدوا الأصنام، إلى غير ذلك من المعاني العظيمة الجليلة الفائقة التي لا نظير لها إلا في كتاب الله تبارك تعالى، لا في الكتب المحرفة ولا في كتب المادين والملحدين، وغيرهم من قد يكنُّ شيئاً من الاحترام لإبراهيم الخليل عليه السلام؛ لكنها لا تصل

إلى هذا المقام والرتبة العالية.

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم في ختام هذا اللقاء الطيب المبارك أن يجعلنا وإياكم جميعاً على ملة أبينا إبراهيم, وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة؛ إنه سميع مجيب.

والحمد الله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة العشرون: إبراهيم عليه السلام في مصادر المعرفة الثلاثة

العناصر:

1.مقدمة

2.إبراهيم عليه السلام في الوحي المحرف.

3.الحديث عن الوعد وأرض الميعاد.

-مقارنة بالقرآن الكريم.

4.محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه.

-ما كان يعبده قومه.

5.لقاؤه عليه السلام بملكي صادق.

6.توضيح وخاتمة.

أهمية شخصية الخليل عليه السلام في مصادر المعرفة الثلاثة

الحمد الله رب العالمين, الرحمن الرحيم, مالك يوم الدين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى سائر أنبياء الله تبارك وتعالى المختارين المصطفين أجمعين.

وبعد:

أيها الإخوة والأخوات الكرام! فلقد ابتدأنا في اللقاء الماضي الحديث عن خليل الرحمن وأبي الأنبياء من بعده إبراهيم عليه السلام، ونكمل اليوم بإذن الله تبارك وتعالى ذلك الحديث وفقاً للمنهج المعتاد في المقارنة بين مناهج أو مصادر المعرفة الثلاثة: المصادر الكتابية المحرفة، والمصدر المعصوم المحفوظ وهو القرآن والسنة الصحيحة، ثم المنهج أو المصدر الثالث؛ وهو كتابات الماديين أو الملحدين ومن شابههم.

وحقيقة أن نبي الله تبارك وتعالى الخليل إبراهيم عليه السلام من أعظم شخصيات التاريخ قاطبة، ومن أكثر الشخصيات في التاريخ التي نجد المناهج الثلاثة لها فيه كلام طويل، وبينها تعارض شديد، ولا نستطيع أن نأتي بتفاصيل ذلك إلا في حلقات طويلة؛ لكن نحن نكتفي بأمثلة واضحة ومهمة جداً تبين عظمة منهج الوحي المحفوظ على غيره، وتبين ما يليق -بالذات- بمقام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فإن من أعظم أنواع الخلط التي حدثت في سيرة الخليل إبراهيم عليه السلام ألا تذكر النبوة ولا يشار إليها إلا لماحاً -كما تقدم في مباحث النبوة في الحلقات الماضية- فإذا غضضنا النظر عمن ينكر وجوده التاريخي -كما فعل بعض الملاحدة في القرن التاسع عشر الميلادي الماضي وما بعده- وينكر أنه شخصية تاريخية، ويقول: إنها خرافة اختلقها كُتّاب التوراة وأمثالهم, فهؤلاء لا قيمة لهم, ولا اعتبار لهم علمياً في الحقيقة؛ لكن أقول: يبقى أن مَن أكثروا من ذكره والانتساب إليه وهم أهل الكتاب -اليهود و النصارى- قد شوهوا أيضاً؛ وذلك لأنهم لم يذكروا أعظم وأهم ميزاته عليه السلام؛ وهي: الإيمان والتوحيد, ونبذ الشرك, والإقرار بالعبودية الكاملة لله تبارك وتعالى, وهذا ما لمحناه ورأيناه في نوح عليه السلام, وكذلك في غيره من الأنبياء كما تقدم وكما سيأتي.

عندما نستعرض كيف كان هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه, وماذا تحدثت عنه هذه المصادر, وبالذات المصدران, وهما: التوراة بما نالها من تحريف, والقرآن العظيم؛ نجد الفرق واضحاً

جلياً بين هذين.

إبراهيم عليه السلام في الوحي المحرف

فلنبدأ إذاً بما يتعلق بالكتاب المحرف أو التوراة من (سفر التكوين).

نسب إبراهيم عليه السلام في الوحي المحرف

أول ما يذكره الكتاب عنه هو النسب كالعادة، وهذا يعطي الانطباع لدى أي إنسان بأنها كتابة بشرية مزجت الوحي بآراء الكتبة.

يتكلم عن النسب -كما ذكرنا في الحلقة الماضية- ويجعلون من نسبه عابر الذي هو جدّ عاد, كما يقول كثير من المؤرخين قديماً وحديثاً.

على أية حال لا إشكال في هذه المسألة, ولا أهمية كثيرة لها إلا من ناحية أن نعلم أن (إرم ذات العماد) التي ذكرها الله تبارك وتعالى بالاسم في القرآن في قوله: ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ))[الفجر:6-7], وجاء في التكوين أن إبراهيم عليه السلام كان آرامياً نقول: إنه من بقايا هؤلاء.

هناك إرم القديمة كما ذكر الله تبارك وتعالى عاداً الأولى: ((وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى))[النجم:50], وبقي من نسلهم عدة ممالك امتدت إلى ما قبيل الميلاد بعدة قرون في أنحاء متفرقة، ومنها مملكة (آرام) المتأخرة التي كانت معاصرة لمملكة إسرائيل في أرض فلسطين .

فنسبة إبراهيم عليه السلام إلى إرم أو إلى عاد على ما بين مدة إبراهيم عليه السلام وعاد الأولى من آماد طويلة لا يعلمها إلا الله كما بين في كتابه؛ المقصود منها: أنهم بقية هذه الأمة, وهي كغيرها من الأمم يعتريها الإيمان ويعتريها الكفر, وتكون لها ذرية وتكون لها بقية؛ فلا إشكال على الإطلاق في أن يكون إبراهيم عليه السلام كما جاء في التوراة من ناحية النسب أو القبيلة آرامياً, وهم من العرب القديمة الذين بقوا ثم اندمجوا بعد ذلك في العرب المحدثين من بعدهم.

فعلى أية حال هذه مسألة ليست بذات الأهمية إلا لنقول: حيث ما وجدنا مخرجاً لما يأتي في الكتاب المحرف ويمكن أن يكون صحيحاً لا حرج عندنا؛ بل حيث ما نجد أن المؤرخين تحاملوا عليه

فنحن ننكر تحاملهم، وحيث ما أمكن أن يكون هناك في الأمر قولان نقول: فيه قولان ولا حرج أيضاً؛ ولكن حيثما نجد أن الجزم والقطع واضح فإننا نجزم به كما ذكرنا في أبيه، فكون التوراة تقول: اسمه تارح , وكون أهل الكتاب يقولون: إن تارحاً شخص آخر ولا يذكرون آزر! فنحن نقول: هذا خطأ, وما نص عليه الله تبارك وتعالى هو الحق؛ فهو سمى أباه آزر .

وهنا يمكن أن نضيف شيئاً قد ينفع؛ وهو أن آزر أو آشور كما رجحها الأستاذ العقاد وغيره يمكن أن تكون آزر تحريفاً لآشور، ومن ثم من ينتسبون إلى إبراهيم عليه السلام أو إلى أبيه ويقولون: إنهم آشوريون فيمكن أن تكون النسبة إلى أبيه أو إلى آشور جد أعلى أيضاً له، فأقرب شيء أن يكون كذلك.

لكن على أية حال هو رجل حقيقة, واسمه كما ذكر الله تبارك وتعالى حقيقة آزر ، وهو أبو إبراهيم عليه السلام سواء صح تأويل العقاد أو غيره في أن تِيرح أو تَيرح تحريف لفظي أو لم يصح، لا يهمنا ذلك، فإنما يكون التأويل والمقارنة عند تساوي الدليلين في القوة، أما عندما يكون في كلام الله تبارك وتعالى أمر واضح جلي قطعي فيأتي غير ذلك من كتب أهل الكتاب ومن اتبعهم فلا اعتبار لتلك المعارضة بأي شكل من الأشكال.

المقصود: أن أعظم ما يوصف به إبراهيم عليه السلام وما ميزه الله تعالى به -وهو ما أشرنا إليه أيضاً في نوح عليه السلام- هو: الرسالة والنبوة والدعوة إلى توحيد الله تبارك وتعالى, والدعوة إلى إفراده تعالى بالعبادة, بعد أن عُبدت الأصنام, وبعد أن عُبد الأولياء والصالحون, وعبدت الآثار والآباء.. إلى آخر ذلك.. ومن ذلك عبادة الملوك والأحبار والرهبان؛ فيأتي التوحيد النقي الذي يدعو إليه إبراهيم عليه السلام.

وكما أشرنا أن القضية المهمة في نوح عليه السلام ليست هل كان فلاحاً أو ماذا فعل؟ لكن القضية المهمة هي الرسالة كما في القرآن ((إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ))[نوح:1], فالمهم هو الرسالة, حيث افتتحت السورة بهذا.

وكذلك إبراهيم عليه السلام نجد الأمر فيه أوضح وأجلى من حيث إن أهل الكتاب لا يكادون يأتون على هذا؛ بل كما أشرنا في مباحث النبوة: أنهم لا يكادون يفرقون بين الكاهن وبين النبي, كما سيأتي إن شاء الله.

نبذة من سيرة إبراهيم عليه السلام والحديث عن أرض الميعاد في الوحي المحرف

إذاً نرجع فنقول: كيف عرض الكتاب المحرف لسيرة الخليل بعد أن عرض لنسبه؟!

في سفر التكوين الفقرات من سبعة وعشرين إلى تسعة وعشرين عن النسب وعن الولادة والنشأة، ثم في فقرة ثلاثين ذكر أنه تزوج سارة وأنها كانت عاقراً! وهنا لاحظوا المسافة الكبيرة جداً بين أنه ولد وبسرعة يذكرون أنه تزوج واسمها كان ساراي -الاسم الأول لها- ثم كيف انتقل إلى أنها كانت عاقراً, ثم انتقل بعد ذلك من واحد وثلاثين إلى اثنين وثلاثين إلى هجرة وخروج إبراهيم عليه السلام مع لوط من أرض الكلدان إلى أرض كنعان! وهنا فرق هائل كبير جداً ما بينه وبين القصة القرآنية التي سوف نأتي على إيضاحها إن شاء الله تبارك وتعالى.

المقصود: أنه بعد ذلك في أرض كنعان مباشرة يأتي وعد الله لإبراهيم بأن يرزقه الذرية, ويبارك اسمه، ويعطيه هذه الأرض التي وعده بها.

إذاً: ما الذي نلحظه؟ وما الذي يمكن أن نستنتجه من هذا؟

نستنتج أن كاتب التكوين منذ أن بدأ بذكر سيرة إبراهيم عليه السلام نجد أنه انتقل مباشرة إلى الوعد وإلى أرض الميعاد, وإلى إثبات أحقية اليهود وأحقية بني إسرائيل فيها، كأن هذا هو الذي يهمه؛ بل حقيقة هذا هو الذي يهمه, وهذا الذي من أجله كتب السفر, فأخذ من سيرة إبراهيم عليه السلام ما يريد أن يأخذ, واختار بالذات هذه المواضع منها.

إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم

إذا نظرنا نظرة في القرآن الكريم نجد أن الأمر بخلاف ذلك كله، الأمر في القرآن الكريم لا يبدأ بالولادة أو بالذرية أو بالعقم, هذا يأتي الحديث عنه متأخراً, فالله سبحانه وتعالى ذكر في هذا الكتاب الذي كل آية فيه تدل على أنه حق من عند الله تبارك وتعالى, وأنه في أعلى درجات البيان, وأعلى مقامات البلاغة؛ يذكر في كل سورة ما يناسبها وما يناسب الإطار العام للسورة, والسياق العام لها ولما قبلها ولما بعدها، وللحدث الذي يريد أن يأتي إليه, وكل الكتاب في عبادة الله وتوحيده, وفي الأمر الأعظم والأهم، فلا يأتي أي ذكر للأحداث التي لا تهم ولا تفيد, ولا تخدم هذه الغايات العظيمة.

نجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر ما يدل على أن إبراهيم عليه السلام في شبابه كان على الفطرة القويمة السليمة، والدليل: أنه كان شاباً عندما جادل قومه, وعندما حطم الأصنام في كتاب الله تبارك

وتعالى: ((قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ))[الأنبياء:60]. والفتى في لغة العرب هو: الذي في سن المراهقة أو سن البلوغ وما بعده أو قريب منه، واللغة العربية دقيقة جداً, والعلماء أطالوا في ذكر حالات الإنسان من الولادة إلى الموت, ولهم فيها تفصيل لا يهمنا كثيراً الآن، الذي يهم هو أن الفتى هو من كان في أول الشباب, وفي نظارة الشباب، ومن الممكن أن نقول: إنه ما بين المراهقة إلى العشرين أو أقل من ذلك، وجاء ذلك في كتاب الله تبارك وتعالى في ذكر أصحاب الكهف: ((إِنَّهُم فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ))[الكهف:13].

المقصود أنه يمكن باللغة المعاصرة الآن -بالذات في اللغة الإنجليزية- ما يسمونهم (teen)؛ الذين آخرهم تين من ثلاثة عشر إلى تسعة عشر هذه مرحلة فتوة، الفتى الذي يمكن أن يكون في هذه السن كيف يمكن أن يجادل قومه في هذه الأمور العظيمة وينكر ذلك؟! نقول: من القرآن يتضح أن هذا الفتى إبراهيم عليه السلام فطره الله تبارك وتعالى وألهمه الرشد كما قال تعالى: ((وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ))[الأنبياء:51], و(الرشد) فيما يظهر -والله تبارك وتعالى أعلم- أن هذا قبل النبوة, يعني: إبراهيم عليه السلام كان ملهم الرشد والحكمة والمنطق والمجادلة لقومه بالحجة القوية قبل النبوة.

عمر إبراهيم عليه السلام عند محاجته لقومه في عبادة الأصنام

هنا نشير إلى قضية وهي: أن بعض الناس قالوا: إنه حاج قومه, وأنه رأى الكواكب وعمره خمسة عشر يوماً وما أشبه ذلك؛ وهذه من الأخطاء الشنيعة التي يقع فيها بعض من ينقل عن أهل الكتاب بغير علم، فالنقل عن أهل الكتاب أو النقل عن الإسرائيليات يُوقع في مشكلات تجعلهم هم يكفرون بما لدينا, ويقولون: إن كلامهم مثل كلامنا, أو أنهم أخطئوا في هذه المواضع، ملاحدتهم ينكرون القرآن مثلما أنكروا التوراة ! ومتدينوهم يقولون: إن هذا الكلام كلام خطأ، كيف يكون ابن خمسة عشر يوماً ويرى الكواكب ويتأملها ويخاطب أباه؟!

لكن لو حاولنا أن نخرج بعض الأمور فالذي أنا قرأته في مخطوطات البحر الميت أن الكاتب يقول: بعد أن مضى على إبراهيم أسبوعان؛ فالأسبوعان يمكن أن تكون -كما فهم بعضهم- خمسة عشر أو أربعة عشر يوماً, والحقيقة أن كلمة (أسبوع) تطلق على السبع السنين في مواضع كثيرة من العهد القديم، بإمكاننا أن نقول: إن هذه مما يحتمل الصحة بأن يكون وهو في سن الرابعة عشرة من عمره،

وفقه الله تبارك وتعالى, وألهمه وحاج قومه, ورأى الكواكب كما جاء تلك المحاجة في سورة الأنعام, وكما ذهب بعد ذلك فحطم أصنامهم.

ويؤيد ذلك ما جاء في كتب التفسير وغيرها من أن إبراهيم عليه السلام كان أبوه يعمل نحاتاً ينحت الأصنام, فكان يدخل ويرى ويتعجب من هذا العامل؛ يتعجب أن أباه ينحتها بيده ثم بعد ذلك يعبدها قومه! كيف هذا الذي كان بالأمس حجراً أو أي معدن من المعادن أو خشب أو أي شيء ملقى على الأرض بعد أن يشتغل فيه أحد البشر بشيء من العمل اليدوي يصبح إلهاً, ويصبح معبوداً! أمر عجيب جداً! ولا نستبعد على الإطلاق من أي صاحب فطرة سليمة أن يرفضه, فكيف إذا كان من آتاه الله تبارك وتعالى رشده وهو لا يزال فتى.

على أية حال المسافة بعيدة جداً بين هذا وبين الذي يرى أنه فقط في آخر عمره وبعد عقم سارة على السبعين سنة أنه خاطبه الله أو رآه الله أو رآه في المنام ووعده بأرض الميعاد، ولا نكاد نجد ذكراً للنبوة ولا للرشد ولا للمحاجة ولا المجادلة في أسفار أو الكتابة الموجودة في العهد القديم.

في القرآن الذي هو كتاب الله تبارك وتعالى هذه القضية هي أهم قضية؛ المحاجة لقومه في الأمر النظري؛ وهو ما يتعلق بعبادة الكواكب، والمحاجة ورد الشرك والكفر عملياً؛ وهو ما فعله في تحطيم الأصنام, وكل ذلك وهو لا يزال فتى.

المحاجة الثالثة هي التي لا ندري عنها، ولا يدل القرآن على شيء فيها, وهي: كم كان عمر إبراهيم حين محاجته للملك، قد تكون بعد ذلك؛ لكن على أية حال هي فيما يظهر للملك الذي كان يحكم العراق ويحكم بلاد حران أو ما حولها التي كان فيها إبراهيم الخليل عليه السلام وليس ملكاً آخر قابله، وقصة الملك هذه لها بقية قد تأتي إن شاء الله تعالى.

المقصود هنا: أن إبراهيم عليه السلام فطر وجبل على التوحيد النقي الخالص المقر لله تبارك وتعالى, وأنه رفض بهذه الفطرة النقية الخالصة أن يتوجه إلى المعبودات العلوية أو المعبودات السفلية أو المنحوتة.

آلهة قوم إبراهيم عليه السلام التي كانوا يعبدونها

ربما يأتي هنا قول من يقول: ماذا كان يعبد قوم إبراهيم عليه السلام؟ أي: ما هي الآلهة التي كانوا

يعبدونها؟

من كلا الحادثتين: الحادثة التي تتعلق بالكواكب ورؤيته لها كما في سورة الأنعام, وبقية القرآن كما في الشعراء والصافات في قضية الأصنام؛ يمكن أن نفهم كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه وغيره من العلماء: أنهم كانوا يجمعون بين الأمرين.

تلك الأمم وبالذات قدماء الحرانيين و الصابئة -وبالمناسبة الصابئة ينتسبون لإبراهيم عليه السلام في مواضع وأشار العقاد إلى بعضها في كتابه: إبراهيم أبو الأنبياء- المقصود: أن هناك التقاء بين عبادة الكواكب وبين عبادة الأصنام المنحوتة، وحتى العرب كانت هذه موجودة عندهم؛ يعني: كان منهم من يعبد الشِّعرى ومن يعبد غيرها, وكان منهم -كما هو معروف- من يعبد الحجارة..

لكن -مع أن ذلك لا يهمنا- ما الرابط بين عبادة الكواكب وعبادة الحجارة؟

يقال: إن الهياكل التي تُبنى في الأرض تبنى باسم المعبود من الكواكب، فالأمم القديمة ولا يزال -مع الأسف الشديد- إلى اليوم السحرة والكهنة وبعض الملاحدة يعتقدون بتأثير الكواكب والنجوم في الأحداث الأرضية، وبسبب اعتقادهم ذلك بنوا لها هيكلاً في الأرض, ويتقربون له، ويذبحون فيه؛ بناء على أن هذا هيكل زحل, وهذا هيكل المشتري الذي يسميه الرومان جيوبيتر, وهذا هيكل المريخ؛ وهذا هيكل الشعرى إلى آخر ما يعبدون، فهذا الهيكل الأرضي تُذبح فيه الذبائح, وتوضع فيه الصور، والصور أول ما وجدت صور العباد الرجال الصالحين من قوم نوح: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر, كما تبين من قبل, ولا يزال حتى اليوم الأغلب والأكثر حقيقة من الصور التي تصور عن المعابد والهياكل وما غير ذلك؛ يظهر الرجل وقد وضع يديه على صدره بهيئة الصلاة وبعضهم بلحية! مظهر مهيب وقور يدل على أن هذا ولي صالح, بالذات صور سومر؛ لأنهم أقدم الأمم, وقد يكون ذلك من بقايا قوم نوح عليه السلام.

فالمقصود: أنها تُعبد بناء على ذلك, ثم تُنحت أصنام أخرى بأي شكل من الأشكال فتُحمل أو تعظم أو تقدس -ولا غرابة فنحن الآن نرى البوذيين يعبدون تمثال بوذا ويحملونه معهم- ثم تتطور الأمور فيتكسّب بعض الناس بنحت الأصنام وبيعها وبتكثيرها، وبعد فترة يرى كل إنسان أنه يريد أن يكون في بيته صنم, كما حدث عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم, وغير ذلك من الأمم.

المقصود: أن هناك علاقة, ولا يُفترض أننا نجد علاقة عقلية منطقية واضحة في التفكير الشركي والتفكير الوثني؛ لكن نحن نفترض أن هناك علاقة بين المعبودات العلوية -الكواكب أو النجوم- وبين

المعبودات الأرضية أو المنحوتة, كما كان هذا حادثاً في قوم إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام من شبابه ومن فتوته, وبعد أن ألهمه الله تبارك وتعالى رشده وصفى ونقى فطرته وأعلاها عن كثير من البشر، وإلا فكل الفطر تنكر ذلك؛ لكن نستطيع أن نقول: إنه نوع أرقى من الفطر, وهذا إرهاص للنبوة والرسالة أنكر ذلك وجادل قومه بشأنه.

ذكر الوحي المحرف لقاء إبراهيم عليه السلام بملكي صادق

ثم عندما بلغ إبراهيم عليه السلام هذا الأمر, وعندما أوحى الله تبارك وتعالى إليه, وعندما رفضه قومه, وعندما أرادوا إلقاءه في النار -كما سنشرح إن شاء الله- بعد ذلك تأتي الهجرة, هذا ظاهر قصص القرآن -ونأتي عليه بالتفصيل إن شاء الله- لكن نرجع إلى ماذا قال الكتاب بعد ذلك؟

يأتي الكتاب المحرف أو التوراة بأمر عجيب في هذا؛ وهو أنه بعد أن عرض عرضاً سريعاً أن إبراهيم عليه السلام ولوطاً خرجوا من أرض الكلدان -يعني: العراق- إلى أرض كنعان وبدون نبوة ولا ذكر لشيء من ذلك؛ التقى إبراهيم عليه السلام برجل أو بشخص يقول أهل الكتاب: إنه شخصية غامضة -هم في تعريفهم كما في دائرة المعارف الكتابية- وهو شخصية ملكي صادق ؛ فليكن غامضاً أو غير غامض ليست هذا المشكلة, المشكلة أنهم يقولون: إن إبراهيم عليه السلام نزل عنده فاستقبله ملكي صادق وأخرج خبزاً وخمراً، وكان كاهناً لله العلي وباركه, وقال: مبارك إبراهيم؛ فأعطاه إبراهيم عليه السلام عُشْراً من كل شيء.

إذاً خلاصة ما قالوا: أن هذه الشخصية كان كاهناً لله العلي، وأن إبراهيم تبارك بنزوله عنده واستضافته له، وقدم إبراهيم -كما يقولون- العُشر من ماله إلى ملكي صادق، ويقولون: إن ملكي صادق يعني: ملك الصدق, وملك البر, وملك السلام.. وهذه الشخصية في الحقيقة تحتاج إلى شيء من أن يجلى الغموض عنها باختصار.

بيان حول حقيقة شخصية ملكي صادق

البعض يقولون: إن ملكي صادق هو حمورابي مثلاً، هذا -مع الأسف- الكلام نقله الشيخ رشيد رضا رحمة الله عليه, فهو في الجزء السابع من تفسير المنار صفحة خمسمائة وخمسة وثلاثين يقول: إن حمورابي هو ملكي صادق ملك البر والسلام الذي يقال في العهد العتيق: إنه كاهن الله وأنه بارك

إبراهيم وأن إبراهيم أعطاه العشر... إلى آخره.

الحقيقة أن هناك مشكلة إضافية في كلام الشيخ رشيد رضا أن نقول: إن حمورابي هو ملكي صادق فلدينا عدة شخصيات: حمورابي و أمرافل -بعض الناس يقول: أمرافل تحريفاً لحمورابل- وعندنا ملكي صادق ، الذي يبدو أنها ثلاث شخصيات مختلفة اختلافاً شديداً.

لا يهمنا هل يكون أمرافل هو حمورابي أو غيره، ولا يهمنا مَن حمورابي إلا أن نوضح أنه ليس هو ملكي صادق , بمعنى: أن حمورابي ضمن الشريعة المكتوبة أحد أمرين: إما أن يكون ملكاً من الملوك الذين نقلوا شريعة من شرائع الأنبياء السابقين في شريعته، وإما أن يكون حمورابي هو نبي من الأنبياء -فلله تعالى أنبياء من قبل- وأوحى إليه الله بشريعة؛ لكن لا علاقة لها بإبراهيم عليه السلام وكتبها سواء كان بعده أو قبله لا يهم، وإما أن يكون ملكاً وثنياً وتكون الكتابة المنسوبة إلى شريعته أنها بوحي من الشمس, وهو ملك وثني؛ لكن شريعته فيها شيء من الحق المنقول.

كل الاحتمالات واردة: أن يكون التحريف في الكتابة أو أن تكون الكتابة صحيحة وكان على غير دين التوحيد, وأما شريعته فلا عجب أن تتطابق وتتوافق شرائع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، الذي يهمنا أن نقوله: أنه ليس هو ملكي صادق أو ملك الصدق الذي يقول هؤلاء القوم.

ملكي صادق هو في الحقيقة أحد أمرين: إما أن يكون شخصية مختلقة، واختلقها اليهود ثم فرح بها النصارى لإضفاء نوع من الرمزية على المسيح عليه السلام -كما سيأتي إن شاء الله تبارك وتعالى وننقله من كلامهم- أو أن يكون ملكي صادق شخصية حقيقة؛ ولكن ليست بالشكل الذي ورد في العهد القديم، ولا بالحال الذي قيل: إنه كان أعظم -كما يبدو- من إبراهيم عليه السلام، وأن رتبته عند الله تبارك وتعالى كانت عالية جداً إلى حد أن يقال لأنبياء الله: سنجعلك على رتبة ملكي صادق .

لا يهمنا هذا الرجل حقيقة في ذاته بقدر ما يهمنا أن نقول: إن القصة إما أنها مختلقة وإما أنها محرفة، فلا صحة على الإطلاق أن يكون الخليل نبي الله -وهو في سن السبعين أو أكبر منها- يذهب إلى مثل هذا الرجل, ويعتبره كاهناً لله العلي ويعطيه العشر! مع ملاحظة أن من يقولون: إنه كاهن لله العلي هذه أفضل الترجمات؛ لأن البعض يقول: إن ملكي صادق كان كاهناً للإله أو للرب عليون الذي كان يعبده الكنعانيون, وهذا أفحش وأشد؛ فإذا كان كاهناً لوثن من الأوثان أو لمعبود غير الله تبارك وتعالى فالأمر أشد بعداً، ولا يمكن أن يتصور المؤمن أن إبراهيم عليه السلام يذهب إليه ويعطيه العشر ويتقرب منه, ويأخذ البركة منه! وكما نصوا وسنقرأه إن شاء الله من كلامهم؛ أن ملكي صادق

أعلى وأفضل من إبراهيم، وهذا في الحقيقة فيه تحقير وتدنيس لمقام النبوة؛ ولا سيما إذا كان هذا كاهناً لوثن من الأوثان, أو كان ملكاً وثنياً كما يزعمون.

توضيح المراد من ذكر الوحي المحرف لقاء إبراهيم بملكي صادق

لا نستطيع في هذا اللقاء وقد اقترب الوقت على الانتهاء أن نكمل قصة ملكي صادق ؛ لكن نشير إلى أمر مهم، وهو أنه كما قلنا: عندما يحرص اليهود المحرفون أن يتعمدوا مسألة الأرض والوعد فجاءت هنا -وربما تكون هي سبب وضع الأمر كله- أن ملكي صادق عندهم هو ملك الصدق وملك السلام؛ فبما أن الصدق والسلام متقاربان فإذاً: يكون ملك سالم أو سلام، فإذاً قالوا: هو ملك أورسالم أو أورشليم؛ فإذاً يكون هو ملك القدس.

فكأن ذلك أيضاً يقربهم إلى مسألة دعوى أن إبراهيم عليه السلام أُعطي الوعد له ولذريته, وأن العهد قديم, وهذا نرد عليه ببساطة نقول: إن في ذلك الوقت لم تكن قد بُنيت القدس , وهذا تقريباً كل المؤرخين يجمعون عليه؛ أن الأمة التي كانت تسكن في تلك المنطقة كانوا يسمون: اليبوسيين, وأن المسجد الأقصى أول ما بني وأصبح القدس قدساً كان بعد ذلك بحين, فيقول بعضهم: إنه في أيام سليمان, ونحن نقول: لا, بل إن أول من بناه إسحاق, وقد يكون في حياة أبيه إبراهيم عليه السلام بعد بناء الكعبة بأربعين سنة, وهذا منصوص عليه في صحيح البخاري .

المقصود: أنه لا يمكن أن نطابق بين ملكي صادق وقضية أورشالم وأورشليم إلا على الهوى والمزاج الكتابي اليهودي، الذي يحاول أن يحرف أو يختلق ما يؤكد الوعد بأن هذه القدس قديمة, وأنها موعودة منذ القدم, وأنها هي بشكل عنصري لإبراهيم, وفرع واحد من ذريته فقط؛ وهو فرع إسحاق عليه السلام، بينما نجد أن ابن كثير رحمة الله تبارك وتعالى عليه يقول: إنه لما أصعده الله وأراه الأرض أراه شرقها وغربها وجنوبها وشمالها، فيدخل في ذلك ما ترثه أمة محمد صلى الله عليه وسلم, وهو أوسع وأكبر وأشمل من أرض فلسطين التي لا تكاد تشكل نسبة إلا ما يعادل 1% من جزيرة العرب وحدها، فضلاً عن غير ذلك من الممالك ومن الأرض الواسعة المحيطة بها التي وعدها من يتبع ملة إبراهيم عليه السلام، ومعلوم أن الذي اتبع ملة إبراهيم عليه السلام وأورثه الله تبارك وتعالى الأرض وملكها فعلاً هو: محمد صلى الله عليه وسلم، والفاتحون من الصالحين من بعده؛ كما بين الله تبارك وتعالى: ((وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)) [الأنبياء:105].

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعلنا وإياكم منهم؛ إنه على كل شيء قدير.

نستكمل بإذن الله تبارك وتعالى في الحلقة القادمة ما يتعلق بـ ملكي صادق , وقصته عند أهل الكتاب, وعلاقته بنبي الله الخليل إبراهيم عليه السلام.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الحلقة الحادية والعشرون: بين إبراهيم عليه السلام وملكي صادق

العناصر:

1.مقدمة

2.لماذا افترض أهل الكتاب شخصية ملكي صادق!؟

3.ملكي صادق في المصادر الكتابية النصرانية

-أهم ما يستنتج من الشروح الكتابية ولب القضية

-الفرق بين النبوة والكهنوت

-بدع النصارى وضلالهم

4.خاتمة

سبب افتراض أهل الكتاب شخصية ملكي صادق

الحمد الله وحده, والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد:

أيها الإخوة والأخوات! وفقني الله وإياكم لما يحب ويرضى؛ إنه على كل شيء قدير.

كنا بفضل الله تعالى وتوفيقه قد تكلمنا في اللقاء الماضي ضمن سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام عما آتاه الله تبارك وتعالى لهذا النبي العظيم الجليل من الحكمة والعقل, والهداية والفطرة القويمة, ثم بعد ذلك الرتبة العالية التي لا رتبة فوقها, وهي: أن يكون إماماً للناس، وبالمقارنة -كعادتنا- في المنهج قارنا بين ذلك على سبيل الإجمال في القرآن, وبين ما جاء في الكتب المحرفة؛ كما هو في سفر التكوين وشروحه التي تحدثت عن هذا النبي العظيم صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وسائر أنبياء الله تبارك وتعالى أجمعين.

وقف بنا الحديث عند قضية مهمة؛ وهي العلاقة بين إبراهيم عليه السلام, وبين ملكي صادق الذي تحدث عنه سفر التكوين بالذات, وكذلك جاء ذكره في المزامير كما جاء في رسالة بولس .

المقصود أن هذا الكاهن أو هذا الملك أو من كان - ملكي صادق - الذي قلنا: إنه ليس هو حمورابي , ولا أمرافل كما هو الظاهر والأرجح؛ لكن أيضاً لا يهمنا أن نقول: إنه شخصية غير حقيقة وغير موجودة؛ فلا يهمنا ذلك في شيء، الذي يهم في الحقيقة هو أن أهل الكتاب أخطئوا خطأ بيناً ظاهراً يجعلنا ننفي أي علاقة أو أي صلة بينه وبين إبراهيم الخليل؛ وبالذات أن يكون أفضل من إبراهيم الخليل عليه السلام، وحقيقة أن هناك تناقضاً بيناً في دعوى أهل الكتاب -من اليهود و النصارى- في العلاقة بين إبراهيم عليه السلام وبين ملكي صادق لا تزال في تقديري وفي نظري محل تساؤل: ما الذي يدفع هؤلاء القوم إلى افتراض هذه الشخصية؟! وأن تكون أفضل من الخليل عليه السلام؟!

وقلنا بالنسبة لليهود أن القضية المهمة عندهم هي: إثبات الميراث وأرض الوعد؛ فلذلك عندما لا تُذكر نبوة إبراهيم الخليل, ولا يشار إلى إرساله إلى قومه, ولا إلى نذارته, ولا إلى محاولة إحراقه بالنار ثم إنجاء الله تبارك وتعالى له, ولا أمر من هذه الأمور العظيمة الجليلة؛ وإنما يكون التركيز على الميراث وعلى الوعد فهذا يفسر لنا ذلك، على أن هاهنا لفتة عجيبة؛ وهو أنهم يقولون: إن ملكي صادق هو من ملوك أرض كنعان, وأنه كان في تلك الأرض ساكناً لها قبل إبراهيم عليه السلام، ولما جاء إبراهيم عليه السلام قابله على أنه كاهن لله العلي, وأنه أعلى منه رتبة, كما سنقرأ إن شاء الله الآن.

فإذا كان الأمر كذلك فإن هناك ملفتاً عجيباً؛ وهو كيف غاب عن ذهنكم أنه قد يأتي من المتعصبين للعرب -وهذا موجود عند القوميين العرب, وقد حدث ذلك ممن يكتب كتابة قومية, ونحن نرفض العنصرية والقومية عربية كانت أو إسرائيلية- ويقول: إذاً: فالجنس العربي أسمى, والجنس العربي

أقدم, والجنس العربي أعلى! وهذا أمر يخل بالنبوة ومقام إبراهيم الخليل, وفي الوقت ذاته يخل بالغرض التاريخي أو السياسي؛ الغرض من تسييس التاريخ في القديم وفي الحديث لخدمة الوعد والميراث اليهودي أو الإسرائيلي لأرض الميعاد.

على أية حال هذا أمر يؤكد أن المنهج الحق والمنهج الوسط هو: منهج الوحي المحفوظ المعصوم, وهو الذي ينبغي أن يُعتمد في قصة الخليل عليه السلام, بالنسبة لهؤلاء, وبالنسبة للنصارى سوف نقرأ أيضاً ما هو أعجب من ذلك.

الراجح في عمر إبراهيم عليه السلام حين نظر في الكواكب

لكن نقف هنا عند قضية ما أشرنا إليه في اللقاء الماضي: وهي أن إبراهيم عليه السلام تأتي قصته في القرآن لتبيّن هدايته, وما أعطاه الله تبارك وتعالى من العقل والحكمة والفطرة القويمة السليمة العالية حتى قبل النبوة، مما يظهر وكما رجحنا ويترجح والله تبارك وتعالى أعلم من قصة سورة الأنعام والنظر في الكواكب؛ أن إبراهيم عليه السلام لم يكن قد أوحي إليه بعد؛ فإن الله سبحانه تعالى لو أنه قد أوحى إليه أن ينذر قومه وأرسله إليهم، لما قال: هذا ربي ثم هذا ربي ثم هذا ربي، وإن قيل: إنه يفعل ذلك على سبيل الجدل, وإنما الذي يظهر ويرجحه أكثر ما في سورة الشعراء من أنه لم يذكر -هنالك في سورة الشعراء- الإحراق بالنار, ولم يذكر عن الأصنام إلى أنها عدوة له: ((فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ))[الشعراء:77-78]؛ فهذه مرحلة فيما يبدو لنا ونرجحه والله تعالى أعلم مرحلة قبل أن يؤمر ويوحى إليه ويبلّغ.

وقلنا: قد يرجح ذلك أو قد يعين عليه كلمة فتى, وهذا على أية حال هو على سبيل الترجيح, والقصة في القرآن الكريم إذا تأملها المتأمل من جميع السور يمكن أن يخرج منها بخلاصة عجيبة في غاية العجب؛ وهو أن هذا القرآن في القمة من البيان والبلاغة, ومن التفرد والتميّز العجيب؛ ففي كل سورة من السور تكون مناسبة من قصة إبراهيم عليه السلام في موضع فقط أو مقطع, ويأتي متسقاً مع سياقها ومع أحداثها؛ سواء كان تاريخياً قبل أو بعد، ولذلك إن شاء الله تبارك وتعالى سوف نأتي في حلقة مستقلة بإذن الله محاولة منا تقريبية لرسم شكل تاريخي من مجموع ما جاء في القرآن الكريم عن قصة إبراهيم عليه السلام، أحببت فقط أن ألفت لهذا؛ لأنه سبق في اللقاء الماضي حديث مجمل, وقد يثير بعض الإشكال واللبس, ثم بعد ذلك تبقى القضية محل نظر من الجميع، وهذا على

كل حال كله من التدبر ومحاولة فهم هذا القرآن العجيب, القرآن العظيم الكنز الذي لا تنتهي عجائبه, ولا تنتهي أسراره وحكمه العظيمة التي تبهر العقول, وتبهج القلوب والألباب.

ملكي صادق في المصادر الكتابية النصرانية

إذاً: نرجع إلى إكمال ما يتعلق بـ ملكي صادق من المصادر الكتابية النصرانية في القديم والحديث، الحقيقة أنه شيء مؤسف أن نجد دوائر المعارف الكتابية -هي عدة دوائر أو معاجم وقواميس- يكتبها عرب من مصر ومن لبنان يجيدون اللغة العربية, والمصادر الإسلامية من القرآن الكريم وغيره بين أيديهم وفي إمكانهم أن يتأكدوا أو يمحصوا أو يدققوا أو يقارنوا، ومع ذلك يضرب بهذا كله عرض الحائط, ويترجم معظم ما يقولونه من مصادر غربية بعيدة جداً عن التلقي وعن المصادر الإسلامية، لو عذرنا الغربيين فقد نعذرهم بأنهم لا يجيدون العربية ولا يفقهونها, ولا يستطيعون الوصول إلا لبعض المصادر؛ لكن كيف نعذر هؤلاء وهم في بيئة إسلامية, وهم يرون تردد ذكر اسم إبراهيم عليه السلام وقصته العجيبة في الخطب وفي المناسبات, ويتلى القرآن في كل مكان! فعجب لهؤلاء القوم حقاً! وإننا نأسف أن يكون هنالك من يدعي التدين أو البحث عن الحقيقة في المنهجية العملية الصحيحة, عن مصدر المعرفة الصحيح, ثم يغضوا النظر ويضربوا صفحاً بشكل مطلق عن أعظم كتاب, وعن أعظم هداية, ويستهين بهذه العقول الإسلامية في القديم والحديث وغيرهم، حتى إن من المستشرقين من شهدوا أنه لم يأت في القرآن الكريم ولا في الحديث الصحيح ما يناقض العلم على الإطلاق, ولا ما يناقض الحقائق التاريخية على الإطلاق.

فهلا كان شيئاً من المقارنة بدلاً من أن يقارن باكتشاف أو حجر يترجم من لغة إلى لغة وإلى أخرى, ويحتمل عدة احتمالات كما يفعلون دائماً!

شيء مؤلم على أية حال؛ لكن الذي يكشف أن هذا المنهج خطأ من كلام أصحابه هو النتائج التي يتوصلون إليها، فعندما يتحدثون أن ملكي صادق كان أفضل وأعلى رتبة من إبراهيم عليه السلام كما في دائرة المعارف الكتابية المادة نفسها, يقولون: فقد كان ملكي صادق أعظم من إبراهيم جد لاوي .

يقولون ذلك على أساس أن المسيح عليه السلام في نظرهم هو مذكور في المزامير , وهو الذي قال له الله: إنه كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق , وبالتالي يكون ملكي صادق أفضل من إبراهيم ويصرحون بذلك، وكونه أفضل من إبراهيم عليه السلام, فهذا يدل على أن كهنوت المسيح عليه

السلام أفضل من كهنوت لاوي, أي: الكهنوت اليهودي الإسرائيلي من ذرية هارون عليه السلام.

فـ النصارى أخذوا الموضوع من جانب تفضيل كهنوت على كهنوت, ولم ينظروا إلى النبوة, وإنما كعادتهم في الغلو، فبدل أن يثبتوا أن المسيح عليه السلام رسول أفضل من الخليل عليه السلام -فرضاً لو ساغ ذلك- لكن هم قالوا أعظم من ذلك -مع الغلو الذي لديهم- قالوا: إن رتبة ملكي صادق أعظم من كهنوت هارون, وبالتالي فإن كهنوت المسيح الذي على هذه الرتبة هو الأفضل ما دام ملكي صادق أفضل من إبراهيم؛ لأنه متعلق بكونه إلهاً -لما فيه من الألوهية تعالى الله عما يصفون- فأصبح هذا مدخلاً لتبرير عقيدة ألوهية المسيح عليه السلام, وهي عقيدة بدعية مفتراة, ليس في العهد القديم ما يدل عليها, ولا حتى في كتب العهد الجديد ما يقتضيها صراحة -كما سنبين إن شاء الله ونوضح ذلك بإذن الله إذا أتينا على هذا الموضع- لكنها عقيدة كما ذكر الله تبارك وتعالى: ((يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ))[التوبة:30], وهم قدماء العالم, وقدماء المشركين في مصر وفي الهند وفي سبأ وفي غيرها.

فعقدية التثليث عقيدة وثنية قديمة لا يمتري في ذلك أحد من المؤرخين الذين أرخوا لتاريخ هذه الأمم القديمة، فلا شك أنها عقيدة قديمة ورثها هؤلاء, وأدخلوها بعد مدة من رفع المسيح عليه السلام, وانتهاء شأنه في هذه الأرض؛ فاخترعت وركبت وأدمجت هذه العقائد الوثنية القديمة, وأصبحوا بعد ذلك يؤولون أي قصة يجدونها بما يناسب هذه العقيدة المبتدعة الباطلة؛ ومن ذلك ما يتعلق بقضية ملكي صادق وعلاقته بإبراهيم الخليل عليه السلام.

أهم ما يستنتج من الشروح الكتابية حول قضية ملكي صادق

فلنقرأ ما يؤكد ذلك من شروحهم للكتاب.. مثلاً: هذا أحد الشروح المعروفة, وقد نقلنا من الشروح العربية يقول: إن ملكي صادق معناها: ملك البر, وشاليم هي: أورشليم, أي: ملك السلام, وملك أورشليم أيضاً، وقلنا: طبعاً لم تكن قد بنيت هذه المدينة في ذلك الوقت.

على أية حال يستنج من هذا أمور:

أولاً: أن ملكي صادق استقبل إبراهيم -لا يزال اسمه إبرام عندهم- وأنه استقبله لينال بركته, وهناك تقليد يقول بأن الله هو الذي أمره أن يذهب ويأخذ البركة من ملكي صادق , هذه الفائدة الأولى عندهم.

والثانية: أنه كان كاهناً وملكاً.

الثالثة: أن ملكي صادق أخرج خبزاً وخمراً وقدمها لإبراهيم عليه السلام، وهم يريدون من تقديم الخبز والخمر على تأويلاتهم الباطلة في شعائرهم وطقوسهم الوثنية المتأخرة: أن يبحثوا عن أدنى علاقة؛ لكي يقولوا: إنها موجودة في العهد القديم أي: في التكوين كما هو هنا.

يضاف إلى هذا نقطة مهمة، وهي الرابعة: يقولون: إن ملكي صادق بارك إبرام, مما يدل على أنه أعظم من إبرام -يعني: إبراهيم عليه السلام- لأنه أعطاه البركة, وأنه باركه باسم أن الله تبارك وتعالى هو الرب العلي.

يريدون إشارة إلى أن الإله سيكون فيما بعد أو ابنه -تعالى الله عما يشركون- المسيح عليه السلام.

يقولون في الفائدة الأخيرة: مع أن إبرام كان كاهناً, وأن رأس كل أسرة كان كاهناً, إلا أنه قبل البركة من ملكي صادق , وقدم له العشور؛ لأنه كان يقر أنه أعظم منه, ولأن كهنوت ملكي صادق كان رمزاً إلى كهنوت المسيح.

فهذا لب ما خرجنا إليه من قولهم؛ ولذلك وضعوا عنواناً يقول: ملكي صادق كرمز للمسيح يُدعى ملك البر والسلام, والمسيح يدعى ملك البر والسلام.

سوف يأتي إن شاء الله تبارك وتعالى في البشارات النبوية أن المسيح عليه السلام لا ينطبق عليه وصف ملك, وأن من قيل عنه: ملك البر وملك السلام هو في الحقيقة نبي الرحمة ونبي الملحمة محمد صلى الله عليه وسلم، أما المسيح عليه السلام فلم يكن له أي ملك على الإطلاق.

الشاهد: على رتبة ملكي صادق معنى ذلك كما وضح بولس في زعمهم: أن كهنوت ملكي صادق أفضل من كهنوت هارون واللاويين, وتقديم العشور دليل على ذلك, وهذا يُفهم منه -إذا نحن نظرنا إلى حقيقة الكهنوت كما يزعمون- أن معناه: التوسط بين الله تبارك وتعالى وبين الخلق، فهو معنى أعم من أن يكون ما جاء عن هارون عليه السلام حتى كما في العهد القديم.

الفرق بين النبوة والكهنوت

الكاهن أو الكهانة عندهم ممزوجة أو قريبة من النبوءة, وفي الوقت نفسه الكهانة رتبة تندرج ضمن الأنظمة الملكية القديمة, وضمن الرتب التي كانت في الحضارات القديمة؛ فكل قرية وكل مدينة وكل

مملكة لها ملكها، ولها رئيسها الدنيوي, ولها أبوها الروحي، حتى المعابد الوثنية والهياكل الوثنية كانت لها كهنتها, ولهم رتبهم, ولهم درجاتهم، وكذلك أسقطوا أو اقتبسوا ذلك؛ فجعل بنو إسرائيل رتباً كهنوتية, وألبسوها لهذا الدين الذي جاء به موسى عليه الإسلام؛ وهو الإسلام والتوحيد؛ الذي لا توسط فيه بين الخالق والمخلوق لا فيما جاء به موسى عليه السلام, ولا فيما جاء به عيسى, ولا فيما جاء محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

إنما يمكننا أن نقول: الأصل الذي أُخذت عنه ثم عمم بعد ذلك هو أن هناك ما نسميه في الإسلام -أو ما هو معروف- بالسدانة, نجد أن للكعبة بيت الله الحرام سادناً؛ والسادن بيده المفتاح, وهذا كان معروفاً عند العرب في الجاهلية, وأقره النبي صلى الله عليه وسلم في بني شيبة، فالسدانة لا تعدو أن تكون نوعاً تشريفياً من الخدمة لهذا المكان المشرف المعظم؛ فبيده مفتاح البيت, ويقوم على خدمته, ويهتم بأمره، فليست على الإطلاق توسطاً بين الله وبين الخلق, وهذا الوضع إذا عمم, وعندما تتقادم العهود, ويغلب على أتباع الأديان حب الدنيا, ويغلب عليهم التسلط والطغيان فإن الكهنوت أو الإكليروس -كما يسمونه- يصبح طاغوتاً شنيعاً فظيعاً يبعد الخلق عن الله تبارك وتعالى؛ فلا علاقة على الإطلاق بين ما يأتي به الأنبياء وبين ما يأتي به الكهنوت بأي شكل من الأشكال.

البدع إنما تحدث بفعل الكهنوت ورجال الكهنوت؛ بحيث لا يرفع عمل, ولا ينزل من الله تبارك وتعالى وحي إلا بواسطتهم ومن طريقهم كما يزعمون ويدعون، وهذا يؤدي مع الزمن إلى أن تتراكم البدع فيبتعدون شيئاً فشيئاً, وتتدخل السياسات, ويتدخل الأباطرة والملوك والحكام, ويتنافس الناس على مرتبة الكهانة أو البابوية أو سمها ما شئت من رتب الإكليروس؛ فتصبح تلك من أكبر العوامل للانحراف والفساد، وهذا الانحراف الخطير الذي أزعج لوثر وأزعج كثيراً ممن كانوا قبله, وجاء من جاء من بعده لا بإنكار الكهنوت بأكمله -وليت الأمر اقتصر عند ذلك؛ فإنكار الكهنوت حق بهذا المعنى- لكن الإشكال أن ينكر الدين كله؛ لأن الدين عندهم إنما جاء من الكهانة ومن الكهنوت.

المهم الذي نذكر هذا من أجله هو: بيان الفرق الكبير جداً بين النبوة وبين الكهنوتية, بين -بالذات في هذا المقام- قصة الخليل إبراهيم عليه السلام, وما قام به لقومه من الدعوة والإيمان والنذارة, وبين ما يتحدث به هؤلاء الذين نحوا منحى آخر من أجل إثبات الوعد -كما يزعم اليهود- وأخذ النصارى منحى آخر تماماً، وهو تفضيل كهنوت على كهنوت، فالقضية عندهم إذاً ليست تفضيل التوحيد على الشرك -التي هي لب دعوة إبراهيم عليه السلام؛ فلب دعوته هي بيان التوحيد وحقيقة

شأنه وعظمته ونقاء عقيدته وفطرته, وبيان الشرك وأنه مرذول مرفوض ترفضه العقول, ولا يقبل الله تبارك وتعالى من دان به, ولا يؤدي إلا للخسارة الماحقة في الدنيا والآخرة.. إلى آخر ما هو معلوم بالفطر السليمة وإنما القضية عندهم قضية تفضيل كهنوت على كهنوت؛ فزاد النصارى تحريفاً على تحريف, وبعداً عن بعد، وأرادوا من خلال شخصية ملكي صادق أن يقولوا: إن المسيح عليه السلام إله, ليس فقط أعلى كهنوت -بالمعنى الذي كان عند اليهود - ولكن من حيث الألوهية، ويستدلون على ذلك بكلام عجيب جداً لـ بولس.

مفهوم كلام بولس حول ملكي صادق عند النصارى

مفهوم كلام بولس الذي أخذوه: أن كهنوت ملكي صادق ليس له أب, وليس له بداية, وليس له نهاية, بمعنى: أنه لم يذكر -كما هو في التكوين كما قرأنا- من هو أبو ملكي صادق , ولا من هي أمه, ولا من هم أسرته؛ فبالتالي على كلامهم يكون هذا الرجل رمزاً للمسيح الذي هو -تعالى الله عما يشركون- تجلٍّ من تجليات الله تبارك وتعالى, وأنه ليس له بداية, وليس له نهاية أو ما أشبه ذلك.

يقول في رسالة العبرانيين: إنه بلا أب, بلا أم, بلا نسب, لا بداية أيام له ولا نهاية حياة؛ بل هو مشبه بابن الله هذا يبقى كاهناً إلى الأبد.

نحن نعلم أن المسيح عليه السلام له أم باتفاقنا واتفاقهم، هذا جانب، الجانب الآخر -وهو أمر قد يدعو للغرابة والطرافة- كم ذكر في العهد القديم من رجال -وفي غيره- ممن لم يذكر السفر أباه ولم يذكر أمه ولم يذكر نسبه, ولا يدل ذلك على أنه لا بداية له ولا نهاية ولا أولية!

كيف استنتجوا هذه الصفات الألوهية التي لا يختص بها إلا الله تبارك وتعالى فقط, الذي هو الأول والآخر والظاهر والباطن، فكيف يقولون: إن هذا الرجل لا بداية له ولا نهاية, ولم يذكر له أم ولا أب؛ فبالتالي هو رمز أو تجلٍّ من تجليات المسيح عليه السلام، فذكر في قصة الخليل أنه أفضل من الخليل إبراهيم ثم ألمح عنه في المزامير بأن الله سيجعل المسيّا المنتظر كاهناً على رتبة ملكي صادق , ثم لما بعث المسيح عليه السلام اكتشفوا كما زعموا الحقيقة, وإذا بهذا الرجل رمز لألوهية المسيح عليه السلام, وإذا أفضليته على إبراهيم رمز لأفضلية الكهنوت النصراني على الكهنوت اللاوي اليهودي, وإذا بتقديم الطعام والخمر رمز للعشاء المقدس, فتصبح المشكلة تتعلق بالشرك والبدع الذي هو في الشعائر وفي العقائد أيضاً.

فلذلك يقول شارح سفر التكوين : يستدل على ذلك بأن إبرام جد اللاويين نال البركة من ملكي صادق , يعني: ما دام إبراهيم عليه السلام -وهو كان جداً للاويين الذين هم أبناء هارون عليه السلام- نال البركة من ملكي صادق , وقدم له العشور؛ فبالتالي المسيح أعظم من إبراهيم, وكهنوته أعظم من كهنوت لاوي , وأيضاً قال: وذكر الرسول -يعني: بولس - عن ملكي صادق : أنه بلا أب بلا أم, ولا نسب له..

مع أنه ما قيل: إنه بلا أب وبلا أم؛ لكن لم يذكر أبوه ولم تذكر أمه! ولا حاجة لكثير من الأعلام ألا يذكر آباؤهم ولا أمهاتهم.

ويقول: ولا بداية له ولا نهاية لحياته, ومعنى ذلك: أنه يرمز إلى أزلية المسيح وأبديته ودوام كهنوته! ما العلاقة بين المسيح عليه السلام وبين هذا الرجل وبينهما أكثر من ألفي سنة؟! ما العلاقة بين كون المسيح عليه السلام -كما يزعمون- إله وبين هذا الرجل بأنه لم يذكر له أب ولا أم؟! لاحظوا إلى أي حد تنتكس النفوس إذا ابتدأت في الدين وضلت عن المنهج القويم، سبحان الله العظيم!

ثم يختم فيقول: إن الخبز والخمر اللذين قدمهما الملك يشيران إلى سر العشاء الرباني الذي سلمه المخلص إلى تلاميذه وإلى ذبيحة العهد الجديد غير الدموية.

العجب أيها الإخوة والأخوات! أن نفس موضوع العشاء الرباني مختلف فيه! بمعنى: أن المسيح عليه السلام عندما جمع تلاميذه وقدم لهم العشاء فلا يدل ذلك -عند كثير من الفرق والطوائف الكنسية في القديم والحديث- أصلاً على أن دم المسيح أو جسد المسيح يتحول إلى العشاء الذي يتناولونه؛ كما تدعي الكنائس الأخرى كالكاثوليك؛ التي تأكل الخبز وتعتقد أنه جسد المسيح, ويشربون الخمر ويعتقدون أنه دم المسيح.

فإذا كانت العلاقة ضعيفة أو غير صحيحة وغير منطقية أصلاً بين ما حدث من المسيح عليه السلام عندما أعطى تلاميذه الخبز والخمر -كما يزعمون, ونحن لا نقر أبداً أن نبياً من أنبياء الله يعطي الخمر- لكن الشاهد لا علاقة بين هذا وبين العشاء الرباني الذي هو بدعة منقولة عن الأمم السابقة, وهذا يأتي إن شاء الله عند ذكر بدع النصرانية، فكيف تصبح العلاقة كما يدعي هؤلاء في دعواهم أقدم من ذلك؛ وهي العلاقة بين أن إبراهيم عليه السلام نزل ضيفاً على رجل فقدم له خبزاً وخمراً!

لا توجد أي علاقة على الإطلاق وبينهما هذه الآماد البعيدة من السنين, وكم ذكر في التوراة

وغيرها من أماكن أخرى أن رجلاً استضاف رجلاً أو نزل عند رجل أو ما أشبه ذلك!

إجمال قول أهل الكتاب في إبراهيم عليه السلام

على أية حال الذي يهمنا في هذا الموضوع نقوله على سبيل الإجمال هو: أن أهل الكتاب بما حرفوا وبما بدلوا ابتعدوا بعقيدة إبراهيم عليه السلام, وملة إبراهيم عليه السلام -الذي اصطفاه الله واجتباه وهداه وجعله إماماً للناس- هذا البعد الشديد عن حقيقتها، وأولوا وحرفوا ليوافق مورثات نفسية أو أطماعاً دنيوية أو عقائد بدعية وثنية اختلقوها وابتدعوها.

ثم تأتي بعد ذلك الطامة الأكبر في هذا السياق, وهي أنهم يدعون الدعوة العريضة القائلة: إن إبراهيم كان يهودياً أو كان نصرانياً, وكذلك سائر الأنبياء وسائر الأسباط والأتباع.

كيف يكون الأمر كذلك؟! هذه البدع التي جاء إبراهيم عليه السلام لمحاربتها بكل أشكالها وكل صورها, وكل أنواع الوثنيات, وكل أنواع الغلو والضلال والابتداع, وجاء بالفطرة النقية الصافية تصبح كأنها جزءاً من عقائدهم, وبعد ذلك ينسب إبراهيم عليه السلام إليها, وما أحدثوا هذه الأحداث إلا من بعد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ ولذلك ينكر الله تبارك وتعالى عليهم محاجتهم في أن إبراهيم كان يهودياً ونصرانياً: ((وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ))[آل عمران:65].

لكن كونه كان حنيفاً مسلماً مهما جاء بعد ذلك, ومتى ما أنزل القرآن بعد ذلك لا جديد؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول بكل وضوح للنبي صلى الله عليه وسلم: ((اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا))[النحل:123], و ((إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ))[آل عمران:19], ويقول لأمته العظيمة المؤمنة التي جاءت: ((مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ))[الحج:78], يعني: هم لم يأتوا بأي جديد, وإنما رجعوا لما كان عليه إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه، أما أولئك فيضاهئون قول الذين كفروا من قبل بالبدع التي لا علاقة لها بأي نبي ولا بأي كتاب, ولم يوح الله تبارك وتعالى بها, ثم بعد ذلك لم يكتفوا بأنهم فعلوها وابتدعوها, وأضافوها إلى التوراة والإنجيل , وحرفوا الكلم من بعد مواضعه؛ العجب بعد ذلك أن يجعلوا هذا الدين هو دين إبراهيم عليه السلام؛ فينسبونه وهو السابق تاريخياً لما أحدثوا وابتدعوا إلى هذه الأديان البدعية المبتدعة المحدثة.

نأتي إلى هذا ونرجو أن نكون قد أوضحنا الصورة بما يتعلق بهذا الرجل, وتبقى بعد ذلك قضية عظيمة مهمة جداً في تاريخ الخليل عليه السلام, وهي موقف قومه منه, وقضية الإحراق بالنار, هذه

الآية البينة الباهرة العظيمة, التي نرجو الله تبارك وتعالى أن يهيئ لنا ولكم الحديث عنها في اللقاء القادم بإذن الله تبارك وتعالى, وننظر أيضاً ماذا قال اليهود وماذا قال النصارى عن هذه الآية البينة العظيمة الجلية؟ وكيف جاءت في كتاب الله تبارك وتعالى؛ فأين الثرى من الثريا, وأين مقام الإعظام والإجلال والاحترام والتقدير لأنبياء الله تبارك وتعالى ورسله ومقام النبوة, وأعظم من ذلك الإجلال والإعظام لمعرفة قدر الله تبارك وتعالى, ووصفه بصفات الكمال والجلال ووصفه بالأسماء الحسنى تبارك وتعالى؛ وبين الذين ارتكسوا بالأديان أو بالعقائد التي وضعوها إلى أنواع وأخلاط من بقايا الوحي والوثنيات القديمة والحديثة والبدع الضالة.

نرجو الله تعالى أن يجمعنا وإياكم على خير في اللقاء القادم؛ حيث سيكون هذا الموضوع بإذن الله موضوعنا, وأن يوفقنا وإياكم للحق والهدى, ولما يحب ويرضى إنه على كل شيء قدير.

والحمد الله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة الثانية والعشرون: حادثة إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار

العناصر:

1.مقدمة

2.الحادثة تبين حقيقة التوحيد

3.التوراة..ولا ذكر فيها للحادثة

-تحريف الأحبار

-لماذا حذفت القصة

4.الملحدين المنكرين وأثر تحريف الأحبار والرهبان

5.عظمة الإسلام والقرآن

6.خاتمة

حادثة إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار

الحمد الله رب العالمين, الرحمن الرحيم, مالك يوم الدين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين, وعلى سائر أنبيائه المختارين المصطفين.

أما بعد:

أيها الإخوة والأخوات! فلا زلنا في هذا اللقاء نتحدث -كما في اللقاءات التي قبله- عن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، على منهجنا المعتاد في المقارنة بين منهج الوحي المحفوظ وبين المناهج المحرفة, أو مناهج أهل الإلحاد في هذا الشأن.

والحادثة التي وعدنا أن نتحدث عنها اليوم حادثة عجيبة غريبة! إنها آية من آيات الله تبارك وتعالى في خلقه، ومع الأسف أن نجد كثيراً ممن يكتبون عن التاريخ القديم, وعن هذا الرجل العظيم لا يأتون على هذه الحادثة، ولا يكادون يلقون لها بالاً مع ما فيها من العظمة, ومع ما فيها من الدلالة الباهرة والبينة القاطعة، ومع ثبوتها لدى كثير من الأمم فضلاً عن إثباتها في أصدق المصادر وأوفاها؛ وهو كتاب الله تبارك وتعالى القرآن العظيم.

إنها حادثة إلقاء الخليل إبراهيم عليه السلام في النار, وإنجاء الله تبارك وتعالى له منها على أعين الملأ من الملك ووزرائه وأعوانه وكبرائه وقومه أجمعين.

حادثة إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار تبين حقيقة التوحيد

هذه الحادثة الفريدة العجيبة في التاريخ القديم تأتي لتكشف -لنا ولكل متطلع في تلك الأحقاب والحضارات والشعوب وما حدث فيها- عن الميزة العظيمة لدين الخليل إبراهيم عليه السلام, ولدين الأنبياء جميعاً؛ ألا وهو التوحيد. التوحيد الذي يبرز ويسطع ويبهر نوره وشعاعه في ظلمات الوثنية والشرك والجاهلية, والضلالات التي تموج بها الحضارات والأمم في تواريخ تلك الشعوب أجمعين؛ فمن بين ذلك الركام الهائل والظلمات المطبقة ما بين عبادة الملوك وعبادة الأشجار وعبادة الأحجار وعبادة الكواكب.. عُبدت الوحوش, وعُبدت الفروج, وعبدت الطيور, وعبدت العناصر الأربعة: الرياح, والماء, والنار, والهواء, وعبدت من دون الله تبارك وتعالى أصنام وأوثان وآلهة كثيرة جداً يضج ويموج بها التاريخ، بحيث إنك إذا نظرت لأي كتاب من كتب التاريخ القديمة من كتب الحضارات, سواء من كتب الأنثربولوجيا والدراسات الإنسانية، أو من أي مصدر من المصادر؛ فإنك تجد هذا ظاهراً جلياً, وتعجب غاية العجب, وتنظر إلى أي مدى يمكن أن تنتكس الفطرة البشرية والعقل البشري, والإنسان الذي كرمه الله تبارك وتعالى بهذا العقل وهذه الفطرة، أن تنتكس إلى هذه الظلمات وإلى هذه السوءات؛ التي لا تليق على الإطلاق بمقام الإنسان, وما أعطاه الله تبارك وتعالى من مواهب. لا تجد أعجب من هذه السيطرة الضخمة الكبيرة المتتابعة والمتوالية في كل الحضارات قبل ظهور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم, ونور الإسلام العظيم على الأرض، لا تجد أعجب من هذا التراث الضخم للوثنية إلا أمراً واحداً في نظري أنه أعجب؛ وهو: أن يكتب كُتَّاب من أهل الكتاب عن هذا التاريخ؛ فلا يكادون يشيرون إلا بإشارات طفيفة إلى أن هذا شرك, وأن هذه وثنية؛ بل أفحش من ذلك وأعجب أن يكتب كتاب مسلمون, وأن يُدرس في الجامعات الإسلامية -في شرق الأرض وغربها-

مثل هذه الحضارات, ومثل هذا التاريخ الوثني الذي لا نهاية له؛ لأنه لا يزال مستمراً في البحث, ولا أبعاد له فهو يتشعب في كل واد, ومع ذلك لا نكاد نجد إلا القليل ممن خلص فكرهم الإسلامي النقي من يقول أو يشير ويعقّب بأن هذا مناف لشهادة أن لا إله إلا الله, ولتوحيد الله، وأن هذا انتكاس وارتكاس وضلال. بل مع الأسف نجد من يمجد هذه الوثنيات, ومن يمجد هذه الحضارات, ومن يمجد أو يبتهج لاكتشاف وثن أو لاكتشاف صنم أو معرفة إله من الآلهة، ومن يتفلسف في العلاقة بين الآلهة وبين الأصنام وبين الأوثان, وأنها كانت علاقة سامية ورفيعة, وتكشف عن جوانب إنسانية عالية إلى غير ذلك.. فتعجب غاية العجب من مثل هذا التفكير, ومع الأسف الشديد أن يقع فيه بنو الإسلام؛ بل حتى من أهل الكتاب.

حادثة إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار آية عظيمة

المقصود -أيها الإخوة الكرام- أن هذه الآية العظيمة البينة الباهرة التي ذكرها الله تبارك وتعالى في كتابه, وجعلها آية متوارثة في الأجيال من بعد إبراهيم الخليل؛ أن هذه الدلالة, وهذه العظمة التي جعلها الله تبارك وتعالى لها تكفي لأن تقرع قلوب من لا يؤمنون بالله تبارك وتعالى, أو من أشركوا معه غيره، تكفي لأن يؤمن وأن يتفهم هذه القصة العجيبة كل قلب يتأمل حال هذا الفتى.

فتى وحيد في أمة تتعاون كلها ضده! الملك والحاشية؛ بل إن أباه وأهل بيته يتعاون الجميع عليه، يتفرد ويتميز عن هؤلاء جميعاً هذا الشاب وهذا الفتى بأن يشهد أن لا إله الله, وأن يكون بهذا الإيمان العظيم العميق الجليل الذي تتفق قصته -التي جاءت في المصادر الإسلامية وفي غير الإسلامية- على أنه حتى في أحلك اللحظات عندما جاءه الملك أو الملائكة وأرادوا أن يعينوه, ويقول: لا أريد العون إلا من الله.

وهي عندما تتفق عليها المصادر من هاهنا ومن هاهنا ففي هذه قمة التوحيد التي جعلت الخليل إبراهيم عليه السلام يستحق حقاً أن يكون خليل الرحمن، وأن يُتمَّ الكلمات التي أمره الله تبارك وتعالى بإتمامهن وبالوفاء بهن؛ فيستحق بذلك أن يكون إماماً للناس، كما ذكر الله تبارك وتعالى: ((فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا))[البقرة:124]؛ فاستحق الإمامة بمثل هذه المقامات العالية في الإيمان وفي الثبات، ولم ينظر إلى كونه غريباً وحيداً على هذه العقيدة, والأرض من حوله والأقرباء والمجتمع كله على غير ذلك، وفي هذا عبرة وعظة طويلة تستحق منا الوقفات الطويلة؛ لكن يكفينا الآن هذه الإلمامة العاجلة بين يدي الحديث عن المنهج المقارن في رواية هذه القصة,

وهذه الحادثة العجيبة, والآية البينة الباهرة.

حادثة إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار من الوحي المحرف.. التوراة مثالاً

عدم ذكر التوراة لحادثة الإلقاء

الشيء الملاحظ -أيها الإخوة والأخوات- أن سفر التكوين الموجود من التوراة حالياً بترجمتيه أو بأنواعه لم يتعرض لهذه الحادثة! وهنا فعلاً يثار السؤال الدائم لما يُغفل مثل هذا؟ وتفسير ذلك ممكن على ضوء ما قررناه ونعلمه من الحلقات الماضية؛ وهو أن الذين كتبوا هذا السفر ولا سيما في العصور المتأخرة كان يهمهم أمر واحد وقضية واحدة؛ هي: قضية الوعد لبني إسرائيل بالأرض, واحتكار وراثة هذه الأرض ووراثة أن الشعب هم شعب الله المختار فقط في هذه الفئة من ذرية إبراهيم عليه السلام؛ وهم بنو إسرائيل.

هذه القضية التي كانت مسيطرة على أذهانهم، فلما جمعوا التوراة أيام عزرا وقبل ذلك وبعده، تعمدوا أن يحذفوها أو لم يذكروها أو لم يهتموا بها، المهم الذي حصل وما نراه أمامنا الآن هو أنه لا يوجد في التوراة الموجودة المتداولة حالياً ما يتحدث أو ما يشير إلى هذه الواقعة.

الرد على شبهة في إلقاء إبراهيم في النار

هل ذلك لأن هذه الآية غريبة في ذاتها كما يظن البعض؟! لو أن ذلك لأنها آية غريبة أو لم تصدقها عقولهم أو لم تتواتر لديهم ربما يقال ذلك، الحقيقة أن ذلك ليس بغريب؛ فإنه موجود من الأسفار المحفوظة والموجودة في التوراة الحالية في العهد القديم في سفر دانيال حادثة مشابهة مماثلة ليست لنبي من الأنبياء؛ وإنما لثلاثة من الشباب المؤمنين بالله تبارك وتعالى في أيام بختنصر؛ رفضوا أن يعبدوا إلا الله عز وجل, ورفضوا أن يتقربوا إلى الملك، ففي سفر دانيال أن هؤلاء الثلاثة جاء بهم الملك، فأوقد ناراً وألقاهم فيها؛ فجعلها الله تعالى عليهم برداً وسلاماً، فعجب الملك وذهل من ذلك وقال: مبارك الله.. مبارك رب هؤلاء الذين أنجاهم من النار, وكان هذا كأنه علامة إيمان لبختنصر بعد أن رأى هذه الحادثة العجيبة.

إذاً: جنس الحادثة ونوعها موجود في التوراة فلمَ يوجد هذا لأتباع الأنبياء ولا يوجد لخليل

الرحمن؟! وهو لا مقارنة بينه وبين هؤلاء! التساؤل هذا يثور عندما نتأمل ونتعجب أن هناك انتقائية في كتابة ما يريد هؤلاء أن يكتبوه, وفي حذف أو تحريف ما يريدون أن يحذفوه أو يحرّفوه، على أن المصادر الأخرى غير الموجودة والمعروفة الآن -وهي المصادر التي يمكن أن نعتبرها شروحاً, ومنها المدراش أو المدرسة أو الشروح التي تضعها الأحبار والرهبان على التوراة وعلى الكتاب المقدس- نجد أن الحادثة والقصة مذكورة فيها، فإذاً ما معنى ذلك؟

تحريف الأحبار لحادثة إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار

نستطيع أن نقول: إن الأحبار والرهبان الذين كتبوا التوراة أنزلوا هذه الحادثة من المتن إلى الحاشية؛ لأنه لا يمكن أن تكون هذه الحادثة العظيمة غير موجودة في الأصل أو لم تكن فيه أو لم يخبرهم بها الأنبياء، إيراد القصة في الشروح دليل على أنها واردة عندهم؛ ولكنهم أنزلوها من المتن إلى الحاشية, ومع الزمن بقيت في بعض الحواشي دون بعض، فهنا جاء الإشكال عندما تجد أن هذه القصة موجودة لدى بعض الفرق، لم يكن التساؤل -من المستشرقين اليهود وغيرهم من دارسي الكتاب المقدس- ولم يكن الإشكال: لماذا حرفها أولئك؟ لماذا حذفوها؟ لماذا أخروها؟ الغرابة عندهم والإشكال هو: لماذا احتفظ بها هؤلاء؟ أو لماذا أوردها هؤلاء؟

فقالوا: إذاً: الكتب التي من المدراش التي أوردت هذه القصة في بيئة عربية، وبعضها من لغة عربية وفي بيئة الشرق الأوسط، فهذا في نظرهم من وضع اليهود بعد الإسلام اقتبسوا القصة من القرآن! سبحان الله!

كيف تحولت القضية إلى العكس تماماً؛ مع أنه لا يضر اليهود ولا غيرهم أن يأخذوا شيئاً من القرآن, وأن يعترفوا بأحقيته؛ لكن هم لكي يقولوا لبني إسرائيل: إن هذا لا أصل له, وإن الأصل الذي في التوراة هو الصحيح، قالوا: إذا هذا الذي نقل هذه الحكايات عن قصة النار أخذها من القرآن أو الفرقة التي تؤمن بها أخذتها من القرآن، فمعنى ذلك -القرآن عندهم غير مؤمن به- لا تؤمنوا به، إذاً فماذا بعد ذلك؟ ماذا تكون النتيجة؟! هل في هذا نتيجة يرتفع بها مقام الخليل عليه السلام؟! أو يرتفع بها مقام التوحيد أو النبوة أو الألوهية؟! لماذا تنفى هذه الحادثة؟ أو لماذا يحرص هؤلاء على أن يؤولوها وأن يحرفوها؟

لا شك أن هذا منهج غير علمي على الإطلاق، وأن الحقيقة الثابتة في هذا هو أن القوم قد وضعوا نصب أعينهم ما يتعلق بالميراث؛ ميراث الأرض, وميعاد الأرض, وبخصوصية شعب بني

إسرائيل، وتجاهلوا ما عداها وإن كانت دلالته أعظم, وأهميته أكبر فيما يتعلق بمقام الألوهية وبمقام النبوة وبحقيقة التوحيد.

فلذلك نجد ممن ناقش هذه القضية الأستاذ العقاد في كتابه إبراهيم أبو الأنبياء يقول: إذا كان في مدراش رباه يسمونه مدراش رباه ويسمون الملك الذي دار النقاش معه النمرود ، ويأتي ينقل قصة أو حادثة ليست موجودة في المصادر الإسلامية كمقدمة لموضوع الإلقاء في النار، الجدل مختصره: لماذا لا تعبد النار؟ فيقول: لأن الماء يطفئها, إذاً: لماذا لا تعبد الماء؟ فيقول: الأولى أن نعبد السحاب الذي يحمله, لماذا لا تعبد السحاب؟ قال: لأن الريح هي التي تقذفه وهكذا..

هذا لا مصدر له من القرآن ولا من السنة، بمعنى: أنه لو وجد في مصادرنا الإسلامية لقلنا: هذا من الإسرائيليات، فهذه أول مقدمة تدل على أن القضية موجودة لديهم وليست منقولة عنا.

ثم بعد ذلك ينقل العقاد كيف أن الملك تشاور هو وقومه واتفقوا على إحراقه وإلقائه في النار من منجنيق بعيد مخافة ألسنة النار البعيدة, وضرع الملائكة إلى الله أن ينجيه فأذن لهم -سبحان الله! الملائكة تضرعت إلى الله تبارك وتعالى أن ينجي خليله وعبده هذا الفتى المؤمن الموحد!- أن يعملوا لنجاته ما يستطيعون؛ ولكنه أبى أن يعتمد في نجاته على أحد غير الله.

الخليل عليه السلام أبى -كما في المصادر الإسلامية- قال لجبريل عليه السلام عندما قال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا, والثابت أنه عليه السلام قال: حسبي الله ونعم الوكيل, ونعم بها من كلمة عظيمة؛ فلما قالها تولى الله تبارك وتعالى إطفاء النار وإنقاذه منها، وأمر بقوله: ((كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ))[الأنبياء:69], بدون أن يتدخل في ذلك أحد من خلقه لا من الملائكة ولا من غيرهم.

ثم يكمل العقاد نقله فيقول: وإذا بالجمر من حوله كأنه فراش من الورد والريحان, هذا في مدراش رباه , ثم يكمل الحكاية عنه ويقول: ولم يصدق النمرود أنها معجزة من الله؛ بل قال لإبراهيم: إنها من سحرك وحيلتك -وهذا شبيه بكلام فرعون مع موسى- أما الأمراء والوزراء والحاشية فخذلوا الملك وآمنوا برب العالمين, وآمنوا برب إبراهيم عليه السلام.

فالحكاية والقصة إذاً موجودة, والدلائل أو القرائن التي فيها تدل على أنها لم تؤخذ من مصدر إسلامي؛ فليس في القرآن الكريم المناظرة الأولى التي قبل الإلقاء في النار بهذا الشكل, وليس في القرآن الكريم أن الملك قال: هذا من سحرك وحيلتك, ولا أن الملأ آمنوا, إذاً: هذا يدل على أنها كما هي

في التاريخ الإسرائيلي القديم لدى من احتفظ بهذه الحادثة موجودة، كما أنها موجودة أو مذكورة في بعض الآثار التاريخية الأخرى على أنها أعجوبة, وآية من آيات الله تبارك وتعالى، تدل على هذا المقام العالي والعظيم من مقامات التوحيد الذي اختص الله تبارك وتعالى به خليله إبراهيم عليه السلام.

سبب حذف حادثة إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار من التوراة

فإذاً: حينئذٍ من حقنا أن نفترض ونقول: إذا كان الذين كتبوا التوراة تعمدوا حذفها وإنزالها من المتن -الذي كان يفترض أن يكون لدينا الآن في الترجمة السبعينية أو غيرها- إلى الحاشية أو إلى الشروح ثم يُنحّى ويُقصى شيئاً فشيئاً، فمعنى ذلك: أن التأثير النفسي؛ تأثير العنصرية أو تأثير التعلق بالأرض وبالتراب وبالذهب وبما يقولون: إنها تفيض لبناً وعسلاً وما أشبه ذلك، هذا التعلق هو العقيدة الدافعة الأصلية التي تسيطر وتهيمن دائماً عليهم عندما يكتبون ما يكتبون أو يحررون ما يحررون؛ فيحذفون ويحرفون في كلام الله تبارك وتعالى وفي أخبار أنبيائهم.

هذه الحقيقة الواضحة -أيها الإخوة- نجدها عندما نستعرض كتب الأنبياء من حزقيال أو أشعياء أو أرمياء وغيرهم إلى آخر الأنبياء -البضع والعشرون سفراً كثير منها منسوبة إلى الأنبياء- نجد هذه الظاهرة؛ أن كل نبي ينعى على قومه ويصرخ في وجوههم قائلاً: لقد عبدتم المنحوتات, لقد عبدتم المسكوكات, لقد انتكستم في عبادتكم لغير الله تبارك وتعالى، ولكن هذا يمضي ولا فائدة فيه! يعني: سواء قال: إن الله أمرنا أن نبلغكم -كما في بعضها- أو هو أنكر عليهم فالكلام يمضي والانحراف يستمر ويتراكم؛ حتى أنهم -كما رأينا- نسبوا إلى الأنبياء الكرام أنهم من دعاة الوثنية؛ كما حدث في نسبة صناعة العجل الذهبي الرب المزعوم إلى هارون عليه السلام نفسه، وكما حدث لسليمان عليه السلام حين نسبوا إليه أن الآلهة عُبدت في بيته، وأن نساءه من الأجنبيات ومن الأمميات من الأقوام الوثنية, فجعلوه يرضى بهذه العبادة الوثنية في بيته.

هذه الحادثة عندما نتأملها لا تُلقي ظلال الشك على قصة الخليل وحده, وإنما على كثير مما في التوراة ، مما لا يقبل التعليل والتعليق أو التأمل العقلي, أو التاريخي الصحيح العلمي الموضوعي المتجرد يرفض هذا الحصر, وهذا الحكر, وهذه القومية وهذا العنصرية، ولا يجد حلاً لكثير من الثغرات الموجودة في هذا الكتاب أو في قضاياه التاريخية التي يعرضها.

حادثة الإلقاء في نظرة الملحدين وأثر تحريف الأحبار والرهبان عليهم

ولذلك عندما نستعرض المنهج الثالث -وهو منهج الملحدين المنكرين- فإن من أول ما يفاجئنا بأن كُتَّاب مَن يسمون بكُتَّاب عصر التنوير -الذين كتبوا في هذه القضايا في الكتاب المقدس- تمادوا حتى أنكروا مطلقاً وجود الخليل عليه السلام, وقالوا: إنه شخصية مختلقة لا حقيقة لها ولا وجود على الإطلاق، فلم يقفوا عند حد إنكار المعجزات؛ بل أنكروا وجود الشخصية، وما دام أن الأحبار والرهبان الذين حرفوا الكتاب رضوا لأنفسهم أن يدخلوا في هذا الطريق -تنحية ما لا يريدون أو تأخيره أو إنزالها إلى الهامش- فلا يستغرب بعد ذلك أن يُتمم الملاحدة الذين ينكرون وجود الله أو ينكرون الوحي مطلقاً أن يتموا الطريق فينكروا وجود شخصية الخليل، فيقولون: لا وجود له على الإطلاق.

الحقيقة هناك قضية وشاهد آخر ما دمنا نتلكم عن عصر التنوير والمصادر النصرانية الموجودة, ولنفترض أنها بذلك العصر ضمت المصادر اليهودية إلى المصادر النصرانية ، هذه قضية مهمة في هذا الشأن، وهي: أن الكنائس الشرقية؛ الكنيسة السريانية في المشرق وهم الذين يغلب أنهم النسطورية أو النساطرة, الذين بقيت بقايا منهم في العراق وفي بلاد الشام ، هؤلاء لم ينسوا أبداً هذه الحادثة!

وهنا أيضاً نتساءل من أين جاءت؟ يتحدثون عن النار وإنجاء الله تبارك وتعالى لخليله إبراهيم منها؛ بل لم يجعلوا ذلك حدثاً عادياً؛ وإنما جعلوا لها عيداً، وهذا العيد يجعلونه في الخامس والعشرين من كانون الثاني, ويحتفلون في هذا اليوم بهذه المناسبة، كما يحتفل اليهود بالضبط بمناسبة يوم الخروج من مصر , ويوم العبور والنجاة من ذل فرعون وعبوديته, وإهلاك الله تبارك وتعالى لفرعون، وإنجاء موسى ومن معه في المحرم.

نفس هؤلاء القوم -أي: أصحاب الكنيسة السريانية- عندما يحتفلون بذلك, ويوجد أو يشار أيضاً إلى أن شيئاً من ذلك موجود لدى بعض الصابئة وغيرهم؛ فمعنى ذلك: أن الحادثة موجودة, وأن لها مصادرها الأخرى، بمعنى آخر: هل نستطيع أن نقول: إن الغرب النصراني استمر على ما فعله أحبار بني إسرائيل من تحريف فحدث هو أيضاً ذلك وتعمد ولم يتعمق في المصادر الأخرى النصرانية أم ماذا؟ يعني: إذا كانت هذه كنائس نصرانية ومصادر نصرانية معتبرة ورثت أيضاً هذه الحادثة كما ورثها فِرق من اليهود، فمعنى ذلك: أن الذين جاءوا من بعد في الكنائس التي لا تذكر هذه الحادثة ولا تؤمن بها؛ إما أنهم أخذوا كلام اليهود مسلماً كما كان لوثر يقول: إن النصارى كالكلاب بالنسبة لليهود؛ فلا يؤخذون إلا الفتات أو ما يبقى عنهم! هل هذا كذلك؟ أو يمكن أن نقول بطريقة أخرى: لماذا لم تأت الكنائس الأوروبية والنصرانية -بالذات الإصلاحية البروتستانتية- فيستقصوا ما في الشرق عن

إبراهيم عليه السلام وعن موسى وعن المسيح, وعن أحداث كثيرة ستأتينا, ونحن الآن نقدم هذه كنماذج فقط.

بمعنى آخر: منهجية البحث العلمي أيضاً والاطلاع على كل الأحداث تقتضي منهم ألا يكتفوا ويقتصروا بما لديهم؛ بل يبحثوا بما لدى الفرق الأخرى، ولا سيما في مثل هذه التي لا يترتب عليها أي إشكالية.

طبعاً نحن عندما نتعرض إن شاء الله في لقاء قادم لقضية هجرة الخليل عليه السلام إلى الجنوب وبناء الكعبة نقول: إن لديهم فيها إشكالية؛ وهي أنهم يريدون أن يطمسوا, ويمحوا أي شيء يشير إلى العرب؛ لكن إثبات هذه الحادثة لا إشكالية فيها من هذا الشأن؛ لأنها تتعلق بذات الخليل, وتزيد عظمته عظمة، وتزيد شخصيته عند المؤمنين به من أكثر شعوب أهل الأرض اليوم تعلقاً وتأثيراً بهذا الرجل العظيم.

إذاً: لماذا نُحِّيت؟ فلنفترض أدنى الفروض هو: أن هذا خلل وتقصير في المنهج العلمي البحثي فيما يُورث عن الأنبياء السابقين، هذا وحده كاف في أن الحادثة أو أن التاريخ الحقيقي للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يأخذ ما ينبغي له أن يأخذ من التمحيص والتدقيق والبحث.

حادثة إلقاء إبراهيم عليه السلام في القرآن

وهنا أيضاً نعود فنقول: تبرز عظمة الإسلام والقرآن, وأن نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه جاء بهذا الوحي من عند الله تبارك وتعالى، وإلا فما الذي أدرى هذا النبي العربي الأمي في البيئة الأمية في هذه الأماكن النائية من العالم عن الحضارات في ذلك الوقت! أن يأتي ويتحدث عن هذه الآية العجيبة العظيمة, وبأسلوب عظيم جداً, لو تأملنا مثلاً قول الله تبارك وتعالى كما في سورة الشعراء: ((وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ))[الشعراء:69], لاحظ من أول ما تفتتح القصة ليست من صُنع النبي صلى الله عليه وسلم، ولا من أحد كتاب سيرته الذين كتبوا عنه؛ بل خطاب من رب العالمين تبارك وتعالى, رب هذا الكون والوجود كله, والأمم جميعها المؤمن منها والكافر، يخاطب الذي نقل إلينا هذا الخطاب؛ وهو الرسول الخاتم المصطفى صلوات الله وسلام عليه يقول: ((وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ))[الشعراء:69].

هذا وحي من عند الله تبارك وتعالى لا علاقة له بأن يفترض البشر شيئاً من ذلك كما يزعم أهل

الكتاب, وكما يدَّعون، هناك نماذج حقيقة مؤذية من المزاعم الكاذبة التي يدعون أنه صلى الله عليه وسلم أخذها إما عن بعض النصارى كورقة بن نوفل مثلاً أو غيره ويتلقى عنه كما ذكر الله تبارك وتعالى: ((إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ))[النحل:103]، لو أنه كان كما يزعمون فلمَ يفتعل هذه القصة؟ ولمَ يأتي بها؟! واقع الحكاية من كتاب الله تبارك وتعالى ذاته تنفي ذلك نفياً مطلقاً، الله هو الذي قال: ((وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ))[الشعراء:69], ثم جاء بأمر ونبأ لا يعلمه صلوات الله وسلامه عليه، ولا كان يدري ما الكتاب وما القرآن, ولا يدري عن أخبار الأولين, ولا يدري عن أخبار المستقبل أيضاً الذي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم عن إبراهيم عليه السلام، فإنه صلوات الله وسلامه عليه أخبرنا عن حادثة في المستقبل ستكون يوم القيامة -كما في الصحيح- عندما يبعث الله تبارك وتعالى الخلائق أجمعين فيأتي إبراهيم عليه السلام فيقف بين يدي رب العالمين ويقول: رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون, وأي خزي أعظم من أن تدخل أبي النار؟ فيخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الحادثة, وكيف في النهاية أن الله تبارك وتعالى يأمر بأن يُمثل في ذِيخ أو ذَيخ وهو الضبع الصغير، يعني: تنتقل صورة أبيه البشرية إلى شكل آخر ثم يرمى في النار؛ لأن الله تعالى يقول: إني قد حرمتها على الكافرين.

المقصود: أنه ليس هناك حاجة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم يتحدث عن قصة سبقت لإبراهيم الخليل, ولا عن قصص سيأتي له من عند نفسه، ولا سيما أن كلا القصتين مدعاة للتكذيب لدى اليهود , يعني: قابلة للإنكار من اليهود بسبب أنهم دائماً يعادونه ويحاجونه, والمشركون والملحدون في قديم الزمان وحديثه، فما الذي يجعل إنساناً يأتي بما يكذبه به الناس، والمفترض عادة في أي إنسان يأتي بفكرة أن يأتي بما يوافق ما عليه الناس في الأمور التي لا تهمه، حتى يوافقونه فيما هو يريد أن يدعوهم إليه إن كان يدعوهم إلى نفسه أو إلى مكانة له أو إلى عقيدة أو رأي، أما أن يأتي هذا الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالأحداث السابقة مما في الماضي البعيد حوالي قبل ألفين وثمانمائة سنة تقريباً ثم ماذا سيكون يوم القيامة! فهذا يدل على أنه ليس من عنده صلوات الله وسلامه عليه؛ وإنما تلا نبأ إبراهيم الخليل كما أمره ربه تبارك وتعالى, وبلغه وأداه إلينا كما جاء إليه.

المقارنة بين الوحي المعصوم والوحي المحرف في حادثة إلقاء الخليل في النار

فعلينا بعد ذلك نحن بعقولنا وبفهمنا وباجتهادنا أن نتدبر كلام الله تبارك وتعالى المحفوظ

والمعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن نتأمل ونقارنه بما جاء في الكتب القديمة كما أشرنا, حيث هاهنا لا يذكر شيء, أو ما جاء في المدراش أو المدراس، وما جاء عند الكنيسة السريانية وغيرها من فرق النصارى، وأن نتأمل أيضاً ما يقوله التاريخ الآثاري والحضاري عن هذه الواقعة، وفي النهاية سوف نخرج بدون أي شك إلى أن هذا الكلام من عند الله تبارك وتعالى، وأن هذه الآية العظيمة إلقاء إبراهيم الخليل عليه السلام في النار تظل آية من آيات الله تبارك وتعالى، تتحدث عنها الأجيال والأجيال, وتتردد في المحاريب, ويؤمن بها المؤمنون, وتتصدع لها قلوب المنافقين والملحدين إلى قيام الساعة.

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفقني وإياكم -أيها الإخوة والأخوات- إلى اتباع ملة أبينا إبراهيم عليه السلام, ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم, ويثبتنا على الفطرة القوية والملة المستقيمة ما دمنا, ويميتنا عليها؛ إنه على كل شيء قدير.

والحمد الله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحلقة الثالثة والعشرون: رحلات إبراهيم عليه السلام

العناصر:

1.المقدمة.

2.ما يتحاشاه الشراح للتوراة

-لماذا ينكرون أنه تجاوز فلسطين إلى بلاد العرب.

3.أمثلة للتحريف

4.بيان مقدرا تحريف القصة من خلال المقارنة والتأمل

5.خاتمة

رحلات إبراهيم عليه السلام في الأرض

الحمد الله رب العالمين, الرحمن الرحيم, مالك يوم الدين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين, وعلى سائر أنبياء الله المختارين المصطفين. أما بعد: أيها الإخوة والأخوات! وفقني الله وإياكم لما يحب ويرضى؛ فإن حديثنا في هذا اللقاء هو تتمة لما تقدم في اللقاءات التي قبله عن الخليل إبراهيم عليه السلام. الموضوع اليوم هو موضوع: رحلات إبراهيم الخليل عليه السلام في الأرض.

ثبوت تنقل إبراهيم عليه السلام من بلاد إلى بلاد

هذا النبي الكريم الذي جعله الله تبارك وتعالى إماماً للناس تنقل من بلاد إلى بلاد؛ من العراق في الجنوب إلى الشمال؛ شمال غرب العراق أو ما بين العراق وبلاد الشام ، إلى أرض فلسطين وإلى مصر , وإلى جزيرة العرب في الحجاز.

يمكن أن يكون التنقل أو الترحال لأي رجل يُؤرخ ويكتب عنه أمراً عادياً مألوفاً، ولا سيما إذا

اتفق كل من يكتب عنه على أنه كان يرتحل من مكان إلى مكان، فالتنقل والترحال لا يثير أي مشكلة, وإذا أُتفق على أنه تنقل في أماكن عديدة متباعدة؛ فلا يبقى هنالك إشكال إذا تفردت إحدى المصادر بحديث عن هجرته أو رحلته إلى مكان آخر معقول وقريب, ولا يتنافى عقلاً ولا شرعاً مع التنقل في الأماكن الأخرى.

هذه البساطة وهذا الموضوع العادي جعل منه أهل الكتاب والغربيون المستشرقون والمؤرخون وأمثالهم أمراً عجيباً، وحقيقة أن الباحث العلمي من أي دين أو من أي قومية يدهش ويندهل عندما يرى هذا العالم الغريب, والهالة الغريبة التي تقترن برحلات إبراهيم الخليل عليه السلام.

عندما تريد أن تدخل في هذا الموضوع, وتريد أن تجمع الخيوط والأطراف والحقائق تدهش لهذا التخبط! عالم من التناقضات ومن التخبطات ومن التأويلات ومن التحريفات, يندهش الباحث العلمي عندما يجد فيما يقرره هؤلاء الذين يكتبون فقط بروح واحدة وبعامل واحد وبدافع واحد هو: إثبات الوراثة والخلافة, وحكرها وحصرها من إبراهيم الخليل في ذرية معينة, ونفي كل ما عدا ذلك؛ بل وصل -كما رأينا في اللقاءات الماضية- إلى أنه حتى لو نفي عن الخليل المآثر والفضائل العظيمة فلا يهمهم، الذي يهمهم هو هذه الحقيقة الواحدة, والتي تتجلى في مرات كثيرة, وفي كل لقاء تقريباً؛ لكن اليوم نجد تجليات أعجب وأعجب! كيف ذلك؟!

ما يتحاشاه شارحوا التوراة في رحلات إبراهيم عليه السلام في الأرض

نحن نجد أن التوراة ومن جاء من الشراح ليفصلوا الأماكن المذكورة فيها على الطبيعة؛ نجد أن هناك فرقاً عظيماً وتبايناً بين انتقال إبراهيم عليه السلام من الجنوب أور الكلدان , نشير هنا فقط أن المصادر الإسلامية والعربية تقول: إنها كوثة أو ما أشبه ذلك في جنوب العراق, ولا يهم الاسم؛ لكن هم يقولون: إنها في جنوب العراق باتفاق ثم الانتقال إلى حران , ثم نجد بعد ذلك الانتقال إلى أرض كنعان في الغرب, ثم إلى أرض فلسطين ثم إلى مصر، هذه التنقلات تستغرق على تقديرات المؤلفين لدائرة المعارف الكتابية : يرون أن إبراهيم عليه السلام ارتحل مع أبيه من مسقط رأسه إلى الشمال الغربي في حران مسافة ستمائة ميل, -لاحظ المسافة- ولم يستغربوا ذلك -ولا غرابة في ذلك- ثم بعد ذلك لما أمره الله تبارك وتعالى أن يتجه إلى أرض كنعان ارتحل من هنالك إلى أرض كنعان فتبعد أربعمائة ميل, بعد ذلك لنا نحن أن نتصور المسافة من أرض كنعان إلى أرض مصر , حيث قابل الفرعون هناك, ثم رجع مرة أخرى، رحلات متوالية ومتتابعة يمكن أن نقدرها جميعاً بمئات الأميال أو

أكثر, يعني: ألف وثلاثمائة إلى ألف وأربعمائة أو ألف وخمسمائة ميل.

فقط عند منطقة معينة من هذه الرحلات نجد الأرقام تختلف, ونجد النظرات تختلف، ونجد الخرائط تحرف, ونجد سياق القصة يتناقض، ثم يتناقض في مواضع أخرى مع يعقوب, ثم يتناقض في مواضع أخرى عندما يذكر إسماعيل! وهذا عندما يأتي الحديث عن رحلته عليه السلام إلى الجنوب، إلى جبال فاران إلى التيمن أو اليمن , هنا نجد التناقض والاختلاف والاضطراب, ونجد أنهم أطبقوا أو كادوا يطبقون جميعاً على أن هذه المنطقة ما هي إلا عشرات الأميال لا تزيد عن ثلاثين ميلاً أو أقل، والجنوب عندهم هو في سيناء نفسها؛ في بئر سبع في صحراء النقب , وكل القصص التي جاءت عن الجنوب جعلوها هاهنا، وجعلوا مقام إبراهيم -الذي يعترفون أنه المقام- والبيت -الذي يعترفون أنه بيت الله- منطقة مجهولة أو قرية مهجورة أو مكان ما؛ بل في عدة أماكن كما سوف نرى إن شاء الله تعالى.

وكل ما حدث من أحداث ووقائع فهي تقع دائماً في نطاق هذه المنطقة؛ بحيث يصبح الحديث عن أي شيء إلى الجنوب أكثر من ذلك إخلالاً أو تجاوزاً أو لا صحة له على الإطلاق, وهكذا أجيال بعد أجيال تتوارث حقائق تاريخية واضحة وجلية, ومع ذلك تطمس أسماء الأعلام وتحرفها وتغير في أسماء الأماكن والخرائط والمسافات، وتُغيّر في روابط القصة وسردها، كل ذلك لكي تحصر كل هذه الأعمال والرحلات في فلسطين وفي جنوب فلسطين.

سبب إنكار اليهود خروج إبراهيم من فلسطين إلى بلاد العرب

وهنا سؤال: لماذا ينكر أنه تجاوز من جنوب فلسطين إلى بلاد العرب؟ إلى بلاد الإسماعيليين؟!

كل ذلك حتى لا يبقى أي شيء يدل على أنه بنى الكعبة البيت الله الحرام؛ بيت الله الحقيقي، أو أنه زار ابنه إسماعيل في هذا المكان, أو أن ماء العين -ماء الحياة- الذي نبع من تحت أرجل إسماعيل هو في مكة ، أو أن وادي البكاء هو مكة أو بكة ، أو أن الأسماء الأخرى التي وردت لمكة , مثل: بكة أو مثل ميشة أو مثل مشة و فاران وما أشبه ذلك أو ما عبر عنه بـ اليمن كلها لا حقيقة لها.

وبالذات عندما نجد أن المسألة -إذا أردنا أن نأخذ الموضوع من أوله- تتقدم بكثير على قضية ما يظن هؤلاء عن قصة إبراهيم الخليل وما بعد إبراهيم الخليل, بمعنى: اختيار الله سبحانه وتعالى ووعد الله سبحانه وتعالى للبلد الحرام ولإبراهيم, ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم تأتي في سياقات كثيرة جداً -نقول: من كتبهم- كما في إنجيل برنابا وغيره فليرفضوا الاعتراف به، المهم: أن

هذا موجود في مصادر لا علاقة لنا بها، ومن أقوى المواضع التي تأتي من بعده ما جاء في سفر التثنية وهي من أعظم البشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم، في أول الفصل الثالث والثلاثين يقول: أقبل الرب من سيناء وأشرق من سعير, وتجلى من جبل فاران, ويأتي حبقوق بنبوءته فيبين ويقول: الله يأتي من تيمان الله, والقدوس من جبل فاران.

ومع ذلك نلحظ هنالك تجاهلاً مطلقاً لتيمان أو فاران, وتحريفاً لها, وفي مواضع أخرى يأتي ذكر أدوم.

نحن نلاحظ عندما يتكلم عن تيمان أو تيمون فهي اليمن ، وعندما يتحدث عن فاران فيأتي أنها في الجنوب، وعندما يقول: ذهب إلى الجنوب فيتكلم عن الجنوب, وعندما يقول: أدوم فهي في الجنوب الشرقي, وعندما يتكلم عن بلاد العرب أو عن الصحراء.. في كل الأوصاف هذه نجد أن هناك ما يدل على اتجاه نحو الجنوب؛ لكنه جنوب بعيد، حُرّف كله ليكون فقط جنوب فلسطين .

أمثلة لتحريف اليهود لرحلات إبراهيم عليه السلام في الأرض

عندما نجد أن الأدوم مثلاً حتى في المصادر الأجنبية نجد أن أدوم -هكذا ترسم- تكون بلاد أدوم إلى الجنوب الشرقي, وهناك نجد صحراء العرب خلفها مباشرة؛ لكن عندما يأتي الحديث مثلاً في قصة سليمان عليه السلام عن ملكة اليمن أو ملكة التيمن كأن الكُتّاب الذين حرفوا هذا وبدلوه نسوا أنفسهم؛ فيتكلمون أنها ملكة سبأ , وأنها جاءت من اليمن ، لا اختلاف ولا تعارض بين أن يقال: إنها ملكة اليمن أو ملكة الجنوب أو ملكة سبأ ؛ لأن الجميع يقع في الجنوب.

بمعنى آخر: كلمة الجنوب إذا جردناها من الإشكالات التي وضعها فيها هؤلاء ونظرنا إليها نظرة مطلقة ممكن أن تطلق على الجنوب القريب وعلى الجنوب البعيد؛ فمثلاً: نقول: إذا أردنا أن نتكلم عن تركيا - القسطنطينية - فأين تقع منها دمشق ؟ نقول: في الجنوب, أين تقع منها عمان؟ في الجنوب, أين تقع منها مكة ؟ في الجنوب, ولو أن قرية أو مدينة تبعد عن جنوبها عشرة أميال أو عشرين ميلاً لقلنا أيضاً: تقع إلى الجنوب من إسطنبول أو من دمشق أو من بغداد وهكذا..

الجنوب إذا هو جهة، وإذا جاء اليمن حدد هذه الجهة, وأن التيَمُّن التيمَن أو اليمن يحدد الجهة بأنها جهة بعيدة، فلا يمكن أن يقال: إن ذكر اليمن تنتقل بذاتها إلى بئر السبع أو إلى النقب! بل الحقيقة أننا نشاهد تحريفاً في نفس الكلمات أو إضافة.

فمثلاً: نجد في بعض الترجمات للعهد الكتاب المقدس كما في هذه الترجمة المشهورة المتداولة كثيراً -وهي لجنة من مختلف الطوائف المسيحية وطبعت 1993م كما في مقدمتها- عندما يتحدثون عن رحلات إبراهيم الخليل عليه السلام, يقولون: إنه انتقل إلى بيت إيل, وهناك نصب خيمته, وهناك بنى مذبحاً للرب, ثم أخذ يرتحل جنوباً نحو صحراء النقب.

لاحظوا كلمة: نحو صحراء النقب هذه ليست موجودة في الترجمات الأخرى، الذي في الترجمات الأخرى: وأخذ يرتحل ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب, بمعنى: إلى أدوم أولاً ثم إلى مدين يعني: إلى الجنوب الشرقي -كما رأينا في الخارطة- ثم بعد ذلك إلى الحجاز ارتحالاً متوالياً، فأضيفت: نحو صحراء النقب ؛ لكي تصرف المعنى كلية، فمعنى الجنوب تغير, ومعنى بيت إيل تغير، لاحظ لو حذفنا هذه الإضافة التي أضيفت إلى هذه الترجمات وظللنا نقول: إن إبراهيم عليه السلام أراه الله سبحانه وتعالى مكان المذبح, وذهب إلى مكان بيت الله. وهذا المكان -كما سنجد في مواضع أخرى- هو المقام, يقولون: إنه هو المكان -كما في قصة يعقوب- مقام إبراهيم، وهنالك بنى مذبحاً أو ذبح للرب تبارك وتعالى، ثم نجد أن هذا هو في الجنوب, فأين يكون ذلك؟

يكون بدون أي شك وبدون أي تردد في مكة المشرفة، كما جاء في المصادر -لا نقول: المصادر الإسلامية؛ بل نقول: في التاريخ المتواتر لدى العرب جيلاً بعد جيل, وأمة بعد أمة- أن هذه البلدة الطاهرة المحرمة: مكة المشرفة بنيت على ماء زمزم, وبنى الكعبة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام, وهذا بإجماع العرب، ولا يوجد مدينة تذكر وتعظم وتقدر عند العرب ويُحفظ تاريخها مثلما حفظ تاريخ هذه المدينة، وهذا إجماع مطبق، مثلما نجد الآن أن أي مدينة وأي حاجة تاريخية تُعلم بالتواتر القطعي للأمم لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يجادل فيها.

فهذا الشيء المقطوع به حوّرته كلمة واحدة التي هي (النقب) إلى أن يضطروا إلى تحريف بيت إيل , ويقولون: إن بيت إيل مدينة مجهولة, أو بيت إيل قرية في شكيم أو قريب من نابلس .

الواقع: أن أي ناظر إلى اللغة العربية القديمة أو ما يسمى اللغات السامية يجد أن إيل بدون أي اختلاف بينهم معناها: الله تبارك وتعالى، وظل ذلك في أسماء الملائكة والأنبياء؛ مثل: جبرائيل وميكائيل، وإسماعيل وإسرائيل، فالله سبحانه وتعالى يطلق عليه في اللغة القديمة: إل أو إله أو إيل أو إلهو أو ألوهو, وكلها تدور حول هذا الاشتقاق على اختلاف اللهجات من آرامية أو عبرية أو كلدانية أو اللغة العربية القديمة؛ بل حتى في الحديثة كما جاء عن الصديق أبي بكر رضي الله تعالى عنه حين

قال: [إن هذا الكلام ما خرج من إل], يعني: ما قيل أو ما نقل من قرآن مسيلمة الكذاب.

فإذاً: بيت إيل التي في الجنوب, والتي أقام إبراهيم الخليل عندها المذبح والتي هي مقام إبراهيم كما في قصة يعقوب لا ينبغي أن يكون هناك أي إشكال فيها!

إن هناك قضية مهمة جداً كما ذكر الأستاذ العقاد , وهذه من العبارات التي يقولها, وكما نعلم: العقاد لا يمكن أن يتهم بأنه متحيز للإسلام أو للعرب, بمعنى: أنه غير موضوعي في أبحاثه على الإطلاق، أقل المصادر نصيباً من البحث في كتاب العقاد هي المصادر الإسلامية, والأخطاء التي ارتكبها لا مجال للتنبيه عليها؛ لكن لقلة اطلاعه وتأمله أو تدقيقه في القضايا الدينية العقدية الإسلامية، أما فيما يتعلق بالكتابات الكتابية أو التاريخية الأخرى فقد توسع وأفاض فيها، ما الذي يقوله الأستاذ العقاد في هذا المقام؟

العنوان الذي جعله عندما ذكر رحلات الخليل عليه السلام: الجنوب, قال: انفردت المصادر الإسلامية بأخبار إبراهيم في الحجاز -طبعاً نحن لا نقول: انفردت؛ بل نقول: حُرّف ما في الكتب الأخرى عن رحلته عليه السلام إلى الحجاز - يقول: وعلق بعض المؤرخين الغربيين على هذه الأخبار بشيء كثير من الدهشة والاستنكار -دهشة واستنكار هذه عبارة العقاد- كأن هذه المصادر الإسلامية قد نسبت إلى إبراهيم خارقة من خوارق الفلك, وأسندت إليه واقعة بينة البطلان بذاتها, وغير قابلة للوقوع.

يعني: محال من المحالات العقلية أو الطبيعية أن إبراهيم عليه السلام في نظرهم أن يكون قد ذهب إلى الجنوب على الإطلاق, لماذا؟ يقول: وواضح من أسلوب نقدهم أنهم يكتبون لإثبات دين وإنكار دين، ولا يفتحون عقولهم للحقيقة حيث تكون, يعني: لا تهمهم الحقيقة حيث تكون؛ بل نقول: يكتبون لإثبات أن الحق كله في كتاب ما، في موضع ما، ويحرفون كل ما ورد فيه لإبطال كتاب آخر من كتب الله تبارك وتعالى.

هذان الكتابان العظيمان التوراة والقرآن اللذان اقترنا في مواضع كثيرة من كتاب الله تبارك وتعالى -أما الإنجيل فهو تابع أو فرع عن التوراة- وتطابقا في أمور كثيرة جداً ما لم يحرف من التوراة، يأتي هؤلاء المحرفون فيجعلون واحداً منهما هو وشروحه وتفاسيره بتأويلاتها الحقيقة المطلقة، وأما الآخر فهو وما يتبعه من أحاديث صحيحة أو تفسيرات صحيحة هو الخطأ المطلق والباطل المطلق؛ فلا مجال لديهم لمجرد افتراض أمر عادي جداً من عاديات البشر؛ وهو أن إبراهيم الخليل عليه السلام

قد توجه إلى هذا البلد الحرام بعد أن أسكن إسماعيل عليه السلام بأمر الله تبارك وتعالى، ومن ثم نجد القصة منسوخة مشوهة؛ لكن البقايا التي فيها كافية لإثبات الحقيقة.

تحريف اليهود لرحلة إبراهيم عليه السلام إلى مكة

فلنقرأ القصة كما جاءت في الكتاب المقدس عندهم، ونستطيع بإذن الله تبارك وتعالى أن نقارن وأن نتأمل مقدار التحريف والبعد عن الحقيقة.

في التكوين في الباب الحادي والعشرين يقول الكتاب: ورأت سارة ابن هاجر المصرية أنه يلعب مع ابنها إسحاق -وقضية اللعب لا تهمنا؛ بل المهم أنها رأت إسماعيل وإسحاق- فغارت -يعني: أخذتها الغيرة الشديدة مِمَن كما يزعمون؟- فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها؛ فابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق.

فهنا نلاحظ أن كل ما في أدمغتهم وفكرهم وكل ما يهمهم الإرث والميراث والوعد والميعاد، فليست القضية عندهم أن نبياً كريماً يولد له نبيان كريمان: غلام عليم، وغلام حليم، فلا ينظرون لشيء من هذا؛ بل القضية عندهم الإرث والميراث.

ثم يقول الكتاب: إن إبراهيم تألم من هذا الكلام, وتعجب؛ ولكن أوحى إليه الله تبارك وتعالى حتى يذهب عنه الألم والتألم وقال: لا يسوءك هذا الكلام -يعني: يا إبراهيم- اسمع لكل ما تقوله لك سارة , واذهب بابنك حيثما تقول, -يعني: الخليل عليه السلام رأى أنه ليس عدلاً أن يطرده وأمه؛ لكن الله أوحى إليه: أن امتثل لما تقول لك- فبكر إبراهيم في الغد وأخذ خبزاً وقربة ماء فأعطاهما لهاجر, ووضع الصبي على كتفها وصرفها وأعطاها؛ فمضت تهيم على وجهها في صحراء بئر سبع, -لاحظ هناك: النقب أضافوها إضافة, وهنا أضافوا بئر سبع؛ حتى نُرجع القصة كلها إلى فلسطين - ونفد الماء من القربة؛ فألقت هاجر الصبي تحت إحدى الأشجار فمضت فجلست قبالته على بعد رميتي قوس وهي تقول في نفسها: لا أريد أن أرى الولد يموت.. وأخذت تنتحب وتبكي.. فبعد ذلك سمع الله تبارك وتعالى صوت الصبي فنادى ملاك الله -أي: الملك- هاجر من السماء, وقال لها: ما لك يا هاجر ؟ لا تخافي, سمع الله صوت الصبي حيث هو, قومي فاحملي الصبي وخذي بيده فسأجعله أمة عظيمة, وفتح الله بصيرتها فرأت بئر ماء فمضت إلى البئر وملأت القربة ماء وسقت الصبي, وكان الله مع الصبي حتى كبر فأقام بالصحراء. أين؟ بالصحراء, ولاحظنا في الخريطة التي أوردها المصدر التي

ترجمته المعين على فهم الكتاب أن أدوم وعلى جنوب أدوم التي هي منطقة شرقي الأردن الصحراء.

وكان رامياً بالقوس -وهذا جاء ثابتاً في الحديث- وحين أقام بصحراء فاران أو فارن زوّجته أمه بامرأة من أرض مصر.

إذاً: فارن والصحراء ارتبطت ببئر سبع! إذاً: القصة كلها هنالك, لا يشار بأي حال أو بأي شكل من الأشكال لا إلى بناء بيت الله ولا إلى الكعبة أو إيمان هاجر .

رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مكة من المنظور الإسلامي

القصة الإسلامية المقابلة لهذا نجدها في غاية السمو الإيماني العجيب؛ توكل إبراهيم على الله سبحانه وتعالى وثقته في الله؛ حيث أمره أن يضع ذريته في هذا المكان المقفر الموحش؛ فتوكل على الله سبحانه وتعالى, توكل هاجر عندما قالت: آلله أمرك بهذا؟ فقال: نعم. قالت: إذاً لن يضيعنا؛ توكل ويقين وإيمان.

الأمر الآخر الأعجوبة! أن في بلاد العرب أهم شيء هو الماء؛ فينبع من تحت رجلي هذا الطفل, ماء يختلف عن كل ماء على وجه الأرض؛ إنه ماء زمزم, ماء مقدس مفضل, إنه (طعام طعم وشفاء سقم)، حقيقة ثابتة في التاريخ أنه يغني حتى عن الطعام؛ ولذلك هذا الطفل أكرمه الله وأكرم أمه بهذا الأمر، ثم بعد ذلك أصبح رامياً بالقوس، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لقوم من الأنصار من أسلم: (ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً).

وذكر -كما جاء في مواضع أخرى- أنه كان يصيد الوحوش والطيور، ويعيش هو وامرأته على هذا، ثم تأتي القصة إن شاء الله نفصلها فيما بعد ذلك عند الحديث عن بناء البيت.

مصادمة تحريفات الأحبار وغيرهم للوحي المعصوم

المقصود الآن والوقفة التي ينبغي أن نتأملها ما دمنا هنا هي حول: كيف تنتكس العقول البشرية؟! أمر محزن مؤلم أن يطبق عدد كبير جداً من الأحبار ومن الكتبة ومن المؤرخين فيما بعدهم على إنكار حقيقة مصادمة لحقائق في كتاب الله تبارك وتعالى, والمتواتر بالتاريخ البشري كله، كل ذلك من أجل إقصاء أو إبعاد أمة عظيمة وشعباً عظيماً عن أي مكرمة وعن أي فضيلة، يحاولون بقدر الإمكان, ومع

ذلك فما بقي في كتبهم كاف لأن يكون كما جاء: أمة عظيمة جداً جداً, واثنا عشر رئيساً يلد, ويسمون عرباً, ويسمون إسماعيليين, وأنه يكون لهم شأن عظيم؛ كلاهما أبناء الخليل عليه السلام، لماذا هذا الابن يعامل هذه المعاملة الزائدة, وينسب إليه كل فضل, والابن الآخر وأبناؤه لا يكادون يأتون عليهم ولا لذكرهم إلا لماماً؟

لماذا إذاً تحرف الكلمات كلها؟! -كما أشرنا- المصطلحات التاريخية, المصطلحات الجغرافية لماذا لا تكون المسافة نفسها؟! يعني: إذا كان إبراهيم عليه السلام قد قطع ألف ميل من جنوب العراق إلى أرض كنعان فما المشكلة أن يقطع نحو نصف هذه المسافة إلى أرض الحجاز ! لماذا لا يكون المقام الذي يعترفون به -مقام الله- أو المذبح هو المقام المعروف.. لماذا لا يكون الذبيح هو إسماعيل, كما سيأتي إن شاء الله في الحلقة القادمة.

بمعنى آخر: حقيقة كما بدأنا هذا اللقاء نقول: إننا أمام عالم متشابك من التحريفات ومن التأويلات الخاطئة, ومن اعتساف الحقائق, ومن ليّ القضايا؛ بحيث تصبح عندما تقرأ هذا الكلام في أصله في الكتاب الموجود لديهم أو في شروحاته تجد الغموض والاضطراب والتناقض، وتجد ما تجزم قطعاً أن وراءه ضغائن وأحقاد نفسية, وأنه لم ينطلق أبداً من حقائق علمية أو من حقائق موضوعية أو من بحوث من يتحرى الحق والحقيقة في ذلك.

نحمد الله تبارك وتعالى أن الذين قاموا وكتبوا في هذا وقليل من المستشرقين أو من المؤرخين الآخرين المنصفين لم يجدوا أي غضاضة في أن يقال: إن هذا الرجل أي: الخليل المبارك إبراهيم عليه السلام هاجر إلى الجنوب، وأنه بنى لله تبارك تعالى بيتاً في الأرض التي هي أبعد عن الوثنيات التي يسيطر عليها الملوك؛ عندما تكون الوثنيات كما في أرض العراق و الشام و مصر تحت سيطرة الملوك الوثنيين يصعب جداً إقامة بيت الله تبارك وتعالى على التوحيد والعبادة؛ لكن في أرض العرب أرض اليمن أو التيمن المشهورة عندهم بالحكمة أو في جبال فاران حيث لا يوجد تسلط إمبراطور أو ملك يفرض على الناس العقائد, حيث توجد قبائل حرة؛ بل أصلاً كان مكاناً مقفراً جاءت إليه قبائل مهاجرة من اليمن فتنزل عنده.

إذاً: هذه أجدر الأماكن, ولا سيما إذا اتفقنا نحن وهم -طبعاً نحن نتفق في هذا- أنه لم يخط خطوة إلا بوحي من الله, وأنه لم يهاجر عليه السلام إلا بوحي من الله، أليس ذكر بناء البيت والهجرة إلى الجنوب وإلى بناء الكعبة وما جاء فيها من العجائب, أليس هذا أجدر من القصص الطويلة عن قتال

الملوك الذي ليس هناك فائدة من ورائه إلا المحافظة على الغنم! أو لقائه لأبي مالك وأمثاله, أو تنقله عليه السلام من بلد إلى بلد وكأنه مجرد طلب للعيش أو طلب للزرق! لماذا لا نجعل رحلات إبراهيم الخليل عليه السلام كما ينبغي أن تكون, وهي رحلات لإقامة الدين والتوحيد! فأنذر شرقاً وأنذر غرباً وحاول هنا وهنا, ثم في الأخير جاء إلى أفضل بقعة هيئها الله تعالى له وبوئها له واختارها له؛ ليبني منها المكان الذي سوف ينطلق بإذن الله تبارك وتعالى منه الإيمان والخير والبركة إلى قيام الساعة, كما جاء في نبوة حبقوق وغيره عندما يقول: الله يأتي من تيمان والقدوس من جبل فاران.

الله يأتي من تيمان, يعني: نور الله ودين الله, كما قال قبل ذلك: يتجلى من جبل فاران، (والقدوس من جبل فاران)، القدوس الذي هو النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهذه بشارات عظيمة من جملة بشارات كثيرة جداً سنأتي عليها إن شاء الله تبارك وتعالى.

الحقيقة أن هذه الحلقة ما هي إلا مدخل أو بداية للدخول في هذه الغابة المتشابكة من التحريفات والتأويلات لحقائق واضحة، سوف نستمر إن شاء الله تبارك وتعالى في عرضها هاهنا, وعند ذكر موسى عليه السلام وعيسى، بمعنى: أننا سنرى في كل مرة أن هذا التحريف وهذا التأويل ومحاولة الإقصاء والتهميش ما أمكن للعرب وللإسلام ولنبي الإسلام ولنبي آخر الزمان؛ أنها محاولة متعمدة مقصودة, وأن أي إنسان ينظر نظرة متجردة موضوعية تاريخية فإنه لا بد وأن يؤمن حقاً بما للخليل من مكانة صلوات الله وسلامه عليه؛ بل ما لمحمد صلى الله عليه وسلم من بشارات وذكر في الكتاب القديم في العهد القديم وأيضاً في الجديد، وبما تدل عليه كل دلالات التاريخ الآثارية المكتوبة المتواترة في أخبار القوم؛ من أن هذا هو الدين الذي سوف يظهره الله تبارك وتعالى على الدين كله، ويصدق عليه كما قال صلى الله عليه وسلم: (أنا دعوة أبي إبراهيم). دعا الله تبارك وتعالى أن يبعث في هذه الأمة -العرب- رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فكان صلوات الله وسلامه عليه كذلك.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وإياكم جميعاً من المؤمنين الصادقين المتبعين للحق المبتعدين عن الهوى وعن الضلال والتضليل؛ إنه سميع مجيب.

والحمد الله رب العالمين, وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد, وعلى آله وصحبه أجمعين.